عِبَادَاتُ القُلُوبِ

فِي ضَوْءِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولي
١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢٢م

رقم الإيداع: ٢٩٦٥٦ / ٢٠٢١ م
الترقيم الدولي: ٩٧٨ـ٩٧٧ـ٩٩٧ـ٢٦٣ـ٣

جوال المؤلف
٠٥٠٨٠١٣٢٢٢
٠٥٠٤٩٥٣٣٣٢
بريد إلكتروني: mb_twj@hotmail.com

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 - 0502357979

عِبَادَاتُ القُلُوبِ

فِي ضَوْءِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

للفقير إلى مولاه

مُحَمَّد بن إبراهيم بن عبد الله التُّوَيْجِرِيّ

الطبعة الأولي

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

الجُزْءُ الأَوَّلُ

دَارُ اللُّؤْلُؤَةِ

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المَنْصُورَة - مِصْر

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾[النساء: ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾[الأحزاب: ٧٠ – ٧١] .

أمَّا بعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديث كتاب الله، وخير الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلُّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلُّ ضلالةٍ في النَّار.

الحمد لله ربِّ العالمين الَّذي تفرَّد وحده بالأسماء الحسنى، والصِّفات العلا، والأفعال الحميدة، والأحكام المجيدة، والمثل الأعلى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ ﴾[طه: ٨] .

وأحمده وأشكره على عظيم نعمه السَّابغة، الظَّاهرة والباطنة، الَّتي عمَّ بها كلَّ مخلوقٍ في السَّماوات والأرض، وفي الدُّنيا و الآخرة.

والحمد لله كثيراً على جلاله وجماله، وعلى كمال ربوبيَّته و ألوهيَّته، وعلى عظمة مُلكه وسلطانه، وعلى عظيم إنعامه وإحسانه، وعلى كمال دِينه و شرعه، وعلى بعثة أنبيائه ورسله، وعلى حُسْن دِينه و شرعه، وعلى صدق وعده ووعيده.

سبحانه لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، كلُّ مخلوقٍ شاهدٌ بوحدانيَّته، وكلُّ موجودٍ داعٍ إلى محبَّته وتعظيمه وحمده، وكلُّ محسوسٍ هادٍ إلى ربوبيَّته، وكلُّ شيءٍ يسبِّح بحمده، وكلُّ مخلوقٍ متصاغرٌ لكبريائه، ومستجيبٌ لمشيئته، ومسرعٌ إلى إرادته، وخاضعٌ لعظمته: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء: ٤٤] .

هو سبحانه الواحد الأحد، الخالق لكلِّ أحدٍ، القادر على كلِّ أحدٍ، المحيط بكلِّ أحدٍ، العليم بكلِّ أحدٍ، الحافظ لكلِّ أحدٍ، المالك لكلِّ أحدٍ، الملك الَّذي لا يحتاج إلى أحدٌ، الغنيُّ الَّذي يحتاج إليه كلُّ أحدٍ، الرَّبُّ الَّذي يربيِّ كلَّ أحدٍ: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾[الإخلاص: ١ – ٤] .

وهو سبحانه الملك الحقُّ الَّذي يستحقُّ المحامد كلَّها، له الحمد في الأولى والآخرة على جلاله وجماله، وله الحمد على نعمة الخلق والإيجاد، وعلى نعمة العطاء والإمداد، وعلى نعمة الهداية والإسعاد: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية: ٣٦ – ٣٧] .

وهو سبحانه الخالق القادر القاهر، الَّذي وسم جميع المخلوقات بآثار الحدَث بعد العدم، وبما أظهر على الكلِّ من العجز، والحاجة، والنَّقص، والزِّيادة، لتكون له الحجَّة البالغة، والرُّبوبيَّة النَّاطقة، والألوهيَّة الواحدة: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] .

وهذا كتابٌ جليلُ القدْرِ، في أمرٍ عظيمِ القَدْر، عنوانه «**عبادات القلوب في ضوء القرآن والسُّنَّة**»

وهو كتابٌ عظيم النَّفع، غزير العلم، يسعد به العبدُ، ويملأ القلب بالتَّوحيد والإيمان، ويحرِّك الجوارح بالأعمال الصَّالحة، بكمال الحُبِّ والتَّعظيم والذُّلِّ لله عزَّ وجلَّ .

وضعتهُ تذكرةً لنفسي وإخواني بأعظم الصِّفات الَّتي يجب أن يتحلَّى بها المسلم في حياته، ويتعبَّد بها لله عزَّ وجلَّ، ليسعد بذلك في حياته، وينال ثوابها بعد مماته، ويكون قدوةً لغيره في أقواله وأعماله وأخلاقه، وسائر معاملاته، ويصير أقرب النَّاس إلى حياة الأنبياء في توحيدهم وإيمانهم، وفي أقوالهم وأفعالهم، وفي أخلاقهم وآدابهم، وفي عباداتهم ومعاملاتهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء: ٩٠] .

نسأل الله عز وجل أن ينفع به المسلمين على مر الدهور، وأن يجعله من العمل الصالح المقبول، وأن يغفر لمن كتبه، وقرأه، وعلّمه، ونشره .

والأنبياء أحسن النَّاس حياةً، وأطهرهم حياةً، وأفضلهم حياةً، ولمن آمن بهم حظٌّ مِن حياتهم بحسب إيمانه وعلمه وعمله وتقواه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وقد خلق الله عزَّ وجلَّ هذا الإنسان بين مخلوقين عظيمين .

أحدهما: أعلى منه، وهم عالم الملائكة الَّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، ويسبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترُون: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنبياء: ١٩-٢٠].

والثَّاني: أقلُّ منه، وهم عالم البهائم الَّتي تتمتَّع بالشَّهوات بلا حدٍّ ولا قيدٍ، ولا أمرٍ ولا نهيٍ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[الفرقان: ٤٤].

وسعادة النَّاس بالإيمان والطَّاعات كسعادة الحيوانات بالمأكولات والمشروبات، والإنسان إذا امتثل أوامر الله التحق بالملائكة، وإذا اتَّبع هواه وشهواته كان أضلَّ مِن البهائم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف: ١٧٩] .

والإنسان إذا آمن بالله أشبه الملائكةَ والرُّسل، وإذا كفر بالله أشبه أخسَّ البهائم من الحمير والكلاب: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

وقد خلق الله الإنسان، وابتلاه بالهدى والهوى، وخلق الحيوان وفطره على اتِّباع الهوى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[الإنسان: ٢ – ٣].

والإيمان نورٌ وطِيبٌ، وطهارةٌ وفلاح، والكفر ظلامٌ ونجاسةٌ، وقذارةٌ وخسارة.

والإيمان تاج العزَّة والأمن، والكفر مطيَّة الذلَّة والخوف، وحبُّ المؤمن للإيمان والطَّاعات أشدُّ من حبِّه للمأكولات والمشروبات، وكراهة المؤمن للمعاصي والسيئات أشدُّ مِن كراهيته للأقذار والنَّجاسات، ونفور المؤمن من المعاصي مثل نفوره من السِّباع، وحلاوة الإيمان في قلب العبد أعظم من حلاوة العسل في اللِّسان.

وقد خلق الله عزَّ وجلَّ هذا الإنسان مركَّبًا من قلبٍ وبدنٍ، والقلب محلُّ الإيمان والكفر، ومكان الحُبِّ والبغض، وموطن التَّوحيد والشِّرك، والبدن محلُّ الأعمال من أقوالٍ وأفعال.

والأصل أعمال القلوب، وأعمال الجوارح فرعٌ عليها، ولا تصحُّ أعمال الجوارح إلَّا إذا صحَّت أعمال القلوب، ولا تُقبَل أعمال الجوارح إلَّا إذا سبقتها أعمال القلوب من التَّوحيد والإيمان بالله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل: ٩٧].

والقلوب هي محلُّ نظر الله عز وجل، وعبادات القلوب هي أعظم العبادات.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» أخرجه مسلم(١).

فلا تُزيِّن يا عبد الله ما يراه النَّاس من ظاهر بدنك، وتُهمل ما يراه الله من باطنك وهو قلبك: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢] .

والقلوب محلُّ أعظم العبادات، فهي محلُّ الإيمان والتَّوحيد، ومحلُّ الحُبِّ والتَّعظيم والذُّلِّ لله، ومحلُّ الخوف والرَّجاء، ومحلُّ الفقه والعلم والتَّقوى، ومحلُّ أصل العبادات كلِّها، وهي النِّيَّة التي محلها القلب .

قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» متفق عليه(٢).

والقلب هو محلُّ التَّكليف، فالقلب إذا آمن بالله أطاع ربَّه، ثمَّ أمر سائرَ الجوارح بالطَّاعة، والأصل طاعة القلب، أمَّا الجوارح فتُؤدِّي الطَّاعات على قدر

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١)، واللفظ له، ومسلم برقم (١٩٠٧).

استطاعتها: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ ﴾ [التغابن: ١٦] .

والعين محلُّ إبصار الأشياء، والقلب محلُّ البصيرة والتَّدبُّر، وإذا عمى القلب زلت الجوارح: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾ [الحج: ٤٦] .

والقلب قائدٌ، والبدن تابعٌ له في الخير والشَّرِّ، فإذا صلح القلب صلحت كلُّ الأعمال الظَّاهرة والباطنة، والبدنيَّة والماليَّة والأخلاقيَّة، وإذا فسد القلب فسدت كلُّ الأعمال القوليَّة والبدنيَّة، والأخلاقيَّة والماليَّة.

قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» متفق عليه[1].

فهذه القلوب محلُّ الإيمان والكفر، ومحلُّ الطَّاعات والمعاصي، ومحلُّ الكِبر والتَّواضع، ومحلُّ الحبِّ والبغض، ومحلُّ الصِّدق والكذب، ومحلُّ الإيمان والنِّفاق، ومحلُّ التَّقوى والفجور، ومحل الوجل والخوف: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾ [الأنفال: ٢] .

والقلوب هي المخاطَبة بالوحي الإلهيِّ، كما قال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٥] .

ومعاصي القلب من الكفر والشِّرك، والنفاق والرياء، والعُجب والكبر، أعظم من معاصي الجوارح، وأشد عقوبة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦ ﴾ [النساء: ١١٦] .

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩).

وقال النبي ﷺ: ((لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)). أخرجه مسلم[1].

والقلب هو الَّذي تنزل عليه السَّكينة الَّتي تزيد الإيمان: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤] .

والقلوب لا تطمئنُّ أبداً إلَّا بذكر الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ [الرعد: ٢٨] .

والقلب كثير التَّقلُّب بين التَّوحيد والشِّرك، وبين الطَّاعات و المعاصي .

وقلوب العباد كأجسادهم بيد الله وحده، يقلِّبها من حالٍ إلى حالٍ كيف يشاء، حسب علمه السَّابق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

وقال النبي ﷺ: ((إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)). أخرجه الترمذي وابن ماجة[2].

وعبادات القلوب أصل العبادات، وهي سبيل سعادة العبد في الدُّنيا والآخرة، وبها يدخل العبدُ جنَّةَ المعرفة في الدُّنيا، الموصلة إلى جنَّة الآخرة يوم القيامة، وبها يصل المسلم إلى القلب السَّليم الَّذي سَلِم من أمراض الشَّهوات، وأمراض الشُّبهات، وسلَّم الأمر لله فصلح للقاء الله، وصلح لدخول الجنَّة: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩ ﴾ [محمد: ١٩].

والعبادات القلبيَّة هي الأصل، وعبادات اللِّسان والجوارح ثمرةٌ لها، والإيمان لا يصحُّ ولا يُقبل إلَّا بهذا وهذا، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩١).

(٢) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٢١٤٠)، وأخرجه ابن ماجه برقم (٣١٠٧) .

يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

وأعمال القلوب أفضل الأعمال، فهي أصل التَّوحيد والإيمان، وهي أساس الفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، وهي أساس قبول عبادات الجوارح .

وطاعات القلوب أعظم من طاعات الجوارح، وكلاهما مأمور به، ومعاصي القلوب أكبرُ من معاصي الجوارح، وكلاهما منهي عنه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧].

ومعاصي القلوب أعظم من معاصي الجوارح، فالكِبر والاستكبار، والكفر والشِّرك، والشَّكُّ والرَّيب، والتَّكذيب والإنكار، والنفاق والإعراض، وعدم الانقياد، والإباء والجحود، والسُّخرية والاستهزاء، والبغض لله ولرسوله، ودينه وأوليائه، كلُّ ذلك من معاصي القلوب، وكلُّها مخرِجةٌ مِن ملَّة الإسلام، وصاحبها مخلَّدٌ في النَّار: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة: ٧٢] .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر: ٦٠] .

أمَّا معاصي الجوارح كالزِّنا والسَّرقة وشرب الخمر وأمثالها، فلا تخرج العبد من الملَّة، وإن مات صاحبها وهو مصرٌّ عليها فهو إلى مشيئة الله، إن شاء عذَّبه بقدْرِ ذنوبه، وإن شاء عفا عنه، ثمَّ مصيره إلى الجنَّة: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

ومعصية آدم ﷺ معصية جوارح؛ لأنَّه أكل من الشَّجرة الَّتي نهاه الله عنها، ثمَّ تاب بعدها فتاب الله عليه، واجتباه واصطفاه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[البقرة: ٣٧].

ومعصية إبليس معصية قلبٍ، لأنَّه أبى واستكبر عن طاعة الله، وأصرَّ على ذلك، ولم يتُبْ من ذلك، فلعنه الله، وطرده من الجنَّة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة: ٣٤] .

والإحسان أعلى درجات الدِّين، والإحسان مبنيٌّ على حسن مراقبة الله في كلِّ نيَّةٍ وقولٍ وعملٍ، والإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[لقمان: ٢٢] .

وقال النبي ﷺ: ((الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) متفق عليه (١).

وأعمال القلوب من أسباب زيادة الإيمان، وكثرة الأعمال الصالحة، ومضاعفة الأجور، ونيل الدَّرجات العلا من الجنَّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الملك: ١٢].

وعبادات القلوب مطلَقةٌ في كلِّ وقتٍ، أمَّا عبادات الجوارح فهي مقيَّدةٌ بالوقت، والعدد، والمكان، والزَّمان، والحال كالصلوات الخمس، وصوم رمضان، والحج ونحوها .

وعبادات الجوارح أقوالٌ، وأفعالٌ، وتروكٌ، جاءت عن الله ورسوله، والقصد منها التَّقرُّب إلى الله تعالى بكمال الحبِّ والتَّعظيم والذُّلِّ له، يؤدِّيها العبد بالقلب واللِّسان والجوارح، إمتثالاً لأمر الله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج: ٧٧] .

وعبادات القلوب من الحبِّ والتَّعظيم لله، والذُّلِّ له، والصَّبر والصِّدق، والتَّوكُّل والتَّوبة، والخوف والخشية لله وأمثالها، من أعظم العبادات الموصلة إلى رضوان الله، والدَّرجات العُلا في الجنَّة .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٠) ومسلم برقم (٩).

وأعلى الخلق في هذه العبوديَّات الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، فقد كان آدم ﷺعظيم التَّوبة، وإبراهيم ﷺعظيم التَّوكُّل على ربِّه، وأيُّوب ﷺعظيم الصَّبر، وعيسى ﷺعظيم الزُّهد، وموسى ﷺعظيم المجاهدة، ومحمَّدٌ ﷺ جمعَ اللهُ له ذلك كلَّه: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣٣] .

وقال عزَّ وجلَّ عن نبيِّه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم: ٤] .

وباقي الخلْقِ متفاوتون في هذه الصِّفات، بحسب إيمانهم وتقواهم .

وعبادات القلوب درجات.

منها ما هو ركنٌ في الإيمان مثل حبِّ الله، وتعظيم الله، وتكبير الله، والذُّلِّ لله، والإخلاص لله، وتوحيد الله، والتَّوكُّل على الله، وخوف الله، ورجاؤه، والتَّوبة إلى الله، وحمد الله، وشكره، وتقواه، والافتقار إليه وأمثالها.

ومنها عبادات القلوب الواجبة مثل الصَّبر،والخشوع،والخشيةوأمثالها .

ومنها عبادات القلوب المستحبَّة مثل الزُّهد، والورع وأمثالهما.

وأسعد الناس من جمع بين الأركان والواجباتوالمستحبات: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[المؤمنون: ٦١] .

وأنواع القلوب ثلاثةٌ:

القلب السَّليم .. والقلب المريض .. والقلب الميِّت.

الأوَّل: القلب السَّليم، وهو القلب الَّذي امتلأ بكمال الإيمان واليقين والتَّقوى، وخلا من أمراض الهوى والشَّهوات والشُّبهات، وامتلأ بحبِّ الله، وتعظيم الله، وإخلاص العمل لله، واتِّباع رسوله ﷺ.

وصفات القلب السَّليم ثمانيةٌ:

الأوَّل: خلو القلب من الشُّبهات، حتى صار يعبد الله باليقين كأنَّه يراه .

الثَّاني: خلوُّ القلب من الشَّهوات، حتَّى صار مراده تبعاً لما يحبُّه الله عز وجل .

الثَّالث: إحسان عبادة الله، وإخلاص العمل لله، واتِّباع رسول الله ﷺ في كلِّ قولٍ وعملٍ وخلق .

الرَّابع: عبادة الله بأنواع العبادات القلبيَّة من الحبِّ لله، والخوف من الله، والخشية لله، والتَّوكُّل على الله، والتَّوبة إلى الله، وإخلاص العمل لله، والصَّبر على طاعة الله، والصَّبر عن معاصي الله، والصَّبر على أقدار الله المؤلمة، والاستعانة بالله، والافتقار إليه، والخشوع لله، والاستغاثة به، والتَّعظيم لله، والشُّكر له، وحسن رجائه، والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، ونحو ذلك من العبادات القلبيَّة.

الخامس: أن يكون قلباً أوَّاهاً منيباً، رجَّاعاً إلى الحقِّ، مسارعاً إلى التَّوبة إلى الله من كلِّ عارضٍ من شبهةٍ أو شهوةٍ أو هوًى.

السَّادس: أن يكون خالياً من نواقض الإيمان من الكِبْر و الاستكبار، والإباء والجحود، والتَّكذيب والإعراض، والسُّخرية والاستهزاءونحوها.

السَّابع: أن يكون خالياً من سوء الظَّنِّ بالمسلمين، وخالياً من موالاة أعداء الله، وخالياً من الحقد والحسد وأمثالهما من الصِّفات المذمومة.

الثَّامن: أن يكون خالياً من سوء الظَّنِّ بالله، خالياً من الإلحاد في أسماء الله وصفاته، خالياً من القنوط واليأس من رحمة الله، خالياً من التَّشاؤم والتَّطيُّر .

ولن يفلح يوم القيامة إلَّا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾[الشعراء: ٨٨ – ٨٩] .

الثاني: القلب المريض، وهو القلب الذي فقد صحته وسلامته، لأنه غلبت عليه أمراض الشهوات والشبهات،وأمراض القلوب نوعان:

أحدها:أمراض الشهوات: وهي خللٌ في الإرادات والأفعال.

الثاني: أمراض الشبهات: وهي خللٌ في التصّور والاعتقاد.

ومن أصيب بمرض الشهوات أو الشبهات اتّبع هواه، وترك هُدى ربه ، كما قال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[القصص: ٥٠] .

والقلب المريض بالشبهات يشكُّ في ربِّه، وفي رسوله، وفي دينه، ويستكبر عن عبادة ربه، ويستكبر على خلقه، ويُكذِّب شرعَ الله .

والقلب المريض بالشهوات ليس له همٌّ إلا المُتع الدنيوية، والشهوات البهيمية، مثل شهوة البطن، والفرج، وشهوة السمع والبصر، وشهوة جمع الأموال والأشياء.

ومن ابتُلي بمرض الشبهات والشهوات جرَّه الشيطان إلى الصفات البهيمية من الحرص والطمع في كل حلال وحرام، وجرّه كذلك إلى الصفات السبعيّة من الكِبر والعلو، والفساد والإفساد، وحب الرئاسة، والاستعلاء على الناس بعلمه،ودينه، وماله، وحب الظهور كما قال الله عن المنافقين: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[البقرة: ١٠] .

وعلاج مرض الشبهات بالعلم الإلهي الذي يُثمر اليقين على ذات الله، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، ودينه، ويُثمر حب الله، وتعظيمه،وتوحيده، وخوفه، ورجائه: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

ويثمر النظر والتفكر في آيات الله الكونية، وآياته الشرعية ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢] .

وعلاج مرض الشهوات بالصبر، والمسارعة إلى أداء العبادات، والصبر من أعظم أعمال القلوب: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة: ٢٤] .

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران: ٢٠٠] .

وأعظم الشهوات ثلاث:

التعلق بالرئاسة ..والأموال.. والنساء .

وعلاج مرض التعلق بالشهوات، هو تزكية القلوب بالعبادات القلبية، من حب الله، وتعظيمه، والخوف منه، ومراقبته في السر والعلن، وحسن الرجاء له، ومحاسبة النفس، والصبر عن المحرمات، والاستعانة بالله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[الجمعة: ٢] .

فإذا دخل حب الله في القلب، طرد منه كل حب لسواه، وأثمر الحب لله خوفًا، وأثمر الخوف إخلاصًا لله، فأصبح مراد هذا القلب تبعًا لمراد الله .

ومن وفقه الله لصدق اليقين، والخلاص من مرض الشبهات والشهوات، صار من أئمة الدين، والدعاة إلى الله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة: ٢٤] .

وأسباب فساد القلب ومرضه كثرة الذنوب، وقلّة ذكر الله، وانشغال القلب بغير الله، وكثرة مخالطة الناس في غير الخير، وكثرة الأكل والشرب، وكثرة النوم، وكثرة الكلام في أمور الدنيا والشهوات: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤] .

وعلامات القلب المريض قلّة ذكر الله، وقلّة ذكر الموت، وقلّة ذكر اليوم الآخر، وكثرة المعاصي، وأنه لا يُحبّ الأعمال الصالحة، ولا يُحبّ الطاعات، ولا يُحبّ مجالس الذكر، ولا يحب المتقين، ورؤية عمله تامًا، والغفلة عن الله، والإسراف في الشهوات، وقلة الطاعات، والميل إلى المعاصي .

وعلاج هذا القلب المريض الإكثار من ذكر الله، فمن ذكر الله أطاعه ولم يعصه، والإكثار من ذكر الموت، فمن ذكر الموت قَصُر أمله، وقلَّ ذنبه، وكثُر عمله الصالح، والاستكثار من نوافل العبادات،من صلاة وصدقات، وصوم، ونحو ذلك، والإكثار من تلاوة القرآن وتدبره : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[محمد: ٢٤] .

والنظر والتفكر فيما خلق الله في هذا الكون العظيم من المخلوقات العظيمة والآيات الكبيرة: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾[ق: ٦ –٨] .

وزيارة المقابر، والاعتبار بحال الموتى، وزيارة المرضى، وزيارة الصالحين، وحضور مجالس الذكر والوعظ :﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف: ٢٨].

الثالث: القلب الميت، والقلب الميت هو الذي لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا، إلّا ما أُشرِب من هواه، فهو كالميت بين الأحياء، وكالأعمى بين المبصرين: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٢٢] .

وموت القلب أعظم من موت البدن، ومن مات قلبه خسر دنياه وآخرته: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

وقال النبيﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ كمَثَلُ الحَيِّ وَالميِّتِ. »

أخرجه البخاري[1].

والله عز وجل أعلم بما في صدور العالمين، وهو أعلم بالشاكرين، والكافرين، وهو أعلم حيث يجعل رسالته وهُداه وفضله :﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣] .

ومن علامات القلب الميت:

الأولى: الطبع على القلب والسمع والبصر،فلا يَقبل الخير، ولا يصل الخير إلى قلبه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل: ١٠٨ –١٠٩] .

الثانية:الختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، كما قال سبحانه عن الكفار:﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[البقرة: ٧] .

الثالثة: جعل الله على قلوبهم أكنّة، وفي آذانهم وقرا كما قال الله عن الكفار: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾[الكهف: ٥٧] .

الرابعة: جعل الأقفال على قلوبهم:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد: ٢٤] .

الخامسة: جعل الله على قلوبهم الران:﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤] .

السادسة: جعل الله على قلوبهم الحُجُب:﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[فصلت: ٥] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٧).

السابعة: منعهم من سمع الهداية كما قال سبحانه:﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[الأعراف: ١٠٠] .

الثامنة: منعهم من الفهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾[المنافقون: ٣] .

التاسعة: أن الله أعمى أبصارهم عقوبةً لهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[فصلت: ٤٤] .

العاشرة: أن الله جعل على أبصارهم غشاوة، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الجاثية: ٢٣] .

اللهم أحيي قلوبنا بالتوحيد والإيمان، وزينها باليقين والتقوى، واملأها بالهدى والنور، وجملها بالرحمة والإحسان، ياحي يا قيوم:﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[آل عمران: ٨] .

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة، وتكون بالقلب واللسان والجوارح، وهي أعظم حقوق الله على عباده .

والعبادات تنقسم إلى قسمين :

الأول: عبادات القلوب: كحُبّ الله، وتعظيمه، والإيمان به، وتوحيده، والخوف منه، والخشية له، والتوكل عليه، وإخلاص العمل له، وغيرها من عبادات القلوب .

الثاني: عبادات الجوارح: كالذكر، والدعاء، والدعوة، والتعليم، والصلاة والصيام، والزكاة، والحج والعمرة، وغيرها من عبادات الجوارح .

وعبادة القلب أصلٌ لجميع عبادات الجوارح :﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة: ٥] .

وأعظم أنواع العبادات القلبية:

توحيد الله، والإيمان بالله، وحب الله، وتعظيم الله، والخوف من الله، وحُسن الرجاء لله، وإخلاص العمل لله، وخشية الله، ومراقبة الله، والتوبة إلى الله، والإنابة إليه، والافتقار إليه، وحُسن الظن به، والتمجيد له، والتقديس له، والحياء من الله، والتسليم لأمره، والرضا بقضائه، والاستعانة بالله، والتوكل على الله، والحمد والشكر لله، وتقوى الله، والاستغاثة بالله، والذلّ لله، والتواضع لله، واليقين على الله، والإخبات له، والخشوع بين يديه، وحب دينه وأوليائه، والصبر، والصدق، واليقين والتقوى، وغيرها من العبادات القلبية.

واجتناب الشرك والكفر، والنفاق والرياء، والعجب والكبر، والمنكرات والآثام وغيرها من عبادات التروك.

فهذه أكثر من سبعين عبادة من عبادات القلوب الفعلية، والتركية: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢ – ٤] .

وأعظم العبادات القلبية بعد التوحيد والإيمان، هي حُبّ الله عز وجلّ، لأن حب الله هو الدافع لكل عبادة وطاعة، وهو الذي يَصرُف المؤمن عن معصية الله، ومخالفة أمره، إلى طاعته، وحسن عبادته، وهو الذي يجعل العبد يرضى بقضائه، ويسلم لأقداره، وهو الذي يجعل المسلم يتلذذ بتحمل المشاق من أجله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة: ١٦٥] .

وعبادات القلب هي الأصل، وعبادات الجوارح فرعٌ عليها، وثمرة لها، وعلامة عليها.

والعبادة النافعة هي عبادة القلب، المقرونة بعبادة الجوارح: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج: ٧٧].

وقال النبي ﷺ: « .. أَلا وَإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ». متفق عليه(١).

والعبادات تنقسم إلى أربعة أقسام :

الأول: عبادات قلبية تُؤدّى بالقلب مثل: توحيد الله، والإيمان بالله، وتعظيم الله، وحب الله، والخوف من الله، وإخلاص العمل لله، ونحو ذلك من العبادات القلبية.

الثاني: عبادات قولية تؤدى باللسان مثل: الأذكار، والأدعية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وتعليم شرع الله، والنصح لكل مسلم .

الثالث: عبادات بدنية تؤدى بالجوارح، كسائر العبادات، والمعاملات، كالصلاة والحج، والجهاد، والإحسان إلى الخلق وأمثالها .

الرابع: عبادات ماليّة، كالإنفاق في سبيل الله، والزكاة، والصدقات، وسائر المعاملات المالية كالبيع والشراء، والوصايا والمواريث وأمثالها.

وعبادات القلوب هي الأصل، وعبادات اللسان والجوارح فرعٌ عليها، وثمرةٌ لها، ودليلٌ عليها :﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[البينة: ٥] .

فالقلب الذي امتلأ بالإيمان بالله، وتعظيم الله، وحب الله، والخوف من الله، ورجاء الله، وخشية الله، هو أطهر القلوب وأزكاها، وأحبها الى الله، وأعظمها عند الله :﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩) واللفظ له.

والعبادات كلها مبنيةٌ على ما في القلب من النيات ، وإخلاص العمل لله وحده لا شريك له: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[الزمر: ١١ –١٢] .

وقال النبي ﷺ: « إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نوى » متفق عليه(١).

والفرق بين عبادات القلوب، وعبادات الجوارح:

أن عبادات الجوارح ظاهرة، وعبادات القلوب باطنة .

فعبادات الجوارح من صلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، وحجٍ، وتجارةٍ، يراها الناس غالبًا،أما عبادات القلوب من إيمانٍ بالله، وحبٍ لله، وخوفٍ من الله، فلا يعلم بها إلّا الله وحده .

وعبادات الجوارح لها بداية ونهاية، فالوضوء له بداية ونهاية، والصلاة لها بداية ونهاية، والصوم له بداية ونهاية، والحج له بداية ونهاية، والمعاملات لها بداية ونهاية، أما عبادات القلوب فلها بداية، وليس لها نهاية .

فكلما ازداد علم العبد بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، زاد إيمانه بالله، وزاد تعظيمه لله، وزاد حبه لله، وزاد خوفه من الله، وزاد شكره لربه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

وعبادات الجوارح قد يؤخرها العبد، وينساها أحيانًا،أما عبادات القلوب فهي باقية في القلب، تزيد بالعلم، وتنقص بالجهل: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

وعبادات الجوارح من صلاةٍ، وصومٍ، وزكاةٍ، وحجٍ وغيرها مؤقتة، ثوابُها لمن قام بها، وعقوبتُها على من تركها، أما عبادات القلوب فهي دائمةٌ ما دام المسلم

(١)**متفق عليه** / أخرجه البخاري برقم (١) ومسلم برقم (١٩٠٧) .

حيًا،يجري ثوابها للعبد في كل حال :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] .

وعبادات الجوارح يأتي بها المؤمن والمنافق، أما عبادات القلوب فيأتي بها المؤمن دون المنافق، لأن المنافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾[النساء: ١٤٢] .

والحساب يوم القيامة على ما في القلوب من الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[العاديات: ٩ – ١١] .

وعبادات الجوارح يتعبّد بها أكثر المسلمين، أما عبادات القلوب فلا يَتعبّد بها لله إلا القليل، وأكثر الناس غافلون عنها، وبذلك يؤدون عبادة الجوارح لله بلا تعظيم ولاذلّ، ولا حب ولا خوف: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الماعون: ٤ –٧] .

وتنقسم عبادات القلوب إلى قسمين :

الأول: عبادات القلوب الفعلية: كالتوحيد والإيمان، وتعظيم الله، وحب الله، وشكر الله، والخوف من الله، والتوكل على الله، وأمثالها من العبادات الفعلية .

الثاني: عبادات القلوب التَرْكِيَّة:كترك الكفر والشرك، وترك النفاق والرياء، وترك البدع والمحرمات، وأمثالها من العبادات التركية .

وعبادات الأفعال، وعبادات التَرْوك، كلها عبادات قلبية، يؤجر عليها العبد: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠] .

وقال النبي ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. » متفق عليه (١).

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم(٥٤)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

والعبادات القلبية هي مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة، كالرحمة والحلم، والعفو والصبر، والعدل والإحسان .

والعبادات القلبية كثيرة جدًا، ولا حدٌّ لها ولا مُنتهى، ولا يمكن إحصاؤها كلها، لأنه لا يمكن إحصاء الثناء على الله، وإحصاء تمجيده وتكبيره، وحبه وحمده وشكره ، ولا يمكن إحصاء ذكره بأوصاف جلاله وعظمته، وأوصاف جماله، وحسنه وإحسانه، وبالتالي لا يمكن إحصاء التعبد لله بتلك العبادات القلبية .

فلا إله إلا أنت لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما اثنيت على نفسك،

فالحمد لله رب العالمين على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والحمد لله على كمال دينه وشرعه، وحسن ثوابه وعقابه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾[الإسراء: ١١١] .

الحمد لله مِلء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية: ٣٦ – ٣٧] .

لذلك يجب على المسلمين تدارس العبادات القلبية بين فترة وأخرى، لأنها أصل عبادات الجوارح، وكلما قويت عبادات القلوب، قويت عبادات الجوارح، وكلنا محتاجٌ، بل مأمورٌ أن يعبد ربه كل يوم، بل كل لحظة، ليزداد إيمانه، وتزيد تقواه، ويصل إلى رضوان ربه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

ودرجة كل مجتهد في الجنة بقدر ما في قلبه من عبادات القلوب، وما أتى به منها، والتي هي ثمرة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢] .

والسابقون إنما سبقوا بأعمال القلوب، المقرونة بأعمال الجوارح، سبقوا إلى رضوان الله بصدقِ إيمانهم ويقينهم، وتوحيدهم وإخلاصهم، سبقوا إلى الدرجات العُلا في الجنة بكمال تعظيمهم لله، وحبهم له، وخوفهم منه، وشكرهم له، وحسن عبادتهم له: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة: ١٠٠] .

وعبادات الجوارح تنقطع بعد الموت، أما عبادات القلوب فهي دائمة في الدنيا والآخرة، فأهل الجنة يُلهمونَ الحمدَ والتسبيح، كما يُلهم الناس في الدنيا النَفَس، فأهل الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[يونس: ١٠] .

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد بن إبراهيم بن عبدالله التويجري

المملكة العربية السعودية – بريدة – جوال:(٠٥٠٨٠١٣٢٢٢)

(٠٥٠٤٩٥٣٣٣٢)

موقعنا على الأنترنت : (هذا الإسلام)hatha-alislam.com/index

البريد الإلكتروني :Mb_twj@hotmail.com

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

القسم الأوَّل : عبادات الأفعال

العبادة الأولى

عبادة توحيد الله عزَّ وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأوَّل: تعريف التَّوحيد.
الثَّاني: منزلة التَّوحيد.

الثَّالث: فضائل التَّوحيد.

الرَّابع: أقسام التَّوحيد.

الخامس: أركان التَّوحيد.

السَّادس: ثمرات التَّوحيد.

السَّابع: الأسباب المعِينة على تحقيق التَّوحيد.

الثَّامن: جزاء أهلِ التَّوحيد.

العبادة الأولى

عبادة توحيد الله عزَّ وجل

١ - تعريف التَّوحيد

توحيد الله ﷻ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وتوحيده بالعبادة، هو أصل الدِّين، وأوَّل أبواب الإسلام، وأوَّل واجبٍ على العبيد، وأعظم حقوق الله على عباده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨] .

والتَّوحيد هو إفراد الله بما يختصُّ به من الأسماء الحسنى، والصِّفات العُلا والأفعال الحميدة، والنُّعوت الجميلة، والمثل الأعلى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤] .

وقال عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ [البقرة: ١٦٣] .

وإفراد الله كذلك بما يجب له، وهو عبادته وحده لا شريك له، واجتناب عبادة ما سواه، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢] .

وقد بعث الله جميع الأنبياء والرسل بعبادة الله وحده لا شريك له: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [النحل: ٣٦].

فالله واحدٌ لا شريك له في ربوبيَّته، وألوهيَّته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١ – ٤] .

٢ - منزلة التَّوحيد

توحيد الله ﷻ هو أعظم عبادات القلوب الذي تُبنَى عليه عبادات القلوب، وعبادات الجوارح، وكلُّ عملٍ خلا منه فهو باطلٌ لا قيمة له: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥ - ٦٦].

وتوحيد الله ﷻ من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله الواحد الأحد، الصمد، الوتر، الحق، الحي، الملك، العزيز الجبَّار، القويِّ القهَّار: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤].

هو جل جلاله الواحد الأحد، الخالق لكلِّ أحدٍ، القادر على كلِّ أحدٍ، المالك لكلِّ أحدٍ، القاهر لكلِّ أحدٍ، الغنيُّ عن كلِّ أحدٍ، الواحد الأحد الَّذي يحتاج إليه كلُّ أحدٍ، المحيط بكل أحد، الواحد الأحد الذي ليس كمثله أحدٌ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

لا بدَّ أن يستقرَّ في قلب العبد أنَّ الله واحدٌ لا شريك له، أحدٌ لا مثيل له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

هو سبحانه الملك وحده، وكلُّ ما سواه مملوكٌ له، وعبدٌ له: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠] .

هو وحده الملك العظيم الَّذي لا أعظم منه، هو الملك الَّذي له ملك كلِّ شيءٍ .

فله ملك السَّماوات والأرض، وله ملك ما في السَّماوات والأرض، وله ملك ما بين السَّماوات والأرض، وله ملك خزائن السَّماوات والأرض، وله ملك غيب السَّماوات والأرض، وله ملك جنود السَّماوات والأرض، وله ملك مقاليد السَّماوات والأرض، وله ملك ميراث السَّماوات والأرض، وله ملك العالَم العلوي، والعالم السَّفلي، وله ملك عالم الغيب، وعالم الشَّهادة، وله ملك الدُّنيا

والآخرة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [الملك: ١].
وهو وحده الرَّبُّ وكلُّ ما سواه مربوبٌ له، وعبدٌ له، وقانتٌ له، وخاضعٌ له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس: ٣].
وهو وحده الخالق، وكلُّ ما سواه مخلوقٌ له، وعبدٌ له، وملكٌ له:
خلق العرش والكرسيَّ، وخلق السَّماوات والأرض، وخلق الجماد والنَّبات، وخلق الإنسان والحيوان، وخلق الملائكة والجانَّ، وخلق الشَّمس والقمر، وخلق اللَّيل والنَّهار، وخلق الذرات والمجرات: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: ٢٤].
وإذا عرف القلبُ ذلك كلَّه آمن بربِّه، ووحَّده، وكبَّره، وعظَّمه، وأحبَّه، ومجَّده، وحمده، وشكره، ودعاه، وسأله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠١-١٠٣].
والله وحده هو الواحد الأحد الصَّمد، الَّذي صمد لكلِّ شيءٍ، الصَّمد الَّذي تصمد إليه جميع الخلائق في جميع حوائجها فيقضيها: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].
وهو وحده الإله الحقُّ الَّذي يستحقُّ العبادة وحده، ويستحقُّ الحبَّ وحده، ويستحقُّ الحمد والشُّكر وحده، ويستحقُّ التَّعظيم والتَّكبير وحده، وكلُّ ما سواه فألوهيَّته باطلةٌ، وعبادته باطلةٌ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج: ٦٢].
هو الواحد الأحد العليم بكلِّ شيءٍ، الخبير بكلِّ ما في ملكه العظيم، العليم العلَّام بما كان، وما يكون، وما سيكون: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

وإذا عرفتم ذلك آمنتُم به وحده وعبدتموه وحده وأطعتموه وحده .

هو وحده الحيُّ القيُّوم، الحيُّ الَّذي لا يموت، القيُّوم الَّذي لا ينام، السَّميع البصير بكلِّ شيءٍ، العليم بكل شيء، المحيط بكل شيء، المالك لكل شيء: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾[البقرة: ٢٥٥].

هو وحده الملك العزيز الجبَّار، المهيمن على كلِّ شيءٍ، العزيز الَّذي لا يُغلَب، السَّلام الَّذي كلُّ سلامٍ منه، الجبَّار الَّذي لا يقف له شيءٌ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ ﴾[الحشر: ٢٣] .

هو وحده الواحد الأحد الَّذي ليس كمثله أحدٌ، هو القويُّ الَّذي لا أحد أقوى منه، هو القادر الَّذي لا أحد أقدر منه، هو القهَّار الذي لا يقف له شيءٌ ولا يُعجِزه شيءٌ، ولا يمتنع عليه شيءٌ، ولا يخفى عليه شيءٌ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ ﴾ [هود: ٦٦].

هو وحده القاهر لكلِّ قاهرٍ، المحيط بكلِّ محيطٍ: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤ ﴾[الزمر: ٤] .

فتوحيد الله أوَّل عبادات القلوب، وأعظم عبادات القلوب، وأصل كلِّ عملٍ: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾[غافر: ٦٥].

وإذا عرف القلبُ أنَّ الله هو الواحد الأحد، الَّذي هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله، وحَّدَ ربَّه بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وصرف العبادة له وحده لا شريك له: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾[محمد: ١٩].

٣- فضائل التَّوحيد

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت: ٣٠ – ٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥ – ١٧].

وقال النبي ﷺ: ((أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ)). أخرجه البخاري [1].

وجاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ قال: يا رَسُولَ اللهِ، مَا الْمُوجِبَتَانِ؟ فَقَالَ: ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ)). أخرجه مسلم [2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٩٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٣).

وحقيقة التَّوحيد ولبابه، أن يرى العبد أنَّ الأمور كلَّها بيد الله وحده رؤيةً تقطع القلب عن الالتفات إلى غيره من الأسباب والوسائط: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلا يرى العبدُ الخلْقَ والأمر إلَّا بيد الله وحده، ولا يرى العطاءَ والمنعَ إلَّا بيد الله وحده، ولا يرى النَّفع والضُّرَّ إلَّا بيد الله وحده، ويعبد ربَّه بموجب هذه المعرفة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢].

٤ - أقسام التَّوحيد

التَّوحيد الَّذي دعت إليه الأنبياء والرُّسل نوعان:

الأوَّل: توحيد المعرفة والإثبات، وهو توحيد الرَّبِّ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ويُسمَّى هذا توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات، وتوحيد الرب بأفعاله .

وإذا عرف العبد ربَّه بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وحْدَه، وصرَفَ العبادة له وحده لا شريك له:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩].

ومَن عرف الكبير كبَّره، ومَن عرف المجيد مجَّده، ومَن عرف العظيم عظَّمه، ومَن عرف الغنيَّ استغنى به، ومَن عرف الكريم سأله، ومَن عرف القادر استعان به، ومَن عرف الرَّزَّاق شكره، ومَن عرف الرَّحمن استرحمه، ومَن عرف الغفور استغفره:﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر: ٦٥].

ومَن عرف الملك لم يقف بباب العبيد، ومَن عرف الكبير لم يقف بباب الصَّغير، ومن عرف الخالق لم يقف بباب المخلوق، ومَن عرف الغنيَّ لم يسأل الفقير، ومَن عرف القويَّ لم يتوجَّه إلى الضَّعيف، ومَن عرف القادر لم يقف بباب العاجز، ومَن عرف الكريم لم يقف بباب البخيل:﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر: ٢٢ – ٢٤].

وهذا أعظم أنواع التَّوحيد؛ لأنَّه يتعلَّق بمعرفة الرَّبِّ، ويُثمِر للعبد أعظم الثَّمرات من حبِّ الله، وتعظيمه، وتكبيره، وتمجيده والذُّلِّ له، والافتقار إليه، والأنس به،والحياء منه، والرَّغبة إليه، والاستعانة به وحده لا شريك له، والتَّوكُّل

عليه، وحُسْن عبادته، ونيل أعظم ثوابه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد: ١٩].

الثَّاني: توحيد القصد والطَّلب، وهو توحيد الرب بأفعال العباد، ويُسمَّى توحيد الألوهيَّة والعبادة، وهو توحيد الله وإفراده بجميع أنواع العبادات القلبيَّة من حبِّ الله، وتعظيمه، وتكبيره، والخوف منه، والرَّجاء لما عنده، وحمده وشكره، والافتقار إليه، ونحو ذلك من عبادات القلوب، وإفراد الله بجميع أعمال الجوارح من الأذكار والأدعية، والصَّلاة والزَّكاة، والصَّوم والحجِّ، والذَّبح والنَّذر ونحو ذلك من عبادات الجوارح.

والتَّوحيد لا يتمُّ ولا يُقبَل إلَّا بهذا وهذا، فنوحِّد الرَّبَّ بأفعاله، ونوحِّده بأفعالنا، وقد جمَع الله بين عبادات القلوب والجوارح في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وتوحيد الرُّبوبيَّة يُقِرُّ به الإنسان بموجب فطرته الَّتي فطره الله عليها.

فمَن نظر في الكون بتدبُّرٍ علم أنَّ الخالق الرَّازق هو الله وحده، والإقرار بهذا التَّوحيد وحده لا يكفي للإيمان بالله، والنَّجاة من العذاب يوم القيامة، فقد أقرَّ به إبليس، وأقرَّ به المشركون فلم ينفعهم، لأنَّهم لم يقرُّوا بتوحيد العبادة لله وحده: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥ ﴾ [لقمان: ٢٥].

فمَن أقرَّ بتوحيد الرُّبوبيَّة فقط لم يكن موحِّداً ولا مسلماً، حتَّى يقرَّ بتوحيد الألوهيَّة، فيشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، ويعبد الله وحده لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ [البينة: ٥].

وتوحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة متلازمان لا يفترقان أبداً، فتوحيد الرُّبوبيَّة مستلزمٌ لتوحيد الألوهيَّة والعبادة .

فمَن أقرَّ بأنَّ الله وحده هو الرَّبُّ الخالق الرَّازق الملك الَّذي يدبِّر هذا الكون، لزمه أن يقرَّ بأنَّه لا يستحقُّ العبادة إلَّا الله وحده، فلا يدعو إلَّا الله، ولا يتوكَّل إلَّا على الله، ولا يصرف شيئاً مِن أنواع العبادة إلَّا لله وحده لا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣].

وتوحيد الألوهيَّة مستلزمٌ لتوحيد الرُّبوبيَّة، فكلُّ مَن عبد الله وحده ولم يُشرِك به شيئاً، لا بدَّ أن يكون قد اعتقد أنَّ الله ربُّه وخالقه ورازقه ومالكه كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢].

والتَّوحيد لا يتمُّ إلَّا بعبادة الله وحده لا شريك له، واجتناب عبادة ما سواه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

فلا بدَّ لأهل التَّوحيد من الإيمان بالله وحده، والكفر بكلِّ معبودٍ سواه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٥- أركان التَّوحيد

أركان التَّوحيد سبعةٌ وهي:

الأوَّل: توحيد الله بذاته، فهو الواحد الأحد لا شريك له: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ – ٤].

الثَّاني: توحيد الله بأسمائه الحسنى كالملك والعزيز، والعليم والقدير، والرَّحمن والرَّزَّاق، والسَّميع والبصير، وغيرها من الأسماء الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الثَّالث: توحيد الله بصفاته العُلا، كالحياة والقدرة والسَّمع والبصر وغيرها من الصِّفات العُلا: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر: ٦٥].

الرَّابع: توحيد الله بأفعاله الحميدة، كالخلق والرِّزق والإحياء والإماتة والتَّدبير والتَّصريف وغيرها: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١ – ٣٢].

الخامس: توحيد الله بأفعال العباد من الحبِّ لله، والتَّعظيم له، والخوف منه، والتَّوكُّل عليه، والشُّكر له، وكالدُّعاء والصَّلاة والصَّوم والحجِّ وغيرها من العبادات: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٤ – ٣٥].

السَّادس: توحيد رسوله ﷺ بالاتِّباع كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[الحشر: ٧].

السَّابع: توحيد كتابه بالاتِّباع كما قال سبحانه:﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾[الأنعام: ١٥٥].

وكلُّ ذلك يحصل للعبد بكمال معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله:﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[محمد: ١٩].

وبقدر تلك المعارف الإلهيَّة العظيمة يمتلئ القلبُ بالتَّوحيد والإيمان، وينشرح الصَّدرُ لأنواع الطَّاعات، وتنقاد الجوارح للأعمال الصَّالحة الَّتي يحبُّها الله ويرضاها مِن الأقوال والأعمال والأخلاق الظَّاهرة والباطنة:﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾[فاطر: ٢٨] .

وثمرة خشية الله المغفرة والأجر العظيم:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك: ١٢] .

وبهذا يحصل للعبد توحيد الله بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وتوحيده بالعبادة، وتوحيد رسوله وكتابه بالاتِّباع، وعبادة الله بكمال الحبِّ والتَّعظيم والذُّلِّ لله عزَّ وجلَّ:﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: ٢ – ٤] .

٦ - ثمرات حقيقة التَّوحيد

أعظم ثمرات التَّوحيد رضا الله عن العبد، ورضا العبد عن ربِّه، وحبُّ الرَّبِّ لعبده وحبُّ العبد لربِّه، وقبول الله لعمله، وكفايته له، وإسعاده في الدُّنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة: ٧ – ٨].

وحقيقة التَّوحيد تُثمِر للعبد قوَّةَ التَّوكُّل على الله وحده، والشَّكوى إلى الله وحده، وترك الشَّكوى إلى الخلق، وترك لومهم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن: ١٣].

والتَّوحيد يُثمِر للعبد حسْنَ الظَّنِّ بالله، والتَّسليم لحُكمه، والرِّضا بقضائه، ودوام ذِكْره وشكره وحسن عبادته، والطُّمأنينة بذِكْره، والفرار إليه، والأمن في الدُّنيا والآخرة، والفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد: ٢٨ – ٢٩].

فأبشِروا ياأهل التوحيد بالسَّعادة في الدُّنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ – ٣٢].

وتوحيد الله جل جلاله أساس العبادات كلِّها، وهو أعدل العدل؛ لأنَّه صرفٌ للعبادة لمن يستحقُّها وهو الله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: ١٠٢].

والشِّرك بالله أظلم الظُّلم، وهو ظلمٌ عظيمٌ؛ لأنَّه اعتداءٌ على حقِّ الله الخاصِّ به وهو التَّوحيد، وصرف خالص حقِّه لغيره وهو العبادة، وعدْلُ غيره به، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[لقمان: ١٣] .

ولعظيم خطر الشرك فإنَّ مَن مات مشركاً بالله فإنَّ الله لا يغفر له، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[النساء: ٤٨].

والشِّرك الأكبر محبطٌ لجميع الأعمال، موجِبٌ للهلاك والخسران، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر: ٦٥ – ٦٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة: ٧٢].

والتَّوحيد موجِبٌ للفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠].

٧- الأسباب المعِينة على تحقيق التَّوحيد

الأوَّل: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بعظمة ملكه وسلطانه، والعلم بعظمة نِعَمه وإحسانه، والعلم بدينه وشرعه، والعلم بوعده ووعيده: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

ومَن عرف ذلك آمن بالله وحده، وكفر بما سواه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

الثَّاني: التَّفكُّر في الآيات والمخلوقات الَّتي خلقها الله في هذا الكون العظيم، فمَن نظر إلى عظمة الإحكام والإبداع، وعظمة الخلق والتَّصوير، وعظمة التَّدبير والتَّصريف، أيقن أنَّ الله واحدٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شريك له، فآمَن بالله ووحَّدَه وعبدَه وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومَن عرف ذلك آمن بالله ووحَّده، وكبَّره ومجَّده، وحمده وشكره، وعبده وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

الثَّالث: التَّفكُّر والتَّدبُّر لآيات الله الشَّرعيَّة وما فيها من الأخبار الصَّادقة، والأحكام العادلة، والأمر بكلِّ خيرٍ، والنَّهي عن كلِّ شرٍّ، وتدبر أحوال اليوم

الآخر، وما فيه مِن البعث والحساب، والجنَّة والنَّار، ومَن تدبَّر ذلك أيقن أنَّها تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ، خبيرٍ بمصالح الخلق، فآمَن بالله وحده، ولم يلتفِتْ لأحدٍ سواه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء: ٨٢].

الرَّابع: التَّفكُّر في بقاء هذا الكون العظيم على سننٍ ثابتةٍ لا تتبدَّل أبداً، من ليلٍ و نهارٍ، وحرٍّ وبردٍ، وحياةٍ وموتٍ، وأمنٍ وخوفٍ، وذكورٍ وإناثٍ، ممَّا يدلُّ قطعاً على أنَّ الَّذي يدبِّر هذا الكون العظيم وما فيه ربٌّ واحدٌ لا شريك له: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[يونس: ٣١ – ٣٢].

ومَن هذه أفعاله فهو الرَّبُّ الَّذي يستحقُّ العبادة وحده لا شريك له، ويستحقُّ أن يُطَاع فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسَى، ويُشكَر فلا يُكفَر: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٢].

٨- جزاء أهل التَّوحيد

أهل التَّوحيد هم أهل السَّعادة في الدُّنيا والآخرة .

ففي الدُّنيا لهم الأمن والهداية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨٢].

ولهم النَّصر والتَّمكين في الأرض:﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[الحج: ٤٠ – ٤١] .

ولهم الحياة الطَّيِّبة مَن كانوا، وحيثما كانوا:﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[النحل: ٩٧] .

وغير ذلك من الكرامات العظيمة الَّتي يُكرِم اللهُ بها عبادَه المؤمنين في الدُّنيا.

وأمَّا في الآخرة فإنَّ الله يُكرِم أهل التَّوحيد بأنواع الكرامات الأبديَّة .

ومِن تلك الكرامات دخول الجنَّة، والخلود فيها، والتَّنعُّم بأنواع النَّعيم:﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾[البقرة: ٢٥].

ورؤية المؤمنين لربِّهم كما قال سبحانه:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] .

ورضوان الرَّبِّ عزَّ وجلَّ على المؤمنين كما قال سبحانه:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[البينة: ٧– ٨].

والقرب من الرَّبِّ عزَّ وجلَّ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥] .

وسماع سلام وكلام الرَّبِّ سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨ ﴾ [يس: ٥٨].

والفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار كما قال سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

اللَّهمَّ إنَّا نسألك الجنَّةَ، وما قرَّب إليها من قولٍ أو عملٍ، ونعوذ بك من النَّار، وما قرَّب إليها مِن قولٍ أو عملٍ.

اللَّهمَّ آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّها، أنت وليُّها ومولاها .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ ﴾ [آل عمران: ٨] .

عبادات القلوب
في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثانية

عبادة الإيمان بالله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : تعريف الإيمان.

الثاني : ما يتضمنه الإيمان بالله عز وجل.

الثالث : الأسباب المعينة على الإيمان بالله عز وجل

الرابع : درجات الإيمان.

الخامس : فضائل الإيمان بالله عز وجل.

السادس : ثمرات الإيمان بالله عز وجل.

السابع : جزاء أهل الإيمان.

العبادة الثانية

عبادة الإيمان بالله عز وجل

١ - تعريف الإيمان

الإيمان بالله عز وجل أعظم العبادات القلبية، وهو أول أركان الإيمان، وأعظم واجبات الدين، وأصل العبادات كلها: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

والإيمان هو التصديق الجازم بوجود الله عز وجل، وأنه الرب الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الحميدة، وأنه الرب المستحق للعبادة وحده لا شريك له: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

والإيمان هو أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، وتعمل بمقتضى ذلك.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: لما سأله جبريل عن الإيمان: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) متفق عليه (١).

والإيمان قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان) متفق عليه (٢).

ويَكملُ إيمان العبدِ بمعرفة أركان الإيمان الستة، والنظر في الآيات الكونية نَظَرَ

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٧)، ومسلم برقم (١٠).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٩)، ومسلم برقم (٣٥) .

تدبّر وتفكّر: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس: ١٠١] .

وكذا النظر والتدبر للآيات القرآنية: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء: ٨٢] .

وكلما ازدادت تلك المعارف الإلهية قويَ إيمان العبد، وزاد تعظيمه لربه، وزاد حبه لله، وزاد شكره له، ووجد حلاوة العبادة، وخفّت عليه الطاعات، وثقُلت عليه المعاصي، وسارع إلى فعل كلِّ ما يحبه الله ويرضاه:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨].

ومن زاد إيمانه زادت أعماله الصالحة، وزادت حسناته، وزاد ثوابه:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

والإيمان بالله عز وجل من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله المؤمن، والصادق،والملك،والقادر،والرحمن،والرحيم: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[طه: ٨] .

فمن عرف أن ربه هو المؤمن الذي بيده الأمن كله، الصادق الذي كل كلامه صدق، آمن بالله واتقاه، وصدّق كلامه، وامتثل أوامره: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

ومن عرف أن ربه هو الملك الحق، القادر على كل شيء، المحيط بكل شيء، الغني عن كل شيء، العليم بكل بشيء، الرحمن الرحيم بكل خلقه: آمن بالله وصدّقه، وعظّمه وكبّره، وأحبّه ومجّده، وحمده وشكره:﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر: ٢٢ – ٢٤] .

٢ - ما يتضمنه الإيمان بالله عز وجل

الإيمان بالله سبحانه يتضمن أربعة أمور.

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى:

فقد فطر الله كل مخلوق على الإيمان بخالقه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم: ٣٠].

وقد دلَّ العقل على أن لهذه المخلوقات خالقاً، ولهذه المُصَوَّرات مصورًا، فإنه لا بد لكل مخلوق من خالقٍ خلقه: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٢] .

ودلَّ الحسُّ على وجوده سبحانه، فإننا نرى تقليب الليل والنهار، وسَوْقِ أرزاق الإنسان والحيوان، وتدبير أمور الخلائق في كل آن، وذلك يدل دلالة قاطعة على وجود الله عز وجل: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور: ٤٤] .

ودلَّ الشَّرعُ الحكيم على وجود الله سبحانه فالأحكام العظيمة العادلة المتضمنة لمصالح الخلق، دليلٌ على أنها من ربٍّ حكيمٍ قادرٍ، عليمٍ بمصالح عباده: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾[هود: ١] .

الثاني: الإيمان بأن الله هو الرب وحده لا شريك له، والرب الذي يستحق أن يعبد، هو الملك الحق الذي بيده الملك كله، وله الخلق كله، وبيده الأمر كله: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[يونس: ٣] .

الرب الذي يستحق العبادة، هو الذي يخلق ويرزق، ويحكم ويدبّر، هو الرب الذي يجب أن نعبده وحده لا شريك له، ويُستحق أن يُطاع وحده، ويُكفر بكلّ معبودٍ سواه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

ﭐلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢].

الثالث: الإيمان بألوهيته سبحانه:

فنعلم ونتيقّن أن الله وحده هو الإله الحق وحده لا شريك له، وأن الله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣].

فكما خضعنا لربوبيته خَلقًا وتدبيرًا، وحياةً وموتًا، فيجب أن نخضع لألوهيته أمراً وشرعًا، وكما تيقّنا أن الله واحدٌ في ربوبيته لا شريك له، فكذلك يجب أن نتيقّن أن الله واحدٌ في ألوهيته لا شريك له، فيجب أن نعبده وحده لا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

فالله هو الإله الحق لكمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكل أحدٍ سواه فألوهيته باطلة، وعبوديته باطلة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

الرابع: الإيمان بأسماء الله وصفاته:

وذلك بحفظها، وفهمها، والاعتراف لله بها، والتعبد لله بها، والعمل بموجبها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فمعرفة أسماءِ وأوصافِ العظمةُ، والكبرياءُ، والمجدُ، والجلالُ لله، تملأ قلب العبد إيمانًا بالله، وهيبةً له، وتعظيمًا له: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

ومعرفةُ أوصاف العزة والقهر، والقوة والقدرة، والجبروت والكبرياء، تملأ القلب ذلةً وانكسارًا وخضوعاً لله الواحد القهار: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ [الحشر: ٢٣].

ومعرفة أوصاف الرحمة والبر، والإكرام والإحسان، تملأ القلب حباً لله، وحمدًا له، ورغبةً وطمعًا في برِّه وإحسانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

ومعرفة أوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

ومعرفة مجموع أسماء الله وصفاته وأفعاله تثمر للعبد الإيمان بالله وتوحيده، وتعظيمه وتكبيره، وتوجب محبة الله، والشوق إليه، والرغبة إليه، وحمده وشكره، والتوكل عليه، والافتقار إليه، والخوف منه، والرضى عنه، والتقرب إليه بعبادته وحده لا شريك له: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

وقال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٣- الأسباب المعينة على زيادة الإيمان بالله عز وجل

الأول: العلم بالله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، وأفعاله الجميلة.

فمن عرف الله حقًا آمن به حقًا، وعبده حقًا: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد: ١٩].

الثاني: النظر والتفكر في آيات الله ومخلوقاته كالسموات والأرض، والشمس والقمر، والبحار والجبال، والهواء والرياح، والجماد والنبات، والإنسان والحيوان، والسحب والمياه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

فهذه الآيات العظيمة، والمخلوقات العجيبة، تدفع الإنسان إلى الإيمان بالله، فإن كل مخلوق لا بد له من خالق، وبقدر عظمة الخلق تكون عظمة الخالق: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

الثالث: تدبر آيات القرآن الكريم، وما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة من الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والوعد والوعيد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

وقال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

الرابع: النظر في قَصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وكيف مكَّن الله لهم في الأرض، وأعزهم وأعزّ من آمن بهم، وخذل ودمّر كل من كذبهم وعاداهم: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

الخامس: الحرص على فعل الطاعات، واجتناب المعاصي، فالإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤] .

ولكي يأتي الإيمان في حياتنا ويزيد، لا بد من أربعة جهود:

الأول: جهدٌ على تحصيل الإيمان بالنظر في الآيات الكونية، والتدبر للآيات القرآنية، والاستكثار من الطاعات فرضها ونفلها: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١] .

وقال عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤] .

الثاني: جهدٌ على حفظ الإيمان في البيئات الإيمانية الذاكرة، والانقطاع عن البيئات الغافلة: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨] .

الثالث: جهدٌ على الاستفادة من الإيمان:

فمتى جاء الإيمان واليقين، أجاب الله دعاءه، وفرّج كُربه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

وقال عَلَىٰ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ – ٨٨] .

الرابع: جهدٌ على نشر الإيمان في العالم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

٤ - درجات الإيمان

الإيمان هو أصل عبادات القلوب، وعبادات الجوارح، فلا يُقبل أي عمل بدونه، والإيمان هو ما وقر في القلب، وصدقه العمل.

وإذا دخل الإيمان في قلب العبد ازداد نورًا وحبًا لله عز وجل، وحرّك اللسان بذكر الله، وتكبيره، وحرك الجوارح بأنواع العبادات، فقام المؤمن بتلك العبادات بين يدي ربه، بكمال الحب والتعظيم والذلّ لله عز وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

وإيمان الخَلْق على ثلاث درجات:

الأولى: إيمان الملائكة: وهؤلاء إيمانهم ثابتٌ لا يزيدُ ولا ينقص، فهم يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

الثانية: إيمان الأنبياء والرسل: وهؤلاء إيمانهم يزيدُ ولا ينقص، لكمال معرفتهم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الثالثة: إيمان الجن والإنس: وهؤلاء إيمانهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والنظر في الآيات الكونية، والتدبر للآيات القرآنية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦ - ٨].

والإيمان له ثلاث درجات:

الأولى : طعم الإيمان: فمن آمن بالله وجد طعم الأنس بالله، ولذّة القرب منه، والقيام بين يديه .

قال النبي ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ رسولًا)أخرجه مسلم (١).

الثانية: حلاوة الإيمان:وهذهتثمر للعبد حلاوة الطاعات، وكراهية المعاصي، وحب امتثال أوامر الله، واجتناب معاصيه .

قال النبيﷺ: (ثلاثٌ من كنَّ فيه، وجد بهنِّ حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحُبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار)متفق عليه (٢).

وهذه الدرجة أعلى من الدرجة الاولى، لأن الحلاوة درجة فوق الطعم .

الدرجة الثالثة: حقيقة الإيمان:وهذه أعلى درجات الإيمان، وهي درجة اليقين ، وتحصل هذه الدرجة لمن كان عنده كمال اليقين، وحقيقة الدين، وقام بجهد الدين، عبادةً ودعوةً، وهجرةً ونصرةً، وجهاداً وإنفاقًا:﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

وقال سبحانه:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ ﴾[الأنفال: ٧٤] .

وقال عزّ وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ ﴾[الحجرات: ١٥].

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٣٤).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٦)، ومسلم برقم (٤٣) .

فاليقين أعلى درجات الإيمان، لأنه إيمانٌ لا شك معه ولا تردُّد، بأن تتيقن ما غاب عنك كما تشاهد ما حضر بين يديك على حدٍ سواء.

وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

ورابطة الإيمان أقوى الروابط على الإطلاق، ولقوة رابطتها ربطت بين الخلق وبين ربهم، وربطت بين السماء والأرض، وربطت بين الأنبياء والرسل، وربطت بين الرسل والأمم، وربطت بين بني آدم في الأرض، وربطت بين بني آدم والملائكة، وربطت بين بني آدم والجن، وربطت بين الدنيا والآخرة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١ – ٧٢].

ومن أجل لا إله إلا الله خلق الله السموات والأرض وما فيهن، وأنزل الدين والشرع، وخلق الجنة والنار، وجعل الثواب والعقاب: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن أجلها كان الله وليُّ المؤمنين، ومن أجلها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٥- فضائل الإيمان بالله عزّ وجل

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾[البقرة: ٢٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة: ٧٢] .

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨ – ٢٩] .

وقال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[النحل: ٩٧] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل أي العمل أفضل؟ قال: إيمانٌ بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حجٌ مبرور) متفق عليه (١).

وعن عثمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) أخرجه مسلم (٢).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٦)، ومسلم برقم (٨٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦).

٦ - ثمرات الإيمان بالله عز وجل

الإيمان بالله عزّ وجل يُثمر للعبد ثمراتٍ عظيمةٍ كثيرةٍ في الدنيا والآخرة،ومن أعظم ثمرات الإيمان في الدنيا :

رضا الله عن المؤمن، ورضا العبد عن ربه، وحب الله للمؤمن، وحب المؤمن لربه، وتعظيم الله وتكبيره، وحمدُ الله وشكرُه، ورحمة الله للعبد، وكفايته له، وحسن الظن بالله، والتوكل على الله، والأنس بالله، والطمأنينة بذكره، والإكثار من ذكر الله، والتوبة إليه، وحسن عبادته، ونيل ثوابه، والفوز بنصره، واللذةبمناجاته: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ ﴾[الرعد: ٢٨ -٢٩] .

وقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام: ٨٢] .

أما أعظم ثمرات الإيمان في الآخرة فهي:

رضوان الرب، ورؤية الرب، والقرب منه، وسماع كلامه، ودخول الجنة، والخلود في الجنة في حياةٍ أبدية، ونعيم دائم، وجناتٍ تجري من تحتها الأنهار، والنجاةُ من النار: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[البقرة: ٢٥] .

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥] .

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[البينة: ٧ – ٨] .

وقال عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

٧-جزاءُ أهل الإيمان

وعد الله أهل التوحيد والإيمان بموعوداتٍ كثيرةٍ في الدنيا والآخرة .

فأعظم موعودات أهل الإيمان في الدنيا:

الأمن، والهداية، والفلاح، والنصر، والتمكين في الارض، والعزة، وحصول البركات، وعدم تسليط الكفار عليهم، والدفاع عنهم، ومحبة الله لهم، ورضوان الله عليهم، وغير ذلك من الكرامات: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ – ٥٢].

وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] .

أما موعودات الله لأهل الإيمان في الآخرة فهي أعظم وأعظم:

الأولى: الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] .

الثانية: دخول الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [الحج: ١٤] .

الثالثة: الخلود في نعيم الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧ – ٨] .

الرابعة: رضوان الرب عليهم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢] .

الخامسة: رؤية المؤمنين ربهم في الجنة:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة: ٢٢ –٢٣] .

السادسة: القرب من ربهم جل جلاله:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ (٥٥) ﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥] .

السابعة: سماع كلام وسلام الرب عزّ وجل:﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾[يس: ٥٥ – ٥٨] .

الثامنة: النجاة من النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾[مريم: ٧١ – ٧٢].

والصفات الموعودة لأهل الإيمان في الدنيا غير موجودة في حياة كثيرٍ من المسلمين اليوم، وذلك لضعف إيمانهم، وتقصيرهم في أعمالهم ، ولا سبيل للحصول عليها إلا بتقوية الإيمان الموجود بالإيمان المفقود، ليأتي الإيمان المطلوب، وإخلاص العمل لله وحده، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به من عبادة الله وحده، والدعوة إلى الله، وتعليم شرع الله، والإحسان إلى خلق الله، وغير ذلك مما أمر الله ورسوله به: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٧) ﴾[الحشر: ٧] .

فالموعودات لم تظهر في حياة كثيرٍ من المسلمين، بل ظهر ضدها، لضعف الإيمان بالله، ونقص التوحيد، وضعف اليقين، والخلل في العبادة، والتقصير في الدعوة وطاعة الله ورسوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾[النساء: ١٣٦].

وللحصول على موعودات الله لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، لا بد أن يكون إيماننا وأعمالنا كإيمان الأنبياء والصحابة، وأعمالنا كأعمالهم على وجه

الحقيقة: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

وقال عزّ وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة: ٢٠٨] .

وقال عزّ وجل: ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[البقرة: ١٣٧ – ١٣٨] .

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾
[آل عمران: ٥٣] .

اللهم إنا نسألك إيماناً كاملا، ويقيناً صادقا، وقلباً خاشعًا، ولساناً ذاكرًا، وحلالاً طيبًا، ونسألك الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثالثة

عبادة تعظيم الله جل جلاله

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : منزلة تعظيم الرب جل جلاله .

الثاني : فضائل تعظيم الله جل جلاله.

الثالث : مظاهر عظمة الله جل جلاله .

الرابع : الأسباب المعينة على تعظيم الرب جل جلاله .

الخامس: جزاء تعظيم الرب جل جلاله.

العبادة الثالثة

عبادة تعظيم الله جل جلاله

١ - منزلة تعظيم الرب جل جلاله

تعظيم الله وتكبيره وتمجيده، هو أعظم عبادات القلوب بعد التوحيد والإيمان.

وروح العبادات كلهاهو عبادة الله بكمال الحب، وكمال التعظيم، وكمال الذل لله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك:١٢].

ومن عرف الله جل جلاله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة، نشأت في قلبه قوتان :

الأولى: قوة الهيبة لله الملك العزيز الجبار، القوي القادر القهار.

الثانية: قوة الحب لله، لعظمة إكرامه وإنعامه وإحسانه .

وقوة المهابة لله عز وجل أعظم من المحبة، لأن المهابة لله جل جلاله ناشئة عن معرفة جلال الله، وجبروته، وعظمته، وكبريائه، وكمال قوته وقدرته، وسعة علمه ورحمته، وكمال إحاطته .

ثم يليها محبة الله الناشئة عن معرفة إنعام الله وإحسانه، وكمال رحمته ولطفه بعباده.

ثم يليها التوكل على الله في كل حال، لأن منشؤه رؤية توحد الله بالأفعال والتدبير والتصريف .

ثم يلي ذلك الخوف من الله، والرجاء لما عنده، لأنهما ناشئان عن ملاحظة الخير والشر، فلا يُرجى من يعجز عن فعل الخير، ولا يُخاف من لا يقدر على دفع الشر: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[محمد: ١٩] .

وتعظيم الرب جل جلاله من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله الملك، العزيز، الجبار، المتكبر، القهار، العظيم، الكبير،

القوي، القادر، ... وغيرها من أسماء الجلال :﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر: ٢٣ – ٢٤] .

ومقصود الرب من خلقه أن يعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم يعبدوه وحده بموجب هذه المعرفة، لأن معرفة الآمر واجبة قبل معرفة أوامره، ومعرفة الحاكم واجبة قبل معرفة أحكامه :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١٢].

فالتعبد لله جل جلاله بأنواع العبادات مبني على معرفة الرب بأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف العظيم عظمه، ومن عرف الكبير كبره، ومن عرف الواحد وحده، ومن عرف القادر استعان به، ومن عرف القوي لاذ بجنابه، ومن عرف الغني توجه إليه في حاجته، ومن عرف الكريم سأله، ومن عرف المعطي مد إليه يده :﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر: ٦٥] .

ومن عرف الرحمن استرحمه، ومن عرف الغفور استغفره، ومن عرف الهادي استهداه، ومن عرف الوهاب استوهبه، ومن عرف الرزاق طلب منه رزقه، ومن عرف القريب دعاه، ومن عرف المجيب وقف ببابه:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: ١٨٦] .

ومن عرف العظيم عظمه، وعظم كتابه، وعظم دينه، وعظم رسله، وعظم ثوابه، ففاز برضوانه وجنته:﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء: ٩٠] .

وتعظيم القلب للرب ناشئ عن معرفة الله بصفات جلاله وجماله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة: ٩٨] .

وأمر الله رسوله ﷺ أن يخبر العباد بقوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ – ٥٠] .

ومن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله عظمه وكبره، وأحبه ومجده، وحمده وشكره، وأطاع أمره، واجتنب نهيه، وخافه وهابه، وخشيه واتقاه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر: ٢٨] .

ومن عرف ربه الواحد الأحد أغناه عن كل أحد، ومن عرف الملك خضع له، ومن عرف القادر استغاث به، ومن عرف الوكيل توكل عليه، ومن عرف الجبار هابه، ومن عرف القهار خافه، ومن عرف العزيز ذل له، ومن عرف النصير استنصره: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس: ٣].

ومن عرف العفو اعتذر إليه، ومن عرف الحليم استقاله عثرته، ومن عرف التواب تاب إليه، ومن عرف الحكيم امتثل أمره، ومن عرف الكافي استغنى به، ومن عرف المستعان استعان به: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣] .

ومن عرف السميع دعاه، ومن عرف البصير استحى منه أن يعصيه في ملكه، ومن عرف العليم استحى منه أن يعصيه في خلوته، ومن عرف الخبير استحى منه أن يعصيه في سره: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٣ – ١٤].

ومن هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله هو الرب العظيم الذي يستحق التوحيد وحده، ويستحق التعظيم وحده: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس: ٣] .

وتعظيم الله عز وجل أعظم عبادات القلوب التي تثمر العبادات القلبية والبدنية وتحقق التوحيد الخالص، والإيمان الكامل، واليقين الصادق: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢] .

فمن عرف ربه الكبير توجه إليه وحده، ولم يلتفت إلى المخلوق الصغير، ومن عرف الملك لم يسأل العبيد، ومن عرف الغني لم يقف بباب الفقير، ومن عرف القوي لم يلتفت إلى الضعيف، ومن عرف القادر لم يستعن بالعاجز، ومن عرف الكريم لم يقف بباب البخيل، ومن عرف الخالق أخلص له العبادة،ولم يعبأ بجميع المخاليق: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٢].

ومن عرف ربه العظيم فر إليه من كل ما سواه: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠ - ٥١].

والعلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، هو أصل عبادات القلوب، والجوارح، فمن عرف الله وحده وكبره، وعظمه ومجده، وأحبه وحمده وشكره، ودعاه وسأله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩].

فاعرف نفسك، واعرف ربك، لتعبده بكمال الحب والتعظيم والذل له .

فمن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى، ومن عرف نفسه بالذلة عرف ربه بالعزة، ومن عرف نفسه بالموت عرف ربه بالحياة: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر: ٦٥].

ومن رحمة الله عز وجل بالإنسان أن خلقه ضعيفا، ليعبد ربه القوي، وخلقه فقيرا

ليقف بباب ربه الغني، وخلقه عاجزا، ليستعين بربه القادر، وخلقه جاهلا، ليطلب العلم من ربه العليم، وخلقه محتاجا ليقف بباب ربه الذي لا يحتاج، وخلقه مذنبا ليقف بباب ربه الغفار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥] .

إن مقصود الرب من خلقه تحصيل صفاته، وعبادته بموجب ذلك كما قال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف: ١٨٠] .

وتعظيم الرب، وتكبيره، وتمجيده، هو أعظم عبادات القلوب بعد التوحيد والإيمان، ولهذا أمرنا الله عز وجل بذكره كثيرا، ومن ذكر الله أطاعه ولم يعصه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾[الأحزاب: ٤١ – ٤٣] .

وقد أمر الله رسوله بذكر الله وتسبيحه، وحمده وتكبيره، في كل يوم وليلة أكثر من ستماءة مرة في جميع الأوقات والأحوال: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل: ٨] .

وتعظيم الرب وتكبيره هو شعار العبادات الكبار، كالصلاة، والصيام، والحج، والأذان، والإقامة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾[الإسراء: ١١١] .

وشرعت الأدعية والأذكار من أجل التذكير بالتوحيد، وعظمة الرب، وتفويض الأمور إليه، والتوكل عليه وحده: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

ومن عظم ربه عظم أمره وشعائره :﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الحج: ٣٢] .

وتعظيم الرب هو روح العبودية، فمن عرف ربه حقا عبده حقا، وعظمه حقا، وكبره حقا، ومجده حقا، وأحبه حقا، وخشيه حقا :﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

وكل من عصى الله جل جلاله، أو كفر بالله، أو أشرك بالله، فهو جاهل بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله:﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر: ٦٧].

ولن يعظم الله حقا، ولن يعبده حقا، ولن يكبره حقا، إلا من عرفه بأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾[نوح: ١٣ – ٢٠] .

فمن عرف ربه العظيم عظمه، وعظم أوامره، وعظم شعائره، وعظم حدوده، ومن عرف الكبير كبره، ومن عرف القوي لاذ بحماه، ومن عرف القادر استعان به، ومن عرف القهار خضع له، ومن عرف العزيز ذل له، ومن عرف الوكيل توكل عليه، ومن عرف الرزاق سأله، ومن عرف المعطي مد إليه يده، ومن عرف الرحمن رجاه، ومن عرف السميع البصير أطاعه ولم يعصه، ومن عرف العليم الخبير خاف منه :﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

٢ -فضائل تعظيم الله جل جلاله

الأولى : خشية الله في السر والعلن، ونيل المغفرة، وأعظم الثواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢] .

الثانية : المسارعة إلى الخيرات : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦١] .

الثالثة: تعظيم الرب، والإكثار من ذكره، والخوف منه، والانكسار بين يديه، والافتقار إليه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨] .

الرابعة : تعظيم أوامر الله وشعائره: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢] .

الخامسة : امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، طمعا في ثوابه، وخوفا من عقابه، وإجلالا لشأنه، وشكرا على نعمائه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

السادسة : أن من عرف الله عظمه وكبره وزاد إيمانه وزادت أعماله الصالحة، وغفرت ذنوبه، وزاد ثوابه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ – ٤].

السابعة : أن من عرف الله خافه، واتقاه، وتوكل عليه، ويسر أمره: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ – ٣] .

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤] .

٣- مظاهر عظمة الله جل جلاله

خلق الله عز وجل في هذا الكون المخلوقات العظيمة، والآيات العظيمة، لتدل على كمال عظمة الله وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

ولا بد للقلب أن يعرف مظاهر عظمة الله، حتى يعظم ربه، ويكبره، ويمجده.

وعظمة الله لاأول لها ولا آخر، ولابداية لها ولا نهاية، فهي صفة ذاتية لله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

فالله عظيم قبل أن يعظمه أحد، والله كبير قبل أن يكبره أحد، والله قادر قبل أن يستعين به أحد، والله خالق قبل أن يخلق أحدا، والله كريم قبل أن يسأله أحد، والله رحمن قبل أن يرحم أحدا، والله غفور قبل أن يغفر لأحد: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩].

والله محمود قبل أن يحمده أحد، والله شكور قبل أن يشكره أحد، والله تواب قبل أن يتوب على أحد، والله رزاق قبل أن يرزق أحدا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

والله جل جلاله هو السبوح قبل أن يسبحه أحد، وهو القدوس قبل أن يقدسه أحد: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ

﴿ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤ ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤].

كان الله جل جلاله ولم يكن شيء قبله ولا معه، ثم أراد أن يعرف، ليكبر ويعظم، ويحمد ويشكر، ويحب ويمجد، ويوحد ويعبد، فخلق السموات والأرض، وما فيهما وما عليهما، وما بينهما وما فوقهما: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢ ﴾ [الطلاق: ١٢] .

وإذا عرف الخلق ذلك آمنوا بالله، وكبروه، وأحبوه، وعبدوه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾ [يونس: ٣] .

كان الله عز وجل ولم تكن سماء ولا أرض ، ولا شمس ولا قمر، ولا نجوم ولا كواكب، ولا جبال ولا سهول، ولا بحار ولا أنهار.

كان الله جل جلاله ولم يكن ليل ولا نهار، ولا سحاب ولا ماء، ولا جماد ولا نبات، ولا إنسان ولا حيوان، ولا جان ولا ملك: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣ ﴾ [الحديد: ٣] .

كان الله جل جلاله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق جميع المخلوقات بقدرته، لتدل على كمال عظمته، وكمال قدرته، وكمال جلاله وجماله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢ ﴾ [الطلاق: ١٢] .

خلق السموات السبع، ثم أمرها فاستقلت، وخلق الأراضين السبع، ثم أمرها فاستقرت، وخلق الجبال العظيمة، ثم أمرها فرست، وخلق الرياح القوية، ثم أمرها فهبت، وخلق السحب، ثم أمرها فأمطرت، وخلق الأرض، ثم أمرها

بالإنبات فأنبتت: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٣ ﴾ [الزمر: ٦٢ – ٦٣] .

كان الله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق البحار فسالت، وخلق الأنهار فجرت، وخلق الأشجار ثم أمرها فأثمرت، وخلق العيون ثم أمرها فانفجرت، وخلق الزروع ثم أمرها فتكاثرت: ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧ ﴾ [الحج: ٥ – ٧] .

كان الله ولم يكن شيء قبله، خلق جميع المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي، وقهرها على ما أراد فأذعنت، وأمسكها بقدرته فبقيت: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١ ﴾ [فاطر: ٤١] .

كان الله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق جميع المخلوقات، لتشهد بوحدانيته، وتسبح بحمده، وتدل على عظمته، وتتصاغر لكبريائه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤٤ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وبعد خلق جميع المخلوقات خلق الله الإنسان، وجعله خليفة في الارض، وكرمه بكل ما في السموات والارض، ليعرف ربه العظيم، الخلاق، العليم، ويشكر ربه الكريم، ويحب ربه الرحمن، الرحيم، ويعبده وحده لا شريك له :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ۝٣٢

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢ – ٣٤] .

وقد سخر الله جميع ما في هذا الكون لخلقه تسخيرين :

تسخير تعريف لنؤمن به، وتسخير تكريم لنشكره : ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠] .

والرب الذي هذه أفعاله، هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ويستحق الحب وحده، ويستحق التكبير وحده: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢].

كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، فخلق جميع المخلوقات، ثم خلق الإنسان في أحسن تقويم، خلق فيه اللسان ثم أمره فتكلم، وخلق فيه الأذن ثم أمرها فسمعت، وخلق العين ثم أمرها فأبصرت، وخلق فيه العقل ثم أمره فعقل، وخلق فيه القلب ثم أمره فعرف، وخلق له الأرجل ثم أمرها فمشت، وخلق فيه الأيدي ثم أمرها فتحركت،وخلق فيه المعدة ثم أمرها فهضمت: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

ثم كرم الله هذا الإنسان بأنواع الكرامات، ليذكر ربه، ويشكر من خلقه ورزقه : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠] .

خلقه ربه العظيم في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، لأن ربه يريده خليفة في الأرض في الدنيا، يستقبل أوامر ربه، وينفذها على نفسه، ويبلغها إلى غيره.

ويريد منه في الآخرة ان يكون جليسه يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ – ٥٥].

وأعظم عبادات القلوب هي تعظيم الرب، ومحبته، والخوف منه، ورجاؤه، وحمده، وشكره، والافتقار إليه.

ومن عرف ربه العظيم عظّم أوامره وشعائره، وعبده وحده لا شريك له: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

والله جل جلاله هو الرب العظيم، والملك القدير، والإله الرحيم.

هو الرب العظيم الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلا، والأفعال الحميدة، والنعوت الجميلة، والخلق العظيم، والملك الكبير، والتدبير الحكيم، والعلم المحيط، والرحمة الواسعة، والفضل العظيم، والقدرة التامة، والقوة القاهرة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨].

هو العظيم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هو جل جلاله العظيم في علمه، يعلم ما كان وما يكون وما سيكون، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحج: ٧٠] .

هو وحده العليم الذي يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ذرات الرمال، ويعلم ما في البر والبحر والجو من المخلوقات، ويعلم الذرات، والمجرات، والحركات، والسكنات، والأصوات، والخطرات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[العنكبوت: ٦٢].

وهو السميع البصير العليم الخبير الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم الظاهر والباطن، لا تواري منه سماءٌ سماء، ولا أرضٌ أرضا، ولا جبلٌ ما في وعره، ولا بحرٌ ما في قعره: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[الأنعام: ٥٩].

وإذا عرف القلب هذا عظم ربه، وكبره، ومجده، وآمن به، ووحده، وعبده، وأطاعه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[يونس: ٣] .

هو العظيم في قوته، هو القوي الذي يمسك السماء أن تقع على الارض إلا بإذنه، القوي الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، القوي الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، القوي الذي ينصر أولياءه، ويخذل أعداءه، القوي الذي بيده الملك كله، وله الخلق كله، وبيده الأمر كله، القوي وحده، وكل ما سواه ضعيفٌ من العرش إلى أصغر ذرة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾[هود: ٦٦] .

هو جل جلاله القادر وحده لا شريك له، وكل ما سواه عاجز، هو العظيم في قدرته، قادرٌ على كل شيء، محيطٌ بكل شيء، قاهرٌ لكل شيء، لا يعجزه شيء، ولا يقف له شيء، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يغيب عنه شيء، ولا يخرج عن ملكه شيء :﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾[الملك: ١].

هو جل جلاله العظيم في ملكه العظيم: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾[فاطر: ١٣] .

فالله له ملك السموات والأرض، وله ملك ما في السموات والأرض، وله ملك ما بين السموات والأرض، وله ملك ما فوق السموات والأرض، وله ملك خزائن السموات والأرض، وله ملك غيب السموات والأرض، وله ملك جنود السموات والأرض، وله ملك مقاليد السموات والارض، وله ملك ميراث السموات والأرض، وله ملك العالم العلوي والعالم والسفلي، وله ملك عالم الغيب والشهادة، وله ملك الدنيا والآخرة:﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾[الملك: ١].

ومن هذا ملكه، وهذه قدرته، وتلك قوته، وذاك علمه، هو الرب الذي يستحق التعظيم، والتكبير، والعبادة، وحده لا شريك له:﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣] .

هو جل جلاله العظيم في وحدانيته، هو الواحد الأحد، القادر على كل أحد، الخالق لكل أحد، السميع لكل أحد، البصير بكل أحد، المحيط بكل أحد، العليم بكل أحد، الغني عن كل أحد، الواحد الأحد، الذي يحتاج إليه كل أحد: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾[البقرة: ١٦٣] .

هو الواحد الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، الواحد الأحد الذي ليس كمثله أحد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ – ٤].

وإذا عرف القلب ربه الواحد الأحد عظمه، وكبره، ووحده، واستغنى به عن كل أحد: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

هو الرب العظيم في خلقه، وإبداعه، وتصويره.

خلق العرش والكرسي، وخلق السموات والأرض، وخلق الشمس والقمر، وخلق الليل والنهار، وخلق الذرات والمجرات، وخلق الجماد والنبات، وخلق الطير والحيوان، وخلق الإنس والجن، وخلق الملائكة والروح.

وهو الخلاق العليم، خلق البر والبحر، وخلق الذكور والإناث، وخلق العالي والسافل، وخلق الكبير والصغير، وخلق الكثير والقليل، وخلق الألوان والطعوم، وخلق النور والظلمات، وخلق الدنيا والآخرة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر: ٦٢ – ٦٣].

والرب الذي هذا خلقه وإبداعه وتصويره، هو وحده الرب الذي يستحق التعظيم، والتكبير، والإجلال، وحده لا شريك له: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

وإذا عرف القلب ذلك امتلأ بالتوحيد والإيمان، وعظم ربه وكبره، وأحبه ومجده، وعبده وحده لا شريك له: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن

﴿لَهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾[الأنعام: ١٠١ – ١٠٢].

هو جل جلاله العظيم في غناه وكرمه، وإحسانه وعطائه، فكل النعم والخيرات من فيض جوده، دائم العطاء والإحسان، ويده سحاء الليل والنهار بالعطاء: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل: ٥٣].

هو الغني الكريم، خزائن كل شيء بيده، وله ملك كل شيء، يطعم جميع المخلوقات من رزقه، ولا ينقص مافي خزائنه مثقال ذرة: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾[الحجر: ٢١].

يطعم جميع خلقه، المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والانسان والحيوان، لكمال رحمته بعباده، وجميع مخلوقاته قعودٌ على موائد نعمه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾[لقمان: ٢٦].

هو الرب العظيم في رحمته، فرحمته وسعت كل شيء، وعم بفضله جميع من في ملكه: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾[غافر: ٧].

هو الرحمن الرحيم، الذي عم برحمته المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وخص برحمته وإحسانه المؤمنين يوم القيامة: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾[الأعراف: ١٥٦].

هو العظيم في رحمته وعطائه وإحسانه، يرزق كل حي، ويعطي على العمل القليل الأجر الكثير، ويعطي على الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف مضاعفة، إلى أضعاف كثيرة، ويؤتي من لدنه أجرا عظيما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾
[النساء: ٤٠] .

هو الرب العظيم في ملكه، العزيز في سلطانه، الجبار في قهره، الحكيم في تدبيره: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الحشر: ٢٣] .

هو الرب العظيم في أفعاله، يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وهو الحكيم العليم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾
[هود: ١٠٧].

هو الرب العظيم الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويخلق ويرزق، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾
[آل عمران: ٢٦ – ٢٧] .

هو العظيم في علوه، هو العلي الأعلى المتعال، هو العلي الأعلى على جميع مخلوقاته، العلي بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، المتعالي عن جميع النقائص والعيوب والآفات، وعن جميع صفات البشر: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٥] .

هو جل جلاله العظيم في عفوه، العظيم في مغفرته، العظيم في حلمه، العظيم في حكمه، العظيم في قهره، العظيم في لطفه، العظيم في إحسانه، العظيم في بره،

العظيم في شكره، العظيم في جلاله، العظيم في جماله: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر: ٦٥] .

والرب العظيم الذي هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله، وهذا ملكه وسلطانه، وهذا خلقه وأمره، وهذا إنعامه وإحسانه،هو الرب العظيم الذي يستحق أن يعظم وحده، ويكبر وحده، ويشكر وحده، ويعبد وحده، ويستحق وحده أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٢] .

وإذا عرف العبد هذه المعارف الإلهية العظيمة، امتلأ قلبه بنور التوحيد والإيمان، وعظم ربه وكبره، وأثنى عليه ومجده، وأحبه وحمده وشكره، وأخلص العبادة لله وحده لا شريك له: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥ – ١٧] .

٤ -الأسباب المعينة على تعظيم الله جل جلاله

الأول : العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله .

فمن عرف الله آمن به، ووحده، وعظمه، وكبره، وأحبه، ومجده، وحمده، وشكره، وخافه، ورجاه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩] .

الثاني : العلم بعظمة ملك الله وسلطانه، وعظمة نعمه وآلائه، وعظمة خلقه وأمره، وعظمة دينه وشرعه، وعظمة ثوابه وعقابه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

الثالث : النظر والتفكر في عظمة آيات الله الكونية في السموات والأرض: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٦ – ٨] .

وقال عز وجل : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١] .

فمن تفكر في ذلك امتلأ قلبه بتعظيم الله وتكبيره وتمجيده، وتحركت جوارحه بكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال، والأخلاق: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤] .

الرابع : التدبر والتفكر في عظمة آيات الله الشرعية وما فيها من الأخبار الصادقة،

والأحكام الحسنة، والوعد والوعيد، وحسن الثواب والعقاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد: ٢٤] .

الخامس : معرفة ما يجري في هذا الكون العظيم من الخلق والامر، والتدبير والتصريف، من ليل ونهار، وحر وبرد، وحياة وموت، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وأمن وخوف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف: ٥٤].

وإذا عرف القلب ذلك ذل لربه العظيم، وتصاغر لكبريائه، وسجد لعزته، وكبر ربه وعظمه، وخافه ورجاه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[السجدة: ١٥ – ١٧] .

السادس : دعاء الله عز وجل أن يُعلم العبد ما ينفعه، وينفعه بما علمه، ويزيده من فضله :﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[طه: ١١٤] .

فكل خير من عند الله، وكل علم من عند الله، وكل فضل من لدنه :﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[النساء: ١١٣].

٥ -جزاء تعظيم الرب جل جلاله

الأول: رضا الله عمن آمن به، وكبره، وعبده وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

الثاني : أن من عظَّم الله في قلبه، عَظُمَ في عين الله .

عنْ أَبي هُريرةَ، أَنَّ رسُولَ اللهَّ ﷺ قالَ: يقُولُ اللهَّ تعالى:" أَنا عِندَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وَأَنا مَعهُ إِذَا ذَكرَني، فَإِن ذَكرَني في نَفْسهِ، ذَكَرْتُهُ في نفسي، وإنْ ذَكرَني في ملإٍ، ذكَرتُهُ في ملأ خَيْرٍ منْهُمْ" متفق عليه (١)

الثالث : غفران الذنوب كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢] .

الرابع : دخول الجنة كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢] .

الخامس: الفوز بأعلى الدرجات كما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] .

السادس : الفوز بأعظم الثواب والنعيم كما قال سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥] .

اللهم ارزقنا كمال معرفتك، حتى نعبدك كأنا نراك، ولا نقف بباب أحد سواك.

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم(٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٧٥)

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الرابعة

عبادة حب الله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : منزلة حب الله عز وجل

الثاني : أنواع المحبة

الثالث : الأسباب الجالبة لحب الله عز وجل

الرابع : علامات حب العبد لربه

الخامس :

السادس : الذين يحبهم الله عز وجل

السابع : ثمرات حب العبد لربه.

العبادة الرابعة

عبادة حب الله عز وجل

١ - منزلة حب الله عز وجل

حب الله عز وجل ركن الإيمان الأعظم الذي لا يتم الإيمان إلا به، ومن لم يحب الله عز وجل فليس بمؤمن، وإذا زال حب الله من القلب زال منه الإيمان بالكلية .

وحب الله عز وجل أول الفرائض، وأعظم العبادات، وأصل كل العبادات : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾[البقرة: ١٦٥] .

وحب الله عز وجل روح الإيمان وروح الطاعات، وهو الدافع لكل عبادة وطاعة، بل كل أعمال القلوب،والجوارحثمرة من ثمرات حب الله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١ - ٢٢] .

وحب الله جل جلاله هو أساس حياة القلوب، ومن لم يحب ربه فقلبه ميت، وحب الله يثمر للقلب الطمأنينة والسكينة، وحب الله عز وجل أعظم نعيم في الدنيا والآخرة، فمن أحب الله آمن به، وسعد بقربه، وحلاوة مناجاته، وأحسن عبادته.

قال النبي ﷺ:«ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في

الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ» متفق عليه(١).

والناس في حب الله تعالى متفاوتون بحسب علمهم بأسماء الله وصفاته وأفعاله .

ومتفاوتون في أعمالهم بحسب تفاوتهم في حب الله تعالى، وهم متفاوتون في أجورهم ودرجاتهم بحسب تفاوتهم في إيمانهم وتقواهم :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

وهذه الأمة ثلاثة أصناف، تفاوتت أعمالهم ودرجاتهم بحسب حبهم لله عز وجل، كما قال سبحانه:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[فاطر: ٣٢ – ٣٣] .

وهؤلاء كلهم في الجنة: فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

فالسابق بالخيرات هم المقربون السابقون إلى امتثال أوامر الله ورسوله ﷺ،والمقتصدون هم الذين يفعلون الواجبات ويتركون المحرمات وهم أصحاب اليمين الأبرار، والظالمون لأنفسهم بالمعاصي، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا وهم المقصرون، وكل هؤلاء الأصناف الثلاثة في الجنة، ودرجاتهم بحسب أعمالهم .

ومحبة الله عز وجل فرض لازم على كل مؤمن، وهي أن يحب العبد ربه محبة توجب له محبة ما فرضه الله عليه، وبغض ما حرمه الله عليه .

ويحب رسوله ﷺ المبلغ عنه أمره ونهيه، وأن يقدم محبة الله على كل محبة، وأن

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٦)، وأخرجه مسلم برقم (43) .

يقدم محبة رسوله صلى الله عليه وسلم على محبة نفسه وأهله وماله .
وعن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » متفق عليه(١).

وتوجب له هذه المحبة محبة الأنبياء وأتباعهم، وبغض الكفار والفجار، والرضا والتسليم لجميع أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء: ٦٥] .
وهذه المحبة تستلزم ثلاثة أمور:
فعل الواجبات، وترك المحرمات، والاستسلام لأمر الله عز وجل .
فهذه درجة لازمة في الإيمان الواجب .
وأعلى من هذه الدرجة درجة السابقين المقربين، وهي محبة ما يحبه الله من نوافل الطاعات والعبادات والتقرب الى الله بها.
وكراهة ما يكرهه الله من أنواع المكروهات، والرضى بما يقدره الله من المصائب التي تؤلم النفس.
قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾[الواقعة: ١٠-١٢] .
وقال الله عز وجل في الحديث القدسي:«من عادى لي ولياً ... ما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أفضل من أداء ما افترضتُ عليْهِ، وما يزالُ يتقرَّبُ عبدي إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أحبَّه». أخرجه البخاري (٢)

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٥) واللفظ له ، ومسلم برقم (٤٤).
(٢)أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

٢ - أنواع المحبة

المحبة خمسة أنواع هي:

حب الله عز وجل.. والحب في الله.. والحب الفطري الطبيعي.. والحب لأجل الدنيا.. والمحبة الشركية .

فمحبة الله عز وجل هي أصل الإيمان والتوحيد ؛ فإذا امتلأ القلب بحب الله لم يبقَ فيه متسع لسواه .

وحب الله من لوازم كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وصرف العبادة لله وحده لا شريك له، لأنه الذي خلقنا، ورزقنا، وهدانا للإيمان، ويسر لنا الأعمال الصالحة، وأثابنا على ذلك الجنة: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل: ٥٣].

وقال عز وجل في الحديث القدسي :«أنا أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَن الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكتُهُ وشِرْكَهُ» . أخرجه مسلم (١)

وأما المحبة الطبيعية، فالمؤمن يحب الطيبات، ويكره الخبائث، وهذه المحبة فطرية، كمحبة الطعام والشراب الطيب، ومحبة الوالدين والأزواج والأولاد، والإخوان، والأصدقاء ونحو ذلك، وهذه محبة مباحة ومشروعة.

فهذه محبة فطر الله عليها القلوب ابتلاءً، ويجب على المؤمن ان يروضها حتى توافق الشرع، لأنها يمكن أن تتحول بالنية الصالحة من عادة الى عبادة يؤجر عليها العبد .

قال ﷺ: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّةِ، وإنَّما لِكُلِّ امرئٍ ما نوَى» .متفق عليه (٢)

وهذه المحبة الطبيعية إن أعانت على طاعة الله كانت طاعة مثلها، وإن ارتكب العبد المعاصي من أجلها صارت معصية مثلها .

وإذا زادت المحبة الطبيعية عن حدها انقلبت إلى معصية، كما قال سبحانه:

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٤)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[التوبة: ٢٤] .

وأما المحبة لأجل الدنيا فبعض الناس صارت موالاتهم ومودتهم لغيرهم لأجل ما عندهم من متاع الدنيا، وإن كانوا من أعداء الله ورسوله ودينه، وإن لم يكن عنده شيء من الدنيا احتقروه وعادوه وإن كان ولياً لله ولرسوله ﷺ .

وكل سبب ووسيلة وصلة كانت في الدنيا لغير الله ستنقطع يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾[البقرة: ١٦٦] .

وأما المحبة الشركية فهي محبة المخلوق كمحبة الخالق، سواءً كان هذا المخلوق صالحاً أو طالحاً، كمحبة أصحاب القبور كحب الله، وسؤالهم قضاء الحاجات، وشفاء المرضى، والنذر لهم، والاستغاثة بهم ...وهذا كله من الشرك الأكبر: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾[البقرة: ١٦٥] .

ومنها محبة الكبراء والرؤساء والكهان كحب الله، وطاعتهم في معصية الله، فيحلون لهم ما حرم الله، ويحرمون عليهم ما أحل الله، وهذا أصل الكفر .

ومنها موالاة الكافرين ومحبتهم لأجل كفرهم، أو على رغم كفرهم: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[آل عمران: ٢٨] .

فسبحان الرب الرحمن الرحيم الذي يتحبب إلى عباده بأنواع النعم، وهو الغني عنهم، وهم يتبغضون اليه بالمعاصي، و هم الفقراء إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥] .

ألا نحب من يكشف الكربات، ويقضي الحاجات، ويرزق الخلق، ويشفي المرضى، ويغيث المستغيث، ويجيب من دعاه، ويعطي من سأله :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] .

هو الحيي الستير الرحيم،يستحي من العبد حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر العبد نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم العبد نفسه :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ ﴾[البقرة: ١٤٣] .

وأما الحب في الله فهو من لوازم الإيمان، فالمؤمن يحب الأنبياء والرسل، ويحب دين الله، ويحب كتابه، ويحب الملائكة، ويحب المؤمنين، لأن الله يحبهم، وأمر سبحانه بحبهم .

والحب في الله، والبغض في الله، من لوازم الإيمان بالله، لأن من أحب الله أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى من والى محبوبه، وعادى من عادى محبوبه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه .

ويجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من أنواع الطاعات والعبادات والقربات، ومحبة من يحبهم الله من أهل طاعته من الأنبياء والرسل، وحب أصحاب النبي ﷺ الذين مات وهو راض عنهم، وحب الملائكة الذين يقدسون ربهم، ويستغفرون للمؤمنين، وحب المؤمنين الذين آمنوا بالله وعبدوه وحده لا شريك له، وحب الأزمنة الفاضلة مثل شهر رمضان، وليلة القدر، ويوم عرفة، والعشر الأوائل من شهر ذي الحجة وأمثالها، ويحب الأمكنة الفاضلة كمكة والمدينة والمسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى وسائر المساجد، و جبل أُحد ونحو ذلك .

قال النبي ﷺ:(هذه طابة، وهذا أُحُدٌ، وَهو جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ.) . متفق عليه [1]

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٤٨١)، ومسلم برقم (١٣٩٢) .

٣- الأسباب الجالبة لحب الله تعالى

الأسباب الجالبة لحب الله تعالى كثيرة، ومنها دوام ذكر الله عز وجل على كل حال، بالقلب واللسان والجوارح: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾[الأحزاب: ٤١ – ٤٣] .

ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله مشاهدة القلب لأسماء الله الحسنى، ومشاهدة عظمة الله وجلاله وجبروته، ومشاهدة بر الله تعالى وإحسانه إلى خلقه، ورؤية نعمه الظاهرة والباطنة: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٣] .

وقراءة القرآن بالتدبر، والتوبة، والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾[النساء:٨٢].

ومنها إيثار ما يحبه الرب على ما تحبه النفس، والانكسار بين يدي الرب، والتلذذ بمناجاته وقت نزول الله الى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، واجتناب كل ما يحول بين القلب وربه، ولزوم الاستقامة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت: ٣٠ – ٣٢] .

إلى غير ذلك من الأسباب الجالبة لمحبة الله عز وجل .

٤ - علامات حب العبد لربه عز وجل

لمحبة العبد لربه علامات منها:

الأولى: أن يحب العبد ما يحبه الله عز وجل، ويكره ما يكرهه الله عز وجل .

وأن يبادر إلى امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه .

وأن يسارع إلى اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأعماله وأخلاقه .

وأن يحب الصحابة والمؤمنين، ويبغض الكافرين والمشركين .

وأن يكثر من ذكر الله، وحمده، واستغفاره، وتسبيحه، وتقديسه، وتكبيرة .

وأن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وأن يجد اللذة والأنس عند مناجاة الله تعالى، وأن يرضى بقضاء الله وقدره خيره وشره، وأن يفرح بالطاعات، لأن الله يحبها، وأن يكره المعاصي، لأن الله يكرهها .

وأن يبذل ما يستطيع من أجل رضوان الله، وأن يبذل كل شيء من أجل إعلاء كلمة الله، وإبلاغ دينه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥] .

الثانية: أن يرغب في الآخرة، ويزهد في الدنيا، ويكثر من التوبة، ويكثر من ذكر الموت والآخرة، وأن يشتاق الى لقاء ربه، ويسارع إلى كل عمل صالح يقربه إلى ربه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] .

وإذا غُرست شجرة المحبة في قلب المؤمن، وسقاها بماء الإخلاص، ومتابعة الرسول ﷺ،أثمرت له أنواع العبادات والطاعات والقربات، وآتت أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا،بالإقبالعليامتثالأوامراللهفيكلحال،والمسارعةإليطاعتهفي كل أمر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا

فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[إبراهيم: ٢٤ – ٢٥] .

الثالثة: من علامات حب العبد لربه أن يضحي بكل ما يستطيع من أجل رضوان الله عز وجل، وإبلاغ دينه، وتعليم شرعه، في مشارق الأرض ومغاربها :﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجرات: ١٥] .

فهذا المحب لربه حقا، فهو يضحي بماله في سبيل الله يبتغي غنىً يدوم، ويضحي برئاسته من أجل الله يبتغي ملكا يدوم، ويضحي بوقته يبتغي عمرًا يدوم، ويضحي براحته يبتغي راحة تدوم، ويضحي بنفسه يبتغي حياة تدوم، ويضحي بترك أهله وأولاده يبتغي جوار رب العالمين في جنات النعيم: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة: ٧١ – ٧٢] .

الرابعة: من علامات حب العبد لربه خشية الله في كل حال.

فالمؤمن يخاف ألا تقبل حسناته، ويخاف من عاقبة ذنوبه، ويخاف من عظمة ربه، ويخاف من الحساب يوم القيامة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦١] .

الخامسة: أن يرضى العبد بقضاء الله وقدره مهما كان حلواً أو مراً، فاختيار الله للعبد خير من اختيار العبد :﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١] .

وقال النبي ﷺ:(عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له). أخرجه مسلم (١)

والعبد مأمور أن يسأل ربه العافية، فإذا نزل به البلاء رضي به .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

وحب الله عز وجل أعظم ثمرات معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله، لأنه يثمر أنواع العبوديات: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

وأعلى درجات العبادة دوامها، فالعبادات القلبية ليس لها وقت محدود لأدائها كعبادات الجوارح، بل هي دائمة في جميع الأوقات، فليست كالصلاة تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم، وليست كالصيام يبدأ من الفجر إلى الغروب، وليست كالحج له أشهر معدودة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾[الأحزاب: ٤١ – ٤٣] .

فعبادات القلوب تستغرق كل عمر الإنسان، وكل أوقات المسلم .

فالمؤمن يحب الله في كل أوقاته، ويتوكل على الله في كل أوقاته، ويعظم الله في كل أوقاته، ويخاف الله ويرجوه في كل أوقاته .

وليس الشأن أن تحب الله فقط، لأنه غمرك بنعمه التي لاتعد ولا تحصى، بل الشأن كل الشأن أن يحبك الله، ولن يحبك الله إلا إذا آمنت به، وعبدته وحده لا

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٩).

شريك له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾[المائدة: ٥٤] .

ومن أحبه الله رضي عنه، وأسعده في الدنيا، وأدخله الجنة في الآخرة .

وأعظم ما يوصل العبد إلى محبة الله أمران :

الأول: الولاية، وهي القرب من الله، ومحبته، وعبادته، والرضا عنه، والثناء عليه،وحمده،وشكره:﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ ﴾[يونس: ٦٢ – ٦٤] .

والولاية أولها الإيمان، وسبيلها الطاعات، وآيتها التقوى، وثمراتها الرضوان ودخول الجنة :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨ ﴾[البينة: ٧ – ٨].

الثاني: اتباع الرسول ﷺ في كل ما جاء به من ربه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ ﴾[آل عمران: ٣١] .

٥ - علامات حب الله للعبد

من علامات حب الله للعبد:

الأولى: أن يحبب الله لعبده الإيمان، ويزينه في قلبه، ويُكره إليه الكفر والفسوق والعصيان: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧ - ٨].

الثانية: أن يستعمله الله عز وجل في الاستكثار من أنواع الأعمال الصالحة، وأعمال البر والتقوى والإحسان: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

الثالثة: أن يجُنب اللهُ عبدَه الدنيا، والتوسع فيها، حتى لا ينشغل بغير ذكر الله، والاستعداد للآخرة: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

الرابعة: أن يوفقه الله للفقه في الدين، وييسر له الطاعة كلما هم بها، ويعسر عليه المعصية كلما هم بها: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

الخامسة: أن يوفق الله عز وجل المؤمن لكثرة ذكره، وحمده، وشكره، وحسن عبادته، ويعينه على ذلك: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

السادسة: أن يوفق الله عز وجل عبده لكثرة التوبة والاستغفار، من جميع الذنوب الظاهرة والخفية، والمعاصي القلبية والبدنية: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩].

السابعة: أن يرزقه الله حسن الخاتمة، فيلقى ربه على عمل صالح يرضى به عنه ربه، والله سبحانه حكيم عليم يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، ولكنه لا

يعطي الدين إلا من يحب: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات: ١٧] .

فإذا رأيت ربك يعطي الدنيا للعبد رغم معاصيه فاعلم أنه استدراج، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، وإذا أخذه لم يفلته: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام: ٤٤ – ٤٥] .

وقال عز وجل: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة: ٥٥] .

والله سبحانه أعطى الدنيا والدين لبعض خواص خلقه، لأنه علم من قلوبهم القوة على اتباع أمره، والإنفاق في سبيله، فجعلوا ما أعطاهم الله من الدنيا سلمًا لنيل الدرجات العلا في الجنة :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

وإذا أحب الله عبدًا أحبه أهل السماء والارض: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾[مريم: ٩٦] .

وقال النبي ﷺ: (إِنَّ اللهَّ إذا أَحبَّ عَبْدًا دعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللهَّ يحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ) . متفق عليه (١)

الثامنة: من علامات حب الله للعبد الشعور بحلاوة الإيمان .

وحلاوة الإيمان هي التلذذ والأنس بفعل الطاعات، وتحمل المشاق في سبيل الله، وحلاوة الايمان هي الفرح والسرور الذي يجده المؤمن في قلبه بعد كل طاعة من عبادة، أو دعوة، أو تعليم، أو إحسان إلى الخلق : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٩)، ومسلم برقم (٢٦٣٧) .

قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[الرعد: ٢٨ –٢٩] .

ومن مظاهر حلاوة الإيمان الفرح بعد كل طاعة :﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس: ٥٨] .

وقال النبي ﷺ:(للصائم فرحتان فرحه عند فطره، وفرحه عند لقاء ربه)متفق عليه [١] فرح عند فطره بإتمام الطاعة إلى نهايتها، وفرحة عند لقاء ربه برضوانه ودخول جنته، وهذه الفرحة العظيمة لا تدانيها فرحة التجار بأرباحهم، ولا فرحة أهل الشهوات بشهواتهم، ولا فرحة أهل المناصب بمناصبهم .

ولا تحصل حلاوة الايمان إلا بثلاثة شروط :

قال النبي ﷺ:(ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ : أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبُّ إليه مِمَّا سِواهُما ، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لله ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقى في النارِ) متفق عليه [٢]

والمرء مع من أحب، فمن أحب المؤمنين حشر معهم، ومن أحب الكافرين حشر معهم .

وسئل النبي ﷺ عن المرء يحب القوم ولما يلحق بهم،فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) .متفق عليه [٣].

وأعظم ما يحب المؤمن هو ربه الذي خلقه وصوره، ورزقه وهداه: ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥] .

ومن أحب الله كان الله معه، يحفظه، ويرعاه، ويكرمه في الدنيا، ويدخله الجنة في الآخرة، ويجعله بالقرب منه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٩٠٤)، ومسلم برقم (١١٥١).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٦)، ومسلم برقم (٤٣).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦١٦٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٠).

فالمؤمِنُ في الجنة أقرب ما يكون إلى الله، لأنه كان في الدنيا يحب الله، ويعبد الله وحده لا شريك له، وهو كذلك جار لرسول الله ﷺ في الجنة، لأنه كان يحب رسول الله ﷺ، ويعمل بشرعه، وهو كذلك مع المؤمنين في الجنة، لأنه كان معهم في الدنيا بالإيمان والأعمال الصالحة .

ومن صدق في حبه لله ولرسوله وللمؤمنين، كان في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[النساء: ٦٩ – ٧٠] .

وكل أولئك في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

اللهم إنا نشهدك، ونشهد ملائكتك، ونشهد جميع خلقك، أننا نحبك، ونحب أنبياءك ورسلك، ونحب كل من آمن بك من الجن والإنس، فاهدنا لكل ما تحبه و ترضاه، وأحسن ختامنا، وتوفنا وأنت راض عنا، يا ارحم الراحمين .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

وحب الرسول ﷺ من اتباعه، وطاعته من اتباعه، وتوقيره من اتباعه، ونصرة دينه من اتباعه، والعمل بشرعه من اتباعه، وتصديقه من اتباعه: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٨] .

ولا يكمل إيمان العبد حتى يكون حب رسول الله ﷺ في قلبه أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين .

قال النبي ﷺ: (لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِهِ، ووالدِهِ، والناسِ أجمعينَ) متفق عليه [١]

وحب الله عز وجل يقتضي الإيمان به، وتوحيده، وعبادته وحده لا شريك له،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤).

والتذلل لله وحده: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣].

وحب الرسول ﷺ حب في الله، لأن الله هو الذي أمرنا بحبه، وتوقيره، واتباعه، وكمال حبه لله عز وجل، وكمال حب الله جل جلاله له: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٨ – ٩].

ونحن نحب رسول الله ﷺ، لأن حبه واتباعه وسيلة لحب الله لنا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

ونحبه ﷺ لأنه أحسن الناس خَلقًا وخُلقًا، وأحسنهم عبادة لله، وأكملهم تعظيماً لربه، وأعظمهم رحمة بالناس، وللإحسان إلينا بإبلاغنا هذا الدين الذي ننال به رضوان الله والجنة، فهو كما قال عنه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

وقال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ونحب جميع أنبياء الله ورسله، لأنهم رسل الله، ولأنهم عرفوا الناس بربهم وبالطريق الموصل إليه، وما للناس بعد القدوم عليه، ولأنهم أرحم الخلق بالخلق، وأحرص الناس على هداية الخلق، ولأنهم الذين تعبوا من أجل أن يسعد الناس في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٦ - الذين يحبهم الله عز وجل

والذين يحبهم الله عز وجل هم أهل الصفات الإيمانية، وهم الذين اشتراهم الله عز وجل، والذين ذكر الله صفاتهم بقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة: ١١٢].

فالله عز وجل يحب المؤمنين، ويحب الصادقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المتقين، ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين، ويحب المحسنين، ويحب المقسطين، ويحب المجاهدين في سبيل الله، ويحب المتوكلين على الله، ومن أحبه الله أسعده في الدنيا والآخرة، وغفر ذنوبه، وأجزل له المثوبة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأعظم صفات من يحبهم الله عز وجل:

الأولى: إن الله يحبهم ويحبونه، فهم يحبون ربهم لكمال ذاته، وكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، وكمال إنعامه وإحسانه، و هو يحبهم لكمال توحيدهم، وايمانهم، وتقواهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٥].

الثانية: أنهم أذلة على المؤمنين، فهم يحبون من يحب الله، ويرحمونهم، ويعطفون عليهم، ويواسونهم، ويرفقون بهم، ويلينون لهم :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

الثالثة: أنهم أعزة على الكافرين، فأثمر حبهم لله عز وجل حب المؤمنين، وبغض الكافرين، فهم يبغضون من يبغض الله من الكافرين، لكفرهم بالله العظيم، ومبارزته بالمعاصي، وصدهم عن سبيل الله، وإصرارهم على الكفر .

فالكفار هؤلاء هم أعداء الله، ورسوله، والمؤمنين، ووجب بغضهم وجهادهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾[التوبة: ٧٣] .

الرابعة: أنهم يجاهدون في سبيل الله، حتى يكون الدين كله لله، فدفعهم حبهم لله عز وجل إلى دعوة الناس للإيمان بالله، وحبه، والدخول في دينه، وجاهدوا في سبيل الله بالقرآن واللسان والسلاح، ليرفعوا راية التوحيد والإيمان في أنحاء الأرض، ويزيلوا راية الكفر والشرك من على الأرض، ثم الناس بعد ذلك بالخيار: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٦].

فكم يحب الله عز وجل من آمن به، وجاهد في سبيله، وكم يحب من يكون سببا لتوبة الناس إليه، وحبهم له :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

الخامسة: أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، لأن حبهم لله أنساهم ما سوى الله، فلم يلتفتوا إليه، ولم يبالوا بمن يلومهم في حب الله والجهاد في سبيله، فكلهم دائم الذكر لربه، شديد المراقبة لله، لا تأخذه في الله لومة لائم .

فهؤلاء لم تمنعهم رهبة الناس، والخوف منهم، من الصدع بالحق، والثبات عليه، لأنهم يعرفون أن ذلك لا يقرب من أجل، ولا يمنع من رزق: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ ﴾[المائدة: ٥٤ – ٥٥] .

٧- ثمرات حب العبد لربه

إذا عرف العبد ربه أحبه، وشمر إلى طاعته، وبذل كل شيء من أجل رضاه، ومن أحب الله سارع إلى أنواع عبادته، واجتهد في امتثال أوامره، وإن فتر الناس عن عبادته: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤] .

ومن أحب الله استيقظ قبل الناس، وسار الى الله قبلهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[الذاريات: ١٥ – ١٨] .

ومحبة الله تدفع العبد إلى طاعة الله، وتمنعه من أن يعصيه، حياءً منه، وإجلا لا له كما هي حال الأنبياء: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء: ٩٠] .

ومحبة الله عز وجل ثمرة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله .

فمن عرف الله أحبه، ومجده، وحمده، وشكره، وآمن به، ووحده: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

ومحبة الله سبب لدخول جنة الدنيا، فيدعوه حبه لربه إلى التقرب إليه بالنوافل بعد الفرائض، والأنس بمناجاته، وهذه جنة الدنيا، فمن دخلها أدخله الله جنة الآخرة: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥ – ١٧] .

ومحبة الله تثمر الإكثار من ذكره، وحسن عبادته، والفوز بجنته، ورضوانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢] .

وقال عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥] .

اللهم ارزقنا حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يقربنا إلى حبك .

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الخامسة

عبادة الخوف من الله جل جلاله

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: منزلة الخوف من الله عز وجل.

الثاني: أقسام الخوف .

الثالث: الأسباب الجالبة لخوف الله عز وجل.

الرابع: أنواع الخوف من الله عز وجل.

الخامس: ثمرات الخوف من الله عز وجل.

السادس: جزاء الخوف من الله عز وجل.

العبادة الخامسة

عبادة الخوف من الله عز وجل

١ - منزلة الخوف من الله عز وجل

الخوف من الله عز وجل من العبادات القلبية العظيمة .

والخوف هو وَجَلُ القلب وخوفه بسبب توقّع عقاب الله في المستقبل، على ما اقترف العبد من المعاصي :﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن: ٤٦] .

والخوف من الله عز وجل هو مقتضى الإيمان بأسماء الله وصفاته وأفعاله، فالخوف أثرٌ من آثار الإيمان بأسماء الله القوي، القادر، القاهر، القهّار، الملك، العزيز، الجبّار، المتكبّر، العليم ، الخبير، السميع، البصير، وغيرها من الأسماء الحسنى:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف: ١٨٠] .

فالله هو القوي الذي لا يقف له شيء، ولا يمتنع عليه شيء، وهو القادر الذي لا يعجزه شيء، وهو القاهر لكل ما سواه، وهو القهّار الذي قهر كل شيء على ما أراد:﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾[الزمر: ٤] .

وهو العزيز في مُلكهِ وسُلطانهِ، وهو الجبّار الذي أذلّ الجبابرة ودمرهم، الجبّار الذي يَجبُرُ قلوب المنكسرين من عباده، وهو الملك الذي بيده الملك كله، وبيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، وهو الكبير الذي لا أكبر منه، المتكبّر عن جميع صفات النقص والعيب والعجز، وعن جميع صفات الخلق: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[الشورى: ١١] .

وهو العليم الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع البصير الذي يسمع كلّ صوت، ويُبصر كلّ ذرةٍ ومجرة: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤].

والرب الذي هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله، وهذه عظمته وجلاله، وهذه قوته وقدرته؛ هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأن يُخافَ وحده، وأن يُخشى وحده: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

والخوف من الله جل جلاله، والخشية لله، من أعظم عبادات القلوب التى لا يصحُّ الإيمان إلا بهما، ولا تُقبل العبادة إلا بهما: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فالخوف من الله شرطٌ لصحة الإيمان، وصحة الأعمال الصالحة: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٩ – ٥٠].

ومتى زاد العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله زاد الإيمان بالله، وزاد الخوف من الله، وزادت الخشية لله، وزادت طاعة الله، وقلّت معاصيه، وزاد ثوابه من ربه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

ومتى قلّ خوف العبد من الله، نَقصَ إيمانه، وقلّت طاعاته، وكثُرت معاصيه وزادت عقوباته: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[محمد: ١٩] .

فالخوف من عبادات القلب العظيمة، ولا يقبل الله عبادةً خَلَتْ من الخوف من الله، ومن عبد الله بغير خوف رُدَّت عليه عبادته، لأنه ليس بمؤمن: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾[آل عمران: ١٧٥] .

والخوف من الله جل جلاله عبادة الملائكة، والأنبياء، والمرسلين، والمؤمنين.

قال الله عز وجل عن خوف الملائكة: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾[النحل: ٤٩ – ٥٠] .

وقال سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾[الرعد: ١٣] .

وقال عز وجل عن خوف الملائكة: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾[الأنبياء: ٢٨] .

وقال عز وجل عن خوف الأنبياء والمرسلين: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء: ٩٠].

وقال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] .

وقال عن خوف نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾ [الزمر: ١٣].

وقال عز وجل عن خوف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة: ١٥ – ١٧].

وزوال الخوف من قلب العبد يتضمن الأمن من مكر الله، ومن كان كذلك فليس بمؤمن: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

وقد أمر الله عز وجل بالخوف منه وحده، ونهى عن الخوف من غيره، بقوله: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران: ١٧٥] .

والله وحده بيده مقاليد كلّ شيء، وغيره ليس بيده شيء، فيجب أن يُخافَ الله وحده، وأن يُعبد الله وحده، لما له من الأسماء الحسنى، والصفات العُلا، والأفعال الكبرى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾ [الإسراء: ٥٦ – ٥٧] .

ومن كان الله وليُّه حفظه وكفاه من كل ما سواه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٦) ﴾ [الزمر: ٣٦].

والناس متفاوتون في الخوف من الله تعالى بحسب علمهم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله .

فمن الناس من يخاف الله، ويخاف من عقوبته، ويرجو رحمته، وهؤلاء في أعلى الدرجات: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٥ – ١٧].

ومنهم من يمنعه خوفه من الله من فعل المحرّمات، ومنهم من يدفعه خوفه من الله إلى فعل الواجبات، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: ٣٢].

وهؤلاء كلّهم في الجنّة: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾ [فاطر: ٣٣ – ٣٤].

ومن الناس من يخاف الناس أكثر من خوفه من الله، فيُرضي أعداء الله بسخط الله، حتى يأمن مكرهم وأذاهم، فيكون جزاؤه الخوف الشديد، والفزع في الدنيا والآخرة: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال عز وجل: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء: ٢٢].

٢ - أقسام الخوف

أقسام الخوف أربعة:

الأول: الخوف من الله عز وجل:

وهذا أعظم أنواع الخوف وهو شرطٌ لصحة الإيمان، وقبول الأعمال الصالحة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[الرحمن: ٤٦] .

وهذا الخوف يستلزم الإسراع إلى طاعة الله بكمال الحبّ والتعظيم والذلّ لله عز وجل، والفرار من معصية الله، ويستلزم عدم الأمن من مكر الله، وعدم القنوط أواليأس من رحمة الله، لأن اليأس من رحمة الله سوءُ ظنٍّ بالله، وقطعُ الرجاء في الله جهلٌ بسعة رحمةِ الله .

فالمؤمن يجمع في عبادة الله بين الخوف والرجاء، ويُستحبّ أن يُغلّب الخوف على الرجاء حال الصحة والقوة، وأن يُغلّب الرجاء على الخوف حال مرض العبد، واقتراب أجله، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام:﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

الثاني: الخوف المحرّم:

وهو أن يخاف العبد من أذى بعض النّاس، فيترك ما يجب عليه من الواجبات، أو يفعل ما يَحرُمُ عليه من المحرّمات، خوفا من الناس، والواجب على العبد أن يُرضي الله عز وجل، ولو سَخِطَ الناس عليه، ويَحرمُ عليه إرضاء الناس بسَخط الله:﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[النساء: ١٤٢].

والمنافق يُرضي الناس ويوافقهم في الظاهر، ويُسخطُ ربه في الباطن: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[التوبة: ٦٢] .

وقال النبيﷺ: "منِ التمسَ رضا اللهِ بسَخطِ النَّاسِ رضيَ الله تعالى عنْه وأرضَى

عَنْه النَّاسِ، ومَنِ التمسَ رضا النَّاسِ بسخطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَليهِ وأسخطَ عليه النَّاسِ". أخرجه الترمذي(١) .

الثالث: الخوف الشِّركي:

وهو أن تجعل لله ندًّا تخافه كما تخاف الله، كأن يخافَ العبد صاحب القبر أن يغضب عليه إذا ترك تعظيمه، أو يخاف من صنم أن يصيبه بما يكره إذا ترك ما يرضيه، أو يخاف من طاغوت أن يؤذيه، فيداهنه على حساب دينه، فيطيعه فيما أحلّ وحرّم على عكس مُراد الله، وهذا كله من الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: ٧٢].

الرابع :الخوف الطبيعي:

وهو أن يخاف الإنسان من أسدٍ أو عدوٍ أو مرضٍ، أو يخاف من الغرق أو النار، و أمثال ذلك، وهذا خوف فطري مباح، كما قال الله مخُبرًا عن موسى وهارون عند لقاء فرعون: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾[طه: ٤٥ –٤٦].

وهذا الخوف إذا استقر في القلب، ثم أدّى لفعل محُرّم كان محُرّمًا؛ كأن يفرّ من الزحف ومعه ما يكفي من السلاح .

وهذا الخوف يُذهب اليقين، وحُسن التوكل على الله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

فأذهبَ هذا التوكل على الله من المؤمنين كل خوفٍ فيقلوبهم:﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾[آل عمران: ١٧٤ – ١٧٥] .

---

(١)صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٤)، وابن حبان برقم (٢٧٧) .

٣- الأسباب الجالبة لخوف الله عز وجل

الأول: أن يعلم العبد أن الله هو الملك العزيز الجبار، العليم بكل بشيء، القادر الذي لا يُعجزه شيء، ولا يخفى عليه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يقف له شيء، ومَنْ هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله فيجب على العباد أن يخافوه ويخشوه ويعبدوه بموجب ذلك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨].

الثاني: أن يخاف العبد من وقوفه بين يدي ربه العظيم للحساب، ويتذكر ذلك الموقف، ويستعدّ له بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، والتوبة إلى الله عز وجل: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾[الغاشية: ٢٥ – ٢٦] .

وقال عز وجل: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الأنبياء: ٤٧].

الثالث: أن يخاف مقام ربه العظيم فلا يُعصيه في ملكه، ولا يعصيه وهو يتقلّب في نعمه العظيمة: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[الرحمن: ٤٦] .

الرابع: أن يخاف العبد من عقاب الله وعذابه يوم القيامة، كما قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾[الإنسان: ١٠ – ١٢] .

وقال عز وجل لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ١٣] .

وقال الله عن الكفار: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾[الزمر: ١٦] .

الخامس: أن يخاف المؤمن من الخزي يوم القيامة، والطرد من رحمة الله، ودخول النار، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء: ٨٧ – ٨٩] .

وعبادة الله عز وجل لا بد أن تكون مقرونةً بالحب لله، والتعظيم له، والذل له، والخوف منه، والرجاء له، والافتقار إليه، وتلك عبادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء: ٩٠].

السادس: أن يسأل المؤمن ربه أن يرزقه الخوف منه، فالله لا يرد سائلاً، ولا يخيب مؤملاً: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر: ٦٠].

السابع: أن يتفكر العبد في عظمة خلق الآيات الكونية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾[ق: ٦ – ٨].

الثامن: أن يتفكر العبد في عظمة الآيات القرآنية، وما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والقصص النافعة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص: ٢٩].

٤ - أنواع الخوف من الله عز وجل

أنواع الخوف من الله ثلاثة وهي:
الخشيةُلله .. والوجلُ منه .. والرهبةُ منه.

وخوف الله عز وجل من أجلّ العبادات، وهو المُحرِّك للعبد لطاعة مولاه، واجتناب معاصيه، فمن خاف الله أطاعه ولم يعصه، خوفًا من عظمته وبطشه، وخوفًا من وعيده لمن أقام على مخالفته، وخوفًا من الخِزي والفضيحة يوم الحساب.

والخشية لله عز وجل هي خوف العلماء، فهم أعلم الناس برب الناس، وأشدهم خشيةً له: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

والوجلُ من الله هو خوف الطائعين، فهم أعلم بعيوب أعمالهم، كم كان فيها من العُجْبِ، والرياء، والمنّ، ورؤية النفس، وخلاف السنّة، والتقصير، والغفلة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ – ٤] .

فقلوبهم على وجل، هل يقبل الله أعمالهم على نقصِها، فإن قبلها الله فبكرمه، وإن ردّها فلعدله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[المؤمنون: ٦٠ – ٦١] .

والرهبة من الله هي خوف المسرفين، فمن أفاق من جنايته وجرمه، فرّ إلى ربه تائبًا نادمًا على ما بارز به ربَّه، فلم يجد أرحم من الله يرحمه، ولم يجد أقوى من الله يحتمى به، ويلجأ إليه، فإذا هو ربه الذي فرَّ منه، وإذا به كلما فرَّ منه فرَّ إليه، فلا ملجأ ولامنجى من الله إلا إليه، وإذا هو كلما هرب من عذابه اقترب من

رحمته وثوابه، وكلما ابتعد من سخطه دنا من رضاه، فآب إليه، ورجع يطلب رضاه، ويمتثل أوامره، فأكرمه الله بقبول توبته، ومضاعفة ثوابه، ودخول جنته: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عز وجل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

والخشية هي: خوفٌ مقترنٌ بعلم ومعرفة، وخوفٌ مقترن بتعظيم الله ومحبته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلم بجلال الله وقدرته يُثمر خشوع القلب، وتعظيم الرب، والانكسار بين يديه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

والعلماء هم ورثة الأنبياء، وهم أعرف الناس بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكمال عظمته وقدرته وكبريائه، فهم يعلمون أن الله جل جلاله إذا غضب لا يقوم لغضبه شيء، وإذا أخذ أخذ أخذ عزيزٍ مقتدر: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وكلما زاد علم العبد بربه وأسمائه وصفاته وأفعاله ازداد تعظيمًا له، وخشيةً له وخوفًا منه، وانكسارًا بين يديه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

فالعالم بعظمة ربه يُشفق على نفسه وأهله من عذاب الله، ومن موقفه يوم القيامة بين يدي الله، فيسارع إلى كل ما يحبه الله ويرضاه، ويحذر من كل ما يُسخِط ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦١].

وكل علمٍ لم يُورِث خشية الله في قلب العبد، فهو وبالٌ على صاحبه يوم القيامة، فليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم ما أثمر خشيةَ الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨] .

فالعلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله هو الذي يُورِث حُبّ الله، وتعظيم الله، وخشية الله، والخوف من الله، وامتثال اوامر الله، واجتناب نواهيه :﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢ – ٤].

وقد حذّر الله عباده المؤمنين أن يخشوا الكفار والظلمة، وأن لا يتركوا الجهاد في سبيل الله خوفًا منهم: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة: ١٣] .

وثمرات خشية الله عز وجل تدفع العبد إلى الاجتهاد في الطاعات، والمسارعة إلى أنواع العبادات والقُرُبات، فأكثر الناس خشيةً لله أكثرهم له طاعة، وأعظمهم له حبًا، وأدومهم له ذكرًا، وأكثرهم له استغفارًا، لأن خشية الله قد أحرقت مواطن الشهوات في قلوبهم، وأغلقت أبواب الهوى عن نفوسهم، ودفعتهم إلى تحقيق مراد ربهم:﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد: ١٩] .

والعلماء هم أخشى الناس لله، وأتقاهم له، وخشيةُ الله سبيل الفوز والفلاح يوم القيامة:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢] .

وخشية الله سببٌ لمغفرة الله، وحصول الأجر العظيم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[الملك: ١٢].

وخشية الله سببٌ لرضوان الربّ جل جلاله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾[البينة: ٧ – ٨] .

وخشيةُ الله سببٌ لإتمام نِعَمِ الله على العبد:﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٠ ﴾[البقرة: ١٥٠] .

ومحاسبة النفس، ومراقبة الله، من أعظم ثمرات الخوف من الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ ﴾ [الحشر: ١٨] .

وقوة الخوف من الله جل جلاله ناتجةٌ عن قوة العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بعيوب النفس وتقصيرها، والعلم بعقاب الله للمعرضين عنه، والعلم بشدة عذاب النار يوم القيامة: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ ﴾[فاطر: ٢٨] .

وقالﷺ: "لو تعلَمُون ما أعلمْ، لَضَحِكتُم قليلًا ولبَكيْتُم كثيرًا ". متفق عليه [(١)].

ومن بكى من خشية الله لم تمسُه النار:

قال النبيﷺ: " عينان لا تمسهما النار : عينٌ بكتْ من خشيةِ الله، وعينٌ باتتْ تحرِسُ في سبيل الله ". أخرجهالترمذي[(٢)] .

وهذا البكاء من خشية الله ليس لِعظَمِ الذنب، وإنما كان من أجل المعرفة بعظمة الرب، وليس من كثرة الذنوب، وإنما كان من صفاء القلوب:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢ ﴾[الملك: ١٢] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٤٨٥)، ومسلم برقم (٤٢٦).

(٢)صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (١٦٣٩) .

وحقيقة الوجل: هو ارتجاف قلب المؤمن خوفًا ألّا تُقبل حسناته، وألّا تُغفر سيئاته، مع المسارعة إلى الخيرات: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[المؤمنون: ٦٠ – ٦١].

فهؤلاء المؤمنون يعملون الصالحات، لكنهم خائفون ألّا تُقبل أعمالهم، لأنهم راجعون إلى الله، وسوف يسألهم عن أعمالهم، وهم يرونها لا تَصلُح للعرض على الله، لما فيها من العيوب الظاهرة والباطنة .

فالوجل عبادةٌ قلبيةٌ عظيمةٌ، روحُها الانشغال بِقَبول العمل، والخوف من حبوط العمل، والنظر في نقص العمل، وأنه غير لائق بجلال الله: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾[البقرة:١٢٧] .

وحقيقة الرهبة: خوفٌ مع هرب، فالإنسان يفرّ ممن يخاف منه، من إنسان أو حيوان، لكن المؤمن يفرُّ من الله إليه، فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، فالمؤمن يفرّ من غضب الله إلى مرضاته، ومن معصية الله إلى طاعته، ومن عقوبة الله إلى مثوبته: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠ – ٥١].

الرهبة هي تعظيمٌ لله، وخوفٌ منه، وفِرارٌ منه إليه: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾[البقرة: ٤٠].

٥ - ثمرات الخوف من الله عز وجل

الخوف من الله عز وجل يثمر للعبد أعظم الثمرات:

الأولى: أن خوف اللهجل جلاله يدفع العبد إلى طاعة الله، فالخوف يقود العبد إلى الاستعداد ليوم القيامة، فيلزمُ الطاعات، ويكفّ عن المعاصي ، ويحسن أعماله، لأنه يعرف أن ربه مطلعٌ عليه، فيجتنب الرياء و العُجُب والكِبر، ويعبد الله كأنه يراه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥ – ١٧] .

الثانية: خوف الله يثمر للعبد إخلاص العمل لله، واتباع السنّة، والحذر من البِدعة: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

الثالثة: خوف الله يزيد الإيمان في قلب المؤمن، فإذا زاد الإيمان زادت أنواع العبادة، كما قال الله عن المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[آل عمران: ١٧٣] .

فزيادة الخوف في قلب المؤمن يثمر له زيادة العبادة، وزيادة العبادة تزيد الإيمان، فالإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

الرابعة: أن الخوف من الله سبب للتمكين في الأرض، وإهلاك الأعداء كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[إبراهيم: ١٣ – ١٤] .

الخامسة: الخوف من الله سبب للنجاة في الدنيا والآخرة، فمن اتقى الله وقاه، و من خاف الله أمّنه في الدنيا والآخرة، ومن توكل على الله كفاه: ﴿ ٱلَّذِينَ

ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[آل عمران: ١٧٢ – ١٧٤] .

السادسة: أن الله جل جلاله جعل الأمن لمن آمن بالله وخافه:﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨١ – ٨٢] .

فالمؤمنون هم أصحاب الأمن في الدنيا والآخرة، والكفار هم أهل الخوف في الدنيا والآخرة: ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[البقرة: ٣٨ – ٣٩] .

السابعة: إذا كمُل خوف الله في قلب العبد زال منه خوف ما سواه من الخلق، وإذا عرف العبد عظمة ربه وجلاله هابه وخاف منه، وصَغُر في عينه كل ماسواه: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾[الإخلاص: ١ – ٤] .

الثامنة: أن من خاف الله جل جلاله أشُبه الملائكة الذين يخافون ربهم من فوقهم، كما قال الله عنهم:﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾
[النحل: ٤٩ – ٥٠] .

التاسعة: أن من خاف الله أشبه الأنبياء والرسل في خوفهم من ربهم، فهم أعلم الناس بربهم:﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾﴾[الأحزاب: ٣٩] .

فعلمهم بأسمائه و صفاته وأفعاله هو الذي دفعهم إلى الخوف من الله جل جلاله

فهم أعلم الخلق بربهم، وأشدهم له خشية:﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾[النساء: ١١٣] .

فالأنبياء يعلمون من صفات الله مايوجب تعظيمه وخوفه وحبه، ما لا يعلمه الناس.

العاشرة: أن خوف الله جل جلاله يثمر سعادة العبد في الدنيا والآخرة: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾[يونس: ٦٢ – ٦٤] .

الحادية عشرة: أن من خاف الله رجاه، فنال رحمته:﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾[الأعراف: ٥٥ – ٥٦] .

فمن خاف من الله أحبه،واتقاه، وأطاعه، لينال وعده الكريم، وينجو من وعيده الأليم.

الثانية عشرة: أن من خاف من الله فرّ إليه، واطمأن بذكره:﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾[الرعد: ٢٨ – ٢٩] .

والمؤمن يحب الله، لأنه أهلٌ أن يحَبّ، والمؤمن يخاف الله، لأنه أهلٌ أن يُخاف، والمؤمن يشكر الله، لأنه أهلٌ أن يُشكر، والمؤمن يُكبّر الله، لأنه أهلٌ أن يُكبَّر، والمؤمن يعبد الله، لأنه أهلٌ أن يُعبد، لما له من الأسماء الحسنى، والصفات العُلان والافعال الحميدة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣] .

٦ - جزاء الخوف من الله عز وجل

الأول: دخول الجنة:

فمن خاف الله رزقه الله منازل السابقين، ورفعه إلى مقام المقربين: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٤ – ٤١].

وقال عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

الثاني: النجاة من النار:

فمن خاف الله في الدنيا فله الأمن في الدنيا، والأمن يوم القيامة، والنجاة من النار: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٧ – ٧٠].

وقال الرسول ﷺ: "لا يَلِجُ النَّار رجلٌ بَكَى من خَشيَةِ الله" . أخرجه أحمد والنسائي[١] .

الثالث: أن من خاف الله مكّن له في الارض، ونصره على من عاداه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣ – ١٤].

فمن خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء، ومكّن له في الأرض، ونصره على عدوه، ورزقه الأمن بعد الخوف في الدنيا، وأمّنه الأمن التام يوم القيامة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

---

(١) صحيح/ أخرجه احمد برقم (١٠٥٦٠)، والنسائي برقم (٣١٠٧).

الرابع: أن من خاف من الله استجاب الله دعاءه، وخذل أعداءه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٥ – ١٧] .

الخامس: أن من خاف الله خشيه واتقاه في كل حال، وفاز بمغفرته وجنته: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك: ١٢] .

اللهم إنا نسألك إيمانًا كاملًا، ويقينًا صادقًا، وقلبًا خاشعًا، ولسانًا ذاكرًا .

اللهم يا حيّ يا قيّوم برحمتك نستغيث، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٨٠ – ١٨٢] .

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة السادسة

عبادة الرجاء

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: منزلة الرجاء
الثاني: شروط الرجاء
الثالث: أنواع الرجاء
الرابع: وقت الرجاء
الخامس: أقسام الناس في الرجاء
السادس: الأسباب المعينة على قوة الرجاء
السابع: علامات صدق الرجاء
الثامن: جزاء أهل الرجاء.

العبادة السادسة

عبادة الرجاء

١ - منزلة الرجاء

رجاء الله عز وجل هو الطمع في إحسانه وعطائه، وفضله وثوابه .

فالمحسن يرجو ثواب ربه على إحسانه، والمسيء يرجو قبول توبته من ربه، كما قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء: ١٠٤] .

ورجاء الله عز وجل هو مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى،مثل الكريم، البر، الرحمن، الرحيم، المحسن، المعطي، وأمثالها: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف: ١٨٠].

والرجاء من لوازم الإيمان باسم الله الغني فهو الذي أنعم على عباده بكل نعمة بلا عوض، وأمر عباده أن يسألوه من فضله، ووعدهم على ذلك بالإجابة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: ١٨٦] .

والله هو الكريم الوهاب، الذي وهب في هذه الدنيا الأموال والأولاد، والضِياع والمتاع، لمن آمن به، ولمن كفر به، لمن أطاعه، ولمن عصاه، فليعبدوه ويشكروه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١ – ٢٢] .

ووهب في الآخرة الجنات والقصور، والأنهار والنعيم، لمن آمن به وعبده، ممن وفقهم الله لطاعته، واستعملهم في عبادته، وثبتهم على دينه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

ورجاء الله عبادة قلبية عظيمة، وقد مدح الله المؤمنين بحسن رجائهم في ربهم،وشدة خوفهم من ربهم بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٧] .

وقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر: ٢٩ – ٣٠] .

والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، هو فعل الكافرين والمشركين كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[يوسف: ٨٧] .
وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[الحجر: ٥٦] .

والإيمان، ورجاء ثواب الله على العمل الصالح، شرطان في حصول الثواب يوم القيامة، فمن لا يرجو رحمة الله، فلا ثواب له في الآخرة:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر: ٢٩ – ٣٠] .

فمن عمل أعمال البر والخير وهو على عقيدة فاسدة، فلا ثواب له، لأن العقيدة الفاسدة تحبط العمل وإن كان حسنا، كفعل النصارى وأهل البدع: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤].

ومن كان لا يرجو لقاء الرحمن يوم القيامة فلا حظ له في الإيمان، وهو في الآخرة من الخاسرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧-٨].

٢- شروط الرجاء

شروط رجاء الله عز وجل أربعة:

الأول : يجب أن يقترن الرجاء بحسن الظن بالله عز وجل، فالله عز وجل عند ظن عبده به، فليظن العبد بربه خيراً، يلقى خيراً أكثر وأحسن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر: ٢٩ – ٣٠] .

عنْ أَبي هُريرةَ، أنَّ رسُولَ اللهَّ ﷺ قالَ: يقُولُ اللهَّ تعالى:" أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وَأَنَا مَعهُ إِذَا ذَكَرَني، فَإِن ذَكَرَني في نَفْسهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ، ذكَرتُهُ في ملأ خَيْرٍ منْهُمْ" متفق عليه (١)

الثاني : يجب أن يقترن الرجاء ببذل الجهد في الطاعة، لأن حسن الظن، والرجاء في الله موجب للطاعة، لا الاتكال والركون إلى الأمل بدون العمل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠] .

الثالث : يجب أن يقترن الرجاء بالتوكل على الله في أن ييسر لك الطاعة، ويثيبك عليها ، كما قال سبحانه: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهَّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨]

الرابع : يجب أن ترجو الله عز وجل وأنت تحسن الظن بالله في قبوله لعملك، وإثابتك عليه، وإعانتك عليه، مع رؤية عملك ناقصا لا يستحق القبول، وترى عملك ليس من كسبك، بل تراه من توفيق الله لك، فهو الذي زينه لك، وبينه لك، وأعانك عليه، وأثابك عليه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل: ٥٣] .

ويجب أن يعلم العبد أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله، لأن عبادة عمره كله لا تصلح أن تكون ثمناً لنعمة واحدة من نعم الله عليه، لهذا لو أن الله عذب أهل

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم(٧٤٠٥)، ومسلم برقم(٢٦٧٥)

سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم، فالأعمال الصالحة لا تصلح أن تكون جزاءً للنعم، ولا ثمنا للجنة، لكنها من أسباب دخول الجنة، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧–١٠٨] .

وقال النبي ﷺ: «لا يُدخِلُ أحدًا منكم الجنّة عَملَهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يَتغمَّدنيَ الله بفضلٍ منه ورحمة» متفق عليه [١].

فإذا أيقنت بذلك أديت العمل الصالح لأن الله أمرك به، وقطعت الرجاء في عملك، ووجهت الرجاء إلى كرم الله وفضله، ومَنه وتوفيقه، لأن أعمالنا الصالحة كلها من فضل الله وتوفيقه لنا، لا بحول منا ولا بقوة مناكما قال سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل: ٥٣] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٣)، ومسلم برقم (٢٨١٦)

٣- أنواع الرجاء

أكمل الناس رجاء من حقق كل أنواع الرجاء في الله عز وجل، وهي:

الأول: رجاء رحمة الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[البقرة: ٢١٨].

الثاني: رجاء ثواب الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر: ٢٩ - ٣٠].

الثالث: رجاء لقاء الله عز وجل

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠].

الرابع: رجاء القرب من الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

فالقرب في الدنيا يكون بالإيمان والأعمال الصالحة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: ١٨٦].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: " أقربُ مَا يَكونُ العبْدُ مِن ربِّهِ وَهَو ساجدٌ، فَأَكثِرُوا الدُّعاءَ "أخرجه مسلم (١).

والقرب في الآخرة يكون على قدر إيمان العبد، وحبه لله، واستقامته على أوامر الله، وحسب المسارعة والمسابقة إلى كل خير يكون قربه من الله عز وجل، وفوزه بأعلى درجات الجنة: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾[الواقعة: ١٠ - ١٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٢).

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥] .

الخامس : رجاء النظر إلى وجه الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾[القيامة: ٢٢ – ٢٣] .

السادس : رجاء رضوان الله عز وجل .

وهذا أعلاها، وهو الذي يعطيه الله عز وجل لأهل كرامته في الجنة يوم القيامة.

قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَّ تَبارَكَ وتَعالَى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهْلَ الجَنَّةِ؟ فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ، فيَقولُ: هلْ رَضِيتُمْ؟ فيَقولونَ: وما لنا لا نَرْضَى وقدْ أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِكَ، فيَقولُ: أنا أُعْطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ، قالوا: يا رَبِّ، وأَيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيَقولُ: أُحِلُّ علَيْكُم رِضْواني، فلا أسْخَطُ علَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا». متفق عليه [١].

السابع : رجاء سماع كلام الله عز وجل في الجنة

قال الله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ ﴾[الأحزاب:٤٤].

والله سبحانه كريم لا يرد سائلا، ولا يخيب مؤملا.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: ١٨٦] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٥٤٩)، ومسلم برقم (٢٨٢٩)

٤ - وقت الرجاء

يشرع للمسلم أن يتعبد لله بالخوف والرجاء في حياته.

قال الله تعالى عن الأنبياء والرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩ – ٣٠].

لكن يغلب العبد الخوف على الرجاء حال حياته، ليكون الخوف دافعا له لأنواع العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠ – ٦١].

ويكون الرجاء هو الغالب عليه عند شدة المرض، وعند الموت، فيدفعه الرجاء إلى إحسان الظن بالله عند الموت، فيظن أن ربه سيفعل به الخير، فيقبل حسناته، ويعفو عن سيئاته، فيكون الله عند حسن ظن عبده به، ويرحمه، ويؤمنه.

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ". أخرجه مسلم [١]

فالرجاء عند الموت أفضل من الخوف، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، والمشرف على الموت لا يقدر على العمل، فلا يستفيد من الخوف، بل الرجاء هو الذي يقوي قلبه على ما سيقدم عليه من الأهوال، ويحببه إلى ربه الرحمن.

قال ﷺ: " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لقاءه" متفق عليه [٢]

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٧)، ومسلم برقم (٢٦٨٤)

٥ - أقسام الناس في الرجاء

الناس في الرجاء أقسام مختلفة

الأول : أهل الرجاء الصحيح

وهو رجاء الخير من الله عز وجل، والطمع في فضله ورحمته، مع استفراغ الوسع في طاعته وعبادته: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾[البقرة: ٢١٨] .

وهذا هو الرجاء المطلوب شرعا، وفي ذروته الأنبياء، وأهل اليقين من المؤمنين .

الثاني : رجاء أهل التمني، وهو طلب الدرجات العالية في الجنة، مع الكسل عن الطاعات، فالرجاء لا بد أن يتبعه اجتهاد في العبادة، لأن الرجاء بدون عمل تمني، والتمني مذموم، وهو من صفات المنافقين.

فالمتمني يقول في الدنيا: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف: ٣٦] .

ثم يقول في الآخرة نادما: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾[الأحزاب: ٦٦] .

فليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل، فمن أحسن الظن بالله، وخافه ورجاه، أحسن العمل له: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠].

الثالث : رجاء أهل الغرور، وهو فعل المعاصي، وترك الطاعات، مع رجاء رحمة الله، فالمغرور كمثل زارع جاء إلى أرض خبيثة لا تقبل الماء، ولا تنبت الزرع، ولم يبذر ولم يسق، وإنما وضع فيها أنواع السموم، ثم جلس ينتظر الحصاد، فهذا هو الحمق والغرور، والرجاء الكاذب .

قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤] .

الرابع: أهل اليأس، وهو انقطاع الرجاء، والقنوط من رحمة الله .

وسبب اليأس الإسراف في الذنوب، والقنوط من رحمة الله، وسبب ذلك الشيطان الذي يزين المعاصي للعبد، ويرغبه فيها حتى إذا سقط فيها، العبد قال له الشيطان هلكت، ولن يقبل الله منك التوبة، فيقنط من رحمة الله، وييأس من روح الله، فيلقى الله مسرفاً على نفسه، غير تائب من ذنبه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣] .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨] .

ثم يزين له الشيطان معصية أخرى فيقع فيها، حتى يتكون على قلبه الران الذي يمنعه أن يسمع النصيحة، وكلام الرحمن، فلا ينفذ إلى قلبه غير غواية الشيطان كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤] .

ثم يُختم على قلبه فيزداد من الله بعدا، ويزداد لربه بغضا، لأنه يظن أن الله سيعاقبه إذا قدم عليه، ووقف بين يديه، ويعذبه عذابا أليما، كما قال سبحانه عن الكفار والمنافقين: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٧ – ١٠] .

فيكره بسبب ذلك لقاء الله، ويستبعد الموت ويمضي في غيه إلى أن يجره الشيطان إلى النار كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ

﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾[يونس: ٧ – ٨] .

وعلاج هذا اليأس والقنوط من رحمة الله يكون بمعرفة رحمة الله الواسعة، وأنها أوسع من ذنوب العباد، والله غفور رحيم يغفر الذنوب جميعا، حتى الشرك والكبائر كما قال سبحانه :﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾[الزمر: ٥٣] .

والله تواب رحيم يفرح بتوبة عبده، ويحب من تاب إليه، فأَسرِع يا عبد الله بالتوبة إليه قبل الموت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾[البقرة: ٢٢٢] .

وقال عز وجل: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[المائدة: ٣٩] .

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها .

يا واسع الرحمة ارحمنا، ويا واسع المغفرة اغفر لنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

٦- الأسباب المعينة على قوة الرجاء

لقوة الرجاء أسباب:

الأول : العلم بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلا، والعلم بصفات الجلال والجمال لله عز وجل، كالملك والعزيز والقادر والرحمن والرحيم والعفو والغفور والرؤوف والحليم والودود والكريم والشكور والشاكر والوهاب والمعطي.. وأمثالها من أسماء الله الحسنى :﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

ومن عرف ذلك أحسن الظن بربه، ورجاه، وخافه، وأحبه، وسأله .

الثاني: العلم بسعة رحمة الله، وسعة مغفرته، وسعة حلمه، فالله غفور رحيم حليم يريد أن يرحم عباده، ويغفر لهم ذنوبهم، ويتوب عليهم، ويخفف عنهم الأوامر، وييسر لهم ما يقربهم إليه، ولا يعجل عليهم بالعقوبة إذا عصوه، ليتوبوا إليه، فإذا تابوا تاب عليهم، وبدل سيئاتهم حسنات،وضاعف أجورهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الفرقان: ٦٨ – ٧٠] .

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر: ٥٣] .

الثالث: العلم بأن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، فما أمرهم إلا بما يستطيعون، ولم يكلفهم بما لا يطيقون، ولا أمرهم إلا بما ينفعهم، ولا نهاهم إلا عن ما يضرهم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥] .

وما أمر الله بشيء إلا أعان عليه، وما نهى عن شيء إلا أغنى عنه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[البقرة: ٢٨٦].

ومن علم ذلك طمع في رحمة ربه وأحسن رجاءه، ووقف ببابه.

الرابع: العلم بأن الله يريد أن يخفف عن عباده في كل أمر، ولا يشق عليهم بكثرة العمل: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء: ٢٨].

ومن علم ذلك أحب ربه ورجاه، وسارع إلى مرضاته.

الخامس: العلم بأن الله يريد أن يتوب على عباده، ليفوزوا برضوانه وجنته: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء: ٢٧-٢٨].

ومن علم ذلك أحب ربه، وتعلق قلبه به، وأسرع إلى التوبة إليه.

السادس: العلم بأن الله يريد أن يرفع عباده إلى أعلى درجات الجنة، ويطهرهم من المعايب والسيئات: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[المائدة: ٦].

ومن عرف ذلك أحسن ظنه بربه، ورجا رحمته، وحمده وشكره على عظيم نعمه وإحسانه.

السابع: العلم بعناية الله بخلقه، وحبه لإيمانهم، وإجابة دعائهم، وقضاء حوائجهم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: ١٨٦].

فالله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيغفر للمستغفرين، ويتوب على التائبين، ويجيب الداعين، ويعطي السائلين، حتى ينفجر الفجر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخرُ يقول: «مَن يَدْعُوني، فأستجيبَ له؟ مَن يسألني فأعطيَه؟ مَن يستغفرني فأغفرَ له؟»». متفق عليه (١).

ومن علم ذلك قام في ليله يناجي ربه، راجيا رحمته وثوابه، خائفا من ذنوبه وعقابه،كما قال الله عن أوليائه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٦ – ١٧].

الثامن : العلم بسعة حلم الله على العصاة، وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم ليتوبوا إليه كما قال سبحانه:﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر: ٥٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «يقول اللهُ: إذا أراد عبدي أنْ يعملَ سيئةً، فلا تكتبوها عليه حتى يعملَها، فإنْ عَمِلها فاكتبوها بمثلِها، وإنْ تركها مِن أجلي فاكتبوها له حسنةً، وإذا أراد أنْ يعملَ حسنةً فلم يعملها فاكتبوها له حسنةً، فإنْ عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعِ مائة ضِعْفٍ». متفق عليه (٢).

ومن علم بذلك عرف كرم ربه، وجميل إحسانه، ورحمته بعباده، فأحسن الظن به، ورجا رحمته، وخاف من عقابه، وسارع إلى طاعته.

التاسع : العلم بأن الله عز وجل يضاعف ثواب الأعمال الصالحة، ويعطي ثوابا عظيما على العمل القليل، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة إلى أضعاف مضاعفة، إلى عطاء بغير حساب، ويعطي

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١١٤٥)، ومسلم برقم (٧٥٨)

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٧٥٠١)، ومسلم برقم (١٢٨)

من لدنه أجرا عظيما بلا عمل من العبد : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[النساء: ٤٠] .

وقال عز وجل: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[التغابن: ١٧] .

والله كريم يحب لعباده كل خير، ويعطي على العمل القليل الأجر الكثير.

عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله تعالى عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم عرفة، فقال: يُكفِّر السنة الماضية والباقية، وسُئل عن صوم يوم عاشوراء، فقال: يُكفِّر السنة الماضية، وسُئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: ذلك يوم وُلِدْتُ فيه، وبُعثتُ فيه، وأُنزل عليَّ فيه». أخرجه مسلم [١]

وعنْ أَنَسَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهَّ ﷺ: «إنَّ اللهَّ ليَرضى عنِ العبْدِ يَأْكُلَ الأكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَليْهَا، وَيَشْرب الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» أخرجه مسلم [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة". متفق عليه [٣]

وما هذه الخيرات ومكفرات الذنوب من الله إلا لأنه يريد أن يدخل عباده الجنة، فهل يدخل بعد ذلك النار إلا هالك!

ومن عرف ذلك أحب ربه وشكره على إحسانه ورحمته بعباده، ورجا عفوه ومغفرته ورحمته، وسارع إلى التوبة إليه.

---

(١)أخرجه مسلم برقم (١١٦٢) .

(٢)أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٤) .

(٣)متفق عليه.أخرجه البخاري برقم (١٧٧٣)، ومسلم برقم (١٣٤٩)

العاشر: أن يعلم العبد أن الله أظهر لنا غناه، وعظمة ملكه وخزائنه، ليطمعنا فيه، لنسأله من فضله، فقال سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦ ﴾[لقمان: ٢٦] .

وقال عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ ﴾[الحجر: ٢١] .

فأهل الأموال في الدنيا يخفون غناهم، لئلا يطمع الناس فيما عندهم، أما الله عز وجل فأظهر غناه، لكي يُطَمّع عباده في سؤاله :﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ﴾[غافر: ٦٠] .

فالله هو الغني وحده وكل من سواه فقير إليه كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ ﴾[فاطر: ١٥] .

ومن علم بكمال غنى ربه، وسعة خزائنه، وإكرامه لعباده، أحب ربه، وأحسن ظنه به، ورجا ما عنده من ثواب وخير في الدنيا والآخرة.

الحادي عشر : العلم بأن البلاء من الله كله رحمة بالعبد، وإحسان منه إليه،ليكفر عنه سيئاته، ويرفع درجاته في الجنة، أو ليكسر نفسه وعلوها، لتستكين للطاعة وثوابها، أو ليستخرج منه عبودية الصبر على البلاء حتى يدخل الجنة بغير حساب كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠ ﴾[الزمر: ١٠].

وقد يبتلي الله العبد ليفيق من معصيته، ويتوب إلى الله منها، وقد يبتلي الله عبده بالبلاء، لينزع من قلبه حب الدنيا، ويصرفه إلى التعلق بالله وحده، وفعل ما يرضيه، ويشاهد حكمة الله في أفعاله، ويرضى بقضائه، ويحب ما اختاره الله له على ما اختاره هو كما قال سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ ﴾[التغابن: ١١] .

وقد يبتليه ربه لأن الله يعلم أن له درجة في الجنة لم يبلغها بعمله، فيبتليه ليرقيه إليها :﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾[البقرة: ٢٤٣] .

ومن علم هذا أيقن بحكمة رب العالمين، وأحسن ظنه بالذي خلقه، ورضي بتدبيره، وبادر إلى فعل كل ما يرضيه.

الثاني عشر : العلم بأن الرجاء سبب لقبول العمل الصالح، فالأعمال الصالحة تصعد إلى الله بجناحي الخوف والرجاء، رجاء الله أن يقبل العمل على قلته ونقصه، والخوف من الله أن يرده لكثرة عيوبه، ومن كانت هذه حاله، كان أرجى لقبول عمله، ومغفرة ذنبه، ومضاعفة أجره، وهذا فعل الأنبياء: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

ومن علم ذلك رجا ربه، وخاف عذابه، فحياته كلها بين الخوف والرجاء: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾[الزمر: ٩] .

٧- علامات صدق الرجاء

لصدق الرجاء علامات:

الأولى : حسن العمل الصالح، فمن صدق رجاؤه في الله حسن عمله، وقوي إخلاصه، واتبع أمره، واجتنب نهيه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

الثانية : الهجرة، والجهاد في سبيل الله كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[البقرة: ٢١٨] .

الثالثة : تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، ابتغاء مرضاة الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾[فاطر: ٢٩] .

الرابعة : المسارعة إلى الخيرات، فلما صدقت رغبتهم إلى الله، سارعوا إلى ما يحبه الله ويرضاه كالأنبياء: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء: ٩٠] .

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[المؤمنون: ٥٧ – ٦١].

الخامسة: الإكثار من ذكر الله عز وجل، والتفكر في آياته ومخلوقاته : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[آل عمران: ١٩٠ – ١٩١] .

٨- جزاء أهل الرجاء

رجاء الله عز وجل عبادة عظيمة، ينال بها العبد أعظم الثواب، ومن ذلك:

الأول : قبول العمل، فمن اجتهد في طاعة ربه، ورأى ربه متفضلا عليه، فلم يتكل على عمله، بل رجا رحمة ربه، فهذا أقرب لقبول عمله، ومضاعفة أجره، لأن رؤية العمل، والغرور به، من محبطات الأعمال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف: ١١٠] .

الثاني : رضى الله عز وجل، فالله عز وجل يرضى عمن يدعوه، ويطلب منه، ويفتقر إليه ويذل له، ويغضب سبحانه وتعالى على من لا يرجوه ولا يدعوه كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر: ٦٠] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : "مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ". أخرجه الترمذي[١]

الثالث : الفوز بالجنة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾[فاطر: ٢٩] .

الرابع : الفوز برحمة الله كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾[البقرة: ٢١٨] .

الخامس : الفوز برضى الله عز وجل كما قال عز وجل :﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة: ٧٢] .

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] .

اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهِنّا، وارفعنا ولا تضعنا .

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها .

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ .

---

(١)صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧٣) .

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة السابعة

عبادة الصدق

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الاول: منزلة الصدق

الثاني: فضائل الصدق

الثالث: صفات الصادقين

الرابع: أنواع الصدق

الخامس: مراتب الصدق

السادس: ثمرات الصدق.

العبادة السابعة

عبادة الصدق

١ - منزلة الصدق

الصدق من أعظم العبادات القلبية، وليس شيءٌ أنفع للعبد من صدق ربه في جميع أموره، مع صدق العزيمة بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١].

والصدق ضد الكذب، والصدق رأس الفضائل، وعنوان الإيمان والصلاح والفضل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: ١٩].

وبالصدق يتميز أهل الإيمان من أهل النفاق، وأهل الجنة من أهل النار: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

والصدق سيفُ الله في أرضه، ما وضِع على شيء إلا قطعه، ولا واجَه باطلاً الا أزهقه، والصدق من أعظم صفات المسلم، من اعتمده سما قدرُه، وعلَت مكانتُه، وارتفعت منزلته، ولهذا أمرنا الله عز وجل بالاتصاف به وملازمة أهله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

ورغَّب فيه النبي ﷺ بقوله: "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وإِيَّاكُمْ والْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي

إِلَى النَّارِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا." متفق عليه [(١)].

الصدق من أعظم عبادات القلوب، والصدق أعظم تاجٍ يلبسه العبد، وأحسن حليةٍ يتحلى بها المؤمن، وأفضل لباسٍ يلبسه العبد، وأفضل جوهرةٍ يملكها العبد، ومن صدق الله في طلب الصدق آتاه الله إياه، فتزيَّن به بينه وبين ربه، وتزين به بينه وبين خلقه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣ – ٢٤].

ولما كان حملُ النفس على الصدق في جميع الأمور شاقًا على النفس، ولا يمكن للعبد أن يأتي به على وجهه إلا بعون الله وتوفيقه، أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يسأله الصدق في جميع أموره فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠].

والصدق من مقتضيات أسماء الله الحسنى، ومن لوازم اسم الله الصادق، فالصادق لا يقول إلا صِدقًا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

فالصادق اسمه، والصدق صفته، والحق قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والصدق صفته سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠٩٤)، ومسلم برقم (٢٦٠٧).

والصدق أعظم صفات الأنبياء كما قال سبحانه عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١].

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ٥٦].

ورسول الله ﷺ أصدقَ الناس، وكان معروفًا بالصدق بين قومه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

وأصحاب النبي ﷺ هم أصدق الناس: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

ونحن قد أُمِرنا أن نكون مع الصادقين، لنكسب صفة الصدق، ونكون مع الصادقين كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

٢ - فضائل الصدق

للصدق فضائل عظيمة:

الأولى: أن الصادق يكون في معيّة خيار الناس: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ – ٧٠].

الثانية: رضوان الله عز وجل على الصادقين: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩] .

الثالثة: أن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة:

قال النبي ﷺ: "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجْنَّةِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِّ صِدِّيقًا، وإِيَّاكُمْ والْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِّ كَذَّابًا." متفق عليه [(١)].

الرابعة: البركة في البيع والشراء:

قال النبي ﷺ: " البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لَمْ يَتَفَرَّقا، فإنْ صَدَقا وبَيَّنا بُورِكَ لهما في بَيْعِهِما، وإنْ كَذَبا وَ كَتَما مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِما." متفق عليه [(٢)].

الخامسة: طُمأنينة القلب والنفس:

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠٩٤)، ومسلم برقم (٢٦٠٧).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٠٧٩)، ومسلم برقم (١٥٣٢).

قال النبي ﷺ:" دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ؛ فإنَّ الصِّدقَ طُمَأنينةٌ، وإنَّ الكَذِبَ ريبةٌ."أخرجه الترمذي وأحمد (١).

السادسة: أن الصدق من أعظم أبواب الأجر والثواب، كما قال سبحانه:﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

السابعة: أنّ جزاء الصدق الخلودُ في نعيم الجنة:﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾[المائدة: ١١٩].

---

(١)صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٨)، وأحمد برقم (١٧٢٣).

٣- صفات الصادقين

الأولى: الصادقون هم أهل الإيمان، واليقين، والأعمال الصالحة:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

الثانية: الصادقون هم أهل اليقين والمجاهدة بالنفس والمال:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجرات: ١٥] .

الثالثة: الصادقون هم أهل البرّ والإحسان، وأهل الصبر والتقوى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[البقرة: ١٧٧] .

الرابعة: الصادقون هم أهل العزائم الصادقة في تنفيذ كل ما يحبه الله ويرضاه في حال الشدة والرخاء:﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[الأحزاب: ٢٣-٢٤].

الخامسة: الصادقون هم أهل الصبر والبذل والتضحية لاعلاء كلمة الله، ونصر دين الله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾[الحشر: ٨] .

٤ - أنواع الصدق

الصدق أصلُ أعمال القلوبِ والجوارح، فجميع الأعمال الصالحة أصلها الصدق، والبُعد عن الكذب والرياء والنفاق، وكل الأعمال الفاسدة أصلها الكذب والنفاق والرياء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

والصدق في الإسلام ثلاثة أنواع:

الصدق مع الله .. والصدق مع الناس .. والصدق مع النفس.

فمن اتصف بهذه الثلاث فهو الصادق حقًا.

فالصدق مع الله: يكون بإخلاص الأعمال كلها لله وحده لا شريك له، فلا يكون فيها شِركٌ، ولا نِفاقٌ، ولا رِياءٌ، ولا سمعةٌ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

والإخلاص في جميعالعباداتو الطاعات بإعطائها حقها، وأدائها على الوجه الذي وردت فيه شرعًا، بكمال الحُبّ والتعظيم والذُّل لله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

والصدق مع الناس: يكون بقول الصدق، و تجنّب الكذب، وموافقة الظاهر للباطن في الأقوال والأفعال، وحسن الظن بالناس، والمحبة لهم، والمودة لهم،

والإحسان إليهم، وعدم الغشّ لهم: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤].

والصدق مع النفس: بحملها على طاعة الله ورسوله، فالمسلم الصادق لا يخدع نفسه، بل يحملها على طاعة الله، وامتثال أوامره، ويعترف بعيوبه وأخطائه، ويصحح ما أخطأ فيه، لأنه يعلم أن الصدق طريق النجاةوالفوز في الدنيا والآخرة: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[الشمس: ٧ – ١٠].

وقال ﷺ:" دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ؛ فإنَّ الكَذِبَ ريبةٌ، والصِّدقَ طُمَأنينةٌ ." أخرجه أحمد والترمذي(١).

فالمسلم صادقٌ في دينه، صادقٌ في حديثه، صادقٌ في معاملته، والمنافق كاذب في إيمانه، كاذب في عباداته ومعاملاته كما قال الله عن المنافقين: ﴿ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ ﴾[محمد: ٢١].

وقد ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم ستة أنواع من الصدق وهي:

مَدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقَدم الصدق، ومَقعد الصدق، ومُبوّأ الصدق.

فمدخل الصدق ومخرجه كما قال سبحانه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ ﴾[الإسراء: ٨٠].

---

(١)صحيح/ أخرجه احمد برقم (١٧٢٣)، والترمذي برقم (٢٥١٨).

ولسان الصدق كما قال إبراهيم ﷺ لربه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقدم الصدق كما قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [يونس: ٢].

ومقعد الصدق كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [القمر: ٥٤ – ٥٥].

ومبوّأ الصدق كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [يونس: ٩٣].

ومدخل الصدق ومخرجهأن يكون دخول العبد وخروجه، ونيات العبد وأقواله وأعماله كلها لله، وفي الله، وابتغاء مرضاة الله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥].

ولسان الصدق هو الثناء الحسن من سائر الأمم على العبد بالصدق، أي اجعل لي ذكرًا جميلًا بعدي أُذكر به، ويُقتدى بي في الخير.

وقَدمُ الصدقأن المؤمنين قدّموا أعمالاً صالحةً ينالون بها الثواب من الله عز وجل.

ومقعد الصدق هو الجنة، مع القُرب من الرب.

ومبوّأ الصدق هو المنزلة العالية، والمكانة الرفيعة بين الأمم.

والصدق والإخلاص من أعظم أعمال القلوب.

فمن الصدق يتشعّب الصبر، والقناعة ،والزُهد، والرضا، والأُنس بالله، والتسليم لأمره.

ومن الإخلاص يتشعّب الإيمان، واليقين، والحب لله، والخوف والرجاء، والإجلال والتعظيم، والذل والحياء.

والصدق يكون في ثلاثة اشياء، لا يتم إلا بها وهي:
صدق القلب بالإيمان واليقين تحقيقًا.
وصدق النية في الأعمال تطبيقًا.
وصدقُ اللفظ باللسان تحديثًا.
والصدق استواء السر والعلانية، وأن لا تُكذِّب أحوال العبد أعماله، وأن لا تكذب أعماله أقواله، فالصدق ألا يكون في أحوال العبد شَوْب، ولا في اعتقاده رَيْب، ولا في أعماله عَيْب: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ – ٤].
والصدق أنواع كثيرة:
فيكون الصدق في النيّات، وفي الأقوال، وفي الأعمال، وفي الأحوال.
فالصدق في النيّات: أن تكون جميع أعمال العبد القلبية والبدنية خالصة لله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١ – ١٢].
وقال النبي ﷺ: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى." متفق عليه (١).
والصدق في الأقوال: أن يحفظ العبد لسانه، ولا يتكلم إلا بالحق والصدق: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦ – ١١٧].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٤)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق و أظهرها .
والصدق في الأعمال أن تستوي سريرة العبد وعلانيته، وأقواله، وأفعاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[الصف: ٢ -٣] .
والصدق في مقامات الدين هو أعلى درجات الصدق، كالصدق في الإيمان والتوحيد، والصدق في الخوف والرجاء، والصدق في الحب والرضا، والصدق في التوكل والاستعانة، والصدق في الحمد والشكر: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾[البقرة: ١٧٧] .
وأعلى مراتب الصدق مرتبة الصِدِيقية، وهي كمال الانقياد للرسولﷺ، مع كمال الإخلاص للمُرسِلِ سبحانه: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٨ ﴾[الأعراف: ١٥٨].
وحقيقة الصدق شاملة لصدق النية، والعزيمة، وصدق اللسان، وصدق الأعمال، وصدق الأحوال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥ ﴾[الحجرات: ١٥].
والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب،فلا يجتمع إيمان وكذب إلا وأحدهما محارب للآخر.

والصدق أعظم عبادات القلوب، والصدق يكون في الأقوال والأعمال والأحوال:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال الصادقة كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الأخلاق، واستفراغ الوُسع والطاقة في تحصيل ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: ٧٧ – ٧٨].

والصدق والإخلاص عملانِ قلبيانِ من أعظم أعمال القلوب، وأهم أصول الإيمان:

فأما الصدق فهو الفرقان بين الإيمان والنفاق، وأما الإخلاص فهو الفرقان بين التوحيد والشرك، كما قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤﴾ [الأحزاب: ٢٣ – ٢٤].

ومحَِلُّ الصدق القلب، واللسان، والأفعال:

فهو في اللسان الإخبار عن الشيء على ماهوعليه،وهو في القلب العزم الأكيد، وهو في الأفعال إيقاعُها على ما وردت به شرعًا: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾[الكهف: ١١٠] .

والصدق أصل كل فضيلة، وقد مدح الله أهله في مواطن كثيرة، كما قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾[الأحزاب: ٢٣] .

والصدق أعظم درجة بعد النبوَّة،كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾

[النساء: ٦٩ – ٧٠] .

٥ - مراتب الصدق

الصدق له مراتب:

الأولى: صدق اللسان في الإخبار، و هذا أشهر أنواع الصدق وأظهرها: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الزمر: ٣٣].

الثانية: الصدق في النية والإرادة:

وهو ألا يكون له باعثٌ في الحركات والسكنات إلا الله وحده لا شريك له: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة: ٥].

الثالثة: الصدق في العزيمة:

وهو عزم القلب على فعل الخيرات، والوفاء بالعهد مهما كانت الشواغل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[الأحزاب: ٢٣].

الرابعة: الصدق في الأعمال:

وهو أن يجتهد العبد حتى لا تدُلّ أعماله الظاهرة على أمرٍ في باطنه لايتصف هو به، بأن يستجرَّ الباطن إلى تصديق الظاهر، حتى يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

الخامسة: الصدق في مقامات الدين:

وهو أعلى الدرجات وأعزُّها كالصدق في الخوف والرجاء، والصدق في الحبّ والتعظيم لله، والصدق في الزُهدِ والرضا والتوكل، والصدق في التوحيد والإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجرات: ١٥].

٦ - ثمرات الصدق

إذا صدَق العبد في أقواله وأفعاله وأحواله حصلت له ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة، ومن تلك الثمرات والفوائد:

الأولى: طمأنينة القلب، وسكون النفس

فالصادق ينشرح صَدرُه، وتَقرُّ عينه، وتسكُن نفسه، لأنه مطمئنٌ بما يعتقد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾[الرعد: ٢٨ – ٢٩] .

وقال النبي ﷺ:"الصدقُ طُمأنينةٌ، والكذبُ رِيبَةٌ." أخرجه أحمد والترمذي(١)

الثانية: الصدق سِرُّ السعادة ومفتاحها، لأنه اتباعٌ لهُدى الله الذي يثمر كل خيرٍ وأمنٍ في الدنيا والآخرة:﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[البقرة: ٣٨ – ٣٩] .

وقال عز وجل:﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[طه: ١٢٣] .

وقال عز وجل:﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨٢] .

الثالثة: تيسيرُ الرزق، وحصول البركة:﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦] .

فالصدق في المعاملات سببٌ عظيم من أسباب الحصول على الرزق، وحصول البركة فيه .

قال النبي ﷺ:" البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لَمْ يَتَفَرَّقا، فإنْ صَدَقا وبَيَّنا بُورِكَ لهما في بَيْعِهِما، وإنْ كَتَما وكَذَبا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِما."متفق عليه (٢).

---

(١)صحيح/ أخرجه احمد برقم (١٧٢١)، والترمذي برقم (٢٥١٨).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٠٧٩)، ومسلم برقم (١٥٣٢).

الرابعة: محبة الصادق، ورفع ذكره في العالمين:
فمن صدق في سريرته وعلانيته ومعاملته اطمأن إليه الناس،وأحبوه،وأثنَوْا عليه، وأكرموه، ووثقوا به.
فالصادق إن كان معلمًا أخذوا عنه، وإن كان محدثًا صدقوه، وإن كان مسؤولًا وثقوا به، وإن كان طبيبًا استأمنوه على أنفسهم وأرواحهم، وإن كان تاجرًا أو صانعًا أقبلوا عليه، واستداموا معاملته، وإن كان إنسانًا عاديًّا أكرموه واحترموه.
فالصدق من أعظم أسباب الإلفة والمودّة بين الناس، وحصول الثقة بينهم.
الخامسة: أن الصدق من أسباب المغفرة ونيلِ الأجرِ العظيم من الله يوم القيامة كما قال سبحانه:﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[الأحزاب: ٣٥].
السادسة: الفوز بالجنة، والنجاة من النار كما قال عز وجل:﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾[المائدة: ١١٩].
السابعة: نيل مرتبة الصِّديقية:
وهي أعلى مراتب الصدق، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسِلِ سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف: ١١٠].
والصِّديقون لهم منزلةٌ عاليةٌ في الجنة، ودرجتهم تالية لدرجة الأنبياء التي هي أرفع درجات العالمين:﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[النساء: ٦٩ – ٧٠].

والتاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء، وأبو بكر الصديقرضي الله عنه أصدق الأمة بعد الأنبياء، لأنه صدق في إيمانه، وتوحيده، وصدق في نيته، وفي لسانه، وفي أقواله، وفي أعماله وفي معاملاته، وسائر تصرفاته:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الزمر: ٣٣].

الثامنة: تحقيق العبودية لله عز وجل بإخلاص العمل له، والصدق في متابعة الرسولﷺ، وعبادة الله بكمال الحب والتعظيم والذُّل لله عز وجل:﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

[السجدة: ١٥ – ١٧].

التاسعة: أن الصدق يُنجي العبد من أهوال يوم القيامة:﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾[المائدة: ١١٩].

اللهم إنا نسألك إيمانًا كاملًا، ويقينًا صادقًا، ولسانًا ذاكرًا، وحلالاً طيبًا، ونسألك الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثامنة

عبادة الإخلاص

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : منزلة الإخلاص لله عز وجل .

الثاني : تفاوت الناس في الإخلاص .

الثالث : مفسدات الإخلاص .

الرابع : الأسباب المعينة على تحقيق الإخلاص .

الخامس : علامات المخلصين .

السادس : ثمرات الإخلاص .

السابع : جزاء أهل الإخلاص.

العبادة الثامنة

عبادة الإخلاص

١ - منزلة الإخلاص لله عز وجل

الإخلاص أعظم العبادات القلبية،وأصلها،وروحها .

والإخلاص هو إفراد الله بالقصد في كل قول أو فعل،أو حركة أو سكون، أو سر أو علانية، ابتغاء مرضات الله عز وجل :﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾[البينة: ٥] .

والإخلاص هو إرادة الله وحده في كل عمل، وتصفية الأحوال والأعمال من كل ماسوى الله :﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾[الزمر: ٢ – ٣].

والذي يضاد الإخلاص ويفسده ثلاثة أمورهي:

إرادة العجب .. وإرادة الدنيا .. ومراءاةالناس .

قال الرسول ﷺ:(إِنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوَى، فمَن كانَتْ هِجرَتُه إلى اللهِ ورسولِه، فهِجرَتُه إلى اللهِ ورسولِه، ومَن كانَتْ هِجرَتُه لدُنْيا يُصيبُها، أو امرأةٍ ينكحها فهِجرَتُه إلى ما هاجَرَ إليه)متفق عليه [(١)].

والله عز وجل أغنى الشركاء عن الشرك، لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له وحده لا شريك له، وابتغي به وجهه وحده:﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٤)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

وكل عمل ابتغي به العبد مدح الناس فهو عمل حابط، ليس له ثواب، بل عليه عقاب ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر: ٦٥-٦٦].

وقال عزوجل في الحديث القدسي:(أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ)أخرجه مسلم (١).

والاحتساب هو فعل الأوامر، واجتناب النواهي، رجاء الثواب من الله تعالى.

قال النبيﷺ:(مَن صامَ رَمضانَ إيمانًا واحْتِسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه) متفق عليه (٢).

والإخلاص هو مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى كالواحد الأحد، الوتر الصمد، الخالق الرازق :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف: ١٨٠].

والإخلاص من لوازم الإيمان بأسماء الله الرب والملك، فهو الرب الخالق الذي خلق كل المخلوقات. والملك الذي له ملك جميع المخلوقات، الذي يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو وحده ربهم الذي يربيهم، وينعم عليهم في الدنيا والآخرة. فاستحق بذلك أن يعبد وحده لا شريك له، لأنه الواحد الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فكما لم يشاركه أحد في الخلق والرزق، كذلك لا يجوز أن يُشرك معه أحد في الطاعة والعبادة :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٠١٤)، ومسلم برقم (٧٦٠).

بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢].

والإخلاص هو أصل العبادات القلبية كلها، وأصل عبادات الجوارح، فكل عمل بدون إخلاص باطل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[البينة: ٥].

وقال عز وجل: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر: ٦٤ – ٦٦].

فالإخلاص شرط لصحة الإيمان، و شرط لصحة جميع الأعمال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ ﴾[النساء: ١٤٥ – ١٤٦].

٢ - تفاوت الناس في الإخلاص

الناس متفاوتون في تحقيق الإخلاص بحسب ايمانهم ويقينهم .

والإخلاص عبادة قلبية عظيمة يكون في كل شيء، فيدخل في العبادات، والمعاملات، والأقدار، والأقوال، والأفعال :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] .

فمن صح إخلاصه أخلص العبادات كلها لله عز وجل، ولم يرَ المخلوقين أثناء العبادة، فهو لا يرى إلا الخالق العظيم، وثوابه العظيم، وعذابه العظيم، فيشغله ذلك عن كل ما هو دونه :﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥ – ١٧] .

ومن صدق إخلاصه حول عاداته إلى عبادات، فتجده يأكل ليتقوّى على العبادات، وتجده ينام مبكرًا ليستيقظ لصلاة التهجد، وتجده يتزوج يريد أن يكثر سواد المسلمين، ويتزوج لينجب داعيًا إلى الله لينشر الإسلام في العالم، أو عالما لينشر العلم الإلهي في الأمة، ونحو ذلك من النيات التي تتحول بها العادات إلى عبادات يؤجر عليها العبد .

قال النبي ﷺ:(إِنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإِنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوَى) متفق عليه [١]

والنية في الأقدار كأن يلح العبد على ربه أن يرزقه الشهادة في سبيل الله، أو يرزقه الحج كل عام، فمن نوى ذلك صادقًا عازمًا، أدرك الثواب، وإن لم يحصل العمل، ويدخل الإخلاص في كل قول تقوله، وفي كل عمل تعمله وفي كل خُلقٍ تتخلق به :﴿ ۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٤)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[النساء: ١١٤].

ولا تصح النية الحسنة في المعصية، لأن النية الحسنة لا تغير المعصية عن كونها حراما وظلما، فلا يجوز أن تبني مسجدا بمال حرام، أو تتصدق على فقير بمال حرام، لأن الله طيب لايقبل الا طيبًا :﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧].

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[البقرة: ٢٦٧].

وقال النبي ﷺ: (إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يقبلُ إلا طَيِّبًا)أخرجه مسلم [١].

والنية الواسعة تجارة العلماء، فتنوي أُمورا كثيرة في العمل الواحد، فيكتب الله لك أجر ما نويت، فانوِ امتثال جميع أوامر الله في كل حال، واجتناب جميع ما نهى الله ورسوله عنه في كل حال، يكتب لك أجر ذلك بالنية الجازمة.

وانوِ التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم و العدوان.

وانوِ الإحسان إلى الناس بالقول والفعل والمال، وافعل ما تستطيع يكتب لك أجر ذلك كله.

قال النبي ﷺ:(إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوَى)متفق عليه [٢].

---

(١)أخرجه مسلم برقم (١٠١٥).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٤)، ومسلم برقم (١٩٠٧)

٣- مفسدات الإخلاص

الإخلاص واجب في كل عمل، وهو إفراد الله بالقصد في جميع العبادات الظاهرة والباطنة: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١ – ١٢].

والذي يفسد الإخلاص ثلاثة:

الشرك .. والنفاق .. والرياء.

فالإخلاص واجب في الاعتقاد، وعكسه النفاق، والإخلاص واجب في أعمال القلوب، وعكسه الشرك، والإخلاص واجب في أعمال الجوارح وعكسه الرياء: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٤ – ٦٦].

والرياء أن يبتغي العبد بعمله الظاهر غير الله، أو يبتغي الخالق للأجر، والمخلوق للذكر، والرياء لا يكون إلا في أعمال الجوارح، فلا يكون إلا في الأقوال والأعمال التي تظهر للناس: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

والرياء يفسد العمل الذي هو فيه كبيرًا كان أو صغيرًا، ويبطل ثوابه، ويوجب العقاب لتسويته المخلوق مع الخالق في القصد، ولكنه لا يخرج من الملة.

والإخلاص في عمل القلب هو إفراد الله بالحب، والتعظيم، والخوف، والرجاء، والتوكل، وغيرها من عبادات القلوب.

ومن صرف شيئا من هذه العبادات لغير الله فهو مشرك شركاً أكبر، كأن يحب المخلوق كحب الخالق، أو يخافه كخوف الخالق :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾[البقرة: ١٦٥] .

وقال عز وجل:﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[آل عمران: ١٧٥] .

و الشرك الأكبر يخرج العبد من الملة، ويبطل التوحيد،وينقض الإيمان .

والإخلاص أصلٌ في كل عمل، فكل عمل صالح لا إخلاص فيه فهو باطل .

والإخلاص في الاعتقاد هو الصدق في قول لا إله إلا الله، وذلك أصل التوحيد :﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾[الزمر: ١١] .

وقال عز وجل:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾[الزمر: ٣] .

والإخلاص يضاده الشرك،والنفاق،والرياء .

فالإخلاص يضاد الشرك، وهو أن يعمل العمل الصالح لغير الله، أو يعمله لله ولغيره، وهو يقع في أعمال القلوب الباطنة :﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

والنفاق إظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فالمنافق يؤدي بعض العبادات الظاهرة إن كان في جمع من المسلمين، ويترك العبادة إن كان وحده، والمنافق يظهر العبادة أمام الناس لجلب نفع، أو دفع ضر .

والمنافق كافر، وعمله مردود غير مقبول، لأنه لا يقر لله بالتوحيد، ولا يعظم ربه، بل يريد بعمله ثناء الناس عليه، وهذا هو النفاق المذكور في القرآن كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[النساء: ١٤٢].

وجميع النفاق المذكور في القرآن هو النفاق الاكبر المخرج من الملة.

والرياء ضد الإخلاص، وهو أن يعمل العمل الصالح في الظاهر، ويقصد به غير الله في الباطن، والرياء يقع في الأعمال الظاهرة، والمرائي يقر لله بالتوحيد ويعظمه، لكنه يريد ثناء الناس، مع ثواب الله على العبادة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾[الماعون: ٤ – ٧].

والرياء هو تزيين ظاهر العبادة للناس، تقربا اليهم، ورجاء الثناء منهم، وطلب المنزلة عندهم، أو طلب الدنيا التي بأيديهم.

وكل عمل صالح لايقبله الله الا بثلاثة شروط:

الأول: الإيمان بالله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

الثاني: الإخلاص بأن يبتغي بعمله وجه الله وحده: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة: ٥].

الثالث: الاتباع بإن لا يتبع في عمله إلا رسول الله ﷺ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

والذي يضاد الإخلاص و يفسده ثلاثة أمور هي:

إرادة العجب .. وإرادة الدنيا .. ومراءاتالناس .

قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال الله عز وجل في الحديث القدسي: (أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ) . أخرجه مسلم [1].

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥) .

٤ - الأسباب المعينة على تحقيق الإخلاص

يعين على تحقيق الاخلاص أمور .

الأول: معرفة الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة، ومعرفة عظمة ملكه وسلطانه، ومعرفة عظمة نعمه وآلائه ومعرفة عظمة دينه وشرعه، ومعرفة عظمة وعده ووعيده، ومعرفة عظمة ثوابه وعقابه .

فمن عرف ذلك أخلص العبادة لله وحده .: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

الثاني: التفكر في عظمة آيات الله الكونية، من خلق السماوات والأرض، وخلق الشمس والقمر، وخلق الليل والنهار ونحو ذلك، فمن تفكر في تلك الأيات العظيمة عرف أن لها خالقا خلقها، وهو الذي يدبر أمرها، فآمن به، وأخلص له العبادة، لأنه وحده الذي بيده الخلق والأمر :﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

ومن هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٠١ –١٠٣].

الثالث: التدبر لآيات الله القرآنية، وما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والقصص المؤثرة، والأوامر الحكيمة، والوعد والوعيد: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾[ص: ٢٩] .

فمن تدبر ذلك علم أنه كلام رب العالمين، وأنه تنزيل من حكيم خبير، فآمن بالله وحده، وأخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء: ٨٢] .

٥ - علامات المخلصين

لأهل الإخلاص علامات يمتازون بها منها .

الأولى : أن المخلص يتهم نفسه بالتقصير دائما، مع مسارعته في فعل الخيرات : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[المؤمنون: ٥٧ – ٦١] .

الثانية: أن المخلص يخاف دائما من الرياء، فهو دائمًا يجمع نيته وإخلاصه قبل العمل، ويظل وجلاً أثناء العمل، خائفًا من خطورة الرياء، ومن عدم قبول العمل بعد العمل : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤] .

الثالثة: أن المخلص يحرص على إخفاء أعماله الصالحة قدر الاستطاعة، لأنه يعلم أنه لا يجزي عليها إلا الله وحده لا شريك له : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥ – ١٧] .

الرابعة: أن المخلص تكون عبادته في الخفاء أقوى منها في العلانية، لأنه خلا بربه واستأنس به، فنشط للاستكثار مما يحب ربه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الملك: ١٢] .

الخامسة: أن المخلص لا يتأثر قلبه برؤية الناس له، لأن انشغاله بمراقبه ربه، واستحضار عظمته، قد حجب عينيه عن رؤية من هو دونه من المخلوقين :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر: ٩] .

السادسة: أن المخلص لا يتأثر بمدح الناس له، بل يستوي عنده مدح الناس وذمهم له، وثناء المخلوقين عليه لا يؤثر على قلبه، ولا يدفعه لتحسين عمله، لأنه لا يطلب مدحهم أصلًا ولا يتطلع إليه أبدًا: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

السابعة: أن المخلص لا يتأثر بفساد الناس، فلا تقل طاعاته إذا فسد الناس، لأنه يقتدى برسول الله صلى الله عليه و سلم، ولا يؤثر فيه إن كان الناس من حوله على طاعةٍ أو معصية: ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [غافر: ١٤] .

الثامنة: كثرة ذكر الله عز وجل في جميع الأوقات والأحوال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[آل عمران: ١٩٠ – ١٩١] .

التاسعة: خشية الله في السر والعلن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الملك: ١٢] .

العاشرة: كثرة البكاء من خشية الله كما قال الله عن الأنبياء وأتباعهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾[مريم: ٥٨] .

٦- ثمرات الإخلاص

الإخلاص هو روح العبادات كلها، وهو أعظم عبادة من عبادات القلوب، وهوسر بين العبد وربه، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا يعلمه شيطان فيفسده، ولا يعلمه عدو فيحسد صاحبه .

والشيطان يدخل في كل عمل ليفسده، ولا ينجو من ذلك إلا المخلصين الصادقين كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[ص: ٨٢ – ٨٣] .

والإخلاص هو أساس إحسان العبادة، لأن احسانالعبادة يكون بالاخلاصوالإتباع: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠] .

وإخلاص الأعمال لله سبب لحب الله للعبد، و سبب للفوز بالجنة، وسبب للنجاة من النار يوم القيامة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت: ٣٠ – ٣٢] .

والإخلاص سبب للأمن في الدنيا والآخرة : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام: ٨٢] .

والإخلاص سبب لنيل شفاعة النبي ﷺ يو مالقيامة .

قال الرسول ﷺ: (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ، مَن قالَ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِن قَلْبِهِ، أوْ نَفْسِهِ) أخرجه البخاري [١].

والنية تضاعف أجر العامل المخلص، والنية تحل محل العمل عند العذر .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٩٩).

قال ﷺ:(إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمله صحيحًا مقيمًا) متفق عليه (١)

فأصحاب الأعذار يدركون ثواب الطاعة كاملة، كأصحاب العزائم، إذا صدقت نيتهم، فيكتب الله للضعيف العاجز أجر المجاهد في سبيل الله، ويكتب للمريض العاجز أجر صلاة الجماعة، ويكتب للفقير أجر الصدقة .

قال النبي ﷺ:(إنَّ بالمَدِينَةِ أقْوامًا، ما سِرْتُمْ مَسِيرًا، ولا قَطَعْتُمْ وادِيًا إلَّا كانُوا معكُمْ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، وهُمْ بالمَدِينَةِ؟ قالَ: وهُمْ بالمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ .) متفق عليه (٢).

والإخلاص من أعظم أسباب إجابة الدعاء :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: ١٨٦] .

والإخلاص في الدعاء من أعظم أسباب النجاة من الهلاك والموت :﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] .

والإخلاص سبب نجاة أصحاب الغار الثلاثة الذين آوَاهُمُ المَبِيتُ إِلَى غَارٍ فانطبقت عليهم صخرة فدعوا الله بصالح أعمالهم، ففرجت عنهم الصخرة، وخرجوا يمشون – متفق عليه (٣).

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠٢١)، ومسلم برقم (٥ ١٠٠)

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٦٨٤)، ومسلم برقم (١٩١١)

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٢٧٢)، ومسلم برقم (٢٧٤٣)

٧- جزاء أهل الإخلاص

جزاء أهل الإخلاص هو الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وقبول الأعمال، ونيل الأجر العظيم، والفوز بالدرجات العلا في الجنة، ورضوان الرب، والقرب منه ورؤيته، وسماع كلامه:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة: ٧٢].

وقال عز وجل:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ -٤].

وقال عز وجل:﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥].

وقال عز وجل:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[القيامة: ٢٢ – ٢٣].

وقال النبي ﷺ:(ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرَّمه الله على النار)متفق عليه [١].

اللهم إنا نسألك الجنة، وما قرب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول أو عمل .

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٢٨)، ومسلم برقم (٣٢)

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة التاسعة

عبادة الرضا

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: منزلة الرضا.

الثاني: بم يكون الرضا عن الله عز وجل .

الثالث: أركان الرضا.

الرابع: أقسام الرضا.

الخامس: الأسباب التي تعين على الرضا.

السادس: ثمرات الرضا.

السابع: جزاء أهل الرضا.

العبادة التاسعة

عبادة الرضا

١ - منزلة الرضا

الرضا عن الله عزّ وجل من أعظم العبادات القلبية، وهو ركن من أركان الإيمان بالله عزّ وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[التوبة: ٦٢] .

ومن رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، فقد ذاق طعم الإيمان، وحلاوته، ووصل إلى أعلى درجات الرضا.

قال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً». أخرجه مسلم (١).

ومن وصل إلى هذه الدرجة العظيمة، رضي الله عنه وأرضاه، وأسكنه أعلى درجات الجنة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾البينة:[٧ - ٨].

والرضا عن الله عزّ وجل عبادة قلبية عظيمة الشأن، ودرجة إيمانية عظيمة القدر، وقليل من الناس من يصل إلى هذه الدرجة العالية، بسبب الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والجهل بدينه وشرعه، والجهل بوعده ووعيده: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد: ١٩] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٣٤) .

ولو عرف العبد ربه كما يجب، حصل منه التعظيم لله عزّ وجل، والحب لله، والحياء من الله، والخوف من الله، والشكر لله، والرضا عن الله، والافتقار إلى الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾[الأنفال: ٢-٤].

وما كان منه إلا كمال الأدب مع ربه، اذعاناً لجلاله، وتسليماً لأمره، وتصاغراً لكبريائه، وخضوعاً لعظمته، وانقياداً لأوامره، وتطلعاً إلى رضوانه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢ ﴾[التوبة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢ ﴾[الملك: ١٢].

والرضا عن الله عزّ وجل باب الله الأعظم، ومن عرف الله رضي عنه، وسلم لأمره، وانقاد لرسوله ﷺ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥ ﴾ [النساء: ٦٥].

ومن رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وجبت له الجنة.

قال النبي ﷺ: (مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ) أخرجه مسلم (١).

وهذه الأمور الثلاثة هي أصول الدين ولهذا يسأل عنها العبد في قبره ويقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟.

فمن عرف ربه حقاً، وعرف دينه حقاً، وعرف رسوله حقاً، وعبد الله بموجب ذلك أجاب على ذلك، وفاز بالجنة، وإلا لم يجب، فخسر دنياه وأخراه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٨٤).

٢- بم يكون الرضا عن الله عزّ وجل؟

الرضا عن الله عزّ وجل يكون بأمرين:

أحدهما: الرضا عن أقدار الله المحبوبة والمكروهة.

والرضا بأقدار الله المؤلمة مهما عظمت، ومهما كثرت، ومهما اختلفت.

قال النبي ﷺ: (إن عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإن اللهَ عزّ وجل إذا أَحَبَّ قومًا ابتلاهم؛ فمن رَضِيَ فله الرِّضَا، ومن سَخِطَ فله السُّخْطُ) أخرجهالترمذي وابن ماجة (١).

وقضاء الله كله خير حلواً كان أو مراً؛ لأنه مقرون بالحكمة المطلقة، المقرونة بالخير المطلق، المقرونة بالرحمة المطلقة؛ فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، وهو العليم الحكيم.

والمؤمن يرضى بكل ما قضاه الله وقدره عليه، وذلك من أعظم عبادات القلوب.

قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» أخرجه مسلم (٢).

ورضا العبد عن ربه في جميع الحالات يثمر له رضا ربه عنه، فإذا رضي العبد بقليل من الرزق، رضي الله عنه بقليل من العمل، وأعطاه عليه الكثير من الأجر، وإذا صبر على بلاء ربه ورضي به، فتح الله له أبواب الأجور بلا حساب: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

الثاني: الرضا عن شرع الله وحكمه؛ فلا يكره شيئا مما أنزل الله، أو مما جاءت به الشريعة، بل ينقاد ويسلم ويخضع لكل ما أمر الله ورسوله به، ويأخذ ويرضى بكل الشريعة دون انتقاء واختيار، سواءً أحبته نفسه أو كرهته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١)صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) وابن ماجة برقم (٤٠٣١).

(٢)أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٩).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[البقرة: ٢٠٨] .

فالمؤمن حقًا من رضي بالله، ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولا .

والرضا عن الله جلّ جلاله، وعن أقداره وأحكامه هو جنة الدنيا العاجلة، الموصلة إلى جنة الآخرة: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

والرضا هو الدين كله، فإن ما يجري على العبد في الدنيا خمسة أمور:

مأمورات، ومنهيات، ومباحات، ونعم مُسعِدة، وبلايا مؤلمة .

فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام، وفاز برضوان ربه، ودخول جنته: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨ ﴾البينة:[٧ – ٨].

ومن رضي بما اختاره الله له لم يتمنَ غير ما اختار الله له، ولم يحب غير ما سيره الله إليه، فإن الله ارحم بالعبد من نفسه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ ﴾[القصص: ٦٨] .

فالرضا عن الله عزّ وجل فيما قدره على عبده من أعظم عبوديات القلب .

والرضا قناعة بتدبير الله واختياره لما يصلح عبده.

ومن رضي بما قسم الله له لم يزاحم الناس على دنياهم، ومن رضي بما قدره الله له أو عليه لم يتمنَّ غير ما قدره الله له أو عليه؛ لأنه واثق بربه، متيقن أن ربه أرحم به من نفسه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ ﴾[الحشر: ٢٢].

وقال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾[التوبة: ٥١].

فالراضي أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأصدقهم إيمانًا، وأسرعهم إلى كل فضيلة، وأبعدهم عن كل رذيلة، وأسبقهم إلى كل طاعة، وأبعدهم عن كل معصية، وأعظمهم درجة، وأكثرهم ثوابًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾[الرعد: ٢٨ – ٢٩].

ومن رضي بقضاء الله لم يطلب ما عند أحد، ومن قنع بعطاء الله لم يدخل قلبه حسد، فالأرزاق مقسومة في قدرها، ونوعها، وأصحابها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾[الزخرف: ٣٢].

ومن رضي بالله ربًا يدبر أموره، وأمور غيره، ورضي به إلهًا يعبد وحده، لكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، وعبد ربه كأنه يراه بكمال الحب، والتعظيم، والذل له، فقد وصل إلى أعلى درجات الرضا، وأعلى درجات العبودية، وفاز برضوان الله عليه، ونال أعظم الثواب من ربه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾[التوبة: ١٠٠].

ومن أراد أن يرضى الله عنه ويرضيه فليحافظ على كل ما يحبه الله ويرضاه، من الفرائض والنوافل والأدعية والأذكار في جميع الأوقات، وليصبر على كل ما يصيبه من أعداء الله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾[طه: ١٣٠].

فإذا فعلت ذلك فسوف يعطيك الله من فضله حتى ترضى كما قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[الضحى: ٥].

٣- أركان الرضا

أركان الرضا ثلاثة :

الرضا بالله ربًا.. وبالإسلام دينًا.. وبمحمد رسولا، والعمل بموجب ذلك .

فإذا رضي العبد بهذه الثلاثة ذاق طعم الايمان، وحلاوته، ووصل إلى حقيقة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ – ٤].

وقال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلامَ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً». أخرجه مسلم [١].

ومن رضي بالله ربًا آمن به، وأطاعه ولم يعصه، وتوكل عليه، ولم يلتفت إلى غيره، وعبده وحده لا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام: ١٠٢].

ومن أرضى الله في الدنيا بالتوحيد، والإيمان، والأعمال الصالحة، أرضاه الله يوم القيامة بالرضوان عنه، وأرضاه بالخلود في نعيم الجنة:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة:٧٢] .

والرضا بالإسلام دينًا، أن يرضى العبد بهذا الدين العظيم الذي رضيه الله لعباده وأكمله لهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٣٤) .

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة: ٣] .

فهذا الدين العظيم تصلح به أمور الناس الخاصة والعامة، وأمور الناس في الدنيا والآخرة، فمن رضي به، وآمن به، وعمل بأحكامه، فقد خرج من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، وحصلت له السعادة في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت: ٣٠ – ٣٢] .

فأسعد الناس في الدنيا والآخرة هم المؤمنون: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام: ٨٢] .

أما الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ فهو الإيمان به رسولاً، واتباعه، و تصديقه فيما أخبر، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأن لا يعبد الله الا بما شرع، ومحبته، ونشر سنته: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٨] .

فالرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، من أعظم عبوديات القلب الموصلة إلى رضوان الله والجنة.

قال النبي ﷺ: (مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ). أخرجه مسلم (١).

(١)أخرجه مسلم برقم (١٨٨٤) .

وحلاوة الإيمان من الله وحده، يعطيها الله من يشاء من عباده، وزينة الإيمان تكمل بالرضا بالله ربًا وبمحمدٍ رسولًا، وهذا الرضا هو الذي يدفع العبد إلى أعمال الخير، والمسارعة إلى أنواع العبادات والقربات، ويحول بينه وبين المعاصي والسيئات: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧-٨].

فليبشر كل من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، برضوان الله عليه في الدنيا والآخرة.

قال النبي ﷺ: (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا، وَحِينَ يُمْسِي مِثْلَ ذَلِكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُرْضِيَهُ). أخرجه أحمد وأبو داود [1].

---

(١) **حسن/ أخرجه** احمد برقم (٣٤٩٩) وأبو داود برقم (٥٠٧٢).

٤ - أقسام الرضا

ينقسم الرضا إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: الرضا بالله ربًا وإلهًا، وهذا فرض على كل أحد: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

الثاني: الرضا عن الله في كل ما قضاه وقدره لأن الله حكيم عليم، لا يضع الشيء إلا في موضعه، ولا يختار لعبده إلا ما ينفعه ويصلحه في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الثالث: الرضا بكل ما قضاه الله وقدره، وهذا أقسام:

الأول: ما يجب الرضا به، و هو المقضي الديني الشرعي كما قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

الثاني: المقضي الكوني القدري.

فهذا إن كان فقراً أو مرضًا ونحو ذلك، فهذا يستحب الرضا به، بل يجب، لأن اختيار الله خير من اختيار العبد.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٖ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٖ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٞۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وإذا كان المقضي كفراً، أو شركاً، أو معصيةً، حُرِّم الرضا به، لأن الله لا يرضى بذلك، ولا يحبه، ولا يأمر به، ولا يرضى لعباده الكفر: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةٗ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

فالله يأمر بالتوحيد والإيمان، والعدل والإحسان، وأنواع الطاعات كما قال سبحانه: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٩ – ٣٠] .

والناس في الرضا ثلاثة أقسام :

أحدها: رضا عوام الناس بما قسمه الله وأعطاه للعبد من الرزق.

الثاني: رضا الخواص، وهو الرضا بما قدره الله وقضاه.

الثالث: رضا خواص الخواص وهو الرضا بالله عن كل ما سواه.

فالأول: أدنى الدرجات.

والثاني: أعلى منه.

والثالث: أعلى منهما.

فارضَ يا عبد الله بما قسم الله لك، وارضَ بما قضاه الله وقدره لك أوعليك، وأرضَ بالله عن كل ما سواه: ﴿ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج: ٣٤ – ٣٥] .

ومن أرضى الله أرضاه ورضي عنه، وأرضى عنه الناس، وأرضى عنه الملائكة.

وأصل الرضا وروحه هو الرضا بالله ربًا، وعدم الرضا بأي إله آخر سواه، وهذا قطب الدين وأصل الملة: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٤] .

وقال عزّ وجل: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر: ٦٤ – ٦٦] .

واعلم يا عبد الله أن الرضا بالطاعة طاعة أخرى، والرضا بالمعصية معصية أخرى، والرضا بالمصائب أعظم من الصبر، والحمد والشكر عليها أعظم من الرضا بها: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١] .

والرضا من أعظم عبادات القلوب، وهو أن تفرد الله وحده بالتعظيم، وتفرده وحده بالمحبة، وتفرده وحده بالخوف، وتفرده وحده بالرجاء، وتفرده وحده بالشكر، وتفرده وحده بالتسليم والإذعان: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[التوبة: ٦٢] .

وتنيب إلى الله، وتقدم أمر الله على ما سواه مما تحب النفس، وترضى بدين الله العظيم، وترضى بكل ما جاء به رسوله ﷺ من أحكام وآداب، وأقوال وأفعال، وتعمل بموجب ذلك بكمال الحب والتعظيم والذل لله عزّ وجل.

فهذه أعلى درجات الرضا، وبها يرضى الله عزّ وجل عن العبد، ويحبه، ويحبب إليه الملائكة، ويحبب إليه الناس، ويخلده في نعيم الجنة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

[البينة: ٧ – ٨].

٥ - الأسباب التي تعين على الرضا

الأول: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأقداره الحكيمة، ونعمه العظيمة، وكمال رحمته وبره وإحسانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد: ١٩].

الثاني: التفكر في عظمة نعم الله على عباده في الدنيا والآخرة، والتي هي مبسوطة للمؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والبر والفاجر كما قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان: ٢٠].

الثالث: التفكر في عظمة آيات الله الشرعية، وما فيها من المحاسن والفضائل، والسهولة واليسر، وحسن الثواب والعقاب...وغير ذلك مما ورد في القرآن والسنة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

الرابع: العلم بعظيم رحمة الله بعباده، وحلمه عليهم، ومغفرة ذنوبهم، وحبه لإيمانهم وطاعتهم، وإكرامهم بأنواع التكريم: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣].

الخامس: دعاء الله عز وجل أن يرزقه الرضا عنه، وعن دينه، وأقداره، وأحكامه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

٦ - ثمرات الرضا

الرضا له ثمرات إيمانية كثيرة ترفع العبد الى أعلى منازل العبودية، وتوصله إلى أعلى درجات الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾[البينة: ٧ - ٨].

ومن ثمرات الرضا العظيمة:

الأولى: رضا الله عن العبد، فمن رضي عن الله رضي الله عنه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وقال النبي ﷺ: (إنَّ عِظمَ الجزاءِ مع عِظمِ البلاءِ ، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمَن رَضي فله الرِّضَى ، ومَن سخِط فله السَّخطُ) أخرجه الترمذي وابن ماجة(١).

ورضا الله يدركه العبد بأقل عمل، وأيسر جهد .

قال النبي ﷺ:(إنَّ اللهَ لَيَرضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا). أخرجه مسلم (٢).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ، رضا بما يصنع)أخرجه الترمذي وابن ماجة(٣)

الثانية: أن من آمن بالله ورضي عنه فاز بالرضوان الأكبر من ربه يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾[التوبة: ٧٢].

---

(١)صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) وابن ماجة برقم (٤٠٣١) .

(٢)أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٤) .

(٣)صحيح/ أخرجه احمد برقم (٢١٧١٥) والترمذي برقم (٢٦٨٢) .

الثالثة: أن من زين قلبه وجوارحه بالإيمان والأعمال الصالحة، فاز برؤية ربه يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

الرابعة: البشارة بالجنة كما قال سبحانه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)﴾[المائدة: ١١٩].

وقال الله تعالى عن المؤمنين ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)﴾[التوبة: ٢١].

وقال النبي ﷺ:(مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا،وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ). أخرجه مسلم (١).

الخامسة: غفران الذنوب.

قال النبي ﷺ: (من قالَ حينَ يسمعُ المؤذِّنَ وأنا أشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ رضيتُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمَّدٍ نبيًّا غفرَ لَهُ ذنبُهُ) أخرجه مسلم (٢).

السادسة: إرضاء الله عزّ وجل للراضي يوم القيامة.

قال النبي ﷺ: (مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَقُولُ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثًا ، وَحِينَ يُمْسِي : رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا ، إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أخرجه أحمد وأبو داود(٣).

السابعة: أن الرضا يثمر السلامة من الغل والحسد، والرضا بما قسمه الله، ومن رضي بقسمة الله رضي الله عنه، وأرضاه، وأرضى عنه الناس.

والرضا بالله يثمر الفرح والسرور والطمأنينة في قلب العبد كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾[الرعد: ٢٨].

---

(١)أخرجه مسلم برقم (١٨٨٤).

(٢)أخرجه مسلم برقم (٣٨٦).

(٣)صحيح/ أخرجه احمد برقم (٣٤٩٩) وأبو داود برقم (٥٠٧٢).

الثامنة: طمأنينة القلب ورضاه كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[الفجر: ٢٧ – ٣٠] .

التاسعة: أن الرضا عن الله يثمر الرضا من الله، ودخول الجنة ونعيمها من أعظم الثمرات برضوان الله كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[البينة: ٧ – ٨].

العاشرة: أن الرضا من أعظم ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، الذي يثمر الطمأنينة والرضا بما قدره الله له أو عليه كما قال سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١].

الحادية عشرة: أن المؤمن يذوق بالرضا طعم الإيمان و حلاوته.

قال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا،وَبِالإِسْلامَ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً». أخرجه مسلم (١).

الثانية عشرة: أن الرضا يدفع المسلم إلى التعبد لله بعبادتين عظيمتين هما: الشكر على النعم، والصبر على البلاء، والله يحب الشاكرين، ويحب الصابرين.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة: ١٧٢] .

وقال الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر: ١٠] .

الثالثة عشرة: غنى النفس، فارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وهذا هو الغنى بالله دون سواه: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان: ٢٦] .

الرابعة عشرة: أن الرضا بالله يخلص العبد من الهم والغم والحزن، وشتات القلب، ويملأ قلبه بالراحة و الطمأنينة والسكينة، فتستقيم أموره، وتصلح

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٣٤) .

أحواله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨ – ٢٩].

الخامسة عشرة: الرضا بالله عزّ وجل يفرغ قلب العبد لأداء العبادات بحضور قلب وخشوع، لأن قلبه فارغ من الشواغل والوساوس، فيؤدي العبادة لله بإخلاص، وكمال الحب والتعظيم والذل لله عزّ وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١ – ٢].

السادسة عشرة: أن الرضا أجره لا ينقطع، وليس له حد، أما أعمال الجوارح فمحدودة، وأجرها محدود. بخلاف أعمال القلوب فهي غير محدودة، وأجرها غير محدود كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

٧- جزاء أهل الرضا

من أرضى الله عزّ وجل بالإيمان به، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، أدخله الله في رحمته، وأسكنه جنته، ورضي الله عنه، وأرضاه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١ – ٧٢].

وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧ – ٨].

ومن رضي عن الله عزّ وجل أسعده الله برؤيته، والقرب منه يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣].

وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ – ٥٥].

ومن أرضى الله عزّ وجل بالإيمان والأعمال الصالحة، أكرمه الله يوم القيامة بنعيم لم يخطر على باله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥ – ١٧].

اللهم يا رؤوفا بالعباد أرضِنا وارضَ عنا، وتقبل أعمالنا، وأحسن ختامنا، وأختم بالصالحات أعمالنا.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة العاشرة

عبادة التوكل على الله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : فقه التوكل على الله عز وجل
الثاني :منزلة عبادة التوكل
الثالث :أنواع التوكل
الرابع : كيف تنشأ عبادة التوكل في القلب ؟
الخامس : تفاوت الناس في التوكل
السادس : التوكل سلاح الأنبياء والمؤمنين
السابع : الأسباب المعينة على التوكل
الثامن : جزاء أهل التوكل.

العبادة العاشرة

عبادة التوكل على الله عز وجل

١ - فقه التوكل على الله جل جلاله

التوكل على الله ركن من أركان الإيمان بالله، وله معان كثيرة منها :

الأول : أن التوكل هو كمال اليقين على ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأن الأمر كله لله وحده، وأنه المتصرف وحده في مُلْكِه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون أبدا، وأن مشيئة الله وحده هي النافذة في كل ذرات كونه، وأن العطاء والمنع بيد الله وحده، وأن العزة والذلة بيد الله وحده: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ ﴾[الزمر: ٦٢ – ٦٣] .

فالتوكل هو شُهود أن نَواصي الخلق كلهم بيد الله وحده، فكما خلقهم وحده، فأَمْرُهم جميعا بيده وحده. فليتوكلوا عليه وحده كما قال هود ﷺ: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ ﴾ [هود: ٥٦] .

فكل الأمور بيد الله وحده، فلنتوكل عليه وحده: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ ﴾[التوبة: ٥١] .

الثاني : التوكل هو الاكتفاء بالله وحده: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣ ﴾[الأحزاب:٣].

الثالث : التوكل هو التعلق بالله وحده، وعدم الالتفات لأحد سواه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ ﴾[الطلاق: ٢ – ٣] .

الرابع : التوكل على الله هو اعتماد القلب على الله وحده، ونفي ما سواه، لأن الله وحده بيده مقاليد الأمور كلها: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٧٩] .

الخامس : التوكل هو الثقة التامة في نصر الله لأوليائه: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] .

السادس : التوكل هو حسن الظن بالله عز وجل، وحسن الظن بالله أن تتيقن أن الله لم يُقَدر شيئا إلا لمنفعة العبد في الدنيا والآخرة.

ولا يتحقق التوكل إلا بحسن الظن بالله، فمن أحسن الظن بالله، توكل عليه وحده، وفوض أموره إليه، ورجا الخير منه وحده: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣] .

وحُسْنُ الظن بالله عز وجل، والثقة بتدبيره، يورث الرضا بقضائه وقدره، ويورث الثقة برحمة الله لا بعمل العبد.

قال النبي ﷺ: « لَا يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ قَالُوا : وَلَا أَنْتَ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ » متفق عليه [١] .

السابع : التوكل هو حسن الرجاء في الله، والطمع في إحسانه وعطائه وثوابه، مع القيام بالعمل: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الملك: ٢٩].

الثامن : التوكل هو الأمل في الله تعالى، والثقة بوعده كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٢] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٤)، ومسلم برقم (٢٨١٨).

التاسع :التوكلهو كمال تفويض الأمور إلى الله، والوثوق بحكمته البالغة، وتدبيره الحكيم: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ٤٤﴾[غافر: ٤٤].

ومن كَمُلَ تفويضه لله، اطمأن إلى ما اختاره الله له، فاستوى عنده التراب والذهب، والغنى والفقر، والصحة والمرض؛ لأن كل ذلك من تدبير الله واختياره: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾[التوبة: ٥١].

فعلى العبد أن يرضى بما اختاره الله له، ويحمد الله على ذلك، لكن عليه أن يدفع قدر الفقر بطلب الرزق، وقدر المرض بالتداوي المأمور به شرعا وهكذا.

ومن وثق بتدبير ربه، توكل عليه، وحمد الله على نعمائه، وصبر على بلائه .

العاشر : التوكل على الله هو الرضا عن اختيار الله، وعدم التسخط على قدره، والصبر والرضا والتسليم لما قدره الله، فمن فعل ذلك هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته بأحسن منه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾[التوبة: ٥١] .

٢ - منزلة عبادة التوكل على الله جل جلاله

التوكل على الله عز وجل في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، من أعظم عبادات القلوب. وهو صدق اعتماد القلب على الله، وقطع الأمل فيما سواه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾[التغابن: ١٣] .

فالتوكل هو حُسْن الظن بالله عز وجل أنه سيُقَدِّر للعبد ما ينفعه، ويدفع عنه ما يضره: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ ﴾[الأنعام: ١٠٢]

ومن وَثِقَ بتدبير ربه توكل عليه وحده، وحمد الله على نعمائه، وصبر على بلائه، فقال عند حصول النعمة: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٤] .

وقال عند حصول ما يكره: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾[النساء: ١٩] .

فالحمدُ لله الذي لا يُحْمَد على مكروهٍ سِواه، لأن قضاء الرب كله خير ومصلحة.

والتوكل على الله وحده شرط في إيمان العبد، فمن توكل على الله كفاه، ومن توكل على غيره خذله من جهته، ومن توكل على غير الله فقد عبد من توكل عليه، وأشرك بالله، لأن التوكل عبادة قلبية خاصة بالله وحده: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾[الأنفال: ٢] .

فمن كان مؤمنا فلا بد أن يتوكل على الله وحده، ومن لم يتوكل على الله فليس بمؤمن كما قال سبحانه :﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[المائدة: ١١] .

لهذا يحْرم على المسلم أن يقول لغيره : " توكلت على الله وعليك " بل يتوكل على الله وحده، لأن التوكل عبادة خاصة بالله وحده، وحتى لا يقول : " توكلت على الله ثم عليك "، لأن التوكل عبادة قلبية لا تكون إلا لله وحده: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾[التغابن: ١٣] .

فالتوكل عبادة خاصة بالله عز وجل، لأن المخلوق ليس له نصيب من التوكل، لأن التوكل تفويض الأمر، والالتجاء بالقلب إلى الرب، والمخلوق ليس له نصيب من ذلك، لأنه فقير ضعيف عاجز: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[النمل: ٧٩] .

٣- أنواع التوكل

التوكل أربعة أنواع :

الأول : التوكل الواجب، وهو التوكل على الله وحده في طلب ما ينفع، ودفع ما يضر، وهذا التوكل الواجب من أعظم العبادات القلبية : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن: ١٣] .

الثاني : التوكل الشركي. وهو التوكل على أصحاب القبور، أو الطواغيت، في طلب النصر أو الرزق أوالشفاء ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله وحده لا شريك له: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[المؤمنون: ١١٧] .

الثالث : التوكل المحرم، و هو التوكل على ذي سلطان في تحصيل ما يقدر عليه من متاع الدنيا، أو دفع الأذى عنهوهذا لا يجوز، لأنه اعتمد بقلبه عليه فيما يقدر عليه، وهذا شرك أصغر: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾الذاريات: [٥٠ – ٥١] .

الرابع : التوكل المباح، وهو أن يُوَكِّل الإنسان من يستطيع أن يعمل له عملا من مصالح الدنيا والأخرة، ولكن يعتمد بقلبه على الله في تحصيله، وهذا مباح شرعا.

وقد وَكل النبيَّ ﷺ مَن يَشْتَرِي له شَاةً »أخرجه البخاري [(١)].

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٣٦٤٢) .

٤ - كيف تنشأ عبادة التوكل في القلب ؟

التوكل على الله عز وجل هو مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى.

فهو مقتضى الإيمان باسم الله الوكيل والكفيل والحسيب، وهو كذلك من لوازم الإيمان باسم الله العليم والخبير، والحكيم والرحيم، واللطيف والقدير وغيرها من الأسماء الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فلِكمال ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، يكفي كل من توكل عليه، ويُحسن إليه، ويحفظه من كل شر، فهو حسبه الذي يكفيه من كل أحد، العليم بأحوال الخلق، الخبير بحاجاتهم، الحكيم الذي يقسم لهم ما ينفعهم، ويُوَصِّلْه إليهم بقدرته ولطفه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ -٣].

والتوكل هو عبادة الله عز وجل بكل أسمائه الحسنى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

وأعظم ما يُعين المسلم على التوكل على الله، هو العِلْمُ بعظيم أسماء وصفات الوكيل الذي تتوكل عليه، وتفوض أمورك إليه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

فالله عز وجل هو الواحد الأحد، الخالق لكل أحد، ومن عَلِمَ أن لهذا الكون إلهاً واحدًا لم يعبد إلا إياه، ولم يتوكل إلا عليه: ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات: ٤ - ٥].

وقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٨ - ٩].

هو الملك الذي له ملك كل شيء، ومن عَلِمَ أن مُلْكَ هذا الكون بيد واحد، وضع حاجته بين يديه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر: ٢٣ – ٢٤].

وهو سبحانه الصادق في أخباره، الذي لا يُخْلِف وعده، ومن عَلِمَ ذلك وثق به، وتوكل عليه وحده: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾[إبراهيم: ٤٧] .

هو سبحانه الحق الذي لا تنبغي الولاية إلا له، ومن عَلِمَ ذلك توكل عليه، وفوض أموره إليه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾[الحج: ٦٢] .

والوكيل الذي هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله، هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣] .

وهو سبحانه الحميد المستحق للحمد من عباده، لما غمرهم به من أنواع النعم الظاهرة والباطنة، ومن علم ذلك آمن بالله، وتوكل عليه وحده، وفوض أموره إليه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾[الإسراء: ١١١] .

وهو سبحانه الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ومن عَلِمَ أن الله حي قيوم لا ينام، تعلق به وحده، وتوكل عليه وحده :﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾[الفرقان: ٥٨] .

وهو سبحانه الغني الذي له كل شيء، وكل ما سواه فقير إليه، ومن علم ذلك آمن

بالله، وتوكل عليه وحده، ولم يقف بباب غيره: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾[لقمان: ٢٦] .

وهو سبحانه القادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء.

القادر على كل شيء. القادر على إبادة البشرية كلها بأمره: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٣٣] .

ومن عَلِمَ بذلك، آمن بالله، وتوكل عليه وحده: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن: ١٣] .

وهو سبحانه القَاهِرُ القَهَّار، الذي قهر جميع مخلوقاته على ما أراد، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ومن علم ذلك آمن بالله وحده، وكفر بما سواه، وتوكل عليه وحده لا شريك له :﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يوسف: ٣٩] .

وهو سبحانه الواسع، واسع المُلْك، واسع الرحمة، واسع المغفرة، واسع الفضل، واسع العطاء، ومن علم ذلك آمن بالله وحده، وتوكل عليه وحده، ولم يلتفت إلى أحد سواه:﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[النجم: ٣٢] .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر: ٧] .

وهو سبحانه الحكيم، الذي يحكم ملكه وحده، الحكيم في خلقه وأمره، الحكيم الذي يضع الشيء في موضعه، الحكيم الحاكم الذي جنود السموات والأرض في قبضته، والمقادير كلها بيده وحده: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾[فاطر: ٢] .

ومن علم بذلك آمن بالله، وتوكل عليه وحده، وفوض أموره إليه: ﴿ وَإِن

يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾
وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٧ – ١٨] .

وهو سبحانه الخبير بكل ظاهر وباطن، الخبير بكل صغير وكبير، الخبير بالنيات والأقوال والأعمال، الخبير الذي لا يخفى عليه شيء :﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾[المنافقون: ١١] .

ومن علم ذلك آمن بربه الخبير بما كان وما يكون وما سيكون، وتعلق به وحده، وتوكل عليه وحده: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[هود: ١٢٣] .

وهو سبحانه السميع البصير، العليم الخبير بكل شيء، عِلْمُه محيط بكل شيء، وبصره محيط بكل شيء، وسمعه وَسِعَ كل شيء: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٢] .

ومن عَلِمَ ذلك آمن بالله، وكبر الله، واستحى من الله أن يعصيه بنعمه في ملكه، وتوكل على ربه وحده: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[الملك: ١٣ – ١٤] .

وهو سبحانه الرب الذي يربي خلقه بالنعم الظاهرة والباطنة فلا إله غيره، و لا رب سواه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٢] .

ومن عَلِمَ ذلك آمن بربه العظيم، وتعلق بربه الكريم، وتوكل عليه وحده لا شريك له: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[يونس: ٣] .

وهو سبحانه العزيز، الذي يُعِزُّ من آمن به، وتوكل عليه،ويرحمه:﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾[الشعراء: ٢١٧ – ٢٢٠] .

وهو العزيز الذي لا يُغْلَب، العزيز الذي ينصر من توكل عليه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ

ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١] .

ومن عَلِمَ ذلك آمن بربه العزيز، وتوكل عليه، وفوض كل أموره إليه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الحشر: ٢٣] .

والوكيل الذي هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله، هو الرب الذي يجب أن نتوكل عليه وحده، ونعبده وحده: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣] .

وهو سبحانه القوي الذي لا يقف له شيء، ولا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يمتنع عليه شيء: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١] .

ومن عرف أن ربه قوي عزيز توكل عليه وحده، وتعلق به وحده، و أنزل حاجته به وحده، واستنصره وحده: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤] .

وهو سبحانه الجبار الذي قهر جميع مخلوقاته بجبروته، الجبار الذي يجبر قلوب المنكسرين بين يديه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الحشر: ٢٣] .

ومن عَرَفَ ربه باسمه الجبار استكان لعظمته، وخضع لكبريائه، وفوض أموره إليه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر: ٦٥] .

وهو سبحانه العلي الأعلى المتعال، الرب الذي له جميع الأسماء الحسنى،

والصفات العلا، والأفعال الحميدة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية: ٣٦ – ٣٧] .

وقال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢] .

ومن عرف ربه باسمه العلي الأعلى المتعال توكل عليه وحده، واعتمد عليه وحده، ولم يبال بما سواه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ١ – ٣] .

وهو سبحانه الكبير المتكبر عن صفات النقص والعيب، الكبير الذي لا أكبر منه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧] .

ومن عَرَفَ ربه باسمه الكبير المتكبر كبره وعظمه ومجَّده، وتوكل عليه وحده لا شريك له: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية: ٣٦ – ٣٧] .

وهو سبحانه الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء.

وإذا علمت أن ربك هو الرحمن الرحيم، فأحسن الظن به، وتُبْ إليه، وتوكل عليه، وأحسن عبادته: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩﴾ [الملك: ٢٩] .

وهو سبحان الرؤوف بخلقه، يُطعمهم ويَسقيهم ولو عَصوه أو كفروا به.

وإذا علمت ذلك، فتوكل عليه وحده، لأنه لا أحد أرأف بالخلق منه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وهو سبحانه الودود الذي تَودد إلى عباده بأنواع النعم، ليعبدوه، ويحُبوه، ويَشكروه، ويوحدوه، وإذا علمت ذلك، فسارع إلى الودود لك بحسن

عبادته،وحسن التوكل عليه: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج: ١٣ – ١٤] .

ومن تودد إلى الله بطاعته، جعل مودته في قلوب الخلق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾[مريم: ٩٦] .

وهو سبحانه الشكور، الذي يعطي على الحسنة عشرة أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلى أضعاف مضاعفة: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[التغابن: ١٧] .

هو سبحانه الشكور الذي يؤتي عباده من لدنه أجراً عظيما بلا عمل منهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء: ٤٠] .

ومن عرف أن ربه هو الشكور الشاكر أحبه، واقترب منه، وسأله من فضله، وتوكل عليه وحده لا شريك له: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن: ١٣] .

فأعظم ما يحقق للعبد عبادة التوكل على الله عز وجل، هو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

وهو سبحانه التواب، كثير التوبة على العصاة، مع تكرار معاصيهم، وإذا علمت ذلك، فَتُبْ إليه، ليتوب عليك،ويغفر لك ذنوبك: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾[النصر: ٣]

وهو سبحانه الغفور الرحيم، وإذا علمت ذلك فاستغفر من جميع ذنوبك، لأن ربك هو الغفور الرحيم :﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء: ١١٠] .

والوكيل الذي هذا جلاله وجماله وإحسانه، وهذا ملكه وسلطانه، وهذه قوته

وقدرته هو الذي يستحق أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ويتوكل عليه وحده لا شريك له: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾[التغابن: ١٣] .

فهو سبحانه الولي، المولى، النصير، الناصر. فتوكل عليه، ينصرك على عدوك وعدوه: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥ ﴾[النساء: ٤٥] .

وهو سبحانه الفاتح، الفتاح، الذي بيده وحده مقاليد الأمور، ومفاتيح النصر والرزق والأمن، فتوكل عليه وحده ينصرك ويرزقك: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩ ﴾[الأعراف: ٨٩] .

وهو سبحانه الهادي إلى كل خير، فتوكل على الهادي لتحصل على هداه: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١ ﴾[الفرقان: ٣١] .

وهو سبحانه القريب، المجيب، فإذا علمت أنه القريب المجيب، فتوكل عليه، واسأله من فضله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ ﴾[البقرة: ١٨٦] .

هو المجيب الذي يجيبك إذا لجأت إليه، وتوكلت عليه :﴿ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ ﴾[هود: ٦١] .

هو الحفيظ، الحافظ، فتوكل عليه، ولا تخشَ أحدا سواه: ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ ﴾[يوسف: ٦٤] .

هو سبحانه الحسيب الكافي، فبلغ رسالة ربك، وتوكل عليه وحده، ولا تلتفت إلى أحد سواه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩ ﴾[الأحزاب: ٣٩] .

فتوكل على ربك وحده، واطلب منه حوائجك، ولا تقف بباب أحد سواه: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾[الزمر: ٣٦] .

وهو سبحانه المستعان في كل أمر، فتوكل عليه وحده يعينك، ويدفع عنك ما

يضرك: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾[الأنبياء: ١١٢] .
هو سبحانه اللطيف الذي لا يخفى عليه شيء، اللطيف بعباده كلهم.
وإذا علمت أن ربك لطيف بعباده، فتوكل عليه وحده، وفوض أمورك إليه وحده: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾[الشورى: ١٩] .
فسبحان من يرى كل ذرة: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام: ١٠٣] .
وهو سبحانه الكريم، الأكرم، فاشكره على إحسانه، واسأله من فضله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾[النمل: ٤٠] .
وهو سبحانه البَرُّ، الرحيم، المُقِيت، فتعلق به وحده، وتوكل عليه وحده: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾[الطور: ٢٨] .
وسارع إلى مرضاته تنال عظيم ثوابه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤] .
وهو سبحانه الوهاب، فتعلق به كي يَهِبَك الثبات على دينه، و يهبك من فضله في الدنيا والآخرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾[آل عمران: ٨] .
وهو سبحانه الرازق، الرزاق وحده لا شريك له، فجميع النعم والخير والإحسان منه، فَقِفْ ببابه، واسأله من فضله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨] .
وتوكل عليه وحده في جميع حوائجك: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[الطلاق: ٢ – ٣] .

هو الكريم الذي كل النعم منه وحده: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل: ٥٣] .

هو سبحانه المحيط بكل شيء،المحيط بكل مخلوق، محيط بالعالم العلوي والعالم السفلي، فثق بنصره، وتوكل عليه وحده، ينصرك على من عَادَاكَ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢] .

هو سبحانه المؤمن، المهيمن، الذي بيده الأمن، المُهَيْمِن على كل أحد، القاهر لكل أحد، فتوكل عليه وحده، يكفيك ما سواه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الحشر:٢٣] .

وَتعلق بالله وحده، لأنه بيده ناصية كل شيء، وبيده مفتاح كل شيء: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٧ –١٨] .

ومَنْ هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله، هو الرب الذي يستحق أن يعبد وحده، ويُتَوكَّل عليه وحده، لأن بيده مقاليد كل شيء: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن: ١٣] .

هو سبحانه الحي، القيوم، القائم على كل نفس، فتوكل عليه وحده، يكفيك ما أهمك، وتعلق به وحده فإنك راجع إليه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾[طه: ١١١] .

وهو سبحانه الشهيد الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يغيب عنه شيء، العليم بكل شيء، البصير بكل شيء، وإذا علمت ذلك فتوكل عليه وحده، واستحِ منه أن تعصيه بنعمه في ملكه: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾[النساء: ٧٩] .

وهو سبحانه الشافي وحده لا شريك له، فلا تتعلق بما دونه من طبيب أو دواء،

وتوكل عليه وحده، لأن خزائن الشفاء عند الله الشافي وحده، لكن يجب عليك أن تتوكل على الله وحده،وأن تفعل الأسباب المأمور بها شرعاً: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[الشعراء: ٨٠] .

وهو سبحانه الوتر فتوكل عليه وحده، فإنه كافيك وحده لا شريك له: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[البقرة: ١٦٣] .

وهو سبحانه القدوس، السبوح، فقدسه بأنواع العبادات، وسبحه في ليلك و نهارك، وتوكل عليه وحده لا شريك له: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾[النصر: ٣] .

وهو سبحانه الرفيق، الذي يحب الرفق في الأمر كله. ففوض أمورك إليه، ولا تتكِلْ إلا عليه وحده: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر: ٤٤] .

وهو سبحانه الوارث، الذي يرث الأرض ومن عليها، فتوكل عليه، وأحسن الظن به، يورثك ما يسعدك في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[مريم: ٤٠] .

فسبحان ربنا العظيم، الذي أعلمنا بعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله، لنؤمن به، ونوحده، ونتوكل عليه، ونُفوض أمورنا إليه.

ومن عَبَدَ الله بأسمائه الحسنى كلها، فقد أتم إحصاءها، وحقق التوكل على ربه الوكيل: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣] .
وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف: ١٨٠] .

٥ - تفاوت الناس في التوكل

الناس متفاوتون في التوكل على الله بحسب إيمانهم ويقينهم وعلمهم.

فمنهم من يتوكل على الله لتحصيل لقمة، ومنهم من يتوكل على الله لتحصيل إمارة، ومنهم من همته كسرة يابسة، ومنهم من همته نيل قصر عظيم.

وأتمهم توكلا من كان توكله على الله للوصول إلى رِضوان الله، والحصول على أعلى درجات الجنة في الفردوس الأعلى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾[النمل: ٧٩].

والتوكل يزيد وينقص بحسب الإيمان واليقين.

قَالَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ:« لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهَّ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » أخرجه أحمد والترمذي(١).

وقد قسم الله الأرزاق على خلقه كِمِّيَّة ونوعية، ومكانا وزمانا: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزخرف: ٣٢] .

لكن، لا بد للعبد من فعل الأسباب، لأننا في دار الأسباب، ولن يحُصِّلَ العبد إلا ما قَسَّمَ الله له، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾[هود: ٦] .

والتوكل هو اليقين، بأن رزق الله سيصل إليك، ورزق الله لا يجَلِبُه حِرْصُ حَرِيص، ولا يَرُدُّه نوم كسلان، ولا كراهية كاره، ولا حَسَدُ حاسد: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ

---

(١)صحيح/ أخرجه احمد برقم (٢٠٥) والترمذي برقم (٢٣٤٤) .

يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ ﴾[الطلاق: ٢ – ٣] .

فتوجه إلى الله وحده في طلب الرزق، فهو الرزاق وحده، وكل ما سواه مرزوق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ ﴾[الذاريات: ٥٨] .

فلا تتملق غنيًا، ولا تستجدِ أحدًا، ولا تخف رئيسًا أن يَحْجِبَ رِزْقُ الله عنك. فرزقك يعرف عنوانك، وأنت لا تعرف عنوانه، فَاتَّقِ الله وأجمل في طلب الرزق، ولا تجعله يأخذ كل اهتمامك، أو يستغرقك كل أوقاتك، فإن ما قدره الله لك آتيك لا محالة: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾[هود: ٦].

وقَالَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ: « إِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا فَأَجمِلُوا فِي الطَّلَبِ » أخرجه البيهقي(١).

وأفضل التوكل على الله ما كان في صلاح دين العبد، ونصرة دين الله، وإعلاء كلمته، والدعوة إلى الله، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، ونيل الدرجات العلا في الجنة، والثبات على الدين حتى الممات.

والمؤمن الصادق يعمل لتحقيق ذلك ما استطاع، ثم يتوكل على الله، ويستعين به في كل أمر: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾ [التغابن: ١٣] .

والله سبحانه يَغَارُ على قلوب عباده أن يزاحمه فيها أحد، لأنه يُحِبُّ أن يتعلق قلب عبده به وحده، فإذا انشغل قلب من يحب بأمور الدنيا والشهوات

---

(١)صحيح/ أخرجه البيهقي برقم (١١٨٥) .

والمباحات، أخذ ذلك منه حتى لا ينشغل بها عنه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١].

فنبي الله إبراهيم ﷺ حين تعلق قلبه بابنه إسماعيل أمره الله بذبحه، فامتثل إبراهيم ﷺ أمر ربه، وصدق في نيته، وتم توكله، فحفظ الله ولده من الذبح.

ونبي الله يعقوب ﷺ تعلق قلبه بحب ولده يوسف، فأخذه الله منه، فرضي بقضاء الله، وتم توكله على ربه، فرد الله عليه يوسف على أكمل ما يكون الرجال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يوسف:١٠١].

فتوكل على الله في جميع أمورك: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦- التوكل سلاح الأنبياء والمؤمنين

التوكل على الله أقوى العبادات القلبية، وأقوى سلاح يتسلح به العبد.

والتوكل سلاح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: ١١].

فالتوكل كان سلاح نبي الله نوح ﷺ حين كفر به قومه، وحين بَنَى السفينة على اليابسة، وحين ركب السفينة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١].

والتوكل كان سلاح نبي الله هود ﷺ حين عاداه قومه وكذبوه: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

والتوكل على الله كان سلاح نبي الله صالح ﷺ حين كذبه قومه: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٤].

والتوكل على الله كان سلاح نبي الله إبراهيم ﷺ حين ترك زوجه وولده إسماعيل في مكة بواد غير ذي زرع: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وحين أُلْقِيَ في النار فَصَدَقَ في توكله، فحفظه الله، وأنجاه الله من النار: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[الأنبياء: ٦٩] .

وحين البراءةِ من الشرك كما قال سبحانه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾[الممتحنة: ٤] .

والتوكل على الله كان سلاح إسماعيل ﷺ حين أسلم رقبته للسكين، فصدق في توكله، وَسَلِمَ من الذبح، وفداه ربه بذبح عظيم: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾[الصافات:١٠٣-١١١].

والتوكل على الله كان سلاح نبي الله يونس ﷺ حينالتقمه الحوت وهو مليم، فصدق في توكله على ربه، فأنجاه الله، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء: ٨٧ – ٨٨] .

والتوكل على الله كان سلاح نبي الله أيوب ﷺ حين أصابه المرض، وفقد ماله وذريته كما قال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾[الأنبياء: ٨٣ – ٨٤] .

والتوكل على الله كان سلاح نبي الله زكريا ﷺ حين طلب الولد ليقوم بالدعوة إلى الله من بعده: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾
[الأنبياء: ٨٩ – ٩٠] .

والتوكل على الله كان سلاح نبي الله يعقوب ﷺ حين فقد وَلَدَيْه كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ ﴾[يوسف:٦٧].

والتوكل كان سلاح نبي الله يوسف ﷺ حين أُلْقِي في البئر، وحين أُدْخِلَ في السجن، وحين راودته المرأة عن نفسها: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ﴾[يوسف: ٣٣ – ٣٤].

والتوكل كان سلاح نبي الله شعيب ﷺ في إبلاغ الرسالة، والنجاة من الكفار كما قال لقومه: ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾[هود: ٨٨].

فلما صدق في توكله جاءته نصره الله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ ﴾ [هود: ٩٤].

والتوكل على الله كان سلاح نبي الله موسى ﷺ في دعوته: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ ﴾[يونس: ٨٤ – ٨٥].

والتوكل كان سلاح نبي الله هارون ﷺ حين عَبَدَ قومه العجل، حين ذهاب موسى لمناجاة ربه.

والتوكل كان سلاح نبي الله عيسى ﷺ، حين أحاط أعداؤه بالدار، فأنجاه الله، ورفعه إلى السماء: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨ ﴾ [النساء: ١٥٧ – ١٥٨].

والتوكل على الله عز وجل كان سلاح سيد الأنبياء والرسل نَبِيِّنَا مُحَمد ﷺ، حين أراد قومه قتله في مكة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ

تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩].

وكان سلاحه ﷺ حين كان في الغار مع أبي بكر: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وَالنَّبِيِّ ﷺ أعظم من توكل على الله في إبلاغ دعوته إلى الناس: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

وَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٦ – ٢٢٠].

وَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢ – ٣].

فَالنَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمُ من توكل على الله في عبادته، ودعوته، ونشر دينه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٨ – ٩].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١].

٧- الأسباب المعينة على التوكل على الله جل جلاله

يُعِين على التوكل على الله جل جلاله أمورٌ منها :

الأول : العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بعظمة ملكه وسلطانه، والعلم بعظمة نعمه وإحسانه، والعلم بعظمة دينه وشرعه، والعلم بعظمة وعده ووعيده: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

الثاني : قوة الإيمان بالله، والصدق في عبادته: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

الثالث : العلم بعظمة من توكلت عليه، فالله حي لا يموت، قيوم لا ينام، عليم بكل شيء، بصير بكل شيء، قادر على كل شيء. فمن عرف الله حقًا، عبده حقًا، وتوكل عليه حقًا، ومن توكل على الله كفاه، ولِلْبِرِّ هداه، وعما سواه أغناه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢] .

الرابع : اليقين بأن الأمر كله بيد الله وحده لا شريك له.

فمن تيقن أن الله له الخلق كله، وله الملك كله، وله التدبير والتصريف كله، وبيده الخير كله، صدق في توكله على ربه، وفوض أموره إلى من بيده مقاليد الأمور كلها، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون أبدا: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[الملك: ١] .

فتوكل على الله وحده، لأنه القوي العزيز الحكيم :﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[الأنفال: ٤٩] .

الخامس : اليقين على وعد الله ووعيده

فمن أيقن أن العاقبة للمؤمنين وللمتقين وللمحسنين، دفعه ذلك اليقين إلى التوكل على الله، وإحسان عبادته في الدنيا، ورجا وعده الصدق في الأخرة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة: ٧٢] .

ومن أيقن على وعيد الله، وشدة عذابه لمن عصاه آمن به، واتقاه، وخاف من معصيته، وسارع إلى طاعته: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: ٦٨].

والأخذ بالأسباب المشروعة لا ينافي التوكل على الله، فالمؤمن يبذل جهده في فعل الأسباب النافعة، ويعتقد أنها لا تنفع إلا بمشيئة الله.

لأن حقيقة التوكل اعتماد القلب على الله وحده، ولا يضره مباشرة الأسباب المأمور بها شرعا، وترك الأخذ بالأسباب طعن في الشرع، والاعتقاد في الأسباب طعن في التوحيد: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن: ١٣].

فنتوكل على الله بقلوبنا، ونفعل الأسباب بجوارحنا. لأننا في دار الأسباب، والدنيا لها أسباب، والآخرة لها أسباب.

فلا بد للعبد من التوكل على الله وحده، ومباشرة الأسباب بجوارحه:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢-٤].

والتوكل ذاته من أعظم الأسباب النافعة .

فالمتوكل يضع البَذْر في الأرض ويسقيها، ويتوكل على الله في خلق الزرع .

والمتوكل يتزوج، ويتوكل على الله في إنجاب الأولاد... وهكذا.

ومن ادعى التوكل على الله في طلب الذرية ولم يتزوج، فهذا لا عقل له .
ومن لم يبذر الأرض، وتوكل على الله في إنبات النبات، فهذا مجنون .
فالواجب على العبد الأخذ بالأسباب النافعة، ليحصل على ثواب السعي فقط، والأسباب مخلوقة ليس بيدها شيء، بل الأمر كله بيد الله وحده، والسعي سبب مأمور به شرعا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾[الجمعة: ٩ – ١٠].
والأنبياء جميعا توكلوا على الله بقلوبهم، وباشروا الأسباب بجوارحهم.
فالأنبياء منهم التاجر، والحداد، وراعي الغنم، والنجار، وباعوا واشتروا، وكسبوا المعاش ليكونوا قدوة لأممهم في الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله.
ومن ادعى التوكل على الله، وترك الأخذ بالأسباب، فهذا إنما توكل على شخص آخر يأتيه بالرزق أو الصدقة، وهذا في الحقيقة توكل على غير الله من الخلق، بل هذا تواكل لا توكل: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾[النمل: ٧٩] .
فنأخذ بالأسباب المأمور بها شرعا، ولا نتوكل إلا على الله وحده في حصول السبب، وبذلك نُقِيمُ عبادتين لله عز وجل، ونأخذ بالأسباب المأمور بها شرعا، وإن كانت خلاف العقل، فموسى ﷺ أمره الله بضرب البحر بعصاه كما قال سبحانه :﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾[الشعراء: ٦٣] .
فكانت النتيجة :﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾[الشعراء: ٦٣] .
فمراد الله من عبده أن يسمع ويطيع أمره ليحصل له مراده، وإلا ماذا تفعل العصا ببحر عظيم متلاطم؟!، لكنها قدرة الله التي ظهرت بعد فعل السبب .
وقال الله لمريم بعد ولادتها :﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ٢٥﴾[مريم: ٢٥] .
فسمعت وأطاعت، فكانت النتيجة :﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾[مريم:٢٥].
وماذا تفعل يد امرأة ضعيفة قد وهنتها الولادة في هز شجرة عظيمة شامخة ؟!
ولكنه السمع والطاعة لمن توكلت عليه، فأطعمها بعد فعل السبب .

والله سبحانه هو الوكيل الذي بيده كل شيء: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ ﴾[الزمر: ٦٢] .

فتوكل عليه وحده: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣ ﴾ [التغابن: ١٣] .

ومن توكل على الله كفاه ما سواه من أعدائه، وحفظه من اتباع خطوات الشيطان، كما قال الله عن الشيطان :﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ ﴾[النحل: ٩٨ –٩٩] .

والله سبحانه يحب المتوكلين، وقد أمر نبيه محمداً ﷺ بالتوكل عليه فقال : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾[المزمل: ٨ – ٩] .

وأمر المؤمنين بالتوكل عليه، فقال:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣ ﴾ [التغابن: ١٣] .

فالتوكل هو أعظم عبادات القلوب، لأنه يدخل في كل عبادة. وقدمه الله على عبادة الجوارح لفضله في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾[الأنفال: ٢ –٣] .

والله سبحانه قوي، يكفي من توكل عليه، وفوض أموره إليه: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨ ﴾[الأحزاب: ٤٨] .

ومن حقق التوكل دخل الجنة بغير حساب:

قال النَّبِيِّ ﷺ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حساب ولا عَذَابٍ فقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» متفق عليه(١) .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٧٠٥)، ومسلم برقم (٢٢٠) .

٨- جزاء أهل التوكل

يكرم الله أهل التوكل بكرامات كثيرة منها:

الأولى: كفاية الله لمن توكل عليه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

الثانية: الحِفَاظَةُ من الشيطان، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل: ٩٨ – ٩٩].

الثالثة: النصر والحفاظة: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٦].

الرابعة: الفوز برضوان الله، وأعلى درجات الجنة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ – ٤].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٧ – ٨].

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ اسْتَهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ، وَاسْتَغْفَرَكَ فَغَفَرْتَ لَهُ، واسْتَرحمك فَرحمته، وَ تَوكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الحادية عشرة

عبادة التوبة إلى الله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: منزلة التوبة إلى الله عز وجل .الثامن: خطر التسويف بالتوبة.

الثاني: حكم التوبة. التاسع: علاج الإصرار على المعاصي.

الثالث: فضائل التوبة إلى الله عز وجل.العاشر: أسباب سوء الخاتمة.

الرابع: الأسباب المعينة على التوبة. الحادي عشر: جزاء التائبين.

الخامس: أنواع التوبة.

السادس: أقسام التائبين إلى الله عز وجل.

السابع: خطر المعاصي على العبد.

الثامن: خطر التسويف بالتوبة

التاسع: علاج الإصرار على المعاصي

العاشر: أسباب سوء الخاتمة

الحادي عشر: جزاء التائبين

العبادة الحادية عشرة

عبادة التوبة إلى الله عز وجل

١ - منزلة التوبة إلى الله عز وجل

التوبة: هي العودة إلى الله، والرجوع إليه، وترك المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها.

والتوبة والإنابة والندم على فعل الذنب، والعزم على ترك الذنب، كل ذلك من العبادات القلبية العظيمة.

أما الإقلاع عن الذنب فهو من أعمال الجوارح، والندم يكون على ما مضى من الذنوب، والعزم يكون على ترك الذنب في المستقبل، والإقلاع يكون في الحاضر بترك الذنب فورًا: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[المائدة:٣٩].

وتوبة الله تعالى على العبد هي إذنه لعبده بالتوبة، وتوفيقه لها، ثم قبولها منه، وإثابته عليها، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[التوبة:١١٨].

فتوبة الله على العبد تسبق توبة العبد، فمن تاب الله عليه تاب، ومن لم يتب الله عليه لم يتب، لأن الله أعلم بما في صدور العالمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

وتوبة الله على العبد هي مقتضى اسمه التواب، ومغفرة الله هي ستر الله لذنب العبد في الدنيا والآخرة، وإسقاط العقوبة عنه، والوقاية من إقامة الحد عليه في الدنيا، وعذاب النار يوم القيامة: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾[النساء:١١٠].

والعفو هو إسقاط اللوم على الذنب، فهو محو أثر الذنب بالكلية، فالمغفرة

تسقط العقوبة، ولكن يبقى أثر الذنب في النفس، وهو ذل المعصية الذي يكسر قلب العبد العاصي، ويشعره بالمهانة والوحشة.

أما العفو فيزيل ذلك كله، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[التوبة:٤٣].

أما التوبة فتشمل ذلك كله، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

قال النبي ﷺ: «الإسلامُ يهدمُ ما كان قبلَه، والتوبةُ تهدمُ ما كان قبلَها» أخرجه مسلم[1].

وقال النبي ﷺ: «التائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ لهُ» أخرجه ابن ماجة والطبراني[2].

والله سبحانه تواب رحيم، يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[البقرة:٢٢٢].

وتوبة العبد تقع بين توبتين من الرب عز وجل.

التوبة الأولى: توبة إذن وهداية وتوفيق.

والثانية: توبة قبول بعد توبة العبد.

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[التوبة:١١٧-١١٨].

والله سبحانه تواب رحيم، ومن رحمته يريد أن يتوب على جميع عباده: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[النساء:٢٧-٢٨].

والله عزوجل هو الخالق الذي خلق الناس، وخلق أفعالهم، وهو أعلم بقلوب عباده، ومن تصلح له الطاعة والهداية، ومن تصلح له المعصية: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢١).

(٢) أخرجه ابن ماجة برقم (٤٢٥٠) والطبراني برقم (١٠٢٨١).

يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الأنعام: ٥٣].

فالله أعلم بالشاكرين، والكافرين، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾[فاطر: ٨].

والله سبحانه خلق الجن والإنس مخيرين بين الإيمان والكفر، وبين الطاعات و المعاصي، ليبتليهم بحسن العمل كما قال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[الملك: ١-٢].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾[الكهف: ٧].

والتوبة هي مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، فالتوبة هي مقتضى الإيمان باسم الله التواب: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف: ١٨٠].

والتوبة من آثار ولوازم الإيمان بأسماء الله، العفو، الغفور، الغفار: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[طه: ٨].

فمن تاب تاب الله عليه، ومن عفا عفا الله عنه، ومن استغفر غفر له ربه الغفور، ومن استرحم رحمه ربه الرحيم: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[الزمر: ٥٣].

والتوبة إلى الله شرط الإيمان، فمن لم يتب من الكفر فهو كافر، ومن لم يتب من الشرك فهو مشرك، ومن لم يتب من الظلم فهو ظالم: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾[الحجرات: ١١].

٢ - حكم التوبة

التوبة إلى الله عز وجل واجبة على كل أحد من البشر في كل زمان ومكان من الكفر والشرك، وجميع الذنوب والمعاصي: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١].

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالتوبة من جميع الذنوب والمعاصي كما قال سبحانه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم:٨].

وتودد الله إلى من أشرك بالله بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٤].

فالتوبة إلى الله أعظم عبادات القلوب، وأول عبادات القلوب، فإن الله تعالى ما أنزل الكتب، وأرسل الرسل، إلا لدعوة الناس للتوبة إلى الله من الكفر والشرك، والذنوب والمعاصي، والغفلات والجهالات، فالتوبة واجبة على الفور على كل أحد: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة:٣٩].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:١٧].

والله سبحانه تواب رحيم، عفو غفور، يتوب على من تاب: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل:١١٩].

والتوبة واجبة على الدوام من جميع الذنوب، فإن العبد لا يخلو من معصية بقلبه أو لسانه أو جوارحه، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطاءينالتوابون .
فإن خلا العبد من ذلك، فلا يخلو من وسوسة النفس والشيطان له بالمعصية .
فإن خلا من ذلك فلا يخلو من الغفلة أحيانا .
فإن خلا من ذلك فلا يخلو من التقصير في العلم بالله، وما يجب له من العبودية، والتقصير في الأعمال الصالحة، والتقصير في الدعوة إلى الله، والتقصير في تعليم الناس شرع الله، ولهذا أمر الله المؤمنين جميعاً بالتوبة دائما بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾[النور:٣١].
وقال النبي ﷺ: «إِنَّه لَيُغانُ على قَلْبِي، وإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ، في اليَومِ مِئَةَ مَرَّةٍ» أخرجه مسلم (١).
وقال النبي ﷺ: «واللهِ إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إلَيْهِ في اليَومِ أَكْثَرَ مِن سَبْعِينَ مَرَّةً» أخرجهالبخاري (٢).
وحقوق الله عز وجل على العباد عظيمة، وهي أعظم من أن يقوم بها الخلق، ونعم الله أكثر من أن تحصى، وهي أكثر من أن يشكرها الخلق، فتوبوا إلى الله دائما، وأصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين، فربكم تواب رحيم: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[المائدة:٣٩].
والتوبة واجبة حتى من الذنوب التي أقلعت عنها، فالذنوب لاتغفر إلا إذا تبت إلى الله منها، ومن مات من المسلمين مصرًا على الكبائر فإن الله يغفرها لمن يشاء، أو يعذبه بها، ثم يدخله الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾[النساء:٤٨].

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٧).

أما من تاب إلى الله من ذنوبه، فإن الله يتوب عليه، ويمحو ذنوبه، ويبدلها حسنات: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

فالكبائر موبقات للعبد، ولا يكفرها إلا التوبة التي تمحوها، أما الصغائر فتكفرها الأعمال الصالحة، كالصلاة والصيام والحج وأمثالها.

قال الرسول ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، والجُمْعَةُ إلى الجُمْعَةِ، وَرَمَضانُ إلى رَمَضانَ، مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهُنَّ إذا اجْتَنَبَ الكَبائِرَ» أخرجه مسلم (١).

وقال النبي ﷺ: «منْ حجَّ لله فَلَم يرْفُثْ، وَلَمَ يفْسُقْ، رجَع كَيَومِ ولَدتْهُ أُمُّهُ» متفق عليه(٢).

فالأعمال الصالحة تكفر الصغائر والذنوب التي لا يشعر بها الإنسان، أما الكبائر التي نسيتها فإن الله لم ينسها، ولن تمحى عنك إلا بالتوبة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

والتوبة إلى الله واجبة من كل الذنوب على جميع البشر، التوبة من الكفر والشرك، والتوبة من الكبائر والصغائر، والتوبة من البدع والغفلات: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩].

فالتوبة واجبة على جميع الناس، والله دعا اليهود إلى التوبة بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: ٦٥].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٥٢١) ومسلم برقم (١٣٥٠).

ودعا الله النصارى إلى التوبة بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٤].

ودعا الله الكفار إلى التوبة بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال:٣٨].

ودعا الله المشركين إلى التوبة بقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة:٣].

ودعا الله المنافقين إلى التوبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

ودعا الله عز وجل أصحاب الكبائر إلى التوبة إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

ودعا الله كل من كتم شيئا مما أنزل الله إلى التوبة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

ودعا الله المؤمنين إلى التوبة، لما في أعمالهم من نقص، وما في أوقاتهم من غفلة عن ذكر الله، وما في دعوتهم من تقصير، فقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

والتوبة أعظم عبادات الأنبياء، فهم لكمال معرفتهم بالله وما يجب له من حقوق أكثر الناس توبة، وأكثرهم استغفارًا.

فآدم ﷺ وزوجه تابا إلى الله بعد أكلهما من الشجرة كما قال سبحانه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٧].

وهكذا سائر الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله أجمعين.

والناس متفاوتون في التوبة، فالتوبة من جميع الذنوب والمعاصي فرض على كل مسلم ومسلمة، والتوبة تجُب ما قبلها كما أن الإسلام يهدم ما قبله.

والتوبة تجِب من جميع المخالفات، الكبائر، والصغائر، والغفلات، والمنكرات.

فالكبائر كل ذنب توعد الله عليه بالنار، أو العذاب، أو باللعنة، أو غضب الرب، أو نفي الإيمان عن صاحبه، أو تبرأ منه رسول الله ﷺ.

هذا حد الكبائر وأعظمها الشرك بالله في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي عبادته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢].

وقال النبي ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبائِرِ؟ ثَلاثًا، قالوا: بَلى يا رَسُولَ اللهِّ، قالَ: الإشْراكُ باللهَّ، وَعُقُوقُ الوالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكانَ مُتَّكِئًا فَقالَ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ، قالَ: فَما زالَ يُكَرِّرُها حتّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ» متفق عليه [(١)].

وقال النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ قالوا: يا رَسُولَ اللهِّ، وَما هُنَّ؟ قالَ: الشِّرْكُ باللهَّ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُّ إِلّا بالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبا، وَأَكْلُ

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٥٩٧٦) ومسلم برقم (٥٧).

مالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ الغافِلاتِ» متفق عليه (١).

فتجب التوبة من جميع أنواع الكبائر: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: ١١].

والصغائر كقطرات ماء متوالية على حجر لابد أن تؤثر فيه، والكبائر كسيل وادٍ منحدر يهلك من مر به، فاحذر هذه وتلك.

وكما أنه لا كبيرة مع الاستغفار، فكذلك لا صغيرة مع الإصرار.

ومن الأسباب التي تعظم بها صغائر الذنوب ما يلي:

الأول: أن يستصغر العاصي الذنب.

وإنما يستعظم العبد الذنب بعلمه بجلال الله وعظمته، فإذا نظر إلى عظمة من يعصيه رأى الصغيرة كبيرة، وقليل المعاصي كثير، ومن الناس من يرى بعض المعاصي هينة، لجهله بعظمة الله، وهي عند الله عظيمة كما قال سبحانه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾ [النور: ١٥].

الثاني: أن يفرح العاصي بالذنب إذا فعله، فقلة حياء العبد من الملائكة أعظم من الذنب، وفرح العبد بالذنب إذا فعله أعظم من الذنب، وحزنه على الذنب إذا فاته أعظم من الذنب، وخوفه من الناس وعدم خوفه من الله أعظم من الذنب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

الثالث: أن يجاهر العبد بالذنب، أو يفضح نفسه بعد ما ستره الله.

قال النبي ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعافىً إلّا المُجاهِرِينَ» متفق عليه (٢).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري برقم (٢٧٦٦) ومسلم برقم (٨٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠٦٩) ومسلم برقم (٢٩٩٠).

الرابع: أن يكون المذنب من العلماء الذين يقتدى بهم، فالعالم كما تتضاعف حسناته إذا تبعه الناس على الخير، فكذلك تتضاعف سيئاته إذا اتبعوه على الذنوب.

قال النبي ﷺ: «مَن دَلَّ على خَيرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فاعِلِه» أخرجه مسلم (١).

وقال النبي ﷺ: «مَن دَعا إلى هُدًى، كانَ له مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن أُجُورِهِمْ شيئًا، ومَن دَعا إلى ضَلالَةٍ، كانَ عليه مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن آثامِهِمْ شيئًا» أخرجه مسلم (٢).

فيجب على العبد التوبة من جميع أنواع الصغائر .

وأما التوبة من الغفلات، فإن أنفاس العبد هي عمره، وإذا خرج النفس ضاع إلى الأبد، فمن استعمل أنفاسه في طاعة الله ورسوله، أوصلته إلى سعادة الأبد في الجنة، ومن أضاع أنفاسه في الغفلة، واتباع الشهوات والمعاصي، أوصله ذلك إلى شقاوة الأبد.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

وعلامة صدق التوبة هو الندم على ما سلف من الذنوب، والإكثار من الأعمال الصالحة بعد التوبة.

وشروط التوبة المقبولة عند الله عز وجل أربعة:

الأول: الندم على فعل الذنب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٩٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤).

الثاني: الإقلاع عن الذنب فورًا.

الثالث: العزم على عدم العودة إلى الذنب في المستقبل.

الرابع: رد المظالم للعباد إن كان الذنب في حق المخلوقين.

الخامس: أن تكون التوبة خالصة لله لا رياء ولا سمعة.

فهذه شروط التوبة النصوح المقبولة والتي أمر الله بها في كتابه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾[التحريم:٨].

وقال عز وجل: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[المائدة:٣٩].

٣- فضائل التوبة إلى الله عز وجل

التوبة إلى الله عزوجل من أعظم العبادات القلبية التي يحبها الله، ويفرح بها، ويثيب عليها، ويغفر لصاحبها، ويمحو ذنوبه.

فقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ بعد إبلاغ رسالة الله إلى الناس بها، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ٣].

وأمر سبحانه عباده المؤمنين بالتوبة بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: ٣١].

وهي أول صفات المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة: ١١٢].

فالتوبة من العبد سبب لتوبة الله على العبد: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة: ٣٩].

والتوبة سبب لمغفرة الذنوب كما قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه: ٨٢].

والتوبة سبب للاتصاف بالإيمان كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

والتوبة سبب لنزول البركات من السماء، كما قال نوح ﷺ لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١١-١٢].

وكما قال هود ﷺ لقومه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود:٥٢].

وكما قال محمد ﷺ لقومه وأمته: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود:٣].

والتوبة سبب لإجابة الدعاء كما قال صالح لقومه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

والتوبة إلى الله سبب لنزول الرحمة. كما قال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠].

والتوبة إلى الله سبب للفلاح في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

والتوبة إلى الله سبب لمحبة الله لعبده كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

والتوبة إلى الله سبب لمنع العقاب الذي انعقدت أسبابه كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة:٥].

وقال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس:٩٨].

٤ - الأسباب المعينة على التوبة إلى الله

الذي يدفع المسلم إلى التوبة من الذنوب أمور:

الأول: العلم بعظمة الله وجلاله، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بعظمة ملكه وسلطانه، والعلم بعظمة نعمه وإحسانه.

فمن عرف الله حقًا خافه حقًا، وتاب إليه حقاً: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

الثاني: خوف مقام العبد بين يدي ربه يوم القيامة كما قال سبحانه عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن:٤٦].

الثالث: خوف العقاب على الذنب كما قال الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ [الإنسان: ١٠-١٢].

وكل ظالم سيحاسب على ظلمه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ [الفرقان:١٩].

الرابع: العلم بعظمة من تعصيه يدفعك إلى طاعته، ويصرفك عن معصيته؛ لأن الذنب جرأة على معصية من خلقك ورزقك وهداك، وسبب لاستحقاق غضبه، والبعد عن واسع رحمته، فاستح من ربك أن تعصه في ملكه بنعمه: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢٠ - ٢٢].

الخامس: العلم بسعة رحمة لكل من عصاه: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ [المائدة:٧٤].

٥ - أنواع التوبة

أنواع التوبة أربعة:

الأول: التوبة النصوح، وهي التي تنصح صاحبها، فتمنعه كلما أراد أن يعود إلى الذنب، والتوبة النصوح هي التوبة الشاملة لكل الذنوب صغيرها وكبيرها، سرها وعلانيتها، سواء كانت ذنوبًا في حق النفس، أو ذنوبًا في حق الخلق: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة:٣٩].

وهذه هي التوبة الصادقة المأمور بها شرعًا كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم:٨].

الثانية: توبة اللسان، والمطلوب شرعًا توبة القلب، لا توبة اللسان فقط، فمن تاب بلسانه، أو استغفر بلسانه، ولم يستحضر ذلك بقلبه، فتوبته ناقصة لأن التوبة من أعمال القلوب.

الثالثة: توبة العاجز، والتوبة المقبولة أن تترك الذنب ابتغاء وجه الله وحده، فمن ترك الذنب لكبر سنه، أو لضعف بدنه، أو لأنه لا يستطيع فعله، أو لأنه يضر بصحته، أو لأن الذنب يفسد وجاهته عند الناس، أو يترك الذنب حتى لا يفقد مصالحه عند الناس .

فكل هذه الأسباب تمنع صحة التوبة، وتبطل ثوابها: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠].

الرابعة: التوبة المردودة، وهي التي تكون إذا حضر أجل الموت، أو بعد طلوع الشمس من مغربها.

فحين ذاك لا يقبل الله إيمان الكافر، ولا يقبل توبة العاصي: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾[النساء:١٨].

وقال النبي ﷺ: «مَن تاب قَبلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِها، تابَ اللهُ عليه» أخرجه مسلم (١).

وقال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبَلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِرْ» أخرجه الترمذي (٢).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٣).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي برقم (٣٥٣٧).

٦ - أقسام التائبين إلى الله عز وجل

التائبون إلى الله ثلاثة أقسام:

الأول: توبة الكافر والمشرك، وهي أن يشهد الشهادتين، ويتبع ذلك بأداء شعائر الدين، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ونحوهما كما قال سبحانه عن الكفار: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة:١١].

الثاني: توبة الكافر الحربي، فالإسلام يجب ماقبله، والتوبة تجب ماقبلها.

قال ﷺ: «مَن أحْسَنَ في الإسْلامِ لَمْ يُؤاخَذْ بما عَمِلَ في الجاهِلِيَّةِ، ومَن أساءَ في الإسْلامِ أُخِذَ بالأوَّلِ والآخِرِ» متفق عليه [١].

فالكافر الحربي إذا أسلم لم يؤاخذ بشيء مما عمله في الجاهلية، سواء كان من حقوق الله أو من حقوق الناس كما قال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال:٣٨].

وقال النبي ﷺ: «أما عَلِمْتَ أنَّ الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ» أخرجه مسلم [٢].

الثالث: توبة المسلم المسرف على نفسه، المفرط في دينه .

فهذا المسرف المفرط عليه أن ينظر فيما فاته من الفرائض، من صلاة وصوم وزكاة وحج وغيرها، فيجتهد في تعويض ذلك في الاستكثار من الحسنات والتطوعات: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود:١١٤].

ثم يفتش عن كل معصية صدرت منه منذ بلوغه فيقابلها بحسنة تناسبها من نوعها، فيكفر عن سماع الأغاني بسماع القرآن، ويكفر عن رؤية الصور المحرمة

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٩٢١) ومسلم برقم (١٢٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٢١).

بالنظر في كتاب الله وتدبره، ويكفر عن شرب الخمر بعمل سبيل ماء بارد للناس.. وهكذا.

قال النبي ﷺ :«اتَّقِ اللهَّ حيثُما كنتَ وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها وخالِقِ النّاسَ بخلقٍ حسنٍ»أخرجه أحمد [1].

هذا في الذنوب التي بين العبد وبين ربه :﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[المائدة:٣٩].

أما الذنوب التي فعلها مع العباد فتوبته أن يرد مظالم الأموال من السرقة والغش والخيانة إلى أهلها أو ورثتهم، فإن لم يقدر على ردها جميعا فليكثر من الحسنات التي تذهب السيئات، فإن لم يذكر ممن غصب المال، أو سرقه منه، فليتصدق به عن صاحبه الذي لا يعلمه فإن الله يعلمه.

فإن كانت الجناية في الأعراض، والغيبة والنميمة، فليذكرهم في مجالسه بخير كما ذكرهم بشر، ويحسن إليهم، ويستحلهم مما قال فيهم من غير أن يوغر قلوبهم بذكر ما اغتابهم به.

وإن كان هذا المسرف المفرط لا يتذكر المظالم، ولا يعرف أصحاب الحقوق، فإنه يكفر عن إيذاء الناس بالإحسان إلى الضعفاء، ويكفر عن غصب الأموال بالإكثار من الصدقة من الحلال، حتى يخرج قدر الحرام من ماله الحلال.

أما إن كانت الجناية في القتل فليدفع الدية إلى ولي المقتول، ولا يفضح نفسه بذكر الذنوب التي عليها الحدود، بل عليه أن يستر نفسه، كما ستر الله عليه، ويسارع للتوبة فيتوب إلى ربه توبةً نصوحا: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣].

---

(١)حسن: أخرجه احمد برقم (٢١٣٩٢) والترمذي برقم (١٩٨٧) .

٧- خطر المعاصي على العبد

للمعاصي أخطار عظيمة منها:

الأول: أن مرض القلب بالمعاصي أشد من مرض البدن بالحمى، فإن مريض القلب بالشهوات لا يدري أنه مريض، بل يسعد ويفرح بالمعصية، أما مريض البدن فيشعر بالألم، ويسارع إلى العلاج، ومريض القلب بالمعاصي نهايته جهنم، ومريض البدن نهايته الموت: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم:٥٩-٦٠].

وقال عزوجل: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء:١٤].

الثاني: أن الذنوب والمعاصي حجاب عن المحبوب وهو الله عز وجل.

فمن عقوبة المعاصي أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تقطع العاصي عن السفر تماما، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، ولا يتقرب إلى ربه بعمل صالح: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين:١٤].

والقلب إنما يسير إلى الله بسرعة إذا كان حيًا سليمًا، فإذا مرض بالذنوب ضعفت قوته، فإذا تكاثرت عليه الذنوب أرهقته فزالت قوته، وانقطع عن الله، فجره الشيطان ليكون من جنوده: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾ [النساء:٣٨].

الثالث: أن العاصي يزول عنه الإيمان أثناء فعله للذنوب والمعاصي.

قال النبي ﷺ: «لا يَزْني الزّاني حِينَ يَزْني وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِين يَشْربُها وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ السّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النّاسُ إلَيْهِ فيها أبْصارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُها وهو مُؤْمِنٌ» متفق عليه (١).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٤٧٥) ومسلم برقم (   ) .

الرابع: أن كل من عصى الله فهو جاهل بعظمة ربه، وجاهل بعظمة الموقف بين يدي الله للحساب، وجاهل بشدة عذاب جهنم، وجاهل بعظمة نعيم الجنة الذي تبعده عنه المعصية، وجاهل بما يصلح شأنه في الدنيا الذي تصرفه عنه المعصية: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام: ٣٥].

وعلاج الجهل بالعلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بعظمة ملكه وسلطانه، والعلم بعظمة نعمه وإحسانه، والعلم بدينه وشرعه، والعلم بوعده ووعيده: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩﴾ [محمد: ١٩].

والمشركون والكفار هم أجهل الناس بالله عزوجل، لأنهم كفروا بالله وساووا آلهتهم الباطلة بالله العظيم.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

ولهذا منّ الله على رسوله ﷺ بالعلم النافع، حيث قال له: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٣﴾ [النساء: ١١٣].

وحذره ربه من الجهل بالله وأقداره كما قال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام: ٣٥].

الخامس: أن كل مرتكب للمعاصي إنما هو بسبب إبليس، أو نفسه الأمارة بالسوء، فإبليس أول عاصٍ لله، وأول داع إلى معصية الله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

السادس: أن العبد يقع في الذنب بسبب الاغترار بحلم الله على العصاة، لعلهم يتوبون إليه، ولأن عقاب المعاصي غير معجل، فيقع العبد في الذنب بسبب

جهله بنهاية أمره، أو عدم رؤيته تعجيل العقوبة في الدنيا، ولأن المذنب يمني نفسه بأنه سيتوب بعد المعصية فيقع في الذنب بسبب التسويف، وطول الأمل، ولأن المذنب يغلب عليه الرجاء بعفو الله، ويقل عنده الخوف من الله، فيقع في الذنب: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾[فاطر:٤٥].

السابع: أن من أسرف على نفسه بالمعاصي، وانغمس في الذنوب، وجد فيه الشيطان فريسة سهلة، فأغواه، وأغراه بأنواع المعاصي، فكلما فرغ من معصية أغواه الشيطان وأغراه بأخرى مثلها أو أكبر منها، وكلما اقتحم العاصي باب معصية، فتح له الشيطان باب معصية أخرى، ثم بعد فعل المعصية يقنطه الشيطان من رحمة الله، ويؤيسه من روح الله، ويبين له مدى خسرانه، وأن سيئاته طغت على حسناته، وأنه مهما فعل فلن يغفر الله له، فلا يتوب ولا يستغفر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[آل عمران:١٧٥].

والمؤمن ولو عصى الله لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله كما قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[الزمر:٥٣].

وقال عزوجل: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦].

٨- خطر التسويف بالتوبة

يجب على كل أحد أن يتوب من ذنوبه فورا، لئلا تأتيه منيته وهو لم يتب من ذنبه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧﴾[النساء:١٧].

وسبب تسويف التوبة هو طول الأمل.

قال النبي ﷺ لابن عمر: «كُنْ في الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عابِرُ سَبِيلٍ وكانَ ابنُ عُمَرَ، يقولُ: إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّباحَ، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَساءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لمَرَضِكَ، ومِنْ حَياتِكَ لمَوْتِكَ» أخرجه البخاري [١].

واحذر من الشيطان فإن سلاحه الذي يجر به الخلق إلى الجرائم هو التسويف، فيقول للإنسان افعل هذه الجريمة، وذق حلاوتها، وأنها آخر جريمة تفعلها وتتوب بعدها، وتكون من الصالحين، كما زين الشيطان لأخوة يوسف بقوله: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ٩﴾[يوسف:٩].

ومن ترك المبادرة إلى التوبة، كان بين خطرين.

أحدهما: أن يأتيه المرض أو الموت فلا يجد متسعا من الوقت للتوبة، ويشغله ما يعانيه عن التوبة، فيقدم على الله مصرًا على معصيته، فيأخذ نصيبه من عذاب الله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١﴾[المنافقون:١٠-١١].

الثاني: أن يمد الله له في أجله وهو مقيم على المعصية، فتتراكم ظلمة المعاصي على قلبه، حتى تصير رانًا وطبعًا، فلا يقدر على التوبة بعد ذلك: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤﴾[المطففين:١٤].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦).

ثم يصير الطبع ختمًا، فيختم على قلبه، فلا يقبل الهداية، ولا التوبة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة: ٦-٧].

ثم يصير الختم قفلًا، فلا يدخل في القلب شيء ينفعه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

ثم يجعل الله في أسماعهم وقرًا يمنعهم من سماع الهدى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ۝٤٦﴾ [الإسراء: ٤٦].

ثم يمنع الله عنهم فهم ما يسمعونه من أخبار ومواعظ القرآن، ويجعل على قلوبهم غشاوة حتى لا يروا آيات الهداية، كما قال الله عن الكافر: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣].

ثم يعمي الله أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحق: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ۝٢٣﴾ [محمد: ٢٣].

ثم يزيغ الله قلوب هؤلاء، فلا تجد سبيلًا للعودة إلى الهداية كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥].

ثم يجعل الله بينهم وبين الصالحين حجابًا، فلا يخالطوهم، ولا يقبلوا مواعظهم، ولا يستفيدوا من خيرهم كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٥].

وجزاء هؤلاء أن يحجبوا عن ربهم يوم القيامة، لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يطيعوه كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥].

فهؤلاء لا يؤمنون ابدًا مهما أرسل الله إليهم آيات الهداية، لأن الله علم ما في

قلوبهم من الكبر والإعراض بعد أن قامت عليهم الحجة :﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[الأعراف:١٤٦-١٤٧].

والتسويف بالتوبة سببه كثرة الحجب على القلب .

وأعظم الحجب التي تحول بين القلب وبين الله عشرة:

الأول: حجاب الكفر والتعطيل، وهذا أغلظها.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يعبد المرء مع الله غيره.

الثالث:حجاب البدع الاعتقادية كحجاب أهل الأهواء.

الرابع: حجاب البدع العملية كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقتهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء واتباعهم وأمثالهم.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضول والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا من اجله.

العاشر: حجاب المنشغلين عن السير إلى المقصود.

نسأل الله عز وجل أن يرفع عنا هذه الحجب التي تحول بيننا وبين ربنا، وأن يرينا الحق حقًا، ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا، ويرزقنا اجتنابه، وأن يرزقنا حسن التوبة إليه، حتى نلقاه آمنين مطمئنين مسرورين: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[الفجر:٢٧-٣٠].

٩- علاج الإصرار على المعاصي

الإصرار على المعاصي سببه أمران هما الغفلة، والشهوة.

فالغفلة تزول بالعلم، والشهوة تزول بالصبر عنها.

فعلاج الغفلة الانتباه، ومن انتبه إلى حاله تاب من تفريطه، ولا تتم التوبة إلا بالعلم بخطورة الذنب، والندم على فعل الذنب، والعزم على عدم العودة إلى الذنب: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

ومن عرف ربه خافه، ومن خافه تاب إليه، واتقاه، وأطاعه ولم يعصه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر:٢٨].

أما علاج الشهوة فيكون بالصبر عنها، ولا يدوم الصبر إلا بالخوف من الله، ولا يتحقق الخوف إلا بالعلم بعظمة من تعصيه، والعلم بشدة الموقف بين يديه، والعلم بشدة عذابه لمن كفر به وعصاه، ولا يحصل ذلك إلا بحضور مجالس العلم والذكر التي يعظم فيها الله، والدار الآخرة، ومن حضر تلك المجالس سهل عليه الصبر على الطاعات، والصبر عن الشهوات، كما قال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف:٢٨].

١٠- أسباب سوء الخاتمة

سوء الخاتمة سببه الإصرار على المعاصي، وعدم التوبة منها، ولا يكون ذلك إلا إذَا تسلط الشيطان على العبد في الحياة وعند الموت، فيحول بينه وبين التوبة، ولا يكون تسلط الشيطان إلا على من دوام على طاعته، ومعصية ربه، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل:٩٨-١٠٠].

وسوء الخاتمة من أسبابه الطبع على القلب، والطبع على القلب سببه الكبروالاستكبار كما قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر:٣٥].

واتباع الهوى كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)﴾ [محمد:١٦].

والظلم والعدوان كما قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾ [يونس:٧٤].

والكفر بالله كما قال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)﴾ [النساء:١٥٥].

وسوء الخاتمة من أسبابه الجور في الوصية، فيأتيه الشيطان، ويزين له الظلم في الوصية لضعف إيمانه، ولن يُضعف إيمان العبد إلا ظلمة المعاصي التي تطفي نور الإيمان في القلب.

وسبب المعاصي هو حب الدنيا وشهواتها، واتباع الهوى، كما قال سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩].

وقال عز وجل: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن أسباب سوء الخاتمة ضعف الإيمان، لأن ضعف الإيمان يؤدي إلى ضعف حب الله عز وجل، الذي يزداد ضعفه إذا جاءت سكرات الموت.

فمن مات محبًا لله قدم عليه قدوم المسافر المحسن المشتاق، فيلقاه ربه بالفرح والسرور والإكرام: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

ومن مات ضعيف الحب لله، كافراً بالله، مصرًا على معصيته، قدم على الله قدوم العبد الآبق على سيده، فيساق إليه قهرًا: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤].

وسوء الخاتمة من أسباب حب الدنيا، فمن أحب الدنيا شغلته عن عبادة ربه، وجمع الأموال من حلال وحرام، وكره لقاء الله، لأنه سيفارق الدنيا، ويترك أمواله لغيره، فيتسخط قلبه لذلك، ويزداد تسلط الشيطان عليه، ويؤيسه من رحمة الله، لأنه لا يرجو إحسانه إليه، وقد طالت معصيته له في الدنيا، فيموت وقد قنطه الشيطان من رحمة الله، والله يدعوه إلى التوبة: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣].

وسوء الخاتمة من أسبابه البدع، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، وعاين المبتدع ملائكة الموت، وظهر له بطلان بدعته، وفساد عقيدته، ورأى عمله على أساسها ضائعًا، فيقنط من رحمة الله، وييئس من روح الله، ويلقى الله ساخطًا عليه: ﴿ وَمَن

يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

وسوء الخاتمة من أسبابه الاعتراض على قدر الله، فيعترض على الله في قضائه له بالموت أو المرض، فيسخط على قدر الله وفعله به، ولا يرضى بقضائه، فيحرم من التوبة، ومن رحمة الله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

وكل إنسان سيموت على ما عاش عليه، ويحشر على مات عليه، مؤمناً أو كافراً، مطيعاً أو عاصياً: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

١١- جزاء التائبين

يكرم الله التائبين بكرامات كثيرة في الدنيا والآخرة:

الأولى: قبول التوبة من التائبين: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[المائدة:٣٩].

الثانية: مغفرة الله عزوجلللتائبين:﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾[طه:٨٢].

الثالثة: الفلاح في الدنيا والآخرة: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾[النور:٣١].

الرابعة: دخول الجنة كما قال سبحانه :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾[التحريم:٨].

اللهم يا تواب تب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ويا غفور اغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم.

﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:٢٣].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثانية عشرة

عبادة تقوى الله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : فقه التَّقوى.

الثَّاني : منزلة التَّقوى.

الثَّالث : ما الَّذي يتَّقيه المسلم في حياته.

الرَّابع : فضائل التَّقوى.

الخامس : الأسباب المُعِينة على تحقيق التَّقوى.

السَّادس : تفاوت النَّاس في التَّقوى.

السَّابع : صفات المتَّقين.

الثَّامن : جزاء المتَّقين.

العبادة الثانية عشرة

عبادة تقوى الله عز وجل

١ - فقه التَّقوى

التَّقوى :هي أن تعمل بطاعة الله، على نورٍ مِن الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نورٍ مِن الله، تخاف عقاب الله.

التَّقوى :هي ألَّا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران:١٠٢].

وحقُّ تقاته :أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكَر فلا يُنسَى، ويُشكَر فلا يُكفَر.

والتَّقوى من مقتضيات الإيمان باسم الله المؤمن، فهو المؤمن الَّذي أَمِنَ عباده المؤمنين المتَّقين مِن عقابه في الدُّنيا والآخرة :﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[الأنعام:٨٢].

والتَّقوى مِن لوازم الإيمان باسم الله الهادي، فهو الَّذي هدى عباده لطاعته، وثبَّتأقدامهم على سبيله، وملأ قلوبهم بمحبَّته، وهو سبحانه أهلٌ أن يتَّقيه عباده،وأهلٌ أن يحُبَّ، وأهلٌ أن يُعبَد، وأهلٌ أن يَغفِر لمن اتَّقاه : ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾[المدثر:٥٦].

والتَّقوى شرط الإيمان كما قال سبحانه :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة:٥٧].

والله عزَّ وجلَّ أمر عباده بالتَّقوى فقال في عبادات القلوب :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران:١٠٢].

وقال في عبادات الجوارح: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن:١٦].

فعبادات القلوب ليست منوطةً بالاستطاعة؛ لأنَّها لا تستلزم مشقَّةً بدنيَّةً، ولا نفقةً ماليَّةً، ولا شجاعةً قلبيَّةً، ولا يمنع العبدَ الصَّالحَ من التَّرقِّي في عبادات القلوب مانعٌ من زوجةٍ أو ولدٍ، أو فقرٍ أو غِنًى، أو قوَّةٍ أو ضعفٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

أمَّا عبادات الجوارح فهي منوطةٌ بالاستطاعة؛ لأنَّ مدارها على وجود القدرة والعافية البدنيَّة، والمال اللَّازم للنَّفقة، وزوال الموانع من الخوف أو المرض أو العجز ونحو ذلك.

فالأوامر الإلهيَّة البدنية منوطةٌ بالاستطاعة كالصَّلاة والصِّيام والزَّكاة والحجِّ وأمثالها مِن الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والحكم بين النَّاس بالعدل، ونحو ذلك من العبادات، وكلُّ ذلك يستلزم وجود العافية في البدن، ووجود النَّفقة، وأمْن الطريق، وإعداد العُدَّة، وكلُّ ذلك لا يتيسَّر لكلِّ أحدٍ، فكان التَّكليف بقدر الاستطاعة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن:١٦].

وقال النبي ﷺ: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» متفق عليه (١).

وقد جمع الله بين عبادات القلوب وعبادات الجوارح بقولهسبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٨) ومسلم برقم (١٣٣٧).

وأساس التَّقوى العلم الإلهي، فبالعلم يعرف العبدُ ربَّه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويعرف ما يتَّقيه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

وبالعلم يبتعد العبد عن سخط مولاه، وبالعلم ينال العبد ثواب ربِّه وما يُرضيه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

ومن لم يأخذ نصيبه من العلم الإلهي أكَلَ الرِّبا وهو لا يدري، وظلَمَ النَّاسَ وهو لا يدري، وقطَعَ صلةَ الرَّحم وهو لا يدري، ومنع الحقوق وهو لا يدري، وجهِلَ أحكامَ الطَّهارة والصَّلاة ففسدت عبادته وهو لا يدري: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

فطلَبُ العلم عبادةٌ، وتعليمه عبادةٌ، والعمل بموجبه عبادةٌ: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران:٧٩].

فلا يتَّقي الله مَن لا يدري ما يتَّقيه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام:٣٥].

٢ - منزلة التَّقوى

أوَّل العلم الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، ونهاية العلم تقوى الله عزَّ وجلَّ، ومَن عرف الله حقًّا آمن به حقًّا، واتَّقاه حقًّا: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

والتَّقوى أعظم عبادات القلوب، ولا بدَّ منها في كلِّ عملٍ صالحٍ، والله عزَّ وجلَّ لا يقبل الأعمال بدون التَّقوى، فأخلِص العبادة لله، واتَّبع رسولَه فيما جاء به: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

فمدار قبول الأعمال الصَّالحة منوطٌ بالتَّقوى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة:٢٧].

وحصول أنواع البركات بالإيمان والتَّقوى، وحصول أنواع العقوبات بالكفر والفجور: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف:٩٦].

وكشف الكربات منوطٌ بالتَّقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق:٢-٣].

والله سبحانه أمر عباده بالتَّعاون لتحقيق البر والتَّقوى فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة:٢].

فالبرُّ هو الإحسان إلى الخلْقِ، وفي هذا رضاهم، والتَّقوى هي إحسان عبادة الخالق، وفي هذا رضا الله سبحانه وتعالى.

وأوجه البِرِّ تكون على حسب الطَّاقة والنِّعمة الَّتي أكرم اللهُ العبدَ بها، فالعالم يعلِّم النَّاس أحكام الدِّين، والغنيُّ يكفيهم بماله، والشُّجاع يذودُ عن حِماهم،

والطَّبيب يعالج مرضاهم، والواعظ يعظهم، والحاكم يحكم بينهم بشرع الله، وهكذا حتَّى يصبح المسلمون كالجسد الواحد، يخدم بعضه بعضا :﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾[آل عمران: ١٣٤].

وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ المؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى» متفق عليه (١).

وكما يجب التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، فكذلك يحرم التَّعاون على الإثم والعدوان :﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾[النحل: ٩٠].

والله سبحانه أمر عباده بالتَّقوى، لأنَّها سبيل الفلاح والفوز في الدُّنيا والآخرة، فليحرص المؤمن على تحصيل التَّقوى بقلبه وبدنه، وأقواله وأعماله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾[الأنفال: ٢٩].

والتَّقوى هي وصيَّة الله للعالمين كما قال سبحانه :﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾[النساء: ١٣١].

فالتَّقوى هي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين؛ لأنَّها الغاية الَّتي لا مقصود دونها، وهي الجامعة لخيري الدُّنيا والآخرة، الموصلة إلى أعلى درجات العبوديَّة وأعلى درجات الجنَّة :﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ ﴾[يونس: ٦٢-٦٤].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠١١) ومسلم برقم (٢٥٨٦).

والتَّقوى هي وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لأمَّته.

قال النبي ﷺ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِّ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ» أخرجه أبو داود والترمذي(١).

وقال ﷺ حين ودَّع رجلاً يريد السَّفر: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِّ وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ» أخرجه أحمد والترمذي(٢).

وكان مِن دعاء النَّبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا» أخرجه مسلم(٣).

والتَّقوى هي وصيَّة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام لأقوامهم، والرُّسل هم أطهر الخلْقِ قلوباً، وهم أنصح النَّاس للنَّاس، وأعلمهم بما يحبُّ الله، وقد أجمعوا على وصيَّة أقوامهم بالتَّقوى؛ لأنَّها أفضل الخصال، وأجمع للخير، وأكثر للثَّواب وأعظم في الدَّرجات: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء:١٠٥-١٠٦].

وقال الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٤].

وقال الله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧].

والتَّقوى هي وصيَّة الخلفاء الرَّاشدين، والأئمَّة المهديين، وأنت عليك بتقوى الله عزَّ وجلَّ الَّتي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلَّا أهلها، ولا يُثيب إلَّا عليها.

فمَن اتَّقى الله وقاه، ومَن أطاعه جزاه، ومَن شكره زاده، ومَن اتَّقى الله، وأحسن إلى خلْقِه أحبَّه، وكان معه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

---

(١) صحيح: أخرجه ابو داود برقم (٤٦٠٧) والترمذي برقم (٢٦٧٦).

(٢) حسن: أخرجه احمد برقم (٨٢٩٣) والترمذي برقم (٣٤٤٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٢).

٣- ما الَّذي يتَّقيه المسلم في حياته؟

يتَّقي العبدُ في حياته سخطَ الله جلَّ جلاله، ويتَّقي نار جهنَّم، ويتَّقي أهوال اليوم الآخر، ويتَّقي المحارم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فيتَّقي العبدُ سخط الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

ويتَّقي النَّارَ، وهي محلُّ عقوبة الله عزَّ وجلَّ للكفار والعصاة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣١-١٣٢].

ويتَّقي أهوال يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١].

ويتَّقي العبدُ محارمَ الله لينجو من عذابه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: ٧].

والمحارم: هي المحرَّمات والكبائر، والفواحش ما ظهر منها وما بطن: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

ومن اتقى الله في حياته أسعده الله في حياته وبعد مماته: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

٤ - فضائل التَّقوى

للتَّقوى فضائل عظيمةٌ أعظمها :

الأولى :أهل التَّقوى هم أولياء الله عزَّ وجلَّ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

الثانية :أهل التَّقوى أكرم النَّاس وأفضلهم، والتقوى هي ميزان التَّفاضل بين النَّاس، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات:١٣].

وسُئِلَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ :مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ فقَالَ :«أَتْقَاهُمْ» متفق عليه [١].

الثالثة :أنَّ الله يَحبُّ أهل التَّقوى، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

الرابعة :أنَّ التَّقوى مِن أعظم أسباب تفريج الكربات، والحصول على الأرزاق بيسرٍ وسهولةٍ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:٢-٣].

الخامسة :أنَّ التَّقوى هي أفضل زاد في الدُّنيا والآخرة كما قال سبحانه : ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

السادسة :أنَّ التَّقوى أحسن لباس، فالملابس الحسِّيَّة زينة الأبدان، والتقوى زينة القلوب : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف:٢٦].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٣٣٧٤) ومسلم برقم (٢٣٧٨).

السابعة :أنَّ التَّقوى تثمر تعظيم الشَّرع : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الحج:٣٢].

الثامنة :أنَّ التَّقوى تُثمر شكْرَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[آل عمران:١٢٣].

التاسعة :أنَّ التَّقوى سببٌ لسعادة الإنسان في الدُّنيا والآخرة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

العاشرة :أنَّ التَّقوى هي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾[النساء:١٣١].

الحادية عشرة :أنَّ أهل التَّقوى أهل معيَّة الله، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل:١٢٨].

الثانية عشرة : أنَّ جزاء أهل التَّقوى الجنَّة : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾[النبأ:٣١-٣٦].

وغير ذلك من الفضائل التي ذكرها الله في كتابه الكريم، وذكرها النَّبيُّ ﷺ في سنَّته.

٥ - الأسباب المُعِينة على تحقيق التَّقوى

يُعين العبد على تحصيل التَّقوى أمورٌ:

الأول: معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة عظمة ملكه وسلطانه، ومعرفة عظمة نعمه وإحسانه، ومعرفة عظمة دينه وشرعه، وعظمة وعده ووعيده: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩﴾ [محمد:١٩].

الثاني: محبَّة الله، ولن تحبَّ الله حتَّى تعرفه، وحبُّ الله هو الَّذي يدفع العبد لطاعة الله، واجتناب معصيته، والسَّعي لتحصيل مرضاته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

الثالث: العلم بقرب الله مِن عبده ورؤيته له، ومعيَّته له، ومَن كان كذلك تيقَّن أنَّ الله رقيبٌ عليه، شهيدٌ على أعماله حيث كان في برٍّ أو بحرٍ، أو ليلٍ أو نهارٍ، أو سرٍّ أو علنٍ، فاستحى مِن ربِّه واجتهدَ في إحسان عبادته، والبعد عن معصيته: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤﴾ [الحديد:٤].

ومَن علم ذلك خاف ربَّه واتَّقاه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق:١٦].

الرابع: الحياء مِن الله، فاستحِ من الله حقَّ الحياء، فأنت تسكنُ في ملكه، وتأكل مِن رزقه، وتنعم بعافيته، فلا تعصِه بنعمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

والحياء مِن الله عز وجل أن تحفظ قلبك وجوارحك عن كلِّ ما لا يُرضِي الله، من قولٍ أو فعلٍ أو خُلُقٍ، وتشغلها بكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الصَّالحة، والأخلاق الطَّيِّبة: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾
[آل عمران:١٣٣-١٣٤].
فخَفِ الله على قدْرِ قُدرته عليك، واستحِ مِن الله على قدْرِ قُربك منه، واعبدْهُ على قدْرِ حاجتك له :﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر:١٥].
الخامس :قفْ بين يدي الله ناظراً إلى عظمة جلاله، وعزِّ كبريائه، وعظمة قدرته وجبروته، واتَّقِ الرَّقيب عليك، ولا تجعله أهون النَّاظرين إليك : ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾[غافر:٦٥].
ومَن عرف الله اتَّقاه، ولم يبالِ بأحدٍ سواه، وهذه صفة الأنبياء :﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾
[الأنبياء:٩٠].
السادس :اليقين بأنَّ عاقبة المعاصي هي عذاب الدُّنيا والآخرة، فمَن فعل المعاصي تعرَّض لعذاب الله في الدُّنيا والآخرة : ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾[النساء:١٢٣].
فالَّذي أخرج آدم صلَّى الله عليه وسلَّم من الجنَّة هو المعصية، والَّذي أخرج إبليس من ملكوت السَّماء، وحلَّت عليه بسبب ذلك لعنة الله، وخُلِّد في النَّار، هو المعصية :﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾[البقرة:٣٤].
والَّذي أغرق قومَ نوحٍ والأرض كلَّها هو المعاصي، والَّذي سلَّط الرِّيح على قوم عادٍ حتَّى دمَّرتهم هو المعاصي، والَّذي أغرق فرعون وجنوده في البحر هو المعاصي كما قال سبحانه :﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾[العنكبوت:٤٠].
فهذا جزاء الكفَّار والعصاة، والمستكبرين والطُّغاة في الدُّنيا، ولهم عذاب جهنَّم

يوم القيامة :﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾[الرعد:٣٤].

فكلُّ مَن عصى الله حلَّ به ضِيقُ الصَّدر، وخبث النَّفس، وقلَّة الرِّزق، ومحْق البركة، وبغْض الخلق، وسخط الخالق، ثمَّ دخول النَّار يوم القيامة :﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾[النساء:١٤].

السابع :أن تجاهد نفسَك وتحملها على فِعْل ما يحبُّه الله ويرضاه، واجتناب ما يكرهه ويسخطه : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾[الشمس:٧-١٠].

فإذا أصرَّتْ نفسُك على اتِّباع الهوى، ولم تطاوعك على فعل الطَّاعات، وترْكِ المعاصي، فذكِّرْها بالله العظيم، ووجهه الكريم، وأنَّ المعاصي تقطعك عنه، وعن رضوانه .

فإن أبت نفسُك عليك فذكِّرْها بالجنَّة ونعيمها، فإنَّك لا تصل إليها إلَّا بالطَّاعة، والبُعْد عن المعاصي .

فإن أبت عليك خوِّفْها من النَّار والزَّقُّوم،والغسَّاق والغسلين، وعذاب السَّعير.

فإن أبت عليك فذكِّرْها بمكارم الأخلاق، فإنَّ المعاصي تخدش المروءة، ولا يأتيها إلَّا أراذل النَّاس .

فإن أبت عليك فذكِّرْها بالفضيحة بين النَّاس في الدُّنيا، ويوم العرض في الآخرة :﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾[فاطر:١٨].

وقال عزَّ وجلَّ :﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾[النازعات:٣٤-٤١].

وقال عزَّ وجلَّ :﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾[الزلزلة:٦-٨].

٦ - تفاوت النَّاس في التَّقوى

النَّاس متفاوتون في تقواهم بحسب علمهم،وإيمانهم،وأعمالهم .

فمنهم مَن يجتنب الكفرَ والشِّرك، ويخاف من الخلود في النَّار، لكنَّه يفعل الكبائر، ويفرِّط في الفرائض، وهذا لا يُسَمَّى متقياً لاستحقاقه العذاب، إلَّا أن يتداركه عفوُ الله، ورحمةُ الله :﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[التوبة:١٠٢].

ومنهم مَن يُؤدِّي الفرائض دون النَّوافل، ويجتنب الكبائر دون الصَّغائر .

فالصَّغائر تُكفَّر باجتناب الكبائر، والمواظبة على الفرائض :﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٣١].

وقال رسول الله ﷺ :«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ» أخرجه مسلم [(١)].

ومِن النَّاس مَن يُؤدِّي الواجبات والمستحبَّات، ويجتنب المحرَّمات والمكروهات، وهذه حقيقة التَّقوى؛ لأنَّ التَّقوى في فعْل الطَّاعات كلِّها، فرضها ونفلها، وترْك المعاصي كلِّها، صغيرها وكبيرها :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٣].

ومِن النَّاس مَن يفعل الواجبات والمستحبَّات، ويجتنب المحرَّمات والمكروهات، ويتَّقي بعضَ الحلال خشيةَ أن يكون حراماً، فيتَّقي الشُّبهات الَّتي

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٣٣) .

لا يدري أهي من المكروهات أم من المباحات، فيترك ما فيه شبهة حتَّى لا يجرَّه إلى محرَّم أو مكروهٍ، فهذا أشدُّ تقوىً لله ممَّا قبله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

فيتَّقي الله من مثقال ذرَّةٍ خشيةَ أن يكون حراماً، لأنَّه يعلم أنَّ الله سوف يحاسبه عليه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

ومِن النَّاس مَن لا ينشغل قلبه بغير الله، فهو لا يذكر إلَّا الله، ويسارع إلى كلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه، ويبادر إلى أنواع طاعته، ويفرُّ مِن معصيته، فهو دائم الذِّكر والفِكْر، والقول والعمل الصالح: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦].

فهؤلاء هم أولياء الله وأحبَّاؤه، عملهم عظيمٌ، وثوابهم من ربِّهمعظيمٌ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

والمؤمنون في اتِّقاء المعاصي درجاتٌ بحسب علمهم، وإيمانهم، وتقواهم.

فمِن النَّاس مَن يترك المعاصي حبًّا لله، وإجلالاً له أن يُخالف أمره.

وهذه أعلى مراتب الخشية، فحبُّ الله هو أعلى دوافع التَّقوى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

ومنهم مَن يترك المعاصي رغبةً في دخول الجنَّة، فيصوم عن شهواته في الدُّنيا، ليفطر عليها في الجنَّة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

ومنهم مَن يترك المعاصي خوفاً من النَّار، واتِّقاءً لغضب الجبَّار: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾[النور:٣٦-٣٨].

ومنهم مَن يترك المعاصي في الدُّنيا خوفاً من سلْبِ النِّعم، ونزول المصائب والعقوبات كما قال سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)﴾[النساء:١٢٣].

ومنهم مَن يترك المعاصي خوفاً مِن العار، وتنجيس العِرض، وفقْد مكانته بين النَّاس.

ومنهم مَن يترك المعاصي خوفاً من ذهاب الحياء والعفَّة، والوقار والمروءة والشَّهامة.

وكلُّ ذلك مما يُعين على تحقيق التَّقوى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)﴾[الملك:١٢].

وقال الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾[المائدة:٨٨].

وقال الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾[المائدة:٩٦].

٧- صفات المتَّقين

مِن أعظم صفات المتَّقين:

الأولى :المتَّقون هم الذين يُؤمنون بالغيب، ويمتثلون أوامرَ الله في كلِّ حالٍ، ويؤمنون بجميع الأنبياء : ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾[البقرة:١-٥].

الثانية :المتَّقون هم المؤمنون الَّذين يُرضُون الخالق بتوحيده، والإيمان به،وحسن عبادته، ويُرضُون المخلوقَ بكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال والأخلاق : ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾[البقرة:١٧٧].

الثالثة :المتَّقون هم أهل البرِّ والإحسان، وأهل التَّوبة والاستغفار : ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٦].

٨- جزاء المتَّقين

الله عزَّ وجلَّ يُكرِم أولياءه المتَّقين بكراماتٍ عظيمةٍ :

الأولى :أنَّ الله يحبُّ المتَّقين : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾[آل عمران:٧٦].

الثانية :أنَّ الله مع المتَّقين : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[البقرة:١٩٤].

الثالثة :ولاية الله للمتَّقين : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[يونس:٦٢-٦٣].

الرابعة :قبول الله أعمال المتَّقين : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[المائدة:٢٧].

الخامسة :قرب المتَّقين من الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾[القمر:٥٤-٥٥].

السادسة :أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُضاعِف رحمته للمتَّقين، ويهديهم، ويغفر لهم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[الحديد:٢٨].

السابعة :أنَّ الله يجعل للمتَّقين فُرقاناً يفرِّقون به بين الحقِّ والباطل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[الأنفال:٢٩].

الثامنة :أنَّ الله يرزق المتَّقين العلم النَّافع كما قال سبحانه : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾[البقرة:٢٨٢].

التاسعة :أنَّ الله عزَّ وجلَّ ييسِّر أرزاق المتَّقين : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾[الطلاق:٢-٣].

العاشرة :أنَّ الله عزَّ وجلَّ ييسِّر أمورَ المتَّقين : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾[الطلاق:٤].

الحادية عشرة :أنَّ الله يُكرِم المتَّقين يوم القيامة بحشرهم إلى ربهِّم مباشرةً كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾[مريم:٨٥-٨٦].

الثانية عشرة :أنَّ الله يُكرِم جميع المتَّقين بدخول الجنَّة، والتَّنعُّم بما فيها من أنواع النَّعيم: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾[النحل:٣١].

الثالثة عشرة :أنَّ الله عز وجل يُكرِم المتَّقين بالرِّضوان عليهم، والخلود في نعيم الجنَّة : ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾[آل عمران:١٥].

اللَّهمَّ ارزقْنا حسْنَ تقواك، حتَّى نعبدك كأنَّا نراك، وارزقنا حسْنَ الصَّبر على فعل ما تحبُّه وترضاه، وترك ما تكرهه وتسخطه :﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[يوسف:٩٠].

والمؤمن لا يستلذُّ بالمعصية، لأنَّه ينغِّصُ عليه التَّلذُّذ بها علمه بأنَّ الله حرَّمها، وخوفه من العقوبة عليها، وشعوره بمراقبة الله له، وسقوطه من عين الله إذا تلبَّس بالمعصية، فلا يستلذُّ بالمعصية إلَّا جاهلٌ بربِّه، دائمُ الغفلة عنه، المعرِض عن ذِكْر ربِّه :﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف:١٧٩].

فالمعاصي تُؤلم قلب المؤمن، لكمال معرفته بعظمة ربِّه، وخوفه منه، وحيائه منه.

أمَّا الجاهل والغافل والمنافق فلموت قلبه يفرح بالمعصية مع أنَّ فيها هلاكَه، و لا يشعر بألمها، لأنَّ قلبه قد مات :﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[الأنعام:١٢٢].

اللَّهمَّ إنَّا نسألك الهدى والتُّقى، والعفاف والغنى، ونسألك الفوزَ بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار .

اللَّهمَّ آتِ نفوسَنا تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثالثة عشرة

عبادة الصبر

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : منزلة الصبر.

الثاني : شروط الصبر.

الثالث : أنواع الصبر.

الرابع : الأسباب المعينة على الصبر.

الخامس : أنواع الابتلاء.

السادس : فوائد المصائب.

السابع : تفاوت الناس في الصبر.

الثامن : ثمرات الصبر.

العبادة الثالثة عشرة

عبادة الصبر

١ - منزلة الصبر

الصبرهو حمل النفس على ما تكره ابتغاء وجه الله عز وجل .

الصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخطوالشكوى .

والصبر الكامل هو الصبر على فعل الطاعات، والصبر على ترك المعاصي، والصبر على أقدار الله المؤلمة، والصبر على مشاق الدعوة،ابتغاء وجه الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾[آل عمران: ٢٠٠].

والصبر هو مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، فليس أحد أصبر من الله جل جلاله، فالكفار يكفرون به، ويشركون به، وينسبون إليه الولد، ويبارزونه بأنواع المعاصي، والله الحليم يعافيهم ويرزقهم، لعلهم يتوبون إليه .

قال النبي ﷺ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» متفق عليه (١).

فالله عز وجل حليم لا يعاجل عباده بالعقوبة، بل يمهلهم ليتوبوا إليه .

أما صبره على أعدائه الذين يسبونه ويؤذونه فإنه يملي لهم، وينعم عليهم، حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، وإذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾[هود:١٠٢].

والله سبحانه يحب أسماءه وصفاته، ويحب من يتصف بها على شاكلة العبودية، لأنه يحب الصفة وفاعلها والمتصف بها .

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٦٠٩٩) ومسلم برقم (٢٨٠٤) .

فالله مؤمن يحب الإيمان، وأهل الإيمان، والله محسن يحب الإحسان، وأهل الإحسان،والله حليم يحب الحلم والصبر، ويحب أهل الحلم والصبر : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾[آل عمران:١٤٦].

والصبر من أعظم العبادات القلبية، ومنزلة الصبر عظيمة، فالصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، والصبر نصف الإيمان، والنصف الآخر الشكر، كما قال سبحانه :﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٥﴾[إبراهيم:٥].

وكل العبادات قائمة على الإخلاص والصبر :﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ [العصر:١-٣].

وقد ذكر الله عز وجل الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً كما قال سبحانه :﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٩٦﴾[النحل:٩٦].

وقال عز وجل :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وفقدان الصبر يسبب سخط الله تعالى.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» أخرجه الترمذي وابن ماجة(١).

---

(١)حسن: أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) وابن ماجة برقم (٤٠٣١).

٢ - شروط الصبر

شروط الصبر التي توصل إلى أعلى درجاته هي :

أن يكون الصبر مع الله، وبالله، ولله.

فالصبر مع الله : أن يكون العبد تبعاً لأوامر الله عز وجل، فيصبر العبد على فعل الطاعات، ويصبر على ترك المعاصي، ويصبر على المصائب، وبذلك ينال أعظم الأجر : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

وبالله: استعانة بالله، فلن يصبر أحد على طاعة الله إلا بمعونته : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

ولله : إخلاصاً لله، وابتغاء وجهه، ورغبة في ثوابه : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤].

وعلامة صدق الصبر الإيمان، والإخلاص، والتقوى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فلا بد للصبر من نية، فالمؤمنون يصبرون ولهم أجر عظيم، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

والكفار يصبرون ولكن لا أجر لهم، لأنهم غير مؤمنين، ولا يبتغون بصبرهم

وجه الله، بل يصبرون على عبادة أهوائهم وآلهتهم الباطلة، كما قال الله عنهم : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾[ص:٦].

فكل من صبر على باطل، فهو مأزور غير مأجور كما قال سبحانه : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ ﴾[الغاشية:٢-٤].

ومن آداب الصبر على المصائب :

الأول: الاسترجاع: بأن يقول العبد: إنا لله وإنا إليه راجعون : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

الثاني: الدعاء عند حصول المصيبة .

قال النبي ﷺ «اللَّهُمَّ أْجُرْني في مُصِيبَتِي، وأَخْلِفْ لي خَيْرًا مِنْها"، إلَّا أخْلَفَ اللَّهُ له خَيْرًا مِنْها» أخرجه مسلم (١).

الثالث: الصبر عند الصدمة الأولى.

قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» متفق عليه (٢).

الرابع: رفع الشكوى عند المصيبة إلى الخالق، وعدم الشكوى إلى المخلوق كما قال يعقوب ﷺ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[يوسف:٨٦].

فإذا شكوت همك لربك جبر قلبك، وأعظم أجرك، وأخلف سلبك، وإن شكوت أمرك إلى المخلوق فلن يغنِ عنك شيئاً : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ﴾[فاطر:١٣-١٤].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩١٨) .

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٢٨٣) ومسلم برقم (٩٢٦) .

٣- أنواع الصبر

الصبر المشروع ثلاثة أنواع :

الصبر على فعل الطاعات.. والصبر عن فعل المعاصي.. والصبر على البلاء .

فمن استكمل هذه الثلاثة نال أجر الصابرين :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقال عز وجل :﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠].

فالصبر على فعل الطاعات يجب أن يكون مستمراً حتى الموت، وقد حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فليصبر العبد على هذا، وعن هذا.

فيقاوم المسلم الكسل عن الصلاة بأدائها في وقتها، ويقاوم البخل عن الزكاة بأدائها فوراً في وقتها،ويقاوم الجبن عن الجهاد بالشجاعة،ويقاوم السكوت عن الحق بالقول به، ونشر الدعوة، والصبر على الأذى في سبيل الله :﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

والذي يصرف الناس عن فعل الطاعات ثلاثة :

النفس .. والشيطان .. وأعداء الدين.

فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل كما قال سبحانه :﴿ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[يوسف:٥٣].

والشيطان عدو مبين لكل إنسان، يشغل العبد بالشهوات والمعاصي، عن فعل الطاعات والقربات :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[فاطر: ٦] .

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة:٢٠٨].

وأعداء الدين من الكفار والمشركين والمنافقين يهددون المؤمنين في كل زمان ومكان بالسجن والنفي والقتل، لأجل إيمانهم بالله، وما يستوجبه من فعل الطاعات، وترك المعاصي.

فقوم نوح ﷺ هددوه بقولهم: ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء:١١٦].

وفرعون هدد موسى ﷺ بقوله: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الشعراء:٢٩].

وقوم لوط هددوا لوطاً ﷺ بقولهم: ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٧].

ومازال أعداء الدين في كل زمان ومكان يهددون الدعاة والمصلحين والمؤمنين، وعلى المسلم الصبر فإن العاقبة له كما قال سبحانه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠].

أما الصبر عن فعل المعاصي، فالنار حفت بالشهوات، كما قال النبي ﷺ: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ» متفق عليه (١).

ومن تذكر حر النار، صبر عن دواعي المعصية، وأقلع عن معصية الله فوراً.

والصبر على الطاعات هو فعل العبد ما يستطيعهمنها، والصبر عن المعاصي هو الانتهاء عن كل المحرمات والمعاصي: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر:٧].

قال النبي ﷺ: «ما نَهَيْتُكُمْ عنه فَاجْتَنِبُوهُ، وَما أَمَرْتُكُمْ به فَافْعَلُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ» متفق عليه (٢).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٤٨٧) ومسلم برقم (٢٨٢٣).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٨) ومسلم برقم (١٣٣٧).

والصبر ضد الهوى، فالهوى ترك النفس تتمتع بقضاء شهواتها من حلال وحرام كالبهائم: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

والناس في دفع الهوى على ثلاث مراتب:

أحدها: من قهر هواه.

الثاني: من قهره هواه.

الثالث: من قهر هواه مرة، وقهره هواه مرة.

فالذي قهر هواه هم الصديقون المحسنون، السابقون المقربون: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

والذي قهره هواه، هم من استرقتهم شهوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فخسرت تجارتهم، ودامت حسرتهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأما الذي قهر هواه مرة، وقهره هواه مرة، فهم من خلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً كما قال الله عنهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

أما الصبر على المصائب المؤلمة، فمن الأقدار المؤلمة موت الأحبة، والابتلاء بالأمراض، وإصابة الأموال بالجوائح وغيرها من الآفات والمصائب.

ومما يسهل الصبر على المصائب أن يعلم العبد أن قضاء الله وقدره قد تم بحكمة بالغة، وقدر الله السابق، وهو ألطف شيء بعبده وأن الله إذا أراد بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وأن البلاء إذا صبر عليه يمحو الخطايا، ويرفع الدرجات كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وقال النبيﷺ: «مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمؤْمِنَةِ في نَفْسِهِ وَولَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» أخرجه أحمد والترمذي[1].

والصبر على أقدار الله المؤلمة ثلاثة أنواع :

أحدها : صبر القلب، وهو منعه من الجزع، وعدم اليأس من روح الله،أو القنوط من رحمة الله، ومنعه من الاعتراض على قضاء الله وقدره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج:٣٤-٣٥].

فالصبر هو الرضى بالله مدبرا للعبد في جميع أموره الحلوة والمرة :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء:٦٥].

الثاني : صبر اللسان، وهو منعه من التسخط على قدر الله، ومنعه من الدعاء على النفس بالويل والعذاب والموت، ومنعه من بث شكواه للناس، ومن شكى حاله للناس فهو جاهل يشكو الخالق إلى المخلوق.

والشكوى إلى الناس لا تخفف البلاء، بل تزيد البلاء، أما الشكوى إلى الله عز وجل فهي شكوى لمن بيده مقاليد الأمور، والشكوى إلى الله هي فعل الأنبياء كما قال يعقوب ﷺ :﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[يوسف:٨٦].

وكما قال أيوبﷺ:﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الأنبياء:٨٣-٨٤].

---

(١)صحيح: أخرجه احمد برقم (٧٨٥٩) والترمذي برقم (٢٣٩٩) .

الثالث : صبر الجوارح، وهو عدم لطم الخد، وشق الثوب، وفعل المحرم عند حصول البلاء .

أما دمع العين، وحزن القلب، فلا يملكه الإنسان، ولا يملك دفعه، ولا يدخل في النهي، فالنبي ﷺ بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال : «تَدْمَعُ العَيْنُ وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلا نَقُولُ إِلَّا ما يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللهِ يا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ» متفق عليه (١) .

فقوي الإيمان يصبر، ويحتسب، ويسترجع عند المصيبة: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

أما ضعيف الإيمان فيجزع ويتسخط قدر الله، ويجزع عند المصيبة، فيفعل المعاصي من لطم الخد، وشق الثوب، لينسى المصيبة، وكل هذا لا يجوز: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: ١١].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٣٠٣) ومسلم برقم (٢٣١٥) .

٤- الأسباب المعينة على الصبر

الواجب على المسلم عند نزول المصيبة به أمور :

الأول: التسليم والصبر على قدر الله واختياره له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

الثاني: اليقين بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

قال النبي ﷺ لابن عباس: «يَا غُلامُ، إنِّي أعلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ، وَاعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِن اجتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أخرجه أحمد والترمذي(١).

واليقين هو الإيمان بعلم الله السابق بهذه المصيبة، وإنها خير للعبد.

الثالث: اليقين بأن الله قدرها عليك بحكمته البالغة، فاعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فاصبر لتنال أجر الصابرين : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

الرابع: ثم الرضا بالقضاء، وهو تفويض الأمر إلى الله، وعدم الاعتراض على ما قدره الله، والرضا ثمرة يقين العبد أن ما أصابه ناشئ عن اختيار الله له، وأنه تم بعلم الله وإرادته: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١].

---

(١) صحيح: أخرجه احمد برقم (٢٦٦٩) والترمذي برقم (٢٥١٦) .

الخامس: ثم الحمد والشكر لله أن خصه بهذه المصيبة التي تكفر سيئاته، وتمحو خطاياه، وترفع درجاته، وتقوي توحيده: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١].

والمؤمن مأمور بالصبر والرضا بالقدر، لأنه من أركان الإيمان الستة، وليس العبد مأموراً بالرضى بالمقدور كله، لأن المقدور مخلوق، والمقدور منه الخير، ومنه الشر، والناس بفطرتهم يحبون الخير، ويكرهون الشر، ولا حرج في ذلك.

فإن كان تقدير الشر في الأشياء الكونية كموت الأحبة، أو المرض، أو فقد المال، فيشرع للإنسان دفع قدر المرض بالتداوي، وقدر الفقر بالسعي والكسب ونحو ذلك.

ويجب على العبد الصبر على قضاء الله الكوني، وأكمل منه الرضا، وأكمل منه الحمد والشكر.

ويجوز للعبد أن يظهر عجزه أمام ذلك القدر فيقول: قدر الله، وما شاء فعل.

أما إن كان تقدير الشر في الأوامر الشرعية باقتراف المعاصي، فيجب على العبد دفع هذا القدر بالتوبة، والاستغفار، والإكثار من العمل الصالح كما قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

ويجب على العاصي بغض المعصية التي فعلها، أو التي يفعلها غيره من الناس، لأن الله حرمها، وحذر منها، والله يكرهها، كما قال سبحانه عن المعاصي: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

وتلك المعاصي من المقدور المخلوق المكروه، أما الطاعات فهي من المقدور المخلوق المحمود، والله يحب الطاعات، ويكره المعاصي.

والغنى والفقر كلاهما نعمة تحتاج إلى شكر وصبر.

فالغني لابد له من شكر الله على ما أنعم عليه، ولابد له من صبر على إنفاق هذا المال في طاعة الله، فإن نفسه تثبطه عن الطاعة، وتخيفه من الفقر، ولابد له كذلك من الصبر على عدم إنفاق هذا المال في نيل الشهوات العاجلة المحرمة.

والفقير كذلك لابد له أن يتذكر نعم الله عليه في الصحة، والذرية، وانشراح الصدر للإيمان، والقيام بالطاعات،فيشكر الله على ذلك، ولابد له من الصبر على البلاء لينال أجر الصابرين، وثواب رب العالمين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر:١٠].

فمقام العبد دائما بين الصبر والشكر، فهاتان عبادتان قلبيتان عظيمتان، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾[إبراهيم:٥].

والعبرة ليست بالعطاء والمنع من الله، بل المقصود تقوية عبادة الصبر، وعبادة الشكر، وزيادة الإيمان بالله عزوجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

والله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا من يحب.

فمن الناس من أعطاه الله الدنيا، فتفاخر بها وتكبر، وأسرف في الشهوات، وشغله غناه عن مولاه، فصار بعيداً عن ربه عز وجل.

ومن الناس من منعه الله الدنيا، فسخط على قضاء الله، وجزع، وترك عبادة الله، وشغله فقره عن ربه، فصار بعيدا عن ربه عز وجل.

ومن الناس من أعطاه الله الدنيا، فشكر وحمد الله عليها، وصرفها في طاعة من أعطاه، فكان العطاء قربا له من ربه عز وجل.

ومن الناس من منعه الله الدنيا، فصبر ورضي بقضاء الله ومنعه، فانكسرت نفسه، وأقبل على طاعة الله، وتفرغ لعبادة الله بما يحبه الله ويرضاه، فكان المنع قرباً له

من الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٥-٢٠].

فالتفاضل بين الناس ليس بالعطاء والمنع، لأنهما من قضاء الرب، والله أعلم بأحوال عباده يقضي لهم ماينفعهم بحكمته البالغة: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ٣٠].

فليس التفاضل بالعطاء والمنع، لأن ذلك من فعل الرب عز وجل، وإنما يكون التفاضل بما يترتب عليهما من صبر العبد، وشكره، لأنه فعل العبد، وعليه يترتب الثواب والعقاب، ودخول الجنة أو النار.

والله بصير بالعباد عليم بما يصلحهم وما يفسدهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

فبعض الناس يصلحه العطاء، وبعضهم يصلحه المنع، وبعضهم يصلحه الغنى، وبعضهم يصلحه الفقر، وبعضهم تصلحه الصحة، وبعضهم يصلحه المرض، والله يقسم العطايا والأرزاق بحكمته: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠].

فمن الناس من يكون في قلبه قسوة وتجبر وغلظة، ولا يصلحه إلا انكسار نفسه، وانكساره إنما يكون بالفقر، وقلة ذات اليد أو المرض، وكل ذلك يقلل من تحقيق إرادات نفسه الفاسدة من الظلم والعدوان والفساد، فمن العصمة ألا تجد: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧].

ومن الناس من يغلب على نفسه الإحباط إذا أصابه الفقر أو المرض، ولكن عنده من صلاح السريرة ما يمنعه من الظلم والطغيان، فهذا يصلحه العطاء والعافية وهما يشجعانه على البذل والعطاء، والعبادة، والدعوة إلى الله، والإحسان إلى الخلق، وصنائع المعروف التي تنفع الأمة، وتقيم حياتها على الإيمان والتقوى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾[الإسراء:٣٠].

والشكر هو عبادة المؤمن التي لاتنفك عنه إلى انقضاء أجله، فهو دائما يرى نعم ربه التي لاتعد ولا تحصى، يراها عليه وعلى غيره فيتعبد لله بعبادة الشكر القلبية، وكذا الصبر على فعل الطاعات، والصبر عن فعلالمعاصي .

أما الصبر على البلاء فإنما يكون عند المصائب .

السادس :اليقين بحسن عاقبة الصبر في الدنيا والآخرة يجعل العبد يصبر على البلاء : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[هود:٤٩].

فالعلم بأن عاقبة الصبر هي الجنة يخفف البلاء، ويرفع الدرجات، ويمحو الخطايا، ويعجل العافية، كل ذلك يخفف ألم البلاء، ويعقب حسن الصبر، والشكر للرب.

قال النبي ﷺ: «مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمؤْمِنَةِ في نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَّ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»أخرجه أحمد والترمذي(١).

السابع: التفويض الكامل لله عز وجل، والرضى بقضائه وقدره، والرضى بما اختاره الله لعبده، كل ذلك يخفف ألم البلاء، ويعين العبد على الصبر: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾[الطلاق:٢-٣].

الثامن: رؤية مصائب الناس الكبيرة التي هي أعظم من مصيبة العبد، فإن ذلك مما يخفف ألم المصيبة، ويعين على الصبر، وكثرة الشكر .

---

(١)صحيح: أخرجه احمد برقم (٧٨٥٩) والترمذي برقم (٢٣٩٩) .

التاسع: العلم بأن الصبر عن الشهوات المحرمة أسهل من الصبر على ألم العقوبة عليها في الدنيا والآخرة، والعلم بأن الصبر عن الشهوة أسهل من فقد الصحة، والأمراض المعدية والمهلكة، والعلم بأن الصبر عن الشهوة أسهل من تنجيس العرض بالتهم والفضائح، وأسهل من سقوط قدرك بين الناس .

العاشر: العلم بعقوبة الله لكل من تجاوز حدوده من إقامة الحدود في الدنيا والعقوبات في الآخرة: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[النساء:١٤].

وقال عزوجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾[النساء:١٢٣].

٥-أنواع الابتلاء

الابتلاء نوعان :

الأول: ابتلاء لرفع الدرجات، وتكفير السيئات، فهذا ابتلاء محبة من الله للعبد، يزيد به إيمان العبد، ويقوى به توكله على ربه، وهذا غالباً ينزل بالمؤمنين : ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[الأحزاب:٢٢].

وقال النبي ﷺ : «ما يُصيبُ المسلمُ من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حزنٍ، ولا أذىً ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكَها إلّا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه» متفق عليه [(١)].

الثاني: ابتلاء العقوبات، فهذا ابتلاء سخط من الله على العبد، ينزل على العصاة والمجرمين،ويكونمنهاالجزع،والتسخط، وفعل المحرمات، كما أن ابتلاء رفع الدرجات يكون معه الصبر والشكر، والرضى والاحتساب .

وابتلاء العقوبة يقل معه الإيمان، وهو ما يصيب الفاسق من التسخط، والاعتراض على أقدار الله، فينقص إيمانه، ويفعل ما حرم الله عليه، فيهلك بسبب ذلك إن لم يتب .

قال النبي ﷺ: «لَا يَزْني الزَّاني حِينَ يَزْني وَهو مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهو مُؤْمِنٌ»متفق عليه [(٢)].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٢) ومسلم برقم (٢٥٧٣).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٤٧٥) ومسلم برقم (٥٧).

٦ - فوائد المصائب

الأولى: المصائب تكفر الذنوب.

قال النبي ﷺ: «ما مِن مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إلَّا كَفَّرَ اللهُ بها عنْه، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشاكُها» متفق عليه (١).

الثانية: المصائب تذكر المؤمن بالتوبة والاستغفار، فما نزل بلاء إلا بذنب، وما رفع إلا بتوبة، فمن تاب واستغفر تاب الله عليه، وأبدل سيئاته بحسنات: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

الثالثة: المصائب تعجيل لعقوبة العاصي في الدنيا حتى يلقى الله في الآخرة وليس عليه خطيئة.

قال النبي ﷺ: «مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمؤْمِنَةِ في نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَّ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» أخرجه أحمد والترمذي (٢).

الرابعة: المصائب تكسر قلب المؤمن، وانكسار القلب يقتضي الإنابة إلى الله، والذل لله، والتوبة إليه.

فالمصائب والأمراض والابتلاءات يحصل بها ذل العبد لربه، وانكساره بين يديه، ودعاؤه له، والتوبة إليه، ورؤية نقصه وعجزه.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٠) ومسلم برقم (٢٥٧٢).

(٢) صحيح: أخرجه احمد برقم (٧٨٥٩) ومسلم برقم (٢٣٩٩).

ويحصل بها تكفير الخطايا، ورفع الدرجات، ورقة القلب، وذلك يدفعه إلى الإنابة إلى ربه، والتوبة إليه، وترك التكبر، والعجب بالنفس، ودوام الصحة لا يحصل بها هذه المصالح والعبوديات غالباً إلا ما رحم الله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

الخامسة: المصائب دليل حب الله للعبد، فالله إذا أحب قوماً ابتلاهم، وأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه.

قال النبي ﷺ: « إن أعظم الجزاء إِنَّ اللهَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ » أخرجه الترمذي وابن ماجة(١).

فالله خلق الآلام والأمراض والمصائب، لصرف الأسرار إلى أعمال الأبرار، وجر النفوس إلى الملك القدوس، وصرف القلوب عن دار الغرور إلى دار السرور: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)﴾ [البقرة:٢١٦].

السادسة: أن البلاء يورث حسن الظن بالله عز وجل، وحسن الصبر على بلائه، وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء .

والله رءوف رحيم ما ابتلى المؤمن إلا ليعافيه، وماكسره إلا ليجبره، وما نقص بعض مافي يده إلا لكي يزيده، وما منعه إلا ليعطيه، وما ابتلاه إلا ليعافيه، ويدفعه إلى عبودية الصبر، التي أجرها أعظم الأجور، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)﴾ [الزمر:١٠].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) وابن ماجه برقم (٤٠٣١).

السابعة: أن المصائب تنقي التوحيد من شوائب الشرك، وتجعل العبد يتعلق بالله وحده، ويرجو ثواب الآخرة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون:٧٦].

فالدنيا دار بلاء وابتلاء، تتقلب بأهلها من بلاء إلى بلاء، فغنيها فقير، وصحيحها سقيم، وقويها ضعيف، وملكها مملوك: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

والله حكيم عليم قدّر وجود البلاء في حياة الناس، ليتضرعوا إلى ربهم، ويؤمنوا به، ويذكروه ويتوبوا إليه، وقدّر وجود البلاء في حياة المؤمنين، ليرى منهم ما يحبه ويرضاه من عبوديات الصبر، والشكر، والتوكل، والإنابة، والتوبة، والاستغفار، التي لن يفعلوها لولا البلاء، وأمرهم بالصبر على البلاء، لينالوا أعظم الجزاء في الجنة: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٢-٢٤].

والابتلاء بالعطاء قد يكون أعظم من الابتلاء بالحرمان كما قال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

فالأموال والأولاد وجودهم فتنة، وحرمانهم فتنة من نوع آخر كما قال سبحانه عن الكفار: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥].

فالصحة عافية من وجه، وبلاء من عدة أوجه، لأن أكثر الناس يستعملونها في معصية الله، فيتبعون الشهوات، ويظلمون الناس: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: ٦-٧].

فمن استعمل نعم الله عليه في معاصيه كانت العافية بلاء عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

أما المؤمن فالعطاء خير له، والمنع خير له.

فالعطاء يثمر له الشكر لربه، والمنع يثمر له الصبر على بلائه، وهذا هو الدين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٥﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال النبي ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له» أخرجه مسلم (١).

والدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، كما قال النبي ﷺ: «الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» أخرجه مسلم (٢).

فالدنيا سجن المؤمن، ولو كان في أعظم نعيم، لأنه يعيش في سجن الدنيا، فهو في سجن بالنسبة لما أعد الله له من أنواع النعيم المقيم في الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧].

والدنيا جنة الكافر، وإن كان أفقر الناس، وأشدهم بلاءً، لأن ذلك جنة إذا قرن بعذاب النار يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦).

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢].

فالدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، والآخرة جنة المؤمن، وسجن الكافر: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣].

والنجاة والفلاح فقط بالقيام بالدين، وإقامة الدين في العالم، والصبر على كل ذلك: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠].

٧- تفاوت الناس في الصبر

الناس عند المصائب متفاوتون في الصبر، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط، والرضى والسخط من أعمال القلوب، والصبر من أعظم أعمال القلوب التي ينال بها المؤمن أعظم الأجور، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

ورضى القلب لا ينافي عمل الجوارح بالسعي لرد البلاء ودفعه، ورضى القلب بالمرض لا ينافي التداوي، لأنه عمل الجوارح، وفعل الأسباب المأمور بها شرعاً.

والرضى بالفقر لا ينافي السعي في طلب الرزق، فعمل القلب الرضى والتسليم، وعمل الجوارح دفع ما يمكن من البلاء، وكل ذلك عبادة لله عز وجل: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

ودفع البلاء ليس من التسخط، إنما هو من الأخذ بالأسباب المأمور بها شرعاً، والتسخط من عمل القلب المذموم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

والرضى من عمل القلب المحمود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٧-٨].

والرضى بقضاء الله وقدره أعظم من الصبر، والرضى هو ترك اختيار العبد لنفسه، والتسليم لاختيار الله له، وقضائه له، فلا يجد ألما لمصيبة، ولا يتمنى زوالها،

ولا يتمنى أنها لم تقع : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١].

والرضى عن الله يكون عند كمال التفويض لله، وانشغال القلب عن ألم المصيبة بما فيها من أنواع اللطف والرحمة، وما فيها من الحكمة التي توجب الاستسلام لله، والرضى والشكر، وما يرى فيها العبد من حسن العاقبة بنيل ثواب الله في الآخرة كما قال سبحانه :﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠].

ورضى القلب لا ينافي عمل الجوارح، بدفع قدر المصيبة بقدر العافية، ولا ينافي دعاء الله بكشف الكربات وزوالها :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

وكانالنبي ﷺ يدعو ربه عند الكرب بقوله :«لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ ورَبُّ الأَرْضِ، ورَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ» متفق عليه (١).

وكيفية الوصول إلى الرضى أن يسلم العبد أمره إلى الله بكمال التفويض إليه، وحسن الظن به في قضائه واختياره، والرغبة في ثواب الله، وحسن عاقبته:﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[التوبة:٦٢].

وإذا صدق حب العبد لربه آمن بقضائه وقدره، وفوض أموره إليه .

فمن آمن باسم الله الحكيم أيقن أن قضاءه كله بحكمة بالغة، وأن كل قضائه خير لعبده فرضي به، وكلما صدق حب العبد لربه أحب فعله به، ورضي عنه، وأيقن أن اختيار الله له هو الخير :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٦) ومسلم برقم (٢٠١٦).

والرضى هو اليقين بأن البلاء وقع بنوعه وقدره ووقته بعلم الله السابق، وأن الله كتبه في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقه، فلذة عبادة الرضى بقضاء الله تغلب ألم البلاء: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١].

واليقين بحسن عاقبة الصبر، وثوابه في الآخرة، هو الذي يبلغ فيها العبدمرتبة الرضى والتسليم، ثم مرتبة الحمد والشكر: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

والدعاء والطلب من الله أن يكشف البلاء، وفعل الأسباب، لا ينافي الرضى، بل يشرع للعبد فعل الأسباب، وسؤال الله رفع البلاء الذي يمنع فعل الطاعات، وأداء العبادات على أحسن وجه.

ومن دعاء الرسول ﷺ: «اللَّهمَّ إنِّي أسأَلُكَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ» أخرجه أحمد وأبو داود (١).

والتسخط عكس الرضى، فمن سخط على المصيبة سخط الله عليه، فبعض الناس يتمنى الموت عند وقوع البلاء لقلة صبره، وجهله بربه، وبعضهم يعدد المصائب التي نزلت به، وكان الأولى أن يعدد نعم الله عليه، ويشكره على ذلك: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[النمل: ٧٣].

وبعضهم يقول عند المصيبةلو أخذ الله مني كذا لكان أهون علي، فهو يتسخط على قدر الله، ويريد أن يعدل على الله في قضائه، وهذا ينقض الركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر خيره وشره: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد برقم (٤٧٨٠) وأبو داود برقم (٥٠٧٤).

فالصبر من أعظم عبادات القلوب، ثم فوقه الرضى بما قدره الله عليه، ثم فوقه شكر الله على قضائه، لما يرى في المصيبة من عظيم الأجر، وحسن العاقبة، وفضل الرضى بالقدر، وتكفير السيئات، ورفعة الدرجات: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة:٥١].

وشكر الله على القضاء والقدر هو الثناء على الله بفعله، والثقة بحكمته في حسن تدبيره لأمر عبده، وتفويض الأمر إليه في إصلاح شأنه، واليقين بحسن عاقبته، وثبوت أجره: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [النحل:٩٦].

وشكر الله على قضائه أعلى مراتب الدين، ولا يصل إلى هذه المرتبة إلا أقل القليل: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ:١٣].

والناس في الصبر على درجات.

فمنهم من يستسلم لقضاء الله مع كراهة النفس،

ومنهم من يرضى بقضاء الله فيقبله ولا يكرهه، ومنهم من يشكر الله على البلاء، لما يرى فيه من الثواب، ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

٨ - ثمرات الصبر

للصبر ثمرات كثيرة منها :

الأولى: أن الله يحب الصابرين كما قال سبحانه :﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران:١٤٦].

الثانية: أن الله مع الصابرين كما قال سبحانه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[البقرة:١٥٣].

الثالثة: أن الصبر سبب للفلاح في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

الرابعة: أن المؤمن الصابر يجعله الله إماماً في الدين كما قال سبحانه :﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾[السجدة:٢٤].

فاليقين عبادة قلبية، والصبر عبادة قلبية، واليقين يعين على قوة الصبر.

الخامسة: أنه بالصبر والرضى يزيد الإيمان، وتحصل الهداية كما قال سبحانه:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾[التغابن: ١١].

السادسة: أن الصبر خير وأوسع عطاء من الرب للعبد .

قال النبي ﷺ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» متفق عليه [(١)].

السابعة: أن الصبر ضياء، فهو يضيء قلب المؤمن، ويشرح صدره، وينور قلبه.

قال النبي ﷺ: «وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ» أخرجه مسلم [(٢)].

الثامنة: أن الصبر من أسباب الثبات على الدين، ونشر الدين كما قال سبحانه:﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾[البقرة:٤٥].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٤٦٩) ومسلم برقم (١٠٥٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣) .

التاسعة: أن الله أخبر أن الصبر حظ عظيم للعبد كما قال سبحانه :﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[فصلت:٣٤-٣٥].

العاشرة: أن الصبر على البلاء فيه تشبه بالأنبياء والمرسلين.

فقد «سئل النبي ﷺ يا رسولَ الله أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً ؟ قال : الأنبياءُ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ »أخرجه احمد والدارمي [(١)].

الحادية عشرة: أن الصابر يصلي الله عليه، وتنزل عليه رحمة الله، وهدايته كما قال سبحانه :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

الثانية عشرة:أن الصابر يجازى بأحسن عمله: كما قال سبحانه : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل:٩٦].

الثالثة عشرة: أن الصابر يُعطى أجره بغير حساب: كما قال سبحانه :﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر:١٠].

اللهم ارزقنا صدق الإيمان، وحسن الصبر، وحسن العبادة، وعظيم الأجر.

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

---

(١)صحيح: أخرجه احمد برقم (١٤٩٤) والدارمي برقم (٢٧٨٣) .

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الرابعة عشرة

عبادة الحمد والشكر

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول :فقه الحمد والشكر.

الثاني: منزلة الحمد والشكر.

الثالث: فضائل الحمد والشكر.

الرابع: أركان الحمد والشكر.

الخامس: الأسباب المعينة عليالحمدوالشكر.

السادس: تفاوت الناس في الحمد والشكر.

السابع :جزاء أهل الحمد والشكر.

العبادة الرابعة عشرة

عبادة الحمد والشكر

١ - فقه الحمد والشكر

الحمد لله عز وجل هو ثناء القلب واللسان على الله، وتعظيمه وتمجيده ومحبته، لكمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولإحسانه إلى مخلوقاته: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

والحمد يكون بالقلب واللسان والجوارح، وحمد الجوارح هو تصريف النعمة فيما يرضي الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣].

ومن تمام الحمد الاعتراف بالتقصير في شكر الرب، وألا ترى نفسك قد قمت بحق الله من الحمد أبداً.

قال النبي ﷺ: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ» أخرجه مسلم (١)

وحمد الله وشكره جل جلاله على شيئين:

الأولى: حمد الله وشكره على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فالله سبحانه له غاية الجلال والجمال والكمال، وله كمال العظمة والكبرياء والعلو، وله كمال الملك والعزة والغنى، وله كمال القوة والقدرة والقهر، وله كمال الحكمة والرأفة والرحمة، وله كمال الرفق والحلم والستر، وله كمال العلم والإحاطة، وله كمال البر والكرم والإحسان: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٦).

﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

ومَن هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله هو الرب الحميد الذي يستحق الحمد والشكر وحده لا شريك له: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾[طه:٨].

الثاني: حمد الله وشكره على إحسانه إلى عباده بأنواع الإحسان المادي والروحي.

فهو الرب الذي خلق الخلق، وأحياهم، ورزقهم، وأطعمهم، وسقاهم، وشفاهم، وكساهم، وهداهم، وأنعم عليهم بكافة النعم، وأعظمها هدايته لهم إلى طريق الوصول إلى رضوانه وجنته، واجتناب ما يضرهم، فليشكروه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة:١٧٢].

وقال عز وجل: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾[آل عمران:١٠٣].

والله عز وجل يحب الحمد، وأهل الحمد، لأنه يستحقه، إذ جميع النعم الظاهرة والباطنة، والمادية والروحية كلها منه وحده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل:٥٣].

فهو أهل أن يعبد، وأهل أن يحمد، وأهل أن يشكر، وأهل أن يمجد، فله الحمد كثيراً، كما ينعم كثيراً، وكما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه وعظمة نعمه وإحسانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾[الفاتحة:٢-٧].

والشكر هو الثناء على الله بنعمه :﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾[البقرة:١٥٢].

والشكر عبادة قلبية ولسانية وبدنية، ونعم الله لاتعد ولا تحصى، والإنسان إما شاكر للنعمة، وإما كافر بها :﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾[الإنسان:٢-٣].

والفرق بين الحمد،والشكر،والمدح :

أن الحمد هو الثناء، مع تعظيم القلب ومحبته للمحبوب جل جلاله .

أما المدح فهو ثناء بلا تعظيم ومحبة، لأن المادح قد يمدح أحداً وهو يكرهه، وقد يمدحه لتحصيل منفعة أو مال، فإذا لم يعطه انقلب ذاماً له .

والمدح يكون للجماد، والنبات، والحيوان، والإنسان.

قال النبي ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ» أخرجه مسلم (١).

والحمد ثناء على الأوصاف العظيمة للرب عز وجل كما قال سبحانه :﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾[الفاتحة:٢-٥].

وقال الله عز وجل :﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾[فاطر:١].

وقال الله عز وجل :﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ [الكهف:١-٤].

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح، فكل أنواع الطاعات تعد من الشكر، لأنها صرف لنعم الله في مراضيه :﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ

(١)أخرجه مسلم برقم (٣٠٠٢).

ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[سبأ:١٣].
فالصدقات والصلوات من الطاعات، وهي من شكر نعمة المال، ونعمة العافية .
والتوفيق إلى فعل الطاعة من أعظم نعم الله على عباده، فإن شكرها العبد بطاعة جديدة، فهذه نعمة تحتاج إلى شكر جديد .
والشكر يكون بالقلب خضوعاً وانكساراً، وباللسان ثناء واعترافا، وبالجوارح طاعة وانقيادا .
والشكر يكون على الإحسان والنعم، أما الحمد فيكون على الأوصاف الذاتية :﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧].
فالحمد لله هو مقتضى الإيمان باسم الله الحميد، والشكر هو مقتضى الإيمان بأسماء الله الشاكر والشكور، فالله هو الشاكر الذي يشكر القليل من العمل بالكثير من الثواب .
والشكور هو الذي يشكر عبده كلما عمل عملا، مهما كان عمله قليلاً، فالله سبحانه هو الشاكر الشكور الذي يشكر المحسن بمضاعفة أجره، ويشكر المسيء بقبول توبته :﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[فاطر:٣٤].
والشكر شرط الإيمان، فمن لم يشكر الله زال إيمانه، وزوال الشكر من القلب بالكلية يعني زوال الإيمان بالكلية، ومن لم يشكر الله لم يعبده أصلاً، كما قال سبحانه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢].
ومن لم يشكر الله فقد كفر بالله:﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[البقرة:١٥٢].

٢- منزلة الحمد والشكر

الدين نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وكلاهما عبادتان قلبيتان عظيمتان، والله عز وجل من حبه للحمد، واستحقاقه له، افتتح كتابه بالحمد خمس مرات، في خمس سور من القرآن وهي:

الأولى: فاتحة الكتاب بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٧].

الثانية: سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١].

الثالثة: سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١].

الرابعة: سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١].

الخامسة: سورة فاطر: كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

ولمكانة الحمد جعله الله عبادة في الدنيا، وأكرم به أهل الجنة يوم القيامة، كما قال سبحانه عن أهل الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

وكان النبي ﷺ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ إِذَا سَلَّمَ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» متفق عليه [1].

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٨٤٤) ومسلم برقم (٥٩٣).

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: «رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ: وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ» أخرجه مسلم (١) .

وأعظم الحمد حمد الله على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحمده على عظمة ملكه وسلطانه، وحمده على عظمة نعمه وإحسانه، وحمده على كمال دينه وشرعه، وحمده على نعمة الهداية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

ويجب على كل مسلم أن يحمد ربه كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل، وهي عدد الركعات في الصلوات الخمس التي يبدأها بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢].

فيحمد العبد ربه على ألوهيته بقوله الحمد لله، فيحمد الله على إحسانه إلى خلقه بهذا الدين العظيم، وعبادة الله وحده .

ثم يحمد الله على ربوبيته بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢].

فهو الذي خلق الخلق، وأنعم عليهم بالحياة والعقل، والسمع والبصر، والرزق، والأهل، والمال والولد، والأمن والعافية، والرب الذي هذه نعمه هو الذي يستحق الحمد وحده لا شريك له: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

فهو الرحمن الذي يرحم جميع الخلق، حتى المعرضين عنه أعطاهم الحياة والسمع والبصر، والعافية والعقل: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٧٧) .

وهو الرحيم بالمؤمنين، فهو الرحيم الذي ينعم عليهم بقبول أعمالهم، ويعطيهم الثواب العظيم على العمل القليل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣-٤٤].

أنعم الله على المؤمنين بالإيمان في الدنيا، وينعم عليهم بثواب الإيمان في الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

ثم يحمد العبد ربه على ملكه العظيم ليوم القيامة، فيقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤].

فكل مظلوم سيأخذ الملك الحق حقه من ظالمه، ويوم القيامة سيزول ملك كل ملوك الدنيا مع أن ملكهم غير حقيقي، والله هو الذي ملّكهم، وكيف يكون أحدهم ملكاً وهو لا يملك أمر نفسه، ولا يقدر أن يدفع عن نفسه المرض أو الموت: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١].

وبعض الناس ليس بملك، لكنه مالك لبعض الدنيا من الأموال، وهذا ملك غير حقيقي، لأنه يملك لمدة محدودة، بقدر محدود، فالله أعطاه ما يملكه في الدنيا.

فقط، ثم يأخذه منه عند موته ويعطيه لغيره، فهذا ملك غير حقيقي، وإنما هو عبد مملوك، في صورة مالك متصرف.

فلله الحمد الملك المالك للملوك والمماليك وما يملكون: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

ثم يحمد الله على عبادته لله وحده لا شريك له، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فأعظم إحسان الله إلى عباده أن جعلهم يعبدونه وحده، وأنقذهم من عبادة غيره، وعلمهم ما يعبدونه به، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب،

وهداهم إليه، وأعانهم على عبادته، فالحمد لله على نعمة الهداية والعلم والعبادة: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥-١٦].

ثم يحمد الله على إعانته له على عبادته، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

فالعبد ضعيف لن يطيع ربه إلا بمعونته، فهو الذي يسر له طاعته، وجعل طاعته سبباً لنيل رضوانه وجنته، فلله الحمد أن هدانا للإسلام، وخصنا بعبادته، وأعاننا على عبادته، وقبل منا الطاعات، وأثابنا على ذلك بالجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤].

ثم يحمد العبد ربه على هدايته، فيقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة:٦].

فشاهد أيها المؤمن أن الله عز وجل هداك، وترك غيرك، ولولا أن الله هداك لكنت من المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحق وتركوه من اليهود وغيرهم، أو من الضالين الذين عرفوا الحق وضلوا عنه من النصارى وغيرهم.

فلله الحمد أن أنعم علينا بمعرفة الحق، والعمل به، والدعوة إليه، والثبات عليه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة:٦-٧].

٣- فضائل الحمد والشكر

للحمد والشكر فضائل كثيرة :

الأول: الشكر أعظم مقامات الدين على الإطلاق وهو مقام الأنبياء، والوصول إليه يكون بمداومة الشكر لله عز وجل في كل حال.

وكانالنبي ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فإذا سئل عن ذلك قَالَ: «أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» متفق عليه [١].

والشكر أحد أركان الإحسان التي هي حب الله، وخوفه، والإخلاص له، والتوكل عليه، والتوبة إليه، وتقواه وشكره : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

الثاني : أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أول الشاكرين .

فنوح ﷺ كان عبداً شكوراً، كما قال الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

وإبراهيم ﷺ كان عبداً شكوراً لربه كما قال الله عنه : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

وسليمان ﷺ كان شاكراً لربه، كما قال الله عنه : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٩].

الثالث: أن الله شكور يحب الشكر، ويحب الشاكرين.

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٤٨٣٦) ومسلم برقم (٢٨١٩).

الرابع : أن الله عز وجل يرضى عن الشكر والشاكرين : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[الزمر:٧].

الخامس : أن شكر العبد للرب يتبعه شكر الرب للعبد :﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾[البقرة:١٥٨].

السادس : أن شكر النعمة يثمر الزيادة : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧].

السابع : أن الشكر يحفظ العبد من عذاب الله : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[النساء:١٤٧].

الثامن : أن الحمد لله تملأ الميزان يوم القيامة.

قال النبي ﷺ: «والحَمدُ لله تملأُ الميزانَ، وسُبحانَ الله والحَمدُ لله تملأُ ما بين السَّماءِ والأرضِ"أخرجه مسلم (١).

التاسع: أن الحمد لله أعظم من النعمة، فما أنعم الله على عبد بنعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده لله نعمة من الله أكبر من النعمة الأولى .

إن النعمة المادية تفنى في الدنيا، وثواب الحمد يبقى في الجنة، كما قال سبحانه عن أهل الجنة :﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[يونس:١٠].

العاشر: قال عز وجل :﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[النحل:٩٦].

أن شكر العبد لربه نعمة تحتاج إلى شكر جديد، فالحمد لله نعمة من الله تستوجب من العبد أن يحمد الله الذي أنعم عليه بها، فالحمد لله نعمة أكبر من نعم الدنيا، لأن نعم الدنيا لا تبقى، وثواب الحمد لا يفنى، والعبد لا يكون شاكراً

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٤) .

لمولاه إلا إذا استعمل نعمه في رضاه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾[سبأ:١٣].

وكيفية شكر العبد لربه أن يستعمل العبد قلبه في حمد الله، وشكره، والرضى عنه، وشهود نعم الله عليه، والإقرار بها لله، وتعظيم الله بها، والافتقار إلى الله بها، ويستعمل العبد لسانه في شكر الله، وحمده، وتمجيده بالثناء عليه، ودوام ذكره فيقول: الحمد لله رب العالمين، أو اللهم لك الحمد والشكر ونحو ذلك: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾[الإسراء:١١١].

ويستعمل العبد بدنه في صرف النعم في طاعة الخالق، ومعونة الخلق، وقضاء حوائجه وحوائجهم، ويستعمل ماله في الإنفاق في سبيل الله: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

ومن غفل عن استحضار أن النعم من الله جل جلاله استعملها في معصيته، ومن استحضر أن النعم كلها من عند الله وحده أحب ربه، وانقادت جوارحه لعبادته، وخضع بقلبه وجوارحه لمن أنعم عليه، وهو مع ذلك لا يرى نفسه قد قام بحق الله أبداً: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾[المؤمنون:٦٠-٦١].

ومن أعظم الشكر شكر الله على البلاء، لما يرى فيه العبد من تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، وحسن العاقبة في الجنة، وما يحصل للعبد من انكسار القلب،

ويسر العبادة في الدنيا، ولما يرى فيه من حكمة الله البالغة، وقدرته النافذة، وغناه عن خلقه، وافتقار جميع خلقه إليه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ

ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وشهود ذلك كله في القلب يزيد الإيمان، وزيادة الإيمان عند البلاء هي أعظم العطاء: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١].

فهذا العبد قد صار البلاء في حقه عطاء، فليكثر الحمد والثناء على ربه الذي خصه بهذا البلاء: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة:٥١].

فالله قدر عليه البلاء، لأنه أحب أن يسمع من عبده الدعاء والتضرع بين يديه، وما قدر عليه البلاء إلا عن سبق في علمه أنه من الأصفياء: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

٤ - أركان الحمد والشكر

الحمد والشكر لله عز وجل عبادة قلبية من أعظم العبادات، ولها أربعة أركان :

الأول: الاعتراف بالنعمة أنها من عند الله وحده لاشريك له، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ﴾[النحل:٥٣].

فأول شكر النعمة الاعتراف بأنها من عند الله عز وجل.

قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ» أخرجه البخاري [1].

فمن لم يشعر بالنعمة، ويعترف بها أنها من ربه، كيف يشكرها؟ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩ ﴾[محمد:١٩].

الثاني : نسبة النعمة إلى من أنعم بها، وهو الله وحده : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ﴾[النحل:٥٣].

الثالث : الرضى بالنعمة، والثناء على الله بها، لأن الله هو الذي خلق النعم، وقسم الأرزاق بين الخلق وحده لا شريك له : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠ ﴾[الإسراء:٣٠].

ومن الرضى بالنعمة محبة من أنعم بها، والخضوع له، وشكره والثناء عليه بالنعمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢ ﴾[البقرة:١٧٢].

الرابع : بذل النعمة في طاعة الله، وفيما يحبه الله ويرضاه .

فإذا علم العبد أن النعمة من عند الله صرفها في طاعة الله، فيستعمل ما علّمه الله في تعليم عباده، ويستعمل صحته في أداء العبادات، وفي الدعوة إلى

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٦) .

الله،والجهادفيسبيل الله، وإقامة الصلوات، ويستعمل نعمة المال في الإنفاق في سبيل الله، وتفريج الكربات :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢-٤].

وقال عز وجل :﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩].

وكما نشكر الله على نعمه التي لاتعد ولا تحصى، فكذلك يجب أن نشكر الناس الذي جعلهم الله سبباً في وصول تلك النعمة إلينا.

قال النبي ﷺ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»أخرجهالبخاري في الأدب المفرد وأبو دادو [1].

وقال النبي ﷺ: «من صُنعَ إليهِ معروفٌ فقالَ لفاعلهِ جزاكَ اللَّهُ خيرًا فقد أبلغَ في الثَّناءِ»أخرجهالنسائي والترمذي [2].

وأركان الحمد والشكر في البدن ثلاثة:

حمد باللسان، وهو أن يثني العبد بلسانه على ربه الواحد الأحد .

وحمد بالقلب، وهو أن تعلم أن من أنعم عليك هو الله، وأن الذي يعطي ويمنع هو الله وحده .

وحمد بالجوارح، وهو أن تسخر طاقتك وأعضائك في عبادة ربك الواحد الأحد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧].

---

(١)صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٢١٦) وأبو داود برقم (٥١٠٩) .

(٢)صحيح، أخرجه النسائي برقم (١٠٠٠٨) والترمذي برقم (٢٠٣٥) .

٥ - الأسباب المعينة على الحمد والشكر

الأول: العلم بأن من أسماء الله الحسنى الشاكر والشكور والحميد، وأن الشكر من صفات الله عز وجل، والله يحب من عباده أن يتصفوا بصفاته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

فالله عز وجل شكور يحب الشكر، وأهل الشكر، مؤمن يحب الإيمان، وأهل الإيمان، والله عز وجل هو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويكافئ عليه بالأجور العظيمة، ويكرم عباده بالأجور العظيمة بلا عمل منهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[النساء:٤٠].

وهو سبحانه الشاكر الذي يقبل شكر عباده رغم تقصيرهم، ويغفر لهم الكثير من الزلل كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾[الإنسان:٢٠-٢٢].

وقال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَّ ليَرضى مِن العبدِ أن يأكُلَ الأكلَةَ فيحمَدَهُ عليها، ويشرَبَ الشَّربَةَ فيحمَدَهُ عليها» أخرجه مسلم (١).

فمن عرف ربه باسمه الشكور الشاكر الحميد سارع إلى شكره وحمده بقلبه ولسانه وجوارحه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٤).

الثاني : العلم بكمال أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا، يستدعي من العبد حمد ربه وشكره على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[الجاثية:٣٦-٣٧].

فالتفكر في عظمة ملك الله وخلقه ورزقه، والتفكر في كمال ربوبيته ووحدانيته، والتفكر في كمال حياته وصمديته، والتفكر في كمال جماله وجلاله ومجده، والتفكر في كمال بره وكرمه وإنعامه، والتفكر في كمال رحمته ولطفه، والتفكر في إنعامه وفضله وإحسانه، والتفكر في عفوه وحلمه ومغفرته، كل ذلك يدعو العبد إلى دوام ذكر ربه، وشكره وحمده :﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

الثالث : العلم بكمال أفعال الله عز وجل، والتفكر في عظيم إحسان الله إلى الخلق، يستدعي من العبد أن يحمد ربه ويشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[سبأ:١-٢].

والله تعالى غني كريم حليم يرزق جميع خلقه برهم وفاجرهم، ولا يمنع إحسانه إلى خلقه، رغم أن أكثرهم يكفرون به،ويشركون به، ولا ينتهون عن معصيته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقال النبي ﷺ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» متفق عليه (١).

فهو سبحانه الرزاق الذي يرزق خلقه الأموال والزوجات والأولاد، ويرزقهم القصور والدور، والعافية والأمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٢٤٣﴾ [البقرة:٢٤٣].

وهو سبحانه المحسن الذي يحسن إلى العبد حين يضن على نفسه، ويختار له ما ينفعه حين لا يعلم العبد ما الذي ينفعه أو يضره، وهو الذي يرزق العبد قبل أن يسأله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠﴾ [الإسراء:٣٠].

وإذا أحسن العبد ضاعف الله ثوابه، وإذا أساء أمهله ليتوب إليه، فإن تاب قبل توبته، فإن أصر على معصيته ابتلاه، ليكسر علوه وتكبره، فإذا ذل له، وندم على التفريط، جبره وأكرمه وتاب عليه ثم قبل توبته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٢٥﴾ [الشورى:٢٥].

فإن تاب هذا العبد توبةً نصوحاً تاب الله عليه، وبدل الله سيئاته حسنات، وأدخله الجنة، وحفظه من النار: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠٩٩) ومسلم برقم (٢٨٠٤).

﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فلله الحمد كثيراً كما ينعم كثيراً، وكما يعطي كثيراً، وكما يرحم كثيراً: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر:٦٥].

الرابع: العلم بعظمة نعم الله على خلقه يستدعي منهم الحمد والشكر لربهم في كل حال على نعمه التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم:٣٤].

فالله هو الكريم الذي أنعم علي وعلى غيري، وأعطاني خيراً، وصرف عني شراً، وأعطاني ما ينفعني، وصرف عني ما يضرني، وهو الذي هداني للإيمان، وزينه في قلبي، ويسر لي عبادته وحده، ووعدني على ذلك الجنة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات:٧-٨].

فلله الحمد والشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وعلى نعمه الظاهرة والباطنة: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان:٢٠].

وكما ملأ الله الكون لنا بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، فيجب أن نملأ الكون بحمد الله وشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥].

الخامس: التفكر في غنى الرب جل جلاله عما سواه، وفقر العبد إلى ربه في كل حال، يستدعي من العبد الإكثار من حمد الله وشكره بقلبه ولسانه وجوارحه، فلا حول ولا قوة إلا بالله وحده، وله الحمد في الأولى والآخرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١].

وقال الله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف:١].

السادس: سؤال الله العون على ذكره وشكره وحسن عبادته، فالله كريم لا يرد سائلاً، ولا يخيب مؤملاً: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

٦ - تفاوت الناس في الحمد والشكر

الناس في شكر الله وحمده ثلاثة أصناف:

الأول: المؤمنون، فالمؤمن يشكر ربه على نعمة الدين، ونعم الدنيا، وأعظم نعم الله التي تستحق أعظم الشكر هي نعمة الهداية للتوحيد والإيمان، ونبذ الشرك كما قال الله عن أوليائه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣].

الثاني: عامة الناس يشكرون الله على نعم الدنيا فقط، ولا يشعرون بنعمة الدين: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧].

وقال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣].

الثالث: أكثر أهل الأرض من الكفار والمشركين لا يعرفون الرب، ولا يقرون بوجوده، ولا يعبدونه، ولا يشكرونه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣].

وأكثر الناس غافلون عن الشكر، لأنهم يرون نعم الله متواترة عليهم، فلا يشعرون بها إلا عند فقدها: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٢].

أليس الإنسان يتقلب في نعم الله الظاهرة والباطنة كل يوم صباحاً ومساءً؟

فالهواء نعمة، لولاها لمات الناس، والعافية نعمة، والسمع نعمة، والبصر، والعقل نعم عظيمة، والطعام والشراب نعمة، والكلام نعمة، والرزق نعمة، والهداية للإيمان أعظم نعمة: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

أما يستحي العبد من ربه أن يتقلب في هذه النعم العظيمة في كل وقت ولا يشكر ربه عليها؟

أما يخاف أن تسلب منه في الدنيا، ويسأل عنها يوم القيامة؟ .

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾[الأنفال:٢٦].

فلا إله إلا الله ما أجهل أكثر الخلق بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى، وما أقل شكرهم لربهم عليها :﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ:١٣].

إن الابتلاء بالمصائب من نعم الله على خلقه، فالله سبحانه خلق المرض لكي نشكره على نعمة العافية،وخلقالخوف لكي نشكره على نعمة الأمن،وخلق الكفر لكي نشكره على نعمة الإسلام، وخلق المعاصي لكي نشكره على نعمة الطاعات، فالله حكيم لطيف بعباده، رحيم بهم، يسوقهم بأفعاله وأقداره إلى ما ينفعهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾[البقرة:٢٤٣].

فلله الحمد والشكر على عظمة جماله وجلاله وحسن تدبيره، وله الحمد والشكر على كل أفعاله وأقداره، وخلقه وأمره :﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾[غافر:٦٥].

٧- جزاء أهل الحمد والشكر

الأول :رضا الله عز وجل عن الشاكر.

قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَّ ليَرضى مِن العبدِ أن يأكُلَ الأَكلَةَ فيحمَدَهُ عليها ويشرَبَ الشَّربَةَ فيحمَدَهُ عليها»أخرجه مسلم (١).

الثاني : أن الله يزيد الشاكر من فضله كلما شكر ربه عز وجل : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾[إبراهيم:٧].

الثالث :الفوز بالنعيم في الجنة، فالله يجزي عباده الشاكرين الجزاء الأوفى،وهو أن يعطي الله عبده الشاكر حتى يقول حسبي يارب: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦﴾[النبأ:٣٦].

فليبشر كل شاكر لربه بنعم لم ترها عينه، ولم تسمعها أذنه، ولم تخطر على قلبه : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾[السجدة:١٧].

وقال عز وجل :﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ۝١٤٥﴾[آل عمران:١٤٥].

وقال عز وجل :﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٥﴾[البقرة:٢٥].

وقال عزوجل عن أهل الجنة :﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾[ق:٣٥].

وهذه الدنيا دار الابتلاء والفتن، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء

الأولى تستوجب الشكر أكثر.. والثانية تستوجب الصبر أكثر

فالشكر عبادة قلبية عظيمة، والصبر عبادة قلبية عظيمة، والله يحب الشاكرين، يحب الصابرين .

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٤)..

وفتنة السراء يلازمها التكبر،والطغيان،والاغترار بالنعمة، وهذا غالباً يصرف العبد عن الشكر إلا من رحم الله :﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق:٦-٧].

أما فتنة الضراء فيلازمها البلاء، والبلاء يلازمه الانكسار والافتقار، وهذا يسهل الصبر على العبد :﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[الروم:٦٠].

وجحد النعم عكس شكرها، والجحد نوع من الكفر، لأنه تغطية للنعمة، وعدم الاعتراف بها لمن أنعم بها، وعدم نسبتها إلى من أنعم بها، وعدم استعمالها في طاعة الله، وهذا كفر :﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[إبراهيم:٢٨-٢٩].

فيجب على الناس شكر النعمة، وعدم جحدها :﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[البقرة:١٥٢].

ومن جحد النعمة أن يقول الإنسان أوتيت هذا المال بسبب علمي وذكائي وخبرتي وشهادتي،كما قال قارون:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾[القصص:٧٨]. فكانت عقوبته :﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[القصص:٨١].

أو يقول أحياناً لقد ورثت هذا المال كابراً عن كابر، يتفاخر بآبائه وأجداده وما كان من لعاعة الدنيا، أو يقول إن الله أعطاني النعم، لأنه يعلم أني أستحقها: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[فصلت:٥٠].

أو يقول إن الله يحبني ولذلك أعطاني، ولولا كرامتي عنده ما أعطاني، وغير ذلك مما يقول أهل الجهل والسفهوالكفر :﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ

وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾﴾[الفجر:١٥-٢٠].

فالله حكيم عليم يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا من يحب، والله سبحانه يجنب عباده المخلصين الدنيا حتى لا ينشغلوا بها عن ذكره،وعبادته، وامتثال أوامره، ولم يعلم هذا الغافل أن الله أعطاه من هذه النعم ليختبره أيطيعه في هذا المال أم يعصيه، ويبتليه لينظر هل يشكر أم يكفر: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[العنكبوت:٢-٣].

وقال سليمان ﷺ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾[النمل:٤٠].

والنعم المادية في حق المؤمن متاع تبلغه إلى ما هو خير منها في الجنة، لأنه يشكر النعمة، ويتقوى بها على طاعة الله، ويصرفها في مرضاة الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[البقرة:١٧٢].

والنعمة في حق الكفار والمشركين متاع غرور، يغتر بها، ويأمن مكر الله، ويظن أنه يمكن أن يستغني بها عن الله، والله يمهله ولا يهمله، حتى إذا اطمأن بها، وغفل عن الله، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ثم أورثه النار يوم القيامة: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[إبراهيم:٢٨-٢٩].

ومقصود الشيطان إخراج الناس من النور إلى الظلمات، ومن التوحيد إلى الشرك، ومن الشكر إلى الكفر: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ:٢٠].

فالشيطان عدو مبين لكل إنسان: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

اللهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣].

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٨].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الخامسة عشرة

عبادة حسن الظن بالله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: منزلة حسن الظن بالله ﷻ

الثاني: أنواع الظن بالله ﷻ

الثالث: الأسباب المعينة على حسن الظن بالله ﷻ

الرابع: علامات حسن الظن بالله ﷻ

الخامس: مقامات حسن الظن بالله ﷻ

السادس: جزاء حسن الظن بالله ﷻ.

العبادة الخامسة عشرة

عبادة حسن الظن بالله عز وجل

١ - منزلة حسن الظن بالله عز وجل

حُسن الظنّ بالله عز وجل من أعظم العبادات القلبية، وحسن الظنّ بالله أن تعتقد أن الله ما منعك إلا ليعطيك، وما ابتلاك إلا ليعافيك ويرقّيك، وأنه أرحم بك من نفسك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [الحج: ٦٥].

وأعظم حسن الظن بالله أن تفرح بالطاعات، وتستبشر بها، وتظن أن الله سيدخلك بها الجنة، ليس بسبب عملك؛ وإنما برحمة الله الذي يسّر لك بها الطاعة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

ومن لوازم حسن الظنّ بالله عز وجل المداومة على طاعته، والإكثار من ذكره وحمده وشكره، والمداومة على التوبة والاستغفار، وإساءة الظنّ بالنفس، وانتظار الفرج من الرحمن الرحيم: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣].

وحسن الظن بالله عز وجل من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحكيم والخبير، ومن آثار الإيمان بأسماء الله الرحمن، الرحيم، الرءوف، الودود، البر، الكريم، المحسن: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالله عز وجل حكيمٌ في أفعاله، خبيرٌ بعباده، يوصِل الأرزاق إلى كل من خلق، ويذكرهم جميعًا، ولا ينسى أحدًا، سواءً أطاعه أو عصاه، لأنه لا رازق للخلق سواه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧].

وهو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وتفضل بالنعم على كل أحد بلا عِوض: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل:٥٣].

وهو سبحانه الودود الذي تودد إلى عباده بأنواع الإحسان والإكرام والنِّعم، ليُحبوه ويعبدوه، ويُحسنوا الظنّ به ويرجوه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

وهو سبحانه البَرّ الكريم المحسن إلى عباده بكل ما يُسعدهم في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨].

وهو سبحانه القوي العزيز الذي ينتقمُ من المجرمين، ويردّ عمل المُرائين، لأن كفرهم بربهم، وإشراكهم به، وإعراضهم عن طاعته، وصدهم عن سبيله، كل ذلك يُبطِل حسن ظنّهم بربهم، ويوقِعَ العقوبة بهم، فمن أحسنَ الظن بالله ﷻ نال رضوانه وثوابه، ومن أساء الظن بربه استحق سخطه وعقوبته: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٥-٦].

فهؤلاء لو أحسنوا الظن بالله ﷻ لآمنوا به، وعبدوه وحدَه، ولم يلتفتوا لأحدٍ سواه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس:٧-٩].

٢ - أنواع الظنّ بالله ﷻ

الأول: حسن الظن بالله ﷻ:

وهو ظنُّ المؤمن الذي آمن بالله، وأحسن الظن به، واستبشر بطاعته، وفرح بها، وداوم عليها، والطاعات تُرضي الرحمن، وإذا رضي الرحمن أرضى عبده بالنعيم والإكرام.

ومن أقامه الله في طاعته، وحبَّب إليه عبادته، فقد أعدّه الله لنيلِ كرامته.

وهذا هو الظنّ الصادق بالله ﷻ، وحسن الظن بالله يُثمر للعبد أنواع العبادات والطاعات و القربات، والاستكثار منها، والمداومة عليها، والفرح بها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

الثاني: ظنُّ المغرور:

وهو صاحب العمل القليل، الذي يظن أنه قد أدّى كل ما عليه من واجباتٍ وزيادة، ويرى أعماله كالجبل، ويعتقد أنها ستُقبل، فيمُنُّ بها على الله ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات:١٧].

الثالث: ظنّ الجاهلية:

وهو إساءة الظنّ باللهﷻ، واعتقاد أنّ الله لن يقبل عمل عبده، ولن يُدخله الجنّة، ولن يَنصر دينه، وسيجعل الهزيمة لأوليائه، نعوذ بالله العظيم من هذا الظن السيئ برب العالمين.

وهذا الظن من الإلحاد في أسماء الله وصفاته وأفعاله، لأن معاني أسماء الله وصفاته وأفعاله توجِب عكس ذلك من عدل الله ورحمته، وإحسانه وإكرامه لأوليائه، ونصرة أوليائه، وخذلان أعدائه.

وهذا ظنّ الكفار، والمشركين، والمنافقين، وسينالهم عذاب الله على سوء ظنهم

بالله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت:٢٣].

وقال الله عز وجل: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٦].

الرابع: سوء ظن المسرفين على أنفسهم بالمعاصي:

فيظن الواحد منهم أن الله لن يغفر له إذا تاب، لأنه غرِق في المعاصي، واستبْعدَ أن يغفر الله له، وظنَّ أن رحمة ربه لن تسع إلا الطائعين من خلقه، وهذا يدفعه القنوط واليأس من رحمة الله إلى التمادي في العصيان، وهذا من سوء الظن بأرحم الراحمين: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

الخامس: سوء ظنّ ضعيف الإيمان بالله ﷻ:

وهو الذي يظن أن الله لن ينصر أولياءه، وسيجعل الدائرة والغلبة لأعدائه، خاصة إذا رأى الأعداء لهم القوة والغلبة في الأرض: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

السادس: سوء ظنّ صاحب البدعة:

وهو الذي يظن السوء بصفات الله ﷻ، وأن صفاته تشبه مخلوقاته، فيظن أن الله غيْرُ كامل القدرة، وغيرُ عظيم الرحمة، وغيرُ واسع المغفرة، فيُعطّل صفات الله ﷻ، ويشبّه الخالق بالمخلوق، والله عز وجل يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

وهذا كله سوء ظنٍّ بالله سببه الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالله هو الواحد الأحد الذي ليس كمثله أحد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:١-٤].

فحسنُ الظن بالله ﷻ عبادة قلبية تُثمر كلَّ خيرٍ وفلاحٍ في الدنيا والآخرة، وتُثمر

أنواع الطاعات و القُربات، وسوء الظنّ بالله سبب كلّ شرٍّ وشقاء في الدنيا والآخرة.

والأصل هو حسن الظنّ بالله ﷻ، وحسن الظنّ بالناس، وأخذ الناس بالظاهر، ونَكِلَ سرائرهم إلى من يعلم الظاهر والباطن: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ٣﴾[الأنعام:٣].

وحسن الظن بالناس يفتح أبواب التعاون على البِرّ والتقوى، ويُثمر الطمأنينة والأمن، ويؤلّف القلوب، ويفتح الآذان والقلوب لسماع الدعوة إلى الله، وقبول النصيحة، وحُسنِ المعاشرة، ونحو ذلك من الفضائل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١﴾[التوبة:٧١].

وسوء الظنِّ بالناس يُولِّد ثمان آفات، فينشأ عن سوء الظنّ بالناس:

كثرة الغيبة، والنميمة، ثم التحسس، والتجسس، ثم التباغض، والتقاطع، ثم التدابر، والتقاتل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾[الحجرات:١١-١٢].

وقال النبي ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجَشُوا ولا تباغَضُوا ولا تدابَرُوا، ولا يَبِعْ بعضُكم على بَيْعِ بعض، وكونوا عبادَ الله إخوانًا، المُسلم أخو المُسلم لا يَظْلِمُهُ، ولا يحْقِرُهُ، ولا يخْذِلُهُ» أخرجه مسلم (١).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤) .

٣- الأسباب المعينة على حسن الظنّ بالله ﷻ

الأول: العلم بأسماء الله الحسنى، وصفاته العُلا، وأفعاله الحميدة، ونُعوتِه الجميلة، فمن عرف ذلك أحسن الظنّ بربه، وأحبّه ومجّده، وطمع في رحمته ومغفرته، ورجا إحسانه وثوابه، وخاف من عقوبته وعذابه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

الثاني: مطالعة آثار رحمة الله، وإحسانه إلى خلقه، في كلّ زمان ومكان.

فالله هو الذي خلقهم، ورزقهم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ليؤمنوا به، ويوحّدوه، ويطيعوه، ويشكروه، ويحبوه، ومن رأى ذلك أحسن الظنّ بربه الرحمن الرحيم، وطمع في رحمته، وأطاع أمره، ورجا رحمته، والفوز بجنته: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[البقرة:١٦٣].

الثالث: رؤية نعم الله التي لا تُعدّ ولا تُحصى، وأنه يأكل منها المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، على حدٍ سواء، ومن رأى ذلك أحسن الظنّ بربه، فزاد شكره لله، وزاد حبه لله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[النحل:١٨].

وقال ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[إبراهيم:٣٢-٣٤].

الرابع: أن نعلم أن من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، وعمل بموجب ذلك، دخل الجنّة، ونجا من النّار.

قال النبي ﷺ: «إن الله قد حرّم على النّار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أخرجه البخاري (١).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٨٦).

٤ - علامات صِدقُ حسنِ الظنّ بالله عز وجل

الأولى: إحسان الظنّ بالله عز وجل، لكمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وإساءة الظنّ بالنفس، لأنها أمارة بالسوء :﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾[يوسف:٥٣].

فالمؤمن حقًا يرى كلّ أعماله الصالحة تفضُلًا من ربه عليه، فهو الذي خلقه، وخلق فيه القدرة على العمل، وخلق فيه العمل الصالح، وحببه إليه، وأعانه على فعله، وقبِله منه، وأثابه عليه:﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل:٥٣].

والعبد إنما يجتهدُ في إحسان العمل، ويعترفُ بتقصيره، ثم يطلب من ربه قبوله على الرغم من نقصه وقلّته:﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾[المؤمنون:٦٠-٦١].

فهذا الذي يَقبل الله عمله، ويُضاعف أجره، ويعفو عن زلته .

فعليك يا عبد الله بالتوبة والاستغفار من كلّ ذنب، وعدم الاتكال على العمل، مع الاجتهاد في حسان العمل، فإن حقَّ الله عظيم، وظُلمَ النفسِ خطير:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾[يوسف:٥٣].

فالمؤمن لا يرى نفسه إلّا مُقصِّرًا ومخطئًا ومذنبًا، رغم اجتهاده في الطاعة، فهو يعمل ويجتهد ويرى بضاعته بضاعةً قليلةً مُزجاة، رديئة الإتقان، ناقصة الإخلاص، فلا يسعه إلا أن يقول:﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:٢٣].

وقال النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطأي وعمدي وكل ذلك عندي» متفق عليه (١).

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣٩٩) ومسلم برقم (٢٧١٩) .

وإذا كان رسول الله ﷺ يقول هذا وهو أعبدُ الناس لربه، وهو المعصوم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بنا نحن؟ هل خلصت أعمالنا من شوائب الرياء، ورؤية النفس، والعُجبْ، والمنّ على الله، وعلى خلقه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧].

وهل أدّينا أعمالنا على السُنّة، أم للنفس فيها هوىً؟!

فإن سَلِمَ عملنا من ذلك كلّه، فيا لقلّته إلى جانب المجتهدين، ويا لتأخره إلى جانب المسرعين إلى الله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٤].

الثانية: المداومة على الأعمال الصالحة، فرْضها ونفْلها.

فمن أحسن الظنّ بالله ﷻ أسرع إلى طاعته، ومن أحسن الظنّ بالله، ولم يسارع إلى طاعته، فهو كاذب، فإن من أحسن الظنّ بربه أحسن له العمل، فمن ظنّ في ربه الخير ذكره في نفسه خاليًا، فدمعت عيناه، وذكره في الناس واعظًا فعلَّم الهُدى، وتقرّب إلى الله مسارعًا لينال رضاه كالأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

فحُسن الظنّ بالله ﷻ هو الدافع لفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، ودوام التوبة والاستغفار، وكثرةِ الذّكر والحمد، والعطاء والشكر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

وقال النبي ﷺ: «قال الله تعالى أنا عندَ ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكُرني، فإن ذكَرني في نفسِه، ذكرتُه في نفسي، وإن ذكَرني في ملأٍ، ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرَّب مني شبرًا، تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرّب إليّ ذراعًا، تقرّبتُ منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» متفق عليه (١).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

الثالثة: المداومة على التوبة والاستغفار في كل وقت، فالتوبة تَجُبُّ ما قبلها، والاستغفار يمحو الذنوب: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [هود:٦١].

والرسولﷺ قد غفرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك كان يستغفرُ الله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة:

قال النبيﷺ: «إنه لَيُغانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ الله وأتوب إليه في اليوم مائةَ مرة»أخرجه مسلم (١).

وقال النبيﷺ: «يا أيها الناس! توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم والليلة مائة مرة» أخرجه مسلم (٢).

فنستغفر الله، ونتوب إليه، ونستغفر الله، ونتوب إليه، ونستغفر الله، ونتوب إليه من ذنوبنا الظاهرة والخفيّة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:٢٣].

الرابعة: الإكثار من ذكر الله، والبكاء بين يديه، والتسبيح بحمده، وخوفه ورجائه: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٥-١٧].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢).

٥ - مقاماتُ حُسنُ الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ

حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ يكون في جميع أحوال العبد .

في حال السرّاء والضرّاء، وحال الأمن والخوف، وحال الصحة والمرض، وحال البلاء والعافية .

ويتحقق حسن ظنِّ العبد بربه في مقامات:

الأول: إذا تقرّب العبد إلى ربه بعمل صالح أن يتقبّل الله عمله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الأحقاف:١٦].

الثاني: أن يقبل الله توبة العبد إذا تاب من ذنوبه، فيُبادر لحسن ظنّه بالله إلى التوبة إلى ربه: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾[التوبة:١٠٤].

الثالث: إذا دعا العبد ربه أن يقبل دعاءه، ويجيب سؤاله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦].

وقال النبي ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وأنتمْ مُوقِنُونَ بالإجابةِ ، واعلمُوا أنَّ اللهَ لا يَستجيبُ دُعاءً من قلْبٍ غافِلٍ لَاهٍ» أخرجه الترمذي(١).

ومن حسُنَ ظنّه بربه دعاه، وعَبدَهُ كأنّه يراه : ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥].

الرابع: أن يوقِنَ العبد بوعد الله ووعيده، فيُسارع العبد إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لأنه سيلقى ربه بعمله : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٦﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[الزلزلة:٦-٨].

الخامس: أن يوقِن العبد بحسن لقاء الله، وستره عليه، وتجاوزه عنه، وهو في

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم (٣٤٧٩) .

سياق الموت.

قال النبي ﷺ: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحُسن الظنّ بالله» أخرجه مسلم [1].

السادس: حسن الظن بالله ﷻ عند نزول البلاء، وضِيقِ الحال، فإن الله وحده بيده مفاتيح الفرج: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

وحسن الظن بالله عز وجل يتبعه حسن العمل، وسوء الظن يتبعه سوء العمل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨].

ومن سوء الظنّ اليأس والقنوط من رحمة الله .

ومن سوء الظنّ بالله أن يعتقد العبد أن الله يخُلفُ وعده ووعيده .

ومن سوء الظنّ بالله أن يعتقد العبد أن الله يُعامل عباده الصالحين معاملة المُسيئين.

ومن سوء الظنّ بالله عز وجل أن يعتقد أنه لا يقبل العبد الذي دعاه، وأناب إليه؛

ومن سوء الظن عدم التوكل على الله .

وهذا كله من صفات الكفار والمنافقين والمشركين: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت:٢٣].

وقال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٧).

٦ - جزاء حسن الظنّ بالله ﷻ

من عرف ربه حقًا آمن به حقًا، وأحسن الظن به حقًا، فأحبّه ومجّده، وحمده وشكره، وأطاعه وعبده، فرضي الله عنه، وأرضاه، وأدخله جنته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة: ٧-٨].

فالمؤمن أحسنَ الظنّ بربه فآمن به، وعبده وحده لا شريك له، والكافر أساء الظنّ بربه، فكفر به وعبد هواه، فخسر دنياه وأخراه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢].

وقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات بكراماتٍ عظيمةٍ في الدنيا والآخرة.

فيكرمهم ربهم في الدنيا بالأمن والطُمأنينة، والهداية والنصر، والتمكين في الأرض والخلافة، والحياة الطيبة، والرضوان عليهم، وغيرها من الكرامات التي بيّنها الله في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩].

وقال ﷻ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وأما في الآخرة فيُكرم الله المؤمنين بأعظم الكرامات، ومنها:

الأولى: رؤية الرّب ﷻ في الجنّة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

الثانية: رضوان الرّب ﷻ على المؤمنين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

الثالثة: القُرب من الرّب: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

الرابعة: سماع كلام وسلام الرب ﷻ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٥-٥٨].

الخامسة: دخول الجنّة: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣].

السادسة: التنعُّم بنعيم الجنّة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

السابعة: الخلود في نعيم الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

الثامنة: النجاة من النار: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

والجنّة دار الطيّبين، والنّار دار الخبيثين، فكن طيّبًا، فإن الجنة طيّبة، ولا يدخلها إلا الطيّبون من الناس، وهم المؤمنون المتقون: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

والطيّب من تجمَّل بالإيمان والطاعات، وكان نقيًّا من المعاصي والسيئات، فمن كان كذلك دخل الجنة فورًا بلا حسابٍ ولا عذابٍ، وإن جمعتَ في الدنيا بين فعل الحسنات والسيئات، فقد فتح الله لك أبواب التوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، حتى لا تدخل النار: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

فإذا عرفت تلك المنقّيات التي تُطهرك من السيئات أحببت ربك، وأحسنت ظنّك به، وسارعت إلى ما يرضيه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

ومكفّرات الذنوب ثلاثة أنواع:

أولًا: مكفّرات الذنوب في الدنيا:

الأولى: التوبة إلى الله من جميع الذنوب: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩].

الثانية: كثرة الاستغفار: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

الثالثة: الإكثار من فعل الحسنات: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ

﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[هود: ١١٤].

الرابعة: دعاء المؤمنين له: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[الحشر: ١٠].

وقال النبي ﷺ: «ما من عبدٍ مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملَكْ: ولك بمثل» أخرجه مسلم (١).

الخامسة: دعاء الملائكة له: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾[غافر: ٧].

السادسة: إقامة الحدّ عليه في الدنيا، فمن أُقيم عليه حدٌّ من حدود الله كحدّ الزنا أوالسرقة في الدنيا، فإنه لا يُعذّب على الذنب في الآخرة، فالله أكرم من أن يؤاخذ عبده على الذنب مرتين في الدنيا والآخرة:

قال النبي ﷺ: «ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقِب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فسترهُ الله فأمْره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه» متفق عليه (٢).

السابعة: المصائب المُكفِّرة، فالله سبحانه رحيمٌ بعباده، يبتليهم ليُنقّيهم من ذنوبهم، ويُكفّر عنهم سيئاتهم، ويرفع درجاتهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقال النبي ﷺ: «ما من مصيبةٍ تُصيب المسلم إلّا كفّر الله عنه بها، حتى الشوكة

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٢).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٨)، ومسلم برقم (١٧٠٩)

يُشاكها» متفق عليه [1].

فما أرحم الله بعباده يبتليهم بالسرّاء والضرّاء، يبتليهم بالسرّاء ليشكروا، ويبتليهم بالضرّاء ليصبروا، وهم بهذا وهذا ينالون أجر الشاكرين، وأجر الصابرين:

قال النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمْره كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سرّاءَ شكرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابتهُ ضرّاءَ صبرَ، فكان خيرًا له» أخرجه مسلم [2].

ثانيًا: تنقية العبد من الذنوب عند الموت:

الأولى: شدة سكرات الموت عند الموت:

قال النبي ﷺ: «لا إله إلا الله، إن للموتِ سكرات» أخرجه البخاري [3].

الثانية: نطق الشهادة عند الموت:

قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» أخرجه أبو داوود [4].

الثالثة: صلاة الجنازة، ودعاء المؤمنين للميت:

قال ﷺ: «ما من رجلٍ مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا، إلّا شفّعهم الله فيه» أخرجه مسلم [5].

الرابعة: هدايا الأحياء لأموات المؤمنين، فالأحياء المؤمنون يهدون إلى الأموات ما ينفعهم، ويخفف عنهم العذاب؛ كالدعاء لهم، والصدقة عنهم، فيصِلُ ثواب ذلك للميت:

قال النبي ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقةٍ جارية، أو علمٍ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٠)، ومسلم برقم (٢٥٧٢) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤٩) .

(٤) صحيح: أخرجه أحمد برقم (٢٢٠٣٤) وأبو داوود برقم (٣١١٦) .

(٥) أخرجه مسلم برقم (٩٤٨) .

ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»أخرجه مسلم (١).
ثالثاً: التنقية من الذنوب يوم القيامة:
ويتم ذلك بأمور:
الأول: شفاعة النبيﷺ في أمته، وشفاعة الصالحين، وشفاعة الشهداء، وشفاعة المؤمنين لبعضهم:
قال النبيﷺ: «لكلِّ نبيٍ دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئَ دعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة»متفق عليه (٢).
الثاني: عفو أرحم الراحمين، فكل مذنبٍ إن لم يُطهره ما سبق، فقد استحقّ العذاب، وسيبقى في النار بقدر ذنبه حتى تنقيه النار، أو يعفو الله عنه قبل إتمام العقوبة، فيُخرجه الله من النار، ويُدخله الجنة برحمته:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[النساء:٤٨].
اللهم إنا نسألك حسن الظنّ بك، والعون على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وقِنا برحمتك شرَّ ما قضيت، إنك تقضي ولا يُقضىَ عليك:﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾[البقرة:٢٠١].

(١)أخرجه مسلم (١٦٣١).
(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٤)، ومسلم برقم (١٩٨).

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة السادسة عشرة

عبادة الإخبات إلى الله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه الإخبات إلى الله عز وجل.

الثاني: منزلة الإخبات إلى الله عز وجل .

الثالث: فضائل الإخبات إلى الله عز وجل.

الرابع: علامات المخبتين.

الخامس: درجات الإخبات.

السادس: الأسباب المعينة على الإخبات لله عز وجل.

السابع: جزاء المخبتين.

العبادة السادسة عشرة

عبادة الإخبات إلى الله عز وجل

١ - فقه الإخبات إلى الله عز وجل

الإخبات عبادةٌ قلبية تملأ القلب بالسكون والطمأنينة، وتضبط حركة الجوارح في كل ما يحبه الله ويرضاه، وتشغل اللسان بذكر الله وتكبيره، وتسبيحه وتقديسه، وحمده وشكره، واستغفاره والتوبة إليه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج/ ٣٤].

والإخبات هو التواضع والسكون، والمخبتون هم أحسن الناس تواضعًا لربهم، وأعظمهم انقيادًا لأوامره، وأكثرهم ذكرًا له، وخشية له .

والإخبات إلى الله تعالى مطلوب شرعًا وعقلًا، لأنه مُقتضى أدب العبودية؛ فالضعيف لابُدّ أن يخضع للقوي سبحانه، والعاجز لابد أن يَذِلّ للقادر سبحانه، والعبد الفقير لابد أن يقف بباب الغني سبحانه، والعبد الذليل لابد أن يستسلم للعزيز: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر/ ٢٢-٢٤].

والإخبات لله عز وجل من علامات صدق الإيمان، فمن عرف ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله، أخبتَ له، وذلّ له، وخضع له، وانقاد لأمره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود/ ٢٣].

هؤلاء آمنوا بربهم فأطاعوه أحسن طاعة، وتواضعوا لعظمته وجلاله، واستجابوا

لأوامره، فجزاهم على ذلك الجنة .
والإخبات هو الخشوع لله، والخضوع له، والتواضع لعزته، وحسن طاعته، وجمال عبادته، والاستسلام لحكمه، والانقياد لأمره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر/ ٢٨].
والإخبات ثمرة معرفة الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، وأفعاله الحميدة .
فمن عرف الله عظّمه وكبّره، وأخبت لله، وانقاد لأمره:﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾
[محمد/ ١٩].

فمن عرف ربه الواحد الأحدآمن به ووحّده، وتواضع له ومجّده، وكبّره وذلّ له، وأخبتَ له، وانقاد لجميع أوامره، وصبر على ذلك:﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الحج/ ٣٤-٣٥].

ومن عرف ربه القوي العزيز الجبار آمن به، وانقاد لأمره، وذلّ لعظمته، وتواضع لكبريائه، وأخبت له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[الأنعام: ١٠٢ - ١٠٣].
ومن عرف ربه الغني الذي له خزائن السموات والأرض، الكريم الذي لا يردُّ سائلًا، ولا يُخيّب مؤمّلًا، وقف ببابه، وأخبت له، ولم يلتفت لأحدٍ سواه من خلقه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر/ ١٥].

ومن عرف ربه الغفور الرحيم الحليم أخبت له، وطلب عفوه، ورحمته، وإقالة عثرته: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾[الحجر/ ٤٩-٥٠].

ومن عرف ربه بعظمة قُدرته، وعظمة ملكه وسلطانه، وقوة جبروته، أخبت له،

وتواضع لجلاله، وطمع في ثوابه، وتصاغر لكبريائه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر/ ٦٥].

ومن رحمة الله بعباده أن طبعَ كل مخلوق على أربع صفات هي :

الضعف .. والفقر .. والعجز .. والحاجة

وذلك ليقف العبد الضعيف بباب ربه القوي، فيستعين به، ويحتمي بحماه، ويقف الفقير بباب ربّه الغني، فيسأله من فضله، ويقف العبد العاجز بباب ربّه القادر على كل شيء، ويقف العبد المحتاج بباب الرب الذي لا يحتاج، المعطي لكل محتاج: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] .

وفي هذا كمال العبودية لمن له الأسماء الحسنى، والصفات العُلا، والأفعال الكبرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف/ ١٨٠].

ومن عرف ربّه بأسمائه وصفاته وأفعاله آمن بالله وحده، وأحبت له بكمال الحُبّ والتعظيم والذلّ له: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[الطلاق/ ١٢].

وإذا عرفتم ذلك آمنتم بالله وحده، وعبدتموه وحده، وأحببتّم له وحده.

ومن عرف الله حقًا آمن به حقًا، وأطاعه حقًا، وأحبت له حقًا، ونال ثوابه العظيم حقًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال/ ٢-٤].

فالإخبات هو خضوع قلب المؤمن لربه الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وما عليهن، وما بينهن: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس: ٣].

والإخبات هو الطمأنينة والسكينة للملك الذي بيده مقاليد الأمور: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك/ ١-٢].

الإخبات لله ﷻ هو كمال الخشية للملك الذي لا يقف له شيء، ولا يُعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر/ ١٣].

والإخبات هو كمال التسليم لله الواحد القهار، والإذعان لعزته، والخضوع لكبريائه، والتسليم لأمره: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء/ ٦٥].

ومقصودُ الربّ من خلقه تحصيل صفاته على شاكلة العبودية .

فالله مؤمنٌ يحبّ الإيمان، وأهل الإيمان، والله محسنٌ يحبّ الإحسان، وأهل الإحسان، والله توّابٌ يحبّ التوبة، ويحب أهل التوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة/ ٢٢٢].

فمن عرف ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله آمن به ووحدّه، وكبّره ومجّده، وحمده وشكره، ودعاه وسأله، وأخبت له، وخافه ورجاه: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة/ ١٥-١٧].

٢ - منزلة الإخبات إلى الله عز وجل

الإخبات إلى الله عز وجل من عبادات القلوب العظيمة، وهو ثمرة العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله أخبت إليه، وصدّق أخباره، وامتثل أوامره، واجتنب نواهيه.

والإخبات إلى الله من منازل الإيمان بالله عز وجل، وهو من أعظم ثمرات الإيمان بالله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[هود/ ٢٣].

والإخبات إلى الله هو الطمأنينة بذكر الله، والخضوع له، والشعور بالسكينة في قربه، وانكسار القلب بين يديه، والفرح بالعودة إليه، والطمع في جزيل ثوابه .

فالإخبات إلى الله عبادةٌ عظيمة من عبادات القلوب، والمخبت حقًا هو من اطمأن بالله وحده، وسارع إلى فعل الصالحات، وأقام الصلاة، وأنفق في سبيل الله مما رزقه الله، ورضي بقضاء الله وقدره، وشاهد الرحمة في بلائه وأمره، وفي عطائه ومنعه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج/ ٣٤-٣٥].

والإخبات لله من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، والإخبات من لوازم الإيمان بأسماء الله القوي، القادر، القهار، ومن لوازم الإيمان باسم الله الرحمن، الرحيم، المحسن، الكريم، العليم، الخبير، القريب، الشهيد .

فالمُخبت إلى ربه يخاف من قوة الله وقهره، ويأنس برحمته وبرّه، ويطمئن بقربه ورقابته، ويستكين لحكمته وعدله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾[الرعد/ ٢٨-٢٩].

ومن أخبت إلى ربه سارع إلى كل ما يرضيه، بكمال الحبّ والتعظيم والذلّ لهكالأنبياء والمرسلين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء/ ٩٠].

والقلوب إذا عرفت علّام الغيوب أخبتت له، وأذعنت لجبروته، وتصاغرت لكبريائه، وذلت لعزته: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج/ ٥٤].

ومن عرف الله حقًا آمن به حقًا، وعبده حقًا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد/ ١٩].

٣- فضائل الإخبات إلى الله عز وجل

الإخبات إلى الله عز وجل من أعظم العبادات القلبية، وهو ثمرة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، والإخبات إلى الله هو العودة إلى الله بعد البعد عنه، ومن اقترب إلى الله اقترب الله منه أكثر .

قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكَرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرَّب إليَّ بشبرٍ تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً» متفق عليه [1].

ومن شعر بقربه من ربه ﷻ سكنت نفسه إليه، واطمأنت بذكره، ووقفت ببابه، وسجدت له، وانكسرت بين يديه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد/ ٢٨].

وقال عز وجل: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج/ ٥٤].

وإذا ذاقت نفسه لذّة قربه وحبه، وجِلتْ وخافت أن تُبعَد وتُطرَد من رحمته، فسارعت إلى أنواع طاعته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون/ ٥٧-٦١].

ولا يزال العبد المُخبت يطلب قربه من ربه بالمسارعة إلى الخيرات، وأداء الفرائض، وإتباعها بالنوافل، ليحصل له الإخبات والطمأنينة والأنس، وقرة العين

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٩٧٥).

التي لا يجدها إلا في الإخبات إلى ربه، وحسن عبادته: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال/ ٢-٤].

وقال عز وجل: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران/ ١٣٣-١٣٤].

وقال النبي ﷺ: «إن الله ﷻ، قال: من عادى لِيَ وليّا فقد آذنتُه بالحربِ، وما تقرَّب إليّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يُبصرُ به، ويده التي يَبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددتُ عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفسِ المؤمنِ، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مساءته» أخرجه البخاري (١).

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة/ ٢٠١].

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران/ ٥٣].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

٤ - علامات المُخبتين

للمُخبتين إلى ربهم علامات:

الأولى: وَجلُ قلوبهم ألاّ تُقبَل طاعاتهم، والصبر على ما أصابهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله، ابتغاء مرضاة الله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾ [الحج/ ٣٤-٣٥].

الثانية: أن الله عز وجل آتاهم من العلم الإلهي ما يدلّهم على ربهم، فامتلأت قلوبهُم بمحبته، وتعظيمه، والأُنس بعبادته: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾ [الحج/ ٥٤].

الثالثة: المداومة على الطاعات، وأنواع العبادات فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينهم وبين الناس: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾ [الأنفال/ ٢-٤].

الرابعة: أنهم فَطموا نفوسهم عن الدنيا وشهواتها، وأشغلوها بما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال والأخلاق، ففازوا بحبه ورضوانه وجنته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣)﴾ [هود/ ٢٣].

فهنيئًا لمن آمن بالله، وأخبت إليه، وقام بين يديه، عابدًا له، وقام بين يدي خلقه داعياً إليه، ومعلمًا لشرعه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ [فصلت/ ٣٣].

وقال عز وجل: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)﴾ [آل عمران/ ٧٩].

الخامسة: أن المخبتين إذا غلبَتهم شهواتهم قهروها بالاعتصام بالله، والإقبال على طاعته، والإحسان إلى الخلق: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران/ ١٣٣ -١٣٤].

السادسة: أنّ المُخبتين إذا استولت على نفوسهم الغفلة ذكَّروا أنفسهم بحقوق الله عز وجل، ووجوب الوفاء بعهده، فيترك العبد غفلته، ويقبل على عبادة ربه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس/ ٧-١٠].

السابعة: أنّ العبد إذا شعر بالوحدة والوحشة ذكَّر نفسه بالله، ومحبته، وإحسانه، والأنس به، ووجوب طاعته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك/ ١٢].

الثامنة: كثرةُ لوم النفس على تقصيرها في حق الله، وتنقيتها من أمراضها، وحملها على طاعة الله، وقمع شهواتها، وزجرها عن هواها: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى/ ١٥].

فهذا المُخبت إلى ربه حقًا، إذا ذكر الله اضطرب قلبه خوفًا ورجاءً، ورغبةً ورهبةً، وحبًا وشوقًا إلى مولاه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر/ ٢٨].

وإذا أصابه مكروهٌ صبر عليه،ورضي به، وحمد الله، واسترجع، فتراه مقيمًا للصلاةِ على أكمل صورة، خاشعًا بين يدي ربه، مطمئنًا بذكره: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة/ ١٥٥ -١٥٧].

٥ - درجات الإخبات

للإخبات ثلاث درجات:

الأولى: أن تغلبَ عصمة العبد شهواته، وتَقهَرها أن تَقوده إلى معصية الله، وتقوى إرادته حتى تغلِبَ غفلاته وشهواته: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات/ ٤٠-٤١].

الثانية: أن يَصمد العبد إلى ربه في جميع أحواله، فلا يُوحِش قلبه عارضٌ من العوارض؛ ومن أعظم العوارضوحشة التفرُّد، فاستعن بربك العظيم، ولا تستوْحش من قلّة السالكين، ولا تغترّ بكثرة الهالكين، ولا يشغلك عن مناجاة الله سواه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل/ ٨-٩].

الثالثة: أن يلوم العبد نفسه على التقصير، ويتعلّق قلبه بالله وحده لا شريك له، ويستوي عنده الفقر والغنى، ومدح الناس وذمهم، لأنه رضي بربه وكيلًا وكفيلًا: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات/ ٥٠-٥١].

وبهذا يرى العبد ربه وحده، ولا يرى أحدًا سواه، فتعلو همته، وتنشط عزيمته، ويخرج من حظّ نفسه، ويتأهّل للانقطاع لعبادة ربه، وفعل ما يحبه ويرضاه، فما أجدره برضوان الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة/ ٧-٨].

فهذا المُخبت الذي ذاق حلاوة الإيمان، ولذّة المناجاة، والقُرب من الله، والأُنس بمحبة الله، والإخبات إليه، وتنفيذ أوامره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ

ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج/ ٣٤-٣٥].

والقلب هو ملك الجوارح، فإذا امتلأ بالعلم والإيمان أَخبتَ إلى ربه، وسكَن إليه، واطمأن بذكره، وذلّ له، وأناب إليه، وتاب إليه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر/ ١٧-١٨].

وقال النبي ﷺ: «ألا إن في الجسدَ مُضغة إذا صلَحت صلَح الجسَدُ كلّه، وإذا فسدَت فسدَ الجسدُ كلّه، ألا وهي القلب» متفق عليه (١).

وإذا أخبت القلب إلى ربه، ظهرت آثار الإخبات على اللسان والجوارح، فاستعملَ هذا العبد لسانه في ذكر الله، وحمده، واستغفاره، والدعوة إليه، وتعليمشرعه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت/ ٣٣].

واستعمل جوارحه بالتحلي بالأخلاق الطيبة، والأفعال الحسنة من صدقٍ وإيثار، وعدلٍ وإحسان، ومحبةٍ وقوةٍ في طاعة الله، ومسارعةٍ إلى الخيرات، وبُعدٍ عن المحرمات والسيئات: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة/ ١٥-١٧].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩).

٦ - الأسباب المعينة على الإخبات لله عز وجل

الأول: العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، والعلم بعظمة الله، وعظمة قوته، وعظيم قدرته، وكمال قهره، وواسع رحمته، وبالغ حكمته، فمن عرف ذلك أخبت إلى ربه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨)﴾ [المائدة/ ٩٨].

وقال عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ [محمد/ ١٩].

الثاني: صدق النيّة في طلب الإخبات، والصبر على الظفر به، والتوسل إلى الله في تحصيله، والعلم بمن يجب أن تخْبِت له، وتَذلّ بين يديه، وهمةٌ عالية في تحصيله، وتوكلٌ على الله في طلبه، وصحبةٌ صالحة تعين على الاتصاف به، ونظرٌ إلى الجنّة، وتفكرٌ في عذاب النار، واليقين على كمال أسماء الله وصفاته وأفعاله، وحب الله ورسوله ودينه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

وقال عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف/ ٢٨].

وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [غافر/ ٦٠].

الثالث: العلم بعيب النفس، وقَصورُها، ونَقصُها، وعَجزُها، وما فيها من أمراض القلوب، من العُجْبِ، والكِبر، والرياء، والمنّ، وغيرها مما يُحبط العمل: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾ [يوسف/ ٥٣].

ومن عرفَ ربّه العظيم، ثم عرفَ نفسه، آمن بالله، وأخبت له، واستسلم لأمره،

وأَنِس بقربه، وفرح بمناجاته، وعلم أنه لن يبلُغ مُراده بعمله إلا أن يُدخله الله في رحمته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨].
وقال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل/ ٥٣].
وقال النبي ﷺ: «لا يُدخِلُ أحدًا منكم الجنّة عَملَهُ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يَتغمَّدنيَ الله بفضلٍ منه ورحمة» متفق عليه (١).

الرابع: الإكثار من ذكر الله عز وجلّ، وتلاوة كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[الأحزاب/ ٤١-٤٣].

وقال عز وجلّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾[الإسراء/ ٩-١٠].

الخامس: دعاء الله عز وجل أن يرزقه التعبد لله بصفة الإخبات، فالله أمر بسؤاله، ووعد بالإجابة كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر/ ٦٠].
وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[البقرة: ١٨٦].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٣)، ومسلم برقم (٢٨١٦)

٧- جزاء المُخبتين

الأول: الهداية إلى الصراط المستقيم كما قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج/ ٥٤].

الثاني: البشارة بخيري الدنيا والآخرة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج/ ٣٤-٣٥].

الثالث: الخلود في الجنة يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود/ ٢٣].

الرابع: الفوز برضوان الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة/ ٧-٨].

الخامس: الفوز بمغفرة الله، ونيل الأجر الكبير يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك/ ١٢].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة السابعة عشرة

عبادة الذل لله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : فقه الذل لله عز وجل.

الثاني : منزلة الذل لله عز وجل.

الثالث : أنواع الذل لله عز وجل.

الرابع : الوسائل المعينة على الذل لله عز وجل.

الخامس : علامات الذل لله عز وجل.

السادس : ثمرات الذل لله عز وجل.

العبادة السابعة عشرة

عبادة الذل لله عز وجل

١ - فقه الذل لله عز وجل

الذل لله عز وجل أعظم العبادات القلبية، فإذا أردت بابًا أقرب إلى مولاك وأوسع، ولا مزاحم فيه، فادخل عليه من باب الذل له، والافتقار إليه، والخضوع والانكسار بين يديه، ورؤية النفس بعين الضعف والعجز، والنقص والعيب، والخطأ والتفريط: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٣].

فكل خلق الله فقراء إليه، أذلة بين يديه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر:١٥].

والسالك في هذا الطريق غريبٌ في الناس، فهو في وادٍ، والناس في وادٍ أخر، غايته تعظيم ربه، وعدم رؤية نفسه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن:١٣].

فالذل والانكسار، والتواضع والخضوع، والافتقار للرب، أعظم مقامات العبودية لله عز وجل، والعارف حقًا يشهد في كل ذرة من ذرات الكون فقرًا وذلاً إلى خالقها، فقد كان الله ولم يكن شيءٌ قبله ولا معه، ثم خلق جميع المخلوقات لتدل على كمال قدرة الله، وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله، وتعلن فقرها، وعجزها، وضعفها، وذلها لمن خلقها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق:١٢].

وإذا عرفتم ذلك آمنتم بالله وحده، وعبدتموه وحده لا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس:٣].

فالعابد لربه حقًا من عرف ربه بعزة الربوبية، وعرف نفسه بذلة العبودية، فقام بين يدي ربه مكبراً له، حامداً له، مستغفراً له: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ [محمد:١٩].

وجميع مخلوقات الرب جل جلاله في العالم العلوي، والعالم السفلي، شاهدةٌ بوحدانية الله، وساجدةٌ لعظمته، وذليلةٌ لعزته، ومستجيبةٌ لمشيئته، ومسرعةٌ إلى إرادته، وخاضعةٌ لأمره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨﴾ [الحج:١٨].

فلا إله إلا الله، فكل مخلوقاته بين يديه ذليلة لعزته وجبروته وكبريائه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل:٤٩-٥٠].

وكل مخلوقاته أصغر من الذرة بين يديه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر:٦٧].

والعبد يشهد في كل ذرةٍ من ذراته الظاهرة والباطنة، ضرورةً تامة، وذلاً وافتقارًا إلى ربه العظيم، الملك العزيز الرحيم، الذي بيده فلاحه وصلاحه، وهداه وسعادته في الدنيا والآخرة: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ [غافر:١٥].

وبهذا التذلل والافتقار يحصل للقلب كِسرة خاصة بين يدي ربه، فيكون كالإناء المكسور الذي لا يصلح للانتفاع به إلا بجبر جديد من صاحبه وصانعه، وحينئذٍ يستكثر هذا العبد الذليل ما منَّ الله به عليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلًا منه ولا كثيرًا، ويرى أن قدره دونه، وإنما رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسَوق الخير إليه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

فسبحان الملك العزيز الجبار الذي جميع مخلوقاته شاهدة بوحدانيته، ومتصاغرة لكبريائه، ومسبحة بحمده: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٣-٤٤].

ومن عرف ربه بصفات جلاله وجماله استقل ما قام به من الطاعات، ورآها ولو ساوت طاعات الجن والإنس من أقل ما ينبغي لربه جل جلاله عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، وأكله الندم على فعلها، وذاب قلبه حياءً من ربه، كيف بارز من خلقه، وهداه، ورزقه، وأنعم عليه، بمعصيته، ومخالفة أمره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

فما أعظم هذا التذلل والخضوع والانكسار بين يدي الملك الذي بيده مقاليد الأمور، وما أقرب الجبر من الجبار لهذا القلب المكسور، وما أقرب الرحمة والمغفرة، والنصر والرزق، من هذا القلب الذليل، وما انفع هذا الذل لمن تذلل به لربه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وإن ذرةً من هذا الذل الصادق أحب إلى الله من طاعاتٍ أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم، وأحوالهم، وعلومهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤٩].

وأحب القلوب إلى الله قلب تمكنت منه هذه الكَسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، يكبره، ويسبحه ويقدسه، ويستغفره، لا يرفع رأسه حياءً من الله، لما يراه من عظمة جلاله وجماله وإحسانه، وتقصيره في أداء حقوق ربها العظيمة عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

فهذه الذلة أعظم سجدة يسجدها القلب بين يدي ربه، وإذا سجد القلب هذه السجدة العظيمة، سجدت معه جميع جوارح العبد لربها العزيز الرحيم، ووقف العبد بأعظم أبواب العبودية، ناظرًا إلى عزة الربوبية، وذلة العبودية، متصاغرًا لكبرياء ربه الكبير، ذليلًا بين يدي ربه الملك العزيز الجبار: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

فما الظن بالرب الرحمٰن الرحيم، الذي هو أرحم بالعبد من نفسه، إذا فر عبده إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه ذليلًا طريحًا باكيًا بين يديه، يقول يا رب ارحم ذليلًا جاء إليك، يا رب ارحم من لا راحم له سواك، وارزق من لا رازق له غيرك، وانصر من لا ناصر له سواك، وأغث من لا مغيث له سواك.

فهذا العبد جاء بكليته إلى مولاه وأظهر ذله وفقره إليه، واعترف بتقصيره بين يديه، أترى الرحمٰن الرحيم يرد سؤاله، ولا يجيب دعاءه ؟، حاشاوكلا :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦].

فالإجابة مقرونة بإظهار الذلة للملك العزيز الجبار، وعدم العجب والاستكبار: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر: ٦٠].

ومن ذل لله عز وجل ذل لأوليائه المؤمنين الذين ذلوا لربهم، فآمنوا به وعبدوه، وأطاعوه، وتعزز على الكفار المستكبرين :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال عز وجل:﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾[الشعراء:٢١٥].

٢ - منزلة الذل لله عز وجل

الذل لله عز وجل من أعظم عبادات القلوب، بل هو أصل العبودية، فالذل والافتقار إلى الله أقرب باب إلى الله، وهو أوسع أبواب العبودية، ولا مزاحم فيه، لقلة السالكين فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج:٧٧].

يا رب عبدك الفقير، الذليل، المذنب، الخطّاء بباك، فإن قبلته فأنت اهلٌ لذلك، وإن رددته فهو أهلٌ لذلك، ناصيته الخاطئة بين يديك، فإن قبلتها فبفضلك، وإن رددتها فبعدلك، غير أن رحمتك أوسع، فاغفر له وارحمه برحمتك التي وسعت كل شيء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف:٢٣].

وغاية جميع العبادات إظهار الخضوع والتذلل لله جل جلاله، وإظهار العبودية والفاقة والمسكنة للرب العزيز الجبار عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

وعبادة الذل والافتقار، والانكسار والتضرع، بين يدي الملك العزيز الجبار جل جلاله، من أعظم عبوديات القلب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ١٢﴾ [الملك:١٢].

والعبودية والذلة لله جل جلاله من أعلى المقامات عند الله عز وجل .

وعندما يرى الرب جل جلاله عبده متذللًا بين يديه بصدقٍ يغفر ذنوبه، ويفرج كربته، ويجيب دعاءه، ويقبل عبادته، وينصره ويكبت عدوه مع قلة أسبابه: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ [آل عمران:١٢٣].

والله سبحانه عزيز غني عن خلقه من كل وجه، والعبد ذليلٌ فقيرٌ إلى الله من كل وجه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر:١٥].

وأكمل الخلق عبودية لله أكملهم ذلًا لله، وانقيادًا له، وطاعةً له، وافتقارًا إليه، فكل أحد ذليلٌ لجبروت الله، ذليلٌ لعزته، ذليلٌ لقهره، ذليلٌ لربوبية مولاه، ذليلٌ

لإحسانه إليه، ذليلٌ لإنعامه عليه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل:٥٣].

وأركان العبودية لله عز وجل هي كمال الحب لله عز وجل، مع كمال التعظيم لله، مع كمال الذل والخضوع لله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

والحكمة من خلق الجن والإنس هي عبادة الله وحده، بكمال الحب والتعظيم والذل لله جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

فكل العبادات مقصودها إظهار الذل والافتقار إلى الله عز وجل.

وأعظم عبادة تظهر فيها عظمة الذل والافتقار والخضوع لله عز وجل هي الصلاة: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

وأعظم عبادة يحبها الله عز وجل هي عبادة الذل والانكسار بين يديه، وإظهار الفقر والمسكنة له، وإذا أردت أن يحبك الله، فادخل عليه من باب الذل والافتقار إليه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

والعبادة المقبولة عند الله هي التي جمعت أصلين:

غاية الحب لله عز وجل، وغاية الذل له سبحانه، فمن أحببته، ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًا لله، خاضعًا له: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾[السجدة: ١٥-١٧].

وينقسم الذل إلى قسمين:

الأول: الذل المحمود، وهو الذل لله جل جلاله، لكمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا أغلى أنواع الذل.

وهذا الذل عنوان العز والشرف، والنصر والنجاة في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾[فصلت: ٣٠-٣٢].

ثم الذل للمؤمنين، وهو بمعنى التراحم والتواضع والعطف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾[المائدة: ٥٤].

والذل للوالدين كما قال سبحانه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤﴾[الإسراء: ٢٣-٢٤].

الثاني: الذل المذموم، وهو التذلل لغير الله على وجه الذلة والهوان، والضعف والصغار، والخضوع ولانكسار.

ومن ذل لغير الله فقد أشرك بالله، واستحق العقوبة: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ۝١٢٤﴾[الأنعام: ١٢٤].

٣- أنواع الذل لله عز وجل

الأول :ذل الحبيب لمحبوبه وهو الله عز وجل، وهذا أكمل وأعلى أنواع الذل، وهو ذل الأنبياء : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

الثاني :ذل المملوك لمالكه، وهو الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر:١٣].

الثالث : ذل الجاني بين يدي المنعم عليه، المحسن إليه، المالك له : ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

الرابع : ذل العاجز عن مصالحه وحاجاته بين يدي المالك لها، القادر عليها، أن يجلب له ما ينفعه، أو يدفع عنه ما يضره : ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس:٦٨].

الخامس : ذل المصائب، كالفقر والمرض، وأنواع البلاء والمحن، فلا ملجأ و لا منجا من الله إلا إليه، فيتذلل بين يدي ربه القادر على كل شيء أن يرفع عنه البلاء، ويكشف عنه السوء :﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

فسبحان الملك الحق الذي جميع مخلوقاته ذليلة بين يديه، متصاغرة لكبريائه، منقادة لأمره، مذعنة لجبروته، خاضعة لقهره :﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

هو سبحانه الحي بجميع صفات الجلال والجمال والكمال، وجميع مخلوقاته ذليلة بين يديه، فليدعوه وحده لا شريك له :﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥].

٤ - الوسائل المعينة على الذل لله عز وجل

الأولى : العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف العظيم عظمه، ومن عرف العزيز ذل له، ومن عرف الغني سأله، ومن عرف الكريم وقف ببابه : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾[محمد:١٩].

الثانية : مطالعة آثار قدرة الله في الكون،من خلق السموات والأرض، وخلق الجماد والنبات، وخلق الإنسان والحيوان، وخلق الجبال والبحار،فمن عرف ذلك عرف الكبير، وتصاغر لكبريائه، وعرف العزيز فذل لعزته، وعرف القهار فذل لقهره، وعرف الحكيم فذل لحكمه، وعرف الملك فذل لأمره : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ ﴾ [البقرة:١٦٤].

ومن عرف ذلك آمن بربه، وأخلص له العبادة، وذل لعزته، وكبريائه، وجبروته: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾[الزمر: ٩].

الثالثة : العلم بأسماء وصفات الجلال لله جل جلاله .

فمن عرف الملك أطاع أمره وذل له، ومن عرف الكبير كبره وذل له، ومن عرف القهار خضع له، ومن عرف الجبار ذل له، ومن عرف القادر استعان به، ومن عرف القوي لاذ بحماه وذل له :﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ

ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[الحشر: ٢٢-٢٤].

الرابعة: معرفة النفس البشرية، فمن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، فذل له، وأطاع أمره، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة التامة، فذل له، وأطاع أمره،ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم المحيط، فذل له، وتعلم منه، واستجاب لأمره، ومن عرف نفسه بالذلة والفقر والحاجة عرف ربه بالعزة والغنى، فذل له، ووقف ببابه، وانكسر بين يديه:﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

الخامسة: الإكثار من قراءة القرآن العظيم، وتدبر آياته، لمعرفة جلال الله وجماله، ومعرفة عظمة أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة عظمة ملكه وسلطانه ، ومعرفة عظمة دينه وشرعه، ومعرفة عظمة وعده ووعيده: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص:٢٩].

ومن عرف ذلك آمن بالله العظيم، وذل لكبريائه وعزته، وصدق أخباره، وامتثل أوامره، واجتنب نواهيه، وعبد ربه بكمال الحب والتعظيم والذل له، فنال أعظم ثوابه :﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

٥ - علامات الذل والافتقار إلى الله عز وجل

الأولى: دوام الذكر، والاستغفار، والحمد، والشكر لله جل جلاله، فقلب العبد المؤمن عاكف على ذكر مولاه، والثناء عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، دائم التوبة والاستغفار من كل زلل وتقصير، يظهر فقره وذله لربه العزيز الرحيم في كل آن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٨-٩].

الثانية: التعلق بالله وحده، والرغبة في فعل كل ما يحبه الله ويرضاه في كل حال، وتقديم محبوبات ربه على محبوبات نفسه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥-١٧].

الثالثة: قوة الذل لله في قلب العبد، مع كمال الحب له، فتراه سلّم نفسه لربه منكسرًا بين يديه، متذللًا لعظمته، متصاغرًا لكبريائه، مقدمًا حب الله على كل حب، مؤثرًا لمرضاته على كل مرضاة.

ومن كانت هذه حاله وقف عند حدود الله، وأقبل على طاعته، والتزم بأمره ونهيه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

الرابعة : الوجل من عدم قبول العمل، مع شدة إقبال العبد على أنواع الطاعات والقربات، إلّا أنه مشفق على نفسه أن يحُرم من قبول عمله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾[المؤمنون:٥٧-٦١].

الخامسة: خشية الله في السر والعلن، فهي أعظم آيات وعلامات الافتقار إلى الله والذل له،فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله آمن به واتقاه، وأطاع أمره، وذل له وافتقر إليه، ووقف ببابه ولزم عتبة عبوديته : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾[فاطر:٢٨].

السادسة: تعظيم أوامر الله الشرعية، فإن تعظيم الأمر والنهي من تعظيم الله عز وجل، وتعظيم الأمر والنهي هو الوقوف عند حدود الشرع، وأداء ما أمر الله ورسوله ﷺ به كما جاء، والعض عليها بالنواجذ :﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾[الحج:٣٢].

ومن ذل لربه امتثل أمره، واجتنب نهيه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾[الحج:٣٠].

السابعة : الإنابة إلى الله عز وجل، والتسليم لأمره ، واتباع شرعه في كل حال : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥﴾[الزمر:٥٣-٥٥].

الثامنة :كثرة التوبة والاستغفار من جميع الذنوب والمعاصي، فمن عرف ربه التواب تاب إليه من ذنوبه قبل فوات الأوان، ومن عرف ربه الغفور استغفره من

كل ذنب : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور:٣١].

وقال عز وجل :﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[المائدة:٣٩].

التاسعة : الخوف والوجل عند ذكر الله، والمسارعة إلى فعل ما يحبه الله ويرضاه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ٥٠﴾[النحل:٤٩-٥٠].

العاشرة : القيام بين يدي الله بكمال الحب، والتعظيم، والذل له :﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾[الزمر:٩].

وقال عز وجل :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

اللهم يا حي يا قيوم، يا من لا تنفعه طاعاتنا، ولا تضره معاصينا، ارحم ذلنا وانكسارنا بين يديك، واغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا، وما أنت أعلم به منا .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران:٨].

٦ -ثمرات الذل لله عز وجل

الأولى :خشية الله في السر والعلن : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك:١٢].

الثانية: إجابة الدعاء :﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾[غافر:٦٠].

الثالثة: الفوز برضوان الله عز وجل :﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾[التوبة:٧٢].

الرابعة: دخول الجنة :﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾[البقرة:٢٥].

الخامسة: الفوز بالثواب العظيم من الرب العظيم: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾[السجدة:١٥-١٧].

السادسة: الخلود في نعيم الجنة :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾[البينة:٧-٨].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثامنة عشرة

عبادة الاستعانة بالله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه الاستعانة بالله جل جلاله.

الثاني: منزلة الاستعانة بالله جل جلاله.

الثالث: أنواع الاستعانة.

الرابع: الأسباب المعينة على الاستعانة بالله عز وجل.

الخامس: أقسام الناس في الاستعانة.

السادس: جزاء أهل العبادة والاستعانة بالله جل جلاله.

العبادة الثامنة عشرة

عبادة الاستعانة بالله عز وجل

١ - فقه الاستعانة بالله جل جلاله

الاستعانة: هي طلب العون من الله ﷻ على فعل مصالح الدين والدنيا، وبلوغ درجات الجنة، فالإنسان يبرأ من حوله وقوته، ويفوّض أمره إلى الله، فإنه لا تحَوّلَ للعبد عن المعصية إلى الطاعة إلّا بتوفيق الله، ولا توفيق له للطاعة إلا بمعونة الله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣].

والاستعانة باللهمن مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله: المستعان، القوي، القادر، القدير، المقتدر .

فالله وحده هو القوي القادر المستعان الذي يُعين من التجأ إليه في تحصيل منافع الدنيا والآخرة: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[الأعراف:١٢٨].

والاستعانة بالله من أعظم العبادات القلبية، وكل الخلق فقراء إلى ربهم في كل حال، فهو الذي خلقهم، وساق إليهم أرزاقهم، وهداهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥].

وقد أَمرنا الله بطلب الاستعانة به، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة:٢-٧].

والناس مُتباينون في الاستعانة بالله عز وجل .

فالمؤمنون يستعينون بربهم في كل حال، فيعملون بجوارحهم، ويتوكلون على

الله بقلوبهم، لعلمهم أن الله وحده بيده الخلق والأمر، والتدبير والتصريف، والحول والقوة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

أما الكفّار فإنهم يَبنون جميع حساباتهم على الأمور الحسِّية المادية، ولا يستعينون بالله، لجهلهم بالله، فلا يدعونه ولا يسألونه، ولا يتوكلون عليه.

وهؤلاء وإن حصل لهم بعض مقاصدهم الدنيوية، فإنهم لايؤجرون عليها، ولايرزقون حُسن العاقبة في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال ﷻ عن الكفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

والاستعانة بالله جل جلاله أعظم عبادات القلوب، فهي تشمل:

الدعاء، والتوكل، والاستعاذة، والاستغاثة، والاستهداء، والاستبصار، والاستكفاء.

فكلّ ما يقوم به العبد من قول أو عمل يرجو به تحصيلُ منفعةٍ، أو دفعُ مفسدةٍ، فعليه أن يتعبد لله بالاستعانة به: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التغابن: ١٣].

وحاجة العبد إلى الاستعانة بربه العظيم لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقرٌ إليه في

جميع أحواله، وذلك من رحمة الله به .

فكلّ أحد محتاجٌ إلى الهداية من الله، والثبات عليها، والعون عليها، ومُحتاجٌ إلى تثبيت قلبه على الحق، ومحُتاجٌ إلى مغفرة ذنبه إذا أذنب، ومحتاجٌ إلى سَتر عيوبه وزلّاته، ومحتاجٌ إلى حفظه من جميع الشرور والآفات والأمراض، ومحتاجٌ إلى الأمن إذا خاف، ومحتاجٌ إلى الطعام والشراب إذا جاع، وغير ذلك من الحاجات التي لا تنفكّ عن العبد كلّ لحظة من لحظات حياته .

فالإنسان كِيسُ الحاجات التي لا تنفكّ عنه أبدًا، وذلك من فضل الله عليه، ورحمته به، ليقف بباب مولاه، ويستعين بالذي خلقه في كل ما يحتاج إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

والإنسان حارثٌ وهمّام، يجدُ في قلبه كلّ وقت مطلوبًا يحتاج إلى الإعانة على تحقيقه، والله وحده هو الربّ المستعان الذي بيده تحقيق المنافع، ودفع المضارّ، فلا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع الشرّ إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٧-١٨].

وقال ﷻ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

وقلب المؤمن لا يطمئنّ ولا يستقرّ ولا يَسكُن إلّا بذكر الله، والإيمان به، والتوكل عليه، والاستعانة به، والاعتماد عليه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

فمنتهى الأمور كلها إلى الله الواحد الأحد، و مقاليد الأمور كلها بيده وحده لا

شريك له: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ٤٢﴾ [النجم:٤٢].

ويستحيل أن يكون المُنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء خلقِ المخلوقات من اثنين، فوجب أن تكون العبادة لله وحده، والتوكل على الله وحده، والاستعانة بالله وحده: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة:٢-٥].

ومن علم هذا علم أن ما شاء الله كان، ومالم يشأ لا يكون أبدًا، وأن ما يطلبه العبد من خيري الدنيا والآخرة بيد الله وحده، ولا يمكن لأحد أن يناله إلا من عند الله وحده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ٥٣﴾ [النحل:٥٣].

ومن عرف ذلك يقينًا قام بقلبه عبودياتٍ عظيمة،من حُبّ الله، والتوكل عليه، وإسلام القلب له، والاستعانة به، والاستغاثة به .

وقامت في قلبه كذلك عبوديات الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والثقة بالله، وحسن الظن به، وقامت في قلبه كذلك عبودية السكينة والطمأنينة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح:٤].

وعبادة الله جلّ جلاله هي الغاية التي خلق الله الناس لأجلها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

والاستعانة بالله هي الوسيلة إليها، فإذا لم يُعِن الله عبده على طاعته وعبادته؛ ولم يطلب العبد من ربه العون على عبادته؛ لم تحصل منه تمام العبادة، وكمال العبودية، ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾[الفاتحة:٢-٥].

وقال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «واللهَّ إنِّي لأحبُّكَ، فلا تدَعنَّ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ أَنْ تقولُ: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ» أخرجه أحمد وأبو داود(١).

والاستعانة من أعظم العبادات القلبية، وهي تدخل في جميع العبادات القلبية والبدنية، ولِعظم هذه العبادة وأهميتها تَعبَّد الله بها كل مسلم في كل ركعة من كل صلاة، فأمر النبي ﷺ أن يقرأها المسلم في كل ركعة من صلاته .

وأخبر ﷺ أن من لم يقرأ بفاتحة الكتاب فلا صلاة له، ففي كل ركعة من صلواتنا نقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾[الفاتحة:٥].

وفي هذه الآية اجتمع أمران عظيمان عليهما مدارُ كمال العبودية لله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾[الفاتحة:٥] وفيها إخلاص التوحيد، والبراءة من الشرك.

وقال ﷻ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾[الفاتحة:٥].

وفيها الاستعانة بالله، والبراءة من الحول والقوة؛ ومعنى ذلك لا نعبد إلا إيّاك، ولا نستعين إلا بك :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣].

فاجتهد أيها المؤمن في مصالحك، وافعل الأسباب المشروعة، واستعن بالله وحده، ولا تعتمد على الحرص، وجهد البدن:

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهَّ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهَّ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» أخرجه مسلم(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه احمد برقم (٢١٦١٤) وأبو داود برقم (١٥٢٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤).

وفي إفراد الله وحده بالاستعانة فائدتان :

الأولى: أن كلّ عبدٍ عاجزٍ عن الاستقلال بنفسه في أداء الطاعات، واجتناب المعاصي: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل:٥٣].

الثانية: أنه لا معين للعبد على مصالح دينه ودنياه إلا الله المستعان وحده لا شريك له، فمن أعانه الله حصل مقصوده، ومن خذله الله لم يتحقق مقصوده: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[آل عمران: ١٦٠].

فتوكل أيها المؤمن على ربك المستعان، واستعن به في جميع أمورك، واستعن بالله وحده على فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المصائب:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾[الفاتحة: ١-٧] .

٢ - منزلة الاستعانة

الاستعانة بالله جلّ جلاله أعظمُ عبادات القلوب، وهي ثمرة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[محمد:١٩].

وأفضل ما يسأل العبد ربه عز وجلالإعانة على مرضاته .

قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه :«يا مُعاذُ، واللهَّ إنِّي لأحبُّكَ، فلا تنْسى أنْ تقول دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ»أخرجه أحمد(١).

وأنفع الدعاء هو طلب العون من الله على القيام بكل ما يحبه الله ويرضاه .

وأفضل المواهب إسعاف العبد بهذا المطلوب العظيم :﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات:١٧].

وجميع الأدعية في القرآن والسنة مدارها على هذا الأصل العظيم، وعلى دفع ما يُضاده، وعلى تكميله، وتيسير أسبابه، كما قال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة:٢-٧].

ومن أصول الإيمان بالله تجريد الاستعانة بالله وحده، كتجريد العبادة لله وحده، سواء كانت الاستعانة بالله في الهداية، ولزوم الاستقامة، أو في تحصيل المطالب، وقضاء الحوائج التي يفتقر إليها العبد في أمور معاشه ومصالحه الدنيوية:﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾[غافر:٦٥].

---

(١)صحيح: أخرجه احمد برقم (٢١٦١٤) وأبو داود برقم (١٥٢٢) .

والاستعانة بالله من أعظم العبادات القلبية، وهي طلب العون من الله القادر على كل شيء، المتضمن كمال الذّل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه وحده، واعتقاد كفايته: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن: ١٣].

والاستعانة بالله جل جلاله من أعظم واجبات الإيمان، وأفضل الأعمال التي تُقرّب للرحمن، لأن الأمور كلها لا تحصل إلا بالاستعانة بالله الذي بيده، مقاليد الأمور كلها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣].

٣- أنواع الاستعانة

الاستعانة ثلاثة أنواع:

الأول: الاستعانة بالله وحده المتضمنة كمال الذّل من العبد لربه، مع كمال الثقة بالله، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر إليه .

وهذه هي الاستعانة التي أمر الله بها عباده المؤمنين، وهذه لاتكون إلا لله وحده: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

الثاني: الاستعانة بالمخلوق في أمرٍ يَقدرُ عليه .

فهذه إن كانت على بِرّ وخير فهي مشروعة، والمُعين عليها مأجور، لأن عونه إحسانٌ إلى نفسه وإلى غيره، وإن كانت على إثمٍ وعدوان فهي حرام، والمُعين آثم، لأنه تعاونٌ على فعلٍ محُرّم: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

والاستعانة بالله هي الأصل، والاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه سببٌ ووسيلةٌ مشروعة .

الثالث: الاستعانة بالأموات، أو الاستعانة بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون عليه؛ فهذا شرك، لأن من استعان بهم يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا في الكون، وأن مع الله مُدبّراً، والله وحده هو المستعان وحده، ومن استعان بالله وحده أغناه عن عَونِ غيره، ومن استعان بغير الله وكَلَه الله إلى من استعان به، فصار مخذولاً مذموماً، مخذولاً لا ناصرَ له، مذموماً لا حامدَ له: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢].

والاستعانة بالله وحده هي سنّة الأنبياء التي أمروا أقوامهم بها: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[الأعراف:١٢٨].

وأمر النبي ﷺ المؤمنين بالاستعانة بالله وحده في كل أمر .

قال النبي ﷺ لابن عباس: «يَا غُلامُ، إنِّي أعلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّت الصّحُفُ» أخرجه الترمذي(١).

(١)صحيح/ أخرجه احمد برقم (٢٦٦٩) والترمذي برقم (٢٥١٦) .

٤ - الأسباب المعينة على الاستعانة بالله جل جلاله

الأول: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف اللهَ آمن به، وتوكل عليه، وفوّض أموره إليه، وعلم أنه لاحول له ولا قوة إلا بربه القوي القادر القهار: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩].

الثاني: العلم بأن الأمور كلها بيد الله وحده، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون أبدًا، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقّب لحكمه، ولا يجري في ملكه شيءٌ إلا بإذنه وعلمه، فهو الواحد الأحد الذي يدبّر كل أحد: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥].

فاستعن بالله المُستعان وحده، واسأله أن يُوَصّل إليك النفع الذي تريده، ويدفع عنك الضرّ الذي تخشاه: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾[فاطر:٢].

وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «يَاغُلامُ، إنِّي أعلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله» أخرجه أحمد والترمذي(١).

الثالث: اليقين بأن التدبير والتصريف، والحَوْلُ والقوة، بيد الله وحده لاشريك له: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾[الملك:١-٢].

وقال النبي ﷺ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ» متفق عليه (٢).

فمن أيْقَن أن الأمور كلها بيد الواحد القهّار استعان به، ولم يلتفت لشيء سواه، لأنه لا تَحوّل من معصية الله إلى طاعته إلّا بمعونة الله، ولا ثبات على الطاعة إلا بمعونته، ولا إقرار بالتوحيد عند الممات إلا بمعونة الله، ولا تحوّل من الفقر إلى الغنى إلا بمعونة الله، ولا يتبدّل المرض بالصحة إلا بمعونة الله، ولا يتبدّل الفقر

---

(١) صحيح: أخرجه احمد برقم (٢٦٦٩) والترمذي برقم (٢٥١٦).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٤٢٢) ومسلم برقم (٢٧٠٤)

بالغنى إلا بمعونة الله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٦].

والذي يُستعان به في جميع الأحوال هو الله القادر على كل شيء، المحيط بكل شيء، القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يقف له شيء: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١٢].

ويُستعان بالأعمال الصالحة الخالصة لله عَزَّ وَجَلَّ كالصبر والصلاة على تحمّل المَشاق في إبلاغ دين الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

ويُستعان بالله وحده على تحصيل منافع الدنيا والآخرة، ودفع مضارّ الدنيا والآخرة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

وأعظم ما يطلب فيه المسلم المعونة من ربه هو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة:٢-٧].

ويَطلب كذلك المعونة على ذكر الله وشُكره، وحُسن عبادته من ربه المُستعان:
قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «لا تدعنَّ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ أَنْ تقولُ: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ» أخرجه أحمد وأبو داود(١).

اللهم أنت المُستعان، وعليك التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

---

(١) صحيح: أخرجه احمد برقم (٢١٦١٤) وأبو داود برقم (١٥٢٢).

٥ - أقسام الناس في الاستعانة

الناس في عبادة الله والاستعانة أربعة أقسام:

الأول: أهل العبادة، والاستعانة بالله عليها، وهم المؤمنون المتقون، فعبادة الله وحده لا شريك له غاية مرادهم، وطلب العون من الله عليها، والتوفيق للقيام بأدائها، هو وسيلتهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٦].

وهؤلاء هم خِيارُ الناس، وأفضلهم، وأكملهم عبادة واستعانة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٥].

الثاني: المُعرِضون عن عبادة الله، والاستعانة به، فلا عبادة لهم، ولا استعانة، وإن استعان به أحدهم فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه، وأداء حقوقه.

وهؤلاء شرّ الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

والله كريم يسأله من في السموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمدّ هؤلاء وهؤلاء من فضله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢٠-٢١].

وأبغضُ خلق الله إليه إبليس، ومع هذا سأله حاجةً وهي الإنظار إلى يوم القيامة، فأعطاه الله ما طلب: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨].

ولكن لمّا لم تكن عونًا له على طاعة ربه ومرضاته، صارت زيادةً في شِقوته، وبُعده عن الله، وطرده، ولعنه، وهكذا كل من استعان بالله على أمر، وسأله إياه،

ولم يكن عونًا على طاعة الله ومرضاته كان مُبعدًا له عن ربه، قاطعًا له عنه، فلا تسأل الله، ولا تستعين به، إلّا على أمرٍ يحبّه ويرضاه .

وإجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، فالله بصيرٌ بعباده، يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها شِقوته وهلاكه، ويكون قضاؤه له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة:٥٥].

ويكون منعه من قضاء حاجته لكرامته عليه، ومحبته له، فيمنعه صيانةً وحمايةً وحفظًا لا بُخلًا عليه، وهذا إنما يفعله العزيز الرحيم بمن يريد كرامته ومحبته، فيظنّ لجهله بحكمة الله أن الله لا يحُبه ولا يُكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيُسيء الظَنّ بربه، ويعترض على أقداره واختياره له .

والعاقل يعلم أن عطاء الله ومنعه كله ابتلاء وامتحان: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر:١٥-٢٠].

فالعطاء والمنع من الله كله ابتلاء للعبد، أيشكرُ العبد ربه على العطاء، فيعطيه فوق ذلك؛ أم يكفر بالله عند المنع، أم يصبر؛ فإن صبر أعطاه الله أضعاف ما فاته من سعة الرزق، فليس العطاء دليلٌ على الإكرام، وليس المنع دليلٌ على إهانة العبد، وإنما الإكرام الحقيقي يكون بإكرام المؤمن بمعرفة الله ومحبته، وطاعته وعبادته، والإهانة تكون لكلّ من كفر بالله، وأعرض عنه، وهو المحمود جلّ جلاله على هذا وهذا: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤].

الثالث: من يعبد الله وحده من غير استعانةٍ به، ولا صبرٍ على أقداره، فتجد الواحد من هؤلاء يتحرّى الطاعات، وعنده الورع والزهد، ولزوم السنّة والمحافظة على الفرائض والنوافل، لكن ليس له توكل واستعانة، وصبر على الأقدار المؤلمة، بل فيه عجزٌ وجزعٌ وتسخّط على ما يصيبه من المكاره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

الرابع: من عندهم استعانة وتوكل وصبر، من غير استقامة على الأمر الشرعي، ولا متابعة للسنّة.

فهؤلاء لا عاقبة لهم، لأنهم ليسوا من المتقين، والعاقبة للمتقين: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

٦ - جزاء أهل العبادة والاستعانة بالله جل جلاله

يُكرم الله عز وجل أهل العبادة والاستعانة بالله بكرامات كثيرة:

الأولى: رضوان الله عليهم، ورضاهم عنه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة: ٧-٨].

الثانية: رِفعةُ الدرجات، ومغفرةُ الذنوب، والرزق الواسع كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

الثالثة: الأمن والسعادة في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

الرابعة: الخلود في نعيم الجنّة كما قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

الخامسة: رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة كما قال سبحانه :﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

السادسة: القُرب من ربهم في الجنّة كما قال سبحانه :﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[القمر:٥٤-٥٥].

السابعة: الفوز بالجنّة، والنجاة من النّار:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[آل عمران:١٨٥].

وقال عز وجل :﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[مريم:٧١-٧٢].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[آل عمران:١٤٧].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨].

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها..

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة التاسعة عشرة

عبادة الاستغاثة بالله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه الاستغاثة بالله عز وجل.

الثاني: منزلة الاستغاثة بالله عز وجل.

الثالث: أنواع الاستغاثة.

الرابع: الفرق بين الاستغاثة والاستعانة.

الخامس: فضائل الاستغاثة بالله عز وجل.

السادس: الأسباب المعينة على الاستغاثة بالله عز وجل.

العبادة التاسعة عشرة

عبادة الاستغاثة بالله عز وجل

١ - فقه الاستغاثة بالله عز وجل

الاستغاثةُ بالله عز وجل هي طلب الغَوْثِ والمدد من الله الذي بيده ملكوت كلِّ شيء، إعلانًا للافتقار والحاجة لمن بيده مفاتيح كل شيء، وبيده وحده قضاء الحاجات، وتفريج الكربات: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال:٩].

فالاستغاثة طلب الغَوث، وهو إزالة الشدّة، والكُربة والمِحنة.

والاستغاثة تكون بالله وحده، وهي من أعظم العبادات القلبيّة، فمن دعا الله مخلصًا أجابه، ومن استغاث به مخلصًا أغاثه، ومن استعانَ به وحده أعانه، ومن استجارَ بالله وحده أجاره. ومن استعاذَ به وحده أعاذه: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر:٦٥].

وتجوز الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه عادةً، كأنْ يستغيث بمن يُنقذه من حريقٍ، أو يستغيث بمن ينقذه من غرقٍ، أو من سبع، ونحو ذلك.

أما الاستغاثة بالمخلوق الحيّ فيما لا يقدر عليه إلّا الله، كالاستغاثة بالأحياء لشفاء مريضٍ، أو إنزال غيثٍ، أو تفريج كربةٍ، أو دفع ضُرٍّ، فهذا شركٌ أكبر، لأنه لا يقدِر على ذلك إلّا الله وحده لا شريك له: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون:١١٧].

وكذلك الاستغاثة بالأموات والغائبين كلُّه من الشرك الأكبر :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٥-٦٦].

فالأمور التي لا يقدرُ عليها إلّا الله وحده، لا تُطلب إلّا منه وحده، ومن طلبها من غيره فقد أشرك مع الله إلها آخر، واستحق عقوبة الله :﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة:٧٢].

فارفع حوائجك أيها المؤمن كلَّها إلى الربِّ القادر عليها كلها، وهو الله وحده لا شريك له :﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥].

ومن دعا الله مخلصاً أجابه :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦].

وقال النبي ﷺ: «يا فاطمة ؛ ما يَمنعُك أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ : يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» أخرجه النسائي والحاكم(١).

والله جل جلاله وحده هو الملك القادر على كل شيء، القوي الذي لا يقف له شيء، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يعجزه شيء. الذي يجُيب المضطرّ، ويكشفَ الضُرّ، ويُغيث المستغيث به:﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾[الأنفال: ٩].

ولا يستطيع كشف الضرِّ إلّا من قدَّره، فهو الذي يخُففه، أو يُزيله، أو يَرفعه، أو يَزيده، وحده لا شريك له :﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن

---

(١)صحيح: أخرجه النسائي برقم (١٠٤٠٥) والحاكم برقم (٢٠٠٠).

﴿يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس:١٠٧].

ومن عرف الله حقًا بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الكبرى، لم يعبُد إلّا الله، ولم يسأل إلّا إيّاه، ولم يستعنْ إلا بالله وحده، ولم يستغيثْ إلا بالله وحده لا شريك له: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[محمد:١٩].

والاستغاثة بالله وحده ثمرة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾[الطلاق:١٢].

ومن عرف ذلك آمن بالله وحده، وأحبّه ومجّده، وخافه ورجاه، واستغاث به وحده عند المُلِمّاتِ والكروبِ والشدائدِ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾[الذاريات:٥٠-٥١].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾[غافر:٦٥].

فالله عز وجلّ لكمال ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، لا يُستعان إلا به، ولا يُتوكل إلّا عليه، ولا يُستغاث إلّا به، لأنه وحده الملك القادر الذي بيده مقاليد الأمور كلها: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣].

والاستغاثة عبادةٌ قلبيّةٌ، وهي من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى :﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف:١٨٠].

والاستغاثة من لوازم الإيمان بأسماء الله القوي، القادر، القدير، المقتدر، القهّار. فمن علم أن الله هو القوي وحده استغاث به عند الشدائد والكربات، والله يُغيثُ من استغاثبهصادقاً :﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[الأنفال:٩].

فالله جلّ جلاله هو الملك القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء، ولا يغيب عنه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، الذي يجيب المضطرّ، ويكشف الضرّ، ويُغيث المستغيث:﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[النمل:٦٢].

ولا يستطيع كشفَ الضُرّ إلّا من قدّره، فهو الذي يُخفّفه أو يزيله، أو يرفعه أو يزيده، وحده لا شريك له:﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٧-١٨].

٢ - منزلة الاستغاثة بالله عز وجل

خلق الله عز وجل الخلق لعبادته وحده لا شريك له، وجعلهم جميعا فقراء إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

والعبادة لها ركنان:

عبادة الله بغاية الذُّلِّ له .. مع كمال الحُبِّ لله عز وجل.

والاستغاثة بالله عز وجلّ من الركن الأول، بل هي قلب الركن الأول وأساسه وأصله، لأن الاستغاثة بالله هي الذّل التّام للملك العزيز الجبار، والفَزَعُ إليه في الشدائد والكروب، ومع صدق الاستغاثة من العبد، تكون سرعة الإجابة من الرب، كما قال سبحانه عن استغاثة الرسول ﷺ والمؤمنين في بدر: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال:٩-١٠].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

فالاستغاثة بالله جلّ جلاله من أعظم عبادات القلوب، ولهذا سارعَ إليها خِيارُ الناس، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر الله عنهم مبيّنًا كمال تضرُّعهم، وتذلُّلهم لربهم، واستغاثتهم بمولاهم، فقال عز وجل عن أيوب ﷺ: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣].

فأجاب الله دُعاءه واستغاثته فورًا: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٤].

واستغاث يونس ﷺ بربه، كما قال سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[الأنبياء:٨٧].

فاستجاب الله دعاءه فورًا، كما قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[الأنبياء:٨٨].

وقال سبحانه عن زكريا ﷺ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾[الأنبياء:٨٩].

فاستجاب الله دعاءه واستغاثته، كما قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء:٩٠].

وقال سبحانه عن خليله إبراهيم ﷺ حينما دعا قومه إلى التوحيد، فأبوا واستكبروا، وأضرموا له نارًا، فاستغاث بربه، وشكا حاله إليه، فأجاب الله دعاءه واستغاثته فورًا، وجعل النار بردًا وسلامًا عليه، كما قال سبحانه: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٢].

ونوح ﷺ دعا قومه إلى الإيمان بالله، فاستكبروا عن الحق، وسَخروا منه، فاستغاث بربه، فأجاب الله دعاءه، وأنجاه من أعدائه، وأغرق من كفر به، كما قالسبحانهعن نوح ﷺ: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ

عُيُونًا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ ﴾[القمر:٩-١٤].

ومحمد ﷺ استغاث بربه يوم بدر، وناشده أن يحفظ المؤمنين، وأن ينصرهم على من عاداهم من الكفار، كما قال سبحانه:﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ ﴾[الأنفال:٩].

فنصر الله رسوله وأولياءه، وخذل أعداءه من الكفار.

ولما اشتدّ الجدْبُ على الناس، ودخل الأعرابي المسجد، فوجد النبي ﷺ يخطب الناس، فقال: يا رسول الله، هلكَ المالُ، وجاعَ العيالُ، فادع الله لنا.

فقال النبي ﷺ مستغيثًا بربه: « اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا ». متفق عليه [1].

فأمطرت السماء أسبوعا:﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨ ﴾[الشورى:٢٨].

إن الاستغاثة بالله من أعظم منازل العبودية، فعلى المؤمن إذا نزلت به مصيبةٌ، أو كربةٌ، أو كارثةٌ، أو شدةٌ، أن يستغيث بربه العظيم، ويضع خدّه على التراب، مُتذلّلا لربه، مُستغيثًا به أن يفرّجَ كُربته، ويزيل محنته، لأن الله وحده قاضي الحاجات، ومجيبُ الدعوات، لا إله غيره، ولا ربّ سواه:﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾[غافر:٦٥].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٠١٤)، ومسلم برقم (٨٩٧).

٣- فضائل الاستغاثة بالله عز وجل

الأولى :أن الله عز وجل يغيث من استغاث به، ويعطيه ما سأله، ويجيب دعوته إذا دعاه وحده ولو كان كافرا، لأن الله كريم لا يرد سائلاً، ولا يخيب مؤملاً : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦].

وقال سبحانه عن الكفار :﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[العنكبوت:٦٥].

الثانية :أن الله ينصر المظلوم ولو كان كافرا، إذا أخلص لله الدعاء، واستغاث به وحده: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾[غافر:٥١-٥٢].

وقال النبي ﷺ: « واتَّقِ دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » متفق عليه (١).

الثالثة : أن إغاثة الله لمن استغاث به تكون أسرع شيء، كما قال سبحانه :﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال:٩].

الرابعة : أن الاستغاثة بالله من أعظم دلائل الإيمان، وصدق العبودية، كما قال سبحانه :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢-٤].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٤٩٦) ومسلم برقم (١٩) .

٤- أنواع الاستغاثة

الاستغاثة ثلاثة أنواع:

الأولى: الاستغاثة المشروعة

وهي الاستغاثة بالله وحده، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، استغاث به وحده، وفزعَ عند الشدائد والمحن إلى الله وحده، وهذه استغاثة الأنبياء والمؤمنين، كما قال سبحانه عن المؤمنين في بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩].

وهذه هي الاستغاثة العظمى التي يريدها الله من عباده: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات:٥٠-٥١].

الثانية: الاستغاثة الجائزة

وهي الاستغاثة بالمخلوق الحيّ فيما يقدر عليه عادةً.

فتجوز الاستغاثة بالمخلوق الحيّ الحاضر فيما يقدِر عليه، كَأَنْ يستغيث بمن يُجيد السباحة في إنقاذه من الغرق، مع انعقاد القلب على أن المُغيث حقيقةً هو الله وحده، ولولا إعانة الله وتوفيقه لغرِق، وإن حاول أن يُنقذه أهل الأرض جميعًا، أو يستغيث بمن يحميه من عدوه، كما قال الله عز وجلّ عن موسى ﷺ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٥-١٦].

لأن موسى ﷺ لم يُرِدْ قتلَ القِطْبي، وإنما يريد نصر الذي من شيعته، وتخليصه من عدوه .

وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : «يا غُلام؛ إني أُعلّمكَ كلمات : احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجِده تجُاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلمْ أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضرّوك إلّا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليك، رُفِعَتْ الأقْلامْ، وجَفَّت الصُحُفْ ».أخرجه أحمد والترمذي(١).

فاستغث أيها المؤمن بالله وحده في جميع أحوالك، ويجوز لك أن تستغيث بغيره من البشر الأحياء فيما يقدرون عليه عادة، مما أقْدَرهُم الله عليه كطلب الإنقاذ من غرقٍ أو حرقٍ ونحو ذلك لأن الله قال :﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾[المائدة: ٢].

وقال النبي ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا ».أخرجه(٢).

الثالثة :الاستغاثةالشركية.

وهي الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده .

فمن استغاث بمخلوق حيّ فيما لا يقدِر عليه إلا الخالق وحده، كطلب الشفاء منه أو الغنى، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر، ومن استغاث بميتٍ أو غائبٍ من الخلق سواءً كان صالحًا أو فاسدًا ، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧].

---

(١)صحيح: أخرجه احمد برقم (٢٦٦٩) والترمذي برقم (٢٥١٦).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠٢٦) ومسلم برقم (٢٥٨٥).

فلا تجوز الاستغاثة بالأموات مطلقا، لأن الميت لا يسمعه، فكيف يجيبه وينفعه؟ فالميت لا يستطيع أن يدفع عن نفسه دود الأرض وهوامها، وحتى لو كان حيا لم يملك أن يغيثه إلا على قدر طاقته البشرية المحدودة، فلا يملك أن يشفيه، أو يرد عنه الموت، لأن ذلك كله بيد الله وحده لا شريك له. فليستغيث بهوحده: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤﴾ [فاطر:١٣-١٤].

٥- الفرق بين الاستغاثة والاستعانة

الفرق بين الاستغاثة، والاستعانة، والاستعادة، والدعاء:

أن الاستعانة بالله تكون في أمور الدنيا والدين في كل حال؛ في حال الشدة والرخاء، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٢-٥].

أما الاستغاثة بالله عز وجل، فهي طلب تفريج الشدة، أو الكربة، أو المحنة. وتكون عند وقوع الشرّ والمصائب والفواجع.

فالعبد المؤمن إذا نزلت به تلك الشدائد، استغاث بربه ليرفعها عنه، والله وحده هو الذي يعينه، ويرفع عنه ذلك البلاء، ويحقق له ما يريد من النصر أو النجاة، كما قال سبحانه عن المؤمنين في غزوة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩].

وأما الاستعاذة فهي طلب الحماية من الشرّ.

فتطلب من الله أن يحميك من الشرّ قبل وقوعه، فتستعيذ بالله من الفتن قبل وقوعها، وتستعيذ بالله من الشيطان عند قراءة القرآن، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل:٩٨-١٠٠].

والدعاء أعم من هذه الثلاث، لأن الاستعانة دعاءٌ مخصوص، والاستغاثة دعاءٌ مخصوص، والاستعاذة دعاءٌ مخصوص.

أما الدعاء فهو عامٌ في طلب ما تحتاجه، سواءٌ كان ذلك طلب خير، أو دفع شر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

وقال عز وجل عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

فالحمد لله رب العالمين الذي شرع لنا هذه العبوديات الأربع:

الاستعانة بالله عز وجل، والاستغاثة به، والاستعاذة به من كل شر، ودعاء الله عز وجل: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

٦ - الأسباب المعينة على الاستغاثة بالله عز وجل

الأول : العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله. فمن عرف الله حقا، آمن به حقا، ووحده حقا، وتوكل عليه حقا، واستغاث به حقا :﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد:١٩].

ومن علم أن الله وحده بيده كل شيء، وغيره ليس بيده شيء، استغاث بالله وحده، ولم يلتفت لأحد سواه :﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾[الذاريات:٥٠-٥١].

الثاني : اليقين بقوة الله الغالبة التي لا يُعجزها شيء، ولا يقف لها شيء، ولا يمتنع عليها شيء : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾[الحج:٤٠-٤١].

فمن أيقن بكمال قوة الله، لم يستغث إلا بالله وحده،ومن استغاث بالله أجابه، ونصره على من عاداه، كما قال الله عن المؤمنين في بدر :﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ ﴾[الأنفال:٩].

الثالث : اليقين بكمال رحمة الله الواسعة، وأن رحمة الله وسعت كل أحد من خلقه، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، وأن رحمة الله سبقت غضبه : ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ ﴾[غافر:٧].

وقال النبي ﷺ لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه «إن رحمتي سبقت غضبي» متفق عليه(١).

واليقين بأن الله يريد أن يرحم عباده، ويغفر لهم، وييسر أمورهم :﴿وَرَحۡمَتِي

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٣١٩٤) ومسلم برقم (٢٧٥١).

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧].

الرابع: اليقين بحكمة الله البالغة، فأن الله حكيمٌ خبير، ما قدَّر البلاء إلّا ليُمحّص قلوب المتقين، ويُكفِّر سيئات المذنبين، ويرفع درجات المؤمنين، وما قدَّر المصائب لإهلاك الناس، بل قدَّرها لإكرامهم، ورفع درجاتهم، وتكفير سيئاتهم، وإحسان عاقبتهم: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[التغابن:١١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقال عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[التوبة:٥١].

اللهم ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير

اللهم أغث قلوبنا بالإيمان واليقين، واستعمل جوارحنا فيما يرضيك عنا،

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكّها أنت خيرُ من زكاها، أنت وليّها ومولاها.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة العشرون

عبادة الافتقار إلى الله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه الافتقار إلى الله ﷻ.

الثاني: منزلة الافتقار إلى الله ﷻ.

الثالث: أنواع الافتقار.

الرابع: درجات الافتقار إلى الله ﷻ.

الخامس: علامات الافتقار إلى الله ﷻ

السادس: ثمرات الافتقار إلى الله ﷻ.

العبادة العشرون

عبادة الافتقار إلى الله ﷻ

١ - فقه الافتقار إلى الله ﷻ

الافتقار إلى الله عز وجل من أعظم العبادات القلبية .

والافتقار إلى الله هو الشعور القلبي بالفقر والحاجة والفاقة إلى الله في كل حال .

والافتقار إلى الله هو الاستغناء بالخالق وحده، والغنى عن كل أحد سواه : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر:٦٥].

والافتقار هو التوكل على الله وحده، وتفويض الأمور إليه وحده، وتخلص القلب من شهوات الدنيا من الأموال والنساء والمناصب وغيرها، فلا يتعلق القلب بها، ولا ينافس فيها، ولا يفرح بجمعها، ولا يبخل ببذلها، ولا يحزن لفواتها: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

والافتقار من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن موجبات الإيمان بأسماء الله الملك، القوي، القادر، الغني، الرزاق، الواسع: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

فمن وثق في غنى مولاه، شاهد فقر كل ما عداه من المخلوقات إليه، ورأى فقرهم إليه، وحاجتهم إليه في خلقهم وأرزاقهم وهدايتهم: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان:٢٦].

هو سبحانه الرب الواحد الأحد، الغني عن كل أحد، الذي أفقر إليه كل أحد:

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾[الإخلاص:١-٤].

والافتقار إلى الله جل جلاله من أعظم خصائص العبودية، وهو حقيقة العبودية ولبها وروحها: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر:١٥].

فالله وحده هو الغني عن كل ما سواه، والخلائق كلهم فقراء إليه، أذلة بين يديه، وجميعهم محتاجون إليه في خلقهم،وأرزاقهم،وحياتهم،وهدايتهم :﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾[الزمر:٦٢].

الناس كلهم فقراء إلى الله في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم له، وإخلاص العبادة له، فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أحوالهم: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾[آل عمران:١٦٤].

والناس كلهم فقراء إلى الله في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لو لا أن الله خلقها فيهم لما استطاعوا القيام بأي عمل، فكم نعمة أنعم الله بها عليك أيها العبد في حواسك وجوارحك، وفي سمعك وفي بصرك، وفي كلامك وفي عقلك :﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾[النحل:٧٨].

الناس جميعًا فقراء إلى الله في إمدادهم بالأقوات والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة، فلو لا فضل الله وإحسانه وإكرامه لما حصل لهم من النعم شيء :﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾[لقمان:٢٠].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾[فاطر:٣].

الخلق كلهم فقراء إلى الله في صرف النقم عنهم، ودفع الضر عنهم، وإزالة الكروب والشدائد والمكاره عنهم، فلولا دفع الله الشر عنهم، وتفريجه لكربهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والمصائب والآلام، وتراكمت عليهم الهموم والغموم والأحزان: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل:٥٣].

والأنبياء والرسل هم أصدق الناس افتقارًا إلى الله جل جلاله ولجوءاً إليه عند الشدائد والكروب، فصدقوا في افتقارهم إلى الله، فأجاب الله دعاءهم، وفرج كربهم، ونصرهم على من عاداهم، كما أخبر الله عن نبيه يونس ﷺ بقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨].

وقال عن نبيه أيوب ﷺ: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾[الأنبياء:٨٣-٨٤].

وقال سبحانه عن نبيه نوح ﷺ: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾[القمر:٩-١٥].

وحين دعا إبراهيم ﷺ قومه إلى التوحيد، فأرادوا إحراقه بالنار، ولم يقبلوا دعوته فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فأنجاه الله من النار، وأبطل شدة حرارة النار، وجعلها بردًا وسلامًا على إبراهيم: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٢].

وكان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب مفتقراً إلى ربه: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الحليمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ» متفق عليه (١)

والناس جميعاً فقراء إلى الله في صحتهم وعافيتهم، وفي أمنهم وخوفهم، وفي جمع كلمتهم، وتأليف قلوبهم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال عز وجل عن المؤمنين: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

والناس جميعًا فقراء إلى الله في تعليمهم ما لايعلمون، وعملهم بما يصلحهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة، ولولا تعليم العليم لهم لم يتعلموا، ولولا توفيقه

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣٤٥)، ومسلم برقم (٢٧٣٠).

لهم لم يصلحوا، فامتن الله عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وزودهم بآلات العلم، بالأسماع والأبصار والعقول: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٣١].

فلا إله إلا الله كم نعم الله على عباده: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

والناس كلهم فقراء إلى الله بالذات بكل اعتبار، والله هو الغني عن كل ما سواه: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان: ٢٦].

فالموفق من الناس من يشاهد فقره التام، وحاجته إلى ربه في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع إلى ربه ويسأله ألا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره في كل حال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

٢ - منزلة الافتقار إلى الله ﷻ

الافتقار إلى الله عز وجل من أعظم عبادات القلوب، ومن رأى نعم الله الدنيوية عليه وعلى غيره شكر ربه وحمده عليها: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

ومن رأى النعم الدينية والأخروية من الله وحده افتقر إليه، وانكسر بين يديه، ومن لم ير افتقاره إلى الله في تلك النعم منّ على ربه بالطاعة، وطلب عليها الأجر، وذلك مما يحبط عمله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧].

ومن منّ بالعلم على خلق الله، وتكبر عليهم بعلمه وحاله وطاعته، وظن أنه خير منهم، وأنهم بحاجة إليه، فزكى نفسه، واحتقر غيره، فذلك كله من محبطات الأعمال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢].

وقال النبي ﷺ: «بِحسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أنْ يحقِرَ أخاهُ المسلِمَ» أخرجه مسلم [١]

ومن حرم الافتقار إلى الله من أهل العلم، والمال، والطاعات، ورأى نفسه، طلب مدح الناس له، فجاهد معهم ليقال شجاع، وأنفق المال عليهم ليقال كريم، وقرأ القرآن ليقال هو قارئ.

فهؤلاء الثلاثة هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، لفقدهم الافتقار، لأن أعمالهم لم تكن خالصة لله، بل صرفوها لغير الله من أجل الشهرة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال النبي ﷺ: «إنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» أخرجه مسلم (١).

فمن طلب مدح الناس فقد افتقر إلى الدنيا، وترك الافتقار إلى الله، فحبط عمله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٥-٦٦].

والافتقار يدفع العبد للتواضع لربه، والشعور بفضله ومنته عليه بالتوفيق والهداية إلى الصراط المستقيم، وعدم التألي على ربه، وتجاوز حدوده .

وحكى رسول الله ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» أخرجه مسلم (٢).

فالافتقار إلى الله عز وجل أعظم عبادات القلوب، وأوسع باب يدخل منه العبد على ربه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات:٥٠-٥١].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٠٥) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢١) .

٣- أنواع الافتقار

فقر الناس ينقسم إلى قسمين :

الأول : فقر أهل الدنيا :

وهم الذين أخلدوا إلى الأرض، ورأوا الدنيا جنة كبيرةً جدًا، فتعلقت قلوبهم بزينتها وزخرفها وشهواتها، وتعلقت نفوسهم بمن يملكها فخافوه ورجوه، واتبعوه ووالوه من دون الله، فافتقروا إلى الدنيا، واستغنوا بها عن الله، وقد ذم الله هؤلاء، وتوعدهم بالعذاب يوم القيامة بقوله :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾[يونس:٧-٨].

الثاني: فقر أهل الإيمان.

فمن عرف الله بالجلال والجمال والكمال، والأسماء الحسنى، والصفات العلا، والأفعال الحميدة، افتقر إليه، وذل بين يديه، وخضع لجلاله، وتصاغر لكبريائه، واقترب منه فأدناه، وافتقر إليه فأغناه بحبه عما سواه، وتوكل عليه فكفاه :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢-٤].

فالفقير إلى الله عز وجل هو الذي عرف الملك العزيز الجبار، الرحمن الرحيم الغفار، الكريم الأكرم الوهاب، فافتقر إليه وحده، فأغناه عن كل ما سواه :﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥].

وكلما اقترب العبد من ربه، صغرت الخلائق بين عينيه، ورآهم جميعًا في قبضة مولاه، فافتقر إليه وحده، ولم يلتفت لأحد سواه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٦].

فمن عرف ربه افتقر إليه وحده، واستغنى به عما سواه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧].

والزهد والافتقار إلى الله عبادتان من عبادات القلوب العظيمة، وهما متلازمتان لا تفترقان، فالزهد عبادة تركية، والافتقار إلى الله عبادة فعلية.

فمن زهد في الدنيا استغنى عن الدنيا، وافتقر إلى الله، ومن لم يزهد في الدنيا، استغنى بالدنيا، ولم يفتقر إلى الله، ومن افتقر إلى الله استغنى به، واستغنى عن الدنيا، ومن لم يفتقر إلى الله، استغنى عنه، وافتقر إلى الدنيا، فخسر دنياه وأخراه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢١].

ولا يشعر العبد بحلاوة الافتقار إلى الله إلا إذا عرف ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتخلص قلبه من الافتقار إلى الدنيا، ومن الحرص عليها وكنزها، والبخل بها، والشح بها: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

فالذي خلق الدنيا بيّن حقارتها، فأعرِض عنها، وتوكل على الله وحده: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحرص عليها هو شدة الاهتمام بتحصيلها إذا فقدت، والبخل بها إذا وجدت، واللهث في طلب المزيد منها كل وقت: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠-٢١].

والكنز هو كل مال لا تؤدى زكاته، فكل مال لاتؤدى زكاته فهو مال مكنوز، سيعذب به صاحبه يوم القيامة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

والبخل هو إمساك المال عن إنفاقه فيما أوجب الله من الزكاة، وصلة الرحم، والإنفاق على الأهل والأولاد، والآباء والأمهات ونحوهم، والإنفاق في سبيل الله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ

فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ [محمد:٣٨].

وأشد من البخل أمر الناس بالبخل: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ [النساء:٣٧].

والشح هو تطلع الإنسان إلى ما ليس في يده، والافتقار إلى الدنيا دون الافتقار إلى الله العظيم.

فالبخل هو إمساك ما يملك، والشح هو طلب ما لا يملك، والشح لو كان في الحلال لكان مذمومًا، لأنه يؤدي إلى إشغال العبد بالدنيا، والانصراف عن طاعة الله، ولا يزال الشح يقوى عند بعض الناس إلى أن يدفعه إلى سفك الدماء، واستحلال ما حرم الله.

قال النبي ﷺ: « اتقوا الظلم وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» أخرجه مسلم (١).

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٨).

٤ - درجات الافتقار إلى الله ﷻ

الافتقار إلى الله ﷻ على خمس درجات :

الأولى: أعظم الافتقار إلى الله الافتقار إلى هدايته إلى الصراط المستقيم كما قال سبحانه عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف:٤٣].

فينبغي على العبد أن يعلم أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، وأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا فليفتقر إلى الله في جميع أموره: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر:١٥].

ويطلب أعظم المطالب من ربه، وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، التي تطلبها من الله في كل ركعة من الصلاة كما قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة:٢-٧].

الثانية: الافتقار إلى الله في أداء الطاعات، فيرى العبد أن التوفيق إلى الطاعات من توفيق الله وعونه له، ولا يمنّ بالعمل على الله، ولا ينسب العمل إلى نفسه بل ينسبه إلى فضل الله وتوفيقه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾ [النحل:٥٣].

ولا يمنّ بالعلم على الخلق، ولا يرى نفسه فوقهم، ولا يطلب منهم على تعليمه وإحسانه وإنفاقه شيئاً من الدنيا، بل يقول: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود:٨٨].

ويطلب الأجر من الله وحده: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)﴾ [سبأ:٤٧].

الثالثة: الافتقار إلى الله في الثبات على الدين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[آل عمران:٥٣].

وقال النبي ﷺ: «يا مقلّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبِي على دينِك»أخرجه أحمد والترمذي(١).

الرابعة: الافتقار إلى الله في قبول الأعمال الصالحة منه، وذلك من أرجى الأعمال كما قال إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام عند بناء الكعبة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[البقرة:١٢٧].

الخامسة: الافتقار إلى الله أن يثيبه على عمله، فالله هو الكريم الذي منّ علينا بالدين، وهو الذي يسر لنا العمل به، وهو وحده الذي يملك الجزاء عليه :﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾[الحج:١٤].

لهذا يجب على العبد أن يشعر نفسه بعدم قدرته على فعل الطاعات، وأنه ما فعلها إلا بأقدار الله له، وتوفيقه له، وإعانته عليها، وحتى إن فعلها فلا يستحق بها الجنة، وأنه فقير لن يدخل الجنة إلا بفضل الله ورحمته لا بعمله، فهو فقير إلى الله في كل شيء، في فعل الطاعات، وفي ثواب الطاعات، ففعل الطاعات سبب لدخول الجنة، لا موجبًا لها.

قال النبي ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا : وَلَا أَنْتَ ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»متفق عليه (٢).

---

(١)صحيح: أخرجه أحمد برقم (١٣٦٩٦) والترمذي برقم (٢١٤٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٣) ومسلم برقم (٢١٤٠).

٥- علامات الافتقار إلى الله ﷻ

الافتقار إلى الله عز وجل له علامات، وحقيقة الافتقار إلى الله أن يجرد المؤمن قلبه من كل حظوظ النفس وأهوائها، ويقبل بكليته إلى ربه، متذللاً بين يديه، مستسلمًا لأمره ونهيه، متعلقًا قلبه بربه، مجردًا لله محبته وعبوديته :﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣].

والافتقار إلى الله وحده هو روح العبادات القلبية والعملية، وبقدر افتقار القلب فيها إلى الله يكون أثرها في قلبه، ويعم نفعها له في الدنيا والآخرة :﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[الملك:١٢].

والافتقار إلى الله في كل حال حادٍ يحدو العبد إلى التعلق بالله وحده، ولزوم تقواه، ودوام طاعته، ويتحقق ذلك بأمرين :

الأول: مشاهدة عظمة الله جل جلاله، وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله، وكمال قدرته، وعظمة جبروته :﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

الثاني: مشاهدة ضعف المخلوق، وعجزه، وحاجته إلى ربه:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر:١٥].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[الإنسان: ٢-٣].

ومن علامات الافتقار إلى الله عز وجل:

التعلق بالله وحده، وبكل ما يحبه ويرضاه، فشعور العبد بفقره وحاجته وفاقته إلى ربه يدفعه إلى الوقوف ببابه، والاستغاثة به، والاستكانة إليه، والإنابة إليه، ورفع الشكوى إليه وحده،والإكثار من ذكره وحمده، والثناء عليه، والحرص على ما يرضيه، والمسارعة إلى فعل محبوباته: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر: ٦٥].

وعلامات صدق الافتقار إلى الله هو السلامة من الدنيا طلبًا وتركًا، فهو لا يطلب الدنيا، ولا ينافس فيها، لأنه يراها لا تساوي شيئًا، وإذا تركها لا يشعر أنه ضحّى بشيء له قيمة يحزن عليه.

فالسلامة من الدنيا هي ألا ينافس في عزها، ولا يجزع من ذلها، ولا يحزن على ما فاته منها، ولا يفرح بما نال منها فرح العجب والغرور، ولا ينسب ما حصل منها إلى فعله وكسبه، بل ينسبه إلى فضل الله وكرمه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل: ٥٣].

ومن صدق في افتقاره إلى الله أظهر له حقيقة الدنيا الفانية، وحقيقة الآخرة الباقية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[العنكبوت: ٦٤].

ومن رأى الدنيا جيفة، ورأى الضباع تتنافس عليها، امتنع عن منافستهم فيها، ونأى بنفسه عن التكالب عليها، وسارع إلى ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الصالحة: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ

فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠-٢١].

ومن صدق في افتقاره إلى الله تجاوز المحبوب الأدنى إلى المحبوب الأعلى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

اللهم يا حي ياقيوم اغفر لنا وارحمنا، يا أرحم الراحمين.

ياحيياقيوم برحمتك نستغيث، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

٦-ثمرات الافتقار إلى الله ﷻ

الأولى: الشوق إلى لقاء الله، والمسارعة إلى الخيرات :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[المؤمنون:٥٧-٦١].

فإذا شاهد قلب العبد عظمة ملك الله وغناه، وشاهد فقر جميع الخلائق إليه في كل حال، رغبت نفسه واشتاقت للقاء الله .

وكلما رجا العبد لقاء الله استعد للقائه، واجتهد لنيل رضاه وثوابه :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾[فاطر:٢٩-٣٠].

فاجتهد يا عبد الله للقاء الله بالمواظبة على فعل الطاعات التي تنال بها أعلى الدرجات :﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف:١١٠].

وقال النبي ﷺ: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك» أخرجه أحمد والنسائي [(١)].

الثانية: الاستغناء عن الخلق، والاستغناء بالله وحده: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات:٥٠-٥١].

---

(١) صحيح: أخرجه احمد برقم (١٨٣٥١) والنسائي برقم (١٣٠٥) .

فمن رأى أن الدنيا متاع الغرور أبعد عنها، وسارع إلى طاعة الله ورسوله، وسابق إلى كل عمل صالح، ونافس في نيل الدرجات العلى من الجنة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

الرابعة: الفرح بطاعة الله، فمن عرف الله حقا افتقر إليه وحده، وفرح بكل ما يحبه ويرضاه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨].

الخامسة: الزهد في الدنيا، والسلامة منها طلباً وتركاً، فهو لا يطلب الدنيا، ولا ينافس فيها، لأنه يراها لا تساوي شيئاً، وإذا تركها فإنه لا يشعر أنه ضحى بشيء له قيمة يحزن عليه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠-٢١].

والسلامة من الدنيا أن لا ينافس في عزها، ولا يجزع من ذلها، ولا يحزن على ما فاته منها، ولا يفرح بما نال فيها فرح العجب والغرور، ولا ينسب ما حصل له منها إلى فعله وكسبه، بل ينسبه إلى فضل الله وكرمه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل:٥٣].

ومن صدق في افتقاره إلى الله أظهر له حقيقة الدنيا الفانية، وحقيقة الآخرة

الباقية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ومن رأى الدنيا جيفة، ورأى الكلاب تتنافس عليها، امتنع عن منافستهم فيها، ونأى بنفسه عن التكالب عليها، وأقبل على طاعة ربه ومولاه، ونيل ثوابه ورضاه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال الله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٦].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الحادية والعشرون

عبادة التسليم لله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه التسليم لله ﷻ.

الثاني: منزلة التسليم لله ﷻ.

الثالث: فضائل التسليم لله ﷻ.

الرابع: علامات التسليم لله ﷻ.

الخامس: تفاوت الناس في التسليم لله ﷻ.

السادس: الأسباب المعينة على التسليم لله ﷻ.

العبادة الحادية والعشرون

عبادة التسليم إلى الله عز وجل

١ - فقه التسليم لله عز وجل

التسليمُ والاستسلامُ لله عز وجل هو الانقياد والخضوع والإذعان التام لله عز وجل، والتسليم التام لأمره وقضائه، والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

والتسليم والاستسلام لله عز وجل من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن موجبات الإيمان بأسماء الملك العزيز الجبار، القوي القادر القهار.

فالله سبحانه هو الملك الذي له ملك كل شيء، وهو العزيز الذي ذل له كل شيء، وهو الجبار الذي جبر مخلوقاته على ما أراد، وهو القوي القادر القهار الذي قهر كل شيء على ما أراد، من جماد ونبات، وإنسان وحيوان، وملائكة وجان: ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤].

وهو الملك الذي بيده الخلق والإبداع، وبيده التدبير والتصرّف، وبيده الحياة والموت، وبيده العِزّة والذلّة، لاراد لقضائه، ولا مُعقِّب لحكمه، وهو على كل شيء قدير: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فسبحان القوي القادر الذي لا يقفُ له شيء، ولا يمتنعُ عليه شيء، ولا يفرُّ منه شيء، ولا يغيب عنه شيء: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر: ٦٥].

والتسليم والاستسلام لله عز وجل شرطٌ في صحة إيمان العبد، وبدونه لايدخلُ العبد في الإسلام: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء:٦٥].

والإسلام والتسليم والاستسلام معناها واحد، هو الانقياد والإذعان، والخضوع والقبول من الإنسان لمِا يَرِدُ عليه من ربه من حكم كوني من قضاءٍ وقدر، ومن حُكمٍ شرعيّ من أمرٍ ونهي: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[لقمان:٢٢].

وأصول الإيمان بالله عز وجلّ أربعة:

التوكل على اللهوحده .. وتفويض الأمور إليه .. والرضا بقضاء الله وقدره .. والتسليم لأمر الله الشرعيّ.

وهذه الأربعة هي أعظم مقامات العبودية

فالتوكل هو جعل العبد ربه وكيلاً عنه وله، يقوم بمصالحه وتدبير أموره: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣].

وقال ﷻ: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣].

والتفويضهو الاعتراف بعدم الحول والقوة إلّا بالله، وردَّ كلّ فعلٍ حسنٍ إلى الله وحده: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣].

وقال ﷻ: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾[النساء:٧٩].

والرضاهو موافقةُ الطبعِ لكل ما يفعله الله جل جلاله به، والسكون تحت مجاري القضاء والقدر والشرع، والرضا باختيار الله للعبد من محبوبٍ أو مكروه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ (٨)﴾
[البينة:٧-٨].

والتسليمهو مُطاوعة العبد المحضة لما يريده الله فيه ومنه في كل حال:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا (٦٥)﴾[النساء:٦٥].

ولا تَثْبتُ قدم الإسلام لأحد، إلا على ظهر التسليم والاستسلام لله الواحد القهار، والإذعان لله وحده والتسليم لأمره: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾[الحج:٣٤-٣٥].

ولا تحصل الطُمأنينة للعبد إلّا بمعرفة العبد لله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، والسكونُ إلى تدبيره، والطمأنينة بذكره:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ (٢٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ (٢٩)﴾[الرعد:٢٨-٢٩].

والتسليم لله عَجَّلَّ في أقداره الكونية، وأوامره الشرعية، هو أعظم عبادات القلوب، ولإظهار هذه العبودية من العبد يبتلي الله بعض عباده بأنواع من المصائب و البلايا، ليعلم مدى تسليم العبد لله، وتفويض أموره إليه، والتسليم لكل ما قضاه الله وقدّره عليه، فإن صَبرَ العبد، وسلّم لأمر ربه، نال من ربه أعظم الثواب، وفاز برحمة الله، وكمال الهداية:﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ (١٥٧)﴾
[البقرة:١٥٥-١٥٧].

والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أعظم من استسلمَ لله عز

وجلّ، وأذعن لحكمه، وانقاد لأمره، وفوّض أموره إليه، وأحسن التوكل عليه، لكمال معرفتهم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

هذا آدم ﷺ يقول لربه بعد معصيته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهذا نوح ﷺ ينادي ربّه بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

وهذا خليل الرحمن إبراهيم ﷺ يُعلن كمال التسليم لربّه العظيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٢].

وقد حقق إبراهيم ﷺ إسلامه وتسليمه لله ولأمره عمليًّا، حين أمره الله بترك زوجه هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع، كما قال الله عز وجل: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وحين رأى في المنام أنه يذبح ابنه اسماعيل، الذي تعلّق قلبُه بحبِّه، فسلَّم لأمر ربه، وباشر الذّبح امتثالًا لأمر ربه، كما قال الله ﷻ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ

﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات:١٠١-١١٠].

ورسول الله ﷺ أصدقُ الخلقِ إيمانًا، و أعظم الناس تسليمًا لله ولأمره: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

وأصحاب النبي ﷺ أصدق الناس بعد الأنبياء تسليمًا لله ورسوله، كما قال الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٤].

وكلّ عبدٍ سلَّم أمره لله عز وجلّ، وفوّضَ أموره إليه، وتوكّل عليه وحده، وامتثل أوامره، واجتنبَ نواهيه؛ أكرمه اللهُ بما يسُرُّه، وصرفَ عنه ما يضرُّه، وأسعدهُ في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

إن التسليم لله ربّ العالمين، والانقياد لأمره؛ أعظم أصول الإيمان، وأكبر دلائل الإحسان، وأقوى ثوابت الإيمان، بل التسليم لله هو الدينُ كلهُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

التسليم لله رب العالمين هو الانقيادُ والخضوعُ والإذعانُ لله ﷻ، والانقياد لأمره، والرضا بقدره وشرعه، واليقين بحسن اختياره، ولا يحقّق المؤمن كمالُ التسليم

لله عز وجل إلّا إذا عرفَ ربهُ بأسمائه وصفاته وأفعاله، وأحسن الظنّ به، وعلِمَ أن الله لم يشرع إلّا الخير الأكمل، وأنّ قدره لعبده كُلّهُ خير، وبهذا يرضى ويُسلِّم وينقاد لكل ما أمره الله ورسوله به: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وإذا امتلأ قلب العبد إيمانًا وتصديقًا، أثمرَ كمال التسليم والانقياد لله ﷻ، وأثمرَ توحيد الله، ومحبته، وتمجيده، وتفويض الأمر إليه وحده، وأثمرت جوارحهُ فعل كلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، وانشرح صدرهُ، ورضي بقضاء الله وقدره، وحكمِه وشرعه: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وكلّ المخلوقات التي خلقها الله ﷻ من العرش العظيم إلى أصغرِ ذرة جميعُها قد فطرها الله على التسليم، والإذعان، والانقياد لله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

فسبحان من جميع مخلوقاته شاهدة بوحدانيته، وساجدة لعظمته، ومتصاغرة لكبريائه، وخاضعة لأمره، ومسرعة إلى إرادته: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

فالتسليمُ لله إذعانًا وخضوعًا وانقيادًا فطرة الله التي فطر عليها جميع المخلوقات: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

٢ - منزلة التسليم لله ﷻ

الدنيا دارُ الإيمان، والابتلاء، والعمل، ودارُ الفتن، والرزايا، والمصائب: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وهذه الفتن والمصائب والابتلاءات لا يَسْلَمُ منها أحد، ولو تَرك العبدُ نفسه أمام أمواج الابتلاءات والفتن بلا سلاح يتسلّح به، ودرعٍ يتحصن به، لخارَ وهلك: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

ولو ترك العبد نفسه بلا إيمانٍ نقيّ، وقلبٍ قويّ، وصبر قوي، ورضاً سخيّ، لأكلته الهموم والأحزان، وعصَفت به الفتن، وابتلعته شدة الابتلاءاتِ والمصائب: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ومن رحمة أرحم الراحمين أن خلق الإنسان ضعيفًا، ليحتمي بربه القوي، وخلقه عاجزًا، ليستعينَ بربه القادر على كل شيء، وخلقه جاهلًا، ليتعلم من ربه العليم بكل ما يصلح أحواله في الدنيا والآخرة، وخلقه فقيرًا، ليقف ببابِ ربه الغنيّ، ولا يذلّ نفسه لأحدٍ سواه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥].

لهذا فإن من أعظم أسباب قوّة قلبِ العبد، ورسوخِ يقينه، وتمام رضاه؛ أن يعرف ربه بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، وأفعاله الحميدة، ليؤمن بالله الملك العزيز الجبّار، ويستسلم لله عز وجلّ في أمره ونهيه، ويستسلم لربه في قضائه وقدره، فالمُلك مُلكه، والخلق خَلقه، والأمر أمره، وهو المَلكْ وكلُّ ما سواه مُلكٌ له: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٤].

وهو وحده المَلك القادر على كل شيء، القوي الذي بيده وحده التصريفُ والتدبيرُ والتقدير: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك:١].

فلا إله إلا الله ما أعظم ملكه، وما أحسن خلقه، وما أعظم تدبيره: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

فسبحان من أظهر كمال قدرته في عظمة مخلوقاته: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

ومن عرف ربه حقاً آمن به حقاً، وسلَّم لأمره حقاً: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

ومن عرفَ ذلك عن ربّه القويّ القادر القهّار، الملك العزيز الجبّار، آمن بالله وحده، وعَبدَه وحده، وفوّضَ أموره إليه وحده، وتوكّل عليه وحده: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

ومن غابت عنه هذه الحقائق العظيمة، أشغلهُ الشيطان بزخارف الدنيا، والاستمتاع بشهواتها، ولم يَصمد قلبه أمامَ أي فتنةٍ أو شدة أو ابتلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٧-٩].

فالله بين الحق من الباطل، ورغب الناس في الحق، وحذرهم من الباطل، ولكل جزاؤه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

فالله عز وجلوحده بيده مقاليد الأمور كلها، وبيده المفاتيح كلها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

والربُ الذي هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله، هو الربُ العظيم الذي يجب على العبيد التسليم له، والاستسلام لأمره، فإن هذا هو عزّ الدنيا، وجنّة الآخرة، والسلامة من العذاب: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾[لقمان:٢٢-٢٤].

والإسلام هو الانقياد والإذعان لله عز وجل، والتسليمُ هو الانقيادُ والإذعانُ لله الواحد القهار، مع كمالِ الحبِ والتعظيمِ والذلّ له؛ إذعان القلبِ وانقياده لربه بالتوحيدِ والإيمانِ والتقوى، وإذعان اللسان وانقياده بالإقرارِ بكلمة التوحيد، وكثرةِ ذكرِ الله، وإذعان الجوارح وانقيادها لله عز وجلّ بكمالِ الطاعة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥-١٧].

وقال ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[البقرة:١١٢].

فالتسليمُ والاستسلامُ لله جلّ جلاله هو روحُ الإسلام، بل هو الإسلام كلّه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[البقرة:١٣٠-١٣٢].

والتسليمُ لله من أوجبِ الواجبات وأعظم القُربات، وهو ثمرةُ معرفةِ الله بأسمائِهِ وصفاته وأفعاله:﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

وهو مبنى العبودية لله وحده، والإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليومِ الآخر، والقدر خيره وشره كل ذلك قائمٌ على التسليمِ لله ولأمره، وعدم الخوض في تفاصيل الحِكمة في الأوامرِ والنواهي والشرائع:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلۡنَا مَنسَكًا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الحج:٣٤-٣٥].

فيجبُ على المؤمن الإذعانُ والانقيادُ والتسليمُ لله ولأمره القَدري والشرعي، سواءً عرِفَ الحكمة منه أم لم يعرفها:﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[البقرة:٢٨٥].

فأوامر الحكيم سبحانه كلها موجبةٌ للتسليم والانقيادِ والإذعان لله عز وجلّ، مانعةٌ من الاختيار، مقتضيةٌ للطاعةِ التامة في كل أمرٍ ونهي:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب:٣٦].

والتسليمُ لله ورسوله، والانقياد لحكمهما، ليس فقط من قبيل فضائل الأعمال؛

بل هو أمرٌ حتمٌ لازمٌ موجهٌ إلى كل مسلمٍ ومسلمةٍ، وذلك لأن التسليمَ لأمرِ الله ورسوله من شروطِ الإيمان، وعدم التسليم لحكم الله ورسوله كفرٌ يُخرجُ العبدَ من الملّة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء:٦٥].

وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[النساء:١١٥].

فالتسليم لله ورسوله من صفات المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[النور:٥١].

وعدم التسليم لله ورسوله من صفات المنافقين، كما قال الله عنهم: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[النور:٤٨-٥٠].

والتسليم والاستسلام لله عز وجلّ هو أعظم سببٍ لزيادة إيمان العبد، وتزكيته، ورفع درجته عند مولاه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾[النساء:١٢٥-١٢٦].

والذي أسلم وجهه لله هو الذي آمن بالله ﷻ وأطاعه، وأذعن لأمره، وانقاد لشرعه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج:٣٤-٣٥].

والتسليم والاستسلام لله ﷻ، والانقياد لشرعه، هو أعظم سبب للفوز برضوان الله والجنّة، والنجاة من عذاب الله وسخطه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٢-٢٤].

اللهم ربنا سمعنا وأطعنا، وأسلمنا وجوهنا إليك: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

٣- فضائل التسليم لله ﷻ

الأولى: إذا استسلم العبد لربه جبره الله، وأعلى قدره، وتقبّل عمله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان: ٢٢-٢٣].

الثانية: من ذلّ لربّه، وانكسر قلبه بين يديه، أعزّه الله، وتقبّل عمله، وأجزل ثوابه، فالعبادات كلّها لا تُقبل إلّا بكمال الحب والتعظيم، والذلّ لله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

الثالثة: من استسلم لله ولأمره؛ هدى الله قلبه، وثبّت فيه الإيمان: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

الرابعة: من استسلم لله انقاد لعبادته، وتواضع لكبريائه، وسبح بحمده، ونال عظيم ثوابه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

الخامسة: من استسلم لله عز وجلّ أكرمه الله بأعلى درجات الجنة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

٤ - علامات التسليم لله ﷻ

علامات التسليم لله ﷻ كثيرة، وأعظمها التوكل على الله وحده، وتفويض الأمر إلى الله وحده، وامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، والحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، والعطاء لله، والمنع لله، والكلام لله، والسكوت لله، وطاعة الله ورسوله، وكثرة ذكر الله وحمده، والفرح بعبادته والأُنس بمناجاته، والمسارعة إلى كلّ ما يحبه ويرضاه، والبعد عن كلّ ما يكرهه الله ويسخطه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

ومن علامات التسليم لله ﷻ القنوت بين يدي الله، والوقوف عند حدوده، والخشية له، والخوف منه، والإنابة إليه، والتوبة إليه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

٥- تفاوت الناس في التسليم لله ﷻ

جميع المخلوقات في العالم العلوي، والعالم السفلي، شاهدةٌ بوحدانية الله، وخاضعةٌ لأمره، ومستجيبةٌ لمشيئته ، ومسرعةٌ إلى إرادته، ومسبحةٌ بحمده، وساجدةٌ لعظمته، وأنت أيها العبد! كما سلّمت لأمر الله القدري، فيجب أن تُسلّم لأمره الشرعي، وتسجد مع الساجدين لله في العالم العلوي، والعالم السفلي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

وجميع الخلائق التي خلقها الله خاضعة لأمره، ومتصاغرةٌ لكبريائه، وذليلةٌ لعزته، ومسخرة لخلقه : ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠].

وجميع المخلوقات مقهورة بأمر الله الكوني قسرًا، والمؤمنون خاصة يستسلمون لأمر الله الشرعي طوعًا: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

فمن أقرّ أنه لا يستطيع الخروج عن أمر الله الكوني قسرًا، فلا يخرج عن أمر الله الشرعي طوعًا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان:٢٩-٣١].

ويتفاوت الناس في الاستسلام لله، والذل له، والخضوع له، بحسب علمهم وإيمانهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

وأقوى الناس إيمانًا أشدهم استسلامًا لله، وأقواهم عبادة، وأعظمهم ثوابًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وأعقل الناس من استسلم لله ولأمره، وأجهل الناس من أعرض عن الله وعن أمره: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

٦ - الأسباب المعينة على التسليم لله ﷻ

الأول: العلم بالله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، وأفعاله الحميدة، ومعرفة صفات جلاله وجماله، ومعرفة عظمة ملكه وسلطانه، ومعرفة عظمة نعمه وإحسانه، ومعرفة وعده ووعيده: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

فمن عرف ربه حقاً آمن به وأحبه، ومجده وكبره، وسلَّم لأمره.

الثاني: معرفة عظمة الله وجبروته، وعظيم قدرته وقهره، وعظيم قوته وبطشه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

وإذا عرفتم ذلك آمنتم بالله وحده، وسلّمتم له ولأمره، وفزتم برضوانهوجنته.

الثالث: النظر والتدبر في الآيات والمخلوقات العظيمة التي خلقها الله في هذا الكون العظيم: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق:٦-٨].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

الرابع: التفكّر والتدبّر لآيات الله القرآنية، وما فيها من الأخبار الصادقة والأحكام العادلة، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

وقال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

ومن عرف ذلك آمن بالله، واستسلم لأمره، وأخلص له العبادة .
الخامس: سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم في كل وقت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٧].

ومن طلب الهداية من ربه فتح له أبواب الهداية إلى معرفته جلّ جلاله، والعمل بشرعه، والتسليم لأمره: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

السادس: مطالعة سيرة الأنبياء والمرسلين للاقتداء بهم في توحيدهم وإيمانهم، ويقينهم وتقواهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا في من عافيت، وتولنا في من توليت، وقنا برحمتك واصرف عنا شرَّ ما قضيت، إنك تقضي ولا يُقضَى عليك.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣].

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثانية والعشرون

عبادة القنوت لله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول :فقه القنوت لله ﷻ.

الثاني : منزلة القنوت لله ﷻ.

الثالث : أنواع القنوت .

الرابع : أعظم الخلق قنوتا لله ﷻ.

الخامس : الأسباب المعينة على القنوت لله ﷻ.

السادس : ثمرات القنوت لله ﷻ.

العبادة الثانية والعشرون

عبادة القنوت لله ﷻ

١ - فقه القنوت لله ﷻ

القنوت لله عز وجل هو الخضوع والاستكانة، ودوام الطاعة لله ﷻ، وطول القيام بين يدي ملك الملوك بكمال الحب والتعظيم والذل له: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

فالقنوت لله، وحسن الطاعة له، والإكثار من ذكره، وحمده، واستغفاره، كل ذلك ثمرة من أعظم ثمرات العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

والقنوت لله ﷻ عبادة من عبادات القلوب، ويطلق القنوت على دوام العبادة لله، والدعاء، وطول القيام بين يدي الرب ﷻ، والخشية له، والخشوع لعظمته، ودوام الطاعة لله، والانكسار بين يديه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم:٢٥-٢٧].

والقنوت في الصلاة هو الخشوع، والخضوع، والسكوت، وعدم الكلام ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

والقنوت لله ﷻ هو الطاعة التامة لله ورسوله، والاستجابة لله ورسوله ﷺ في كل حال، والإقرار بالعبودية لله وحده، والخشية لله، وإخلاص العبادة له، والاستكانة إليه، والخشوع بين يديه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ

لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾[المؤمنون:١-١١].

والقنوت لله عَزَّوَجَلَّ ثمرة معرفة الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة.

فمن عرف الله حقا، آمن به حقا، وقنت له حقا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[الزمر:٩].

والكون كله بما فيه من الخلائق العظيمة قانت لله، مطيعٌ لمن خلقه، خاشعٌ لعظمته، ذليل لعزته، متصاغر لكبريائه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾[البقرة:١١٦].

والقنوت لله عز وجل من أعظم صفات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكمال معرفتهم بالله، وكمال معرفتهم بحقوقه، وعظمة حبهم له: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل:١٢٠-١٢٢].

وقد وعد الله عز وجل أمهات المؤمنينرضي الله عنهن وأرضاهنبالأجر المضاعف، والرزق الكريم، إذا أطعن الله ورسوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[الأحزاب:٣١].

والقنوت لله عَزَّوَجَلَّ من صفات المؤمنين والمؤمنات، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾
[الأحزاب:٣٥].

والقنوت لله ﷻ من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله الملك، العزيز، الجبار، القوي، القادر، القهار، السميع، البصير، العليم، الخبير، المؤمن، الرقيب، الشهيد، القدوس، اللطيف :﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

فمن آمن أن ربه الملك القادر على كل شيء، العزيز الذي ذل له كل شيء، القوي الذي لا يقف له شيء، السميع لكل شيء، آمن بربه العظيم، وقنت له، وداوم على طاعته وعبادته: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء: ٤٣ – ٤٤].

ومن عرف أن ربه البصير بكل شيء، الخبير بكل شيء، الرقيب على كل ذرة في الكون، الشهيد الذي لا يخفى عليه شيء، الغني الذي لا يحتاج إلى شيء.

فمن عرف ذلك كله آمن بالله العظيم، وسلم لأمره، وقنت بين يديه، وأطاع أمره، واجتنب نهيه، وانقاد لحكمه، وتوجه إليه وحده في جميع أموره، ولم يلتفت لأحد سواه، وأخلص له العبادة وحده دون سواه :﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥].

ومن عرف الله حقا آمن به، وأحبه، وقنت له، وامتثل أمره بكمال الحب والتعظيم والذل له :﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩].

والقنوت في النوازل سنة نبوية فعلها النبي ﷺ وهو الدعاء في النوازل التي تنزل بالمسلمين أحيانا، فيقنت بهم الإمام، لدفع أذى عدو، أو رفع بلاء، أو وباء، أو قحط، أو عطش، أو جوع،أو خوف، أو ضرر ونحو ذلك من الشدائد والكوارث.

فيقنت الإمام في الصلوات الخمس بعد الرفع من الركوع في الركعة الأخيرة أو

قبل أن يركع، ويدعو على الكفار الظالمين المعتدين، ويدعو للمسلمين برفع البلاء عنهم، وزوال المكروه عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[البقرة:١٥٣].

وقال النبي ﷺ في دعاء القنوت في النوازل: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بنَ أبي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بنَ هِشامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطْأَتَكَ على مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْها عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» متفق عليه [(١)].

فالقنوت في النوازل يكون بعد الرفع من الركعة الأخيرة من الصلوات الخمس وأحيانا قبلها ، أما القنوت في صلاة الوتر فيكون في الركعة الأخيرة من صلاة الوتر أو التراويح أو التهجد بعد الرفع من الركوع .

ومن دعاء القنوت في صلاة الوتر، ما قاله النبي ﷺ للحسن بنعلي: «اللَّهمَّ اهدِني فيمن هديت، وعافِني فيمن عافيتَ، وتولَّني فيمن تولَّيتَ، وبارِك لي فيما أعطيتَ، وقني شرَّ ما قضيتَ، إنَّكَ تقضي ولا يقضى عليْكَ، وإنَّهُ لا يذلُّ من واليتَ، ولا يعزُّ من عاديتَ، تبارَكتَ ربَّنا وتعاليتَ» أخرجه أبو داود والترمذي[(٢)].

ويستفتح أحيانا قنوته بما ثبت عن عمر رضي الله عنه وهو: «اللَّهمَّ إيَّاكَ نَعبُدُ، ولَكَ نصلِّي ونَسجُدُ وإليكَ نَسعى ونَحفِدُ، نَرجو رَحمتَكَ، ونَخشى عذابَكَ، إنَّ عذابَكَ بالكافِرينَ مُلحِقٌ، اللَّهمَّ إنَّا نَستعينُكَونَستغفِرُكَ، ونُثني عَليكَ الخيرَ، ولا نَكفرُكَ، ونؤمنُ بِكَ، ونخضَعُ لَكَ، ونَخلَعَ مَن يَكْفرُكَ» أخرجه البيهقي وعبد الرزاق[(٣)].

ومن ذلك: «اللَّهمَّ أعوذُ برِضاكَ مِن سخَطِك وبعفوِك مِن عقوبتِك وبك منك لا أحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ» أخرجه مسلم[(٤)].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣٩٣)، ومسلم برقم (٦٧٥) .

(٢) صحيح: أخرجه أبو داودبرقم(١٤٢٥)، والترمذي برقم (٤٦٤).

(٣) **صحيح: أخرجه** البيهقي برقم (٣١٤٢)، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٤٩٦٩).

(٤) **صحيح: أخرجه** مسلم برقم (٤٨٦) .

٢ – منزلة القنوت لله ﷻ

القنوت لله ﷻ من العبادات القلبية العظيمة ، وهو ثمرة الإيمان بالله ﷻ.

والقنوت من العبادات القلبية التي تثمر كمال الطاعة لله ﷻ، وفعل كل ما يحبه الله ويرضاه، واجتناب كل ما يبغضه ويكرهه، والاستقامة على أوامره، ودوام طاعته: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

والقنوت لله ﷻ من صفات الأنبياء والمرسلين، ومن صفات الأولياء الصالحين: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وقال ﷻ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم:١٢].

والقنوت لله ﷻ، والخضوع له، من أعظم صفات الخلائق في العالم العلوي، والعالم السفلي: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم:٢٦].

والقنوت هو عبودية جميع الخلائق في العالم العلوي، والعالم السفلي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

فكن أيها المسلم من القانتين لربك العظيم، المسبحين بحمده، الذاكرين له، المستغفرين له، الملتزمين بدوام طاعته، تنال من ربك الأجر العظيم في جنات

النعيم: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ
ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ
جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ
وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ
بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٤-١٧].

٣- أنواع القنوت

القنوت لله عز وجل من جميع المخلوقات ستة أنواع :

الأول: طاعة جميع المخلوقات لربها العظيم، وإذعانها لمشيئته وقدرته وقهره، وقنوتها له، فكل شيء مصرف بأمر ربه ومشيئته :﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾[البقرة:١١٦-١١٧].

الثاني : ما يشعر به القانت، وهو اعتراف العبد بأن له رباً خلقه ورزقه وهداه : ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾[الأعراف:١٧٢].

الثالث :أن بعض الناس يضطرون إلى الله وقت حاجتهم فيسألونه، ويخضعون له، ويدعونه، ويقنتون له، ثم إذا كشف الضر عنهم نسوه وأعرضوا عنه : ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت:٦٥].

الرابع : أن الله عز وجل أرسل الرسل، وأنزل الكتب بالدين الحق، فلا بد للخلق من القنوت والطاعة لله في كثير من الأوامر، وإن عصوه في بعضها، فهم مسلمون لله، ساجدون له طوعا وكرها : ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾[الرعد:١٥].

فلا يستطيع أحد الخروج عن فطرة الله،وتقديره،وتدبيره،وملكه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾[النحل:٤٩ -٥٠].

وقال عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

الخامس : خضوع الناس لجزائه لهم في الدنيا والآخرة، فكل الخلق قانتون لجزاء الله يوم القيامة، مستسلمون لحكمه،قانتون لله في جزائهم على أعمالهم،والمصائب التي تصيبهم في الدنيا جزاءً على أعمالهم : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[الشورى: ٣٠].

وقال ﷻ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن: ١١].

السادس :قنوت المؤمنين بين يدي ربهم بدوام طاعته في كل حال، وامتثال ما أمر به في كل حال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[الأحزاب:٣٥].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥-١٧].

٤ - أعظم الخلق قنوتا لله عز وجل

كل مخلوقات الله ﷻ شاهدةٌ بوحدانيته، وقانتةٌ له، وساجدةٌ لعظمته، ومسبحةٌ بحمده، ومتصاغرةٌ لكبريائه، ومستجيبةٌ لمشيئته، ومسرعةٌ إلى إرادته: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الروم:٢٦].

وأعظم الناس قنوتا لله عز وجل هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لكمال معرفتهم بالله، وكمال حبهم له، وكمال خوفهم منه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وقال عز وجل عن الأنبياء والرسل: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠].

ثم الصالحون من المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران:١٦-١٧].

وأعظم المؤمنين قنوتا لله عز وجل هم العلماء الربانيون: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر:٩].

فالعلماء هم أعرف الخلق بالله، وأعرفهم بما يجب له، وأعرفهم بما عنده: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

فمن عرف الله حقاً اتقاه حقاً، وقنت له حقاً، وتوكل عليه حقاً: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

اللهم اجعلنا من عبادك القانتين، وحزبك المفلحين، و أوليائك الصادقين .

٥- الأسباب المعينة على القنوت لله عَزَّ وَجَلَّ

الأول: العلم بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الكبرى .

ومن عرف ذلك حقا آمن بربه حقا، وقنت لله حقا :﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩].

الثاني: النظر في آيات الله الكونية في العالم العلوي، والعالم السفلي .

فمن عرف عظمة المخلوقات تجاوزها إلى الخالق العظيم، ومن عرف الصور تجاوزها إلى المصور سبحانه، ومن عرف الأرزاق تجاوزها إلى الرازق عز وجل، ومن عرف الله آمن به، وقنت له، وداوم على طاعته، وأخلص له العبادة وحده لا شريك له :﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[البقرة:١٦٤].

الثالث : تدبر آيات الله القرآنية، وما فيها من صدق الأخبار، وحسن الشرائع، وبيان أسماء الله وصفاته وأفعاله، وبيان الوعد والوعيد، وصفة الجنة والنار، والثواب والعقاب، ومن عرف ذلك آمن بالله وأحبه ومجده، وخافه ورجاه، وقنت له، وأخلص العبادة له وحده لا شريك له، وأسرع إلى كل ما يحبه الله ويرضاه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر:٩].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩].

الرابع : العلم بضعف العبد، وفقره، وعجزه، وتقصيره وجهله، وأنه محتاج إلى من يقضي حوائجه، ويدبر أموره : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر:١٥].

ومن عرف ذلك آمن بربه العظيم، وقنت له، وداوم على عبادته وطاعته، ووقف ببابه، وسأله من فضله، واستغفره من ذنبه، وسارع إلى فعل كل ما يحبه الله ويرضاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

الخامس: مطالعة سير الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وما هم عليه من صدق الإيمان، وكمال التوحيد، والافتقار إلى الله، والانكسار بين يديه، والتسليم له، والقنوت له، ودوام طاعته: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال الله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم: ٤١].

وقال الله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٦-٥٨].

فالأنبياء والرسل أعلم الخلق بالله، وأشدهم خشية لله، وأعظمهم قنوتاً له، وأصدقهم عبودية له، وأشدهم حباً له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ [الأنعام: ٩٠].

٦ - ثمرات القنوت لله ﷻ

الأولى : أن القنوت لله ﷻ ثمرة كمال الإيمان في قلب العبد : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

الثانية : أن القنوت لله ﷻ من ثمرات خشية الله ﷻ، وحسن التوكل عليه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢].

الثالثة : أن القنوت لله ﷻ من أعظم ثمرات محبة الله وتعظيمه وطاعته : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢-٤].

الرابعة : أن القنوت لله ﷻ دليلٌ على صلاح القلب واستقامته : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

الخامسة : أن القنوت لله ﷻ اتباعٌ للأنبياء والمرسلين والصالحين في إيمانهم، وتقواهم، وقنوتهم لربهم : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣].

وقال الله ﷻ: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران:٤٣].

السادسة : أن القنوت لله عز وجل سببٌ لمغفرة الله لذنوب عبده وحصول الأجر العظيم : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

السابعة: أن القنوت لله ﷻ بابٌ من أبواب اللجوء إلى الله عز وجل، ومن لجأ إلى ربه حفظه، وأعانه، وأكرمه بقضاء حاجته: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما اعطيت، وقنا برحمتك شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك .

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨] .

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثالثة والعشرون

عبادة الخشوع لله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه الخشوع لله ﷻ.

الثاني: منزلة الخشوع لله ﷻ.

الثالث: فضائل الخشوع لله ﷻ.

الرابع: أنواع الخشوع لله ﷻ.

الخامس: علامات صدق الخشوع لله ﷻ.

السادس: أركان الخشوع لله في الصلاة.

السابع: درجات الخشوع لله ﷻ.

الثامن: تفاوت الناس في الخشوع لله ﷻ.

التاسع: الأسباب المعينة على الخشوع لله في الصلاة.

العبادة الثالثة والعشرون

عبادة الخشوع لله ﷻ

١ - فقه الخشوع لله ﷻ

الخشوع لله ﷻ من عبادات القلوب العظيمة، وهو انصراف القلب بكليته إلى الله، وقطع الفكر فيما سواه، والخوف من مقامه، واستحضار جلاله وجماله عند سماع القرآن وتلاوته: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

وكلما زاد علم العبد بأسماء الله وصفاته وأفعاله زاد إيمانه بالله ﷻ، وخشع قلبه لربه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٦ - ١٧] .

والخشوع هو خشية الله، فمن عرف ربه حقًا خشع قلبه له، واتقى ربه، وخاف من جلاله وعقوبته: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

والخشوع لله ﷻ عبادةٌ قلبية عظيمةٌ، وهو من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء اللهالعظيم الكبير، والعزيز الجبار، والقوي القادر، والسميع البصير؛ وإذا عرف العبد عظمة هذه الأسماء خشع قلبه لربه، ولم يلتفت لأحد سواه، فخاف رَبَّه العظيم، وأعرض عن الحقير، ووقف بباب الغني، وانصرف عن باب الفقير، وكبر الكبير، ولم يلتف للصغير، وتوكل على

العزيز، وانصرف عن الذليل، واستعان بالقوي، وأعرض عن الضعيف: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

وإذا خشع القلب لمولاه تبعته الجوارح؛ فبكت العيون وسجدت الأعضاء: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وأعظم ما يخشع القلب إذا وقف العبد بين يدي ربه العظيم في الصلاة، فتذكر عظمة جلال ربه وجماله، وعظمة ملكه وسلطانه، وعظمة نعمه وإحسانه، وعظمة قوته وقدرته، وسعة رحمته ومغفرته، وعظمة وعده ووعيده: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١-٣].

والخشوع هو روح الصلاة؛ فمن لم يخشع في صلاته فصلاته ميتة، وليس للعبد من صلاته إلا ما عَقَلَ منها، فإذا عقل خشع قلبه، واستعد لامتثال أوامر الله داخل الصلاة وخارج الصلاة وهذا هو مقصود الصلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١-٣].

وإن كانت الصلاة قليلة الخشوع تُسقِط عنه الفرض، لكن خسر ثوابها العظيم؛ فصلِّ ياعبد الله صلاة تليق بمقام ربك، وتدخل معك قبرك، صلِّ بخشوع فكل ما ينتظرك أقل شأناً من الصلاة: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

صلِّ بخشوع؛ فإن الذي تقف بين يديه في الصلاة بيده مقاليد الأمور كلها، وتيسير المطالب كلها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١].

وصلِّ صلاةً حية، بقلب خاشع، وعين دامعة، تُقبل صلاتك، ويَعظُم ثوابك: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

الخشوع لله عز وجل هو القيام بين يدي الملك العزيز الجبار بالخضوع والذل والمسكنة.

الخشوع في الصلاة هو خشوع القلب، وانكساره وخضوعه لله، وانصرافه عن الالتفات إلى غيره.

وإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها، لأن الجوارح تابعة للقلب: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ ". متفق عليه (١).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه في الصلاة: «خَشَعَ لكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمخِّي، وَعظْمِي، وَعَصَبِي» أخرجه مسلم (٢).

والخشوع لله عز وجل يتضمن معنيين:

أحدهما: التواضع والتذلل لله عز وجل.

والثاني: السكون والطمأنينة.

وذلك يُثمر للعبد لين القلب وسكونه، مع التعظيم لله، والمحبة له، والخشية له: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١-٢].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧١).

والفرق بين الخشوع والإخبات لله:
أن الإخبات مقارب للخشوع، لكن الخشوع يصحبه ذُلّ القلب وانكساره، ولينه ورقته، مع المحبة والتعظيم لله ﷻ.
أما الفرق بين الخشوع والخضوع:
فإن الخضوع يكون بالبدن؛ فيستسلم العبد لمن خضع له .
وأصل الخضوع هو الذل والانقياد، أما الخشوع فيكون في القلب والبدن، والصوت والبصر.
وأما الفرق بين الخشوع والضراعة :
فالضراعة تكون في القلب، وأما الخشوع فيكون في القلب والجوارح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[المؤمنون:١-٢].
وقد ذكر الله الخشوع في القرآن الكريم بمعان متعددة منها:
الأول: الذُّلّ : ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾[طه:١٠٨].
وقال اللهﷻ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾[الحشر: ٢١] .
الثاني: سكون القلب والجوارح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[المؤمنون:١-٢].
الثالث: الخوف الدائم في القلب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾[الأنبياء: ٩٠].
الرابع: التواضع لله عز وجل: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾[الإسراء:١٠٩].
الخامس: اليُبْسُ والجمود، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾[فصلت:٣٩].

٢- منزلة الخشوع

الخشوع لله ﷻ عبادة عظيمة من عبادات القلوب، وهو واجب من واجبات الإيمان، وواجب من واجبات الصلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾ [المؤمنون:١-٣].

فمن فقد الخشوع فقد فَقَدَ واجبًا من واجبات الإيمان، وواجبًا من واجبات الصلاة، وقد ذم الله عز وجل غير الخاشعين في الصلاة بقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة:٤٥].

ومما يدل على أهمية الخشوع أن العبادة التي فيها خشوع لله ﷻ تَفْضُل العبادة التي لا خشوع فيها، وبينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

فالخشوع لله عز وجل عبادة قلبية عظيمة، وهو ركن في الصلاة، وقد استبطأ الله المؤمنين في تحقيق هذا الوصف، كما قال سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦].

ونهاهم عن قسوة القلب كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾ [الحديد:١٦-١٧].

وقد مدح الله الخاشعين له بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزمر:٢٣].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

فالخشوع لله عز وجل من أعظم عبادات القلوب .

وقد استعاذ النبي ﷺ بربه: «مِن قَلبٍ لاَ يَخْشع، ومنْ عِلمٍ لا ينفعُ، ومِن نَفسٍ لا تشبَعُ، ومِن دعاءٍ لا يُسمَعُ» أخرجه ابو داود (١).

فاستعاذ النبي ﷺ من القلوب التي لا محل للخشوع فيها، وذلك يدل على أن تحقيق الخشوع وتحصيله من الواجبات التي يجب الحرص عليها، وعدم التقصير فيها: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون:١-٣].

فالقيام والركوع والسجود جسد الصلاة، والتكبير والتعظيم، والخشوع والخشية لله، روح الصلاة، وجسد لا روح فيه ميت .

وأعظم الخلق خشوعاً لله هم الأنبياء والمرسلين، لكمال معرفتهم بالله، وما يجب له من التعظيم والإجلال، والحب والذل: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) صحيح: أخرجه ابو داود برقم (١٥٤٨).

٣- فضائل الخشوع لله عَزَّ وَجَلَّ

الأولى: أن الخشوع من أعظم أسباب الفلاح كما قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢].

الثانية: أن الخشوع من الإيمان كما قال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

الثالثة: إجابة الدعاء، كما قال سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٩ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

الرابعة: مغفرة الذنوب، والفوز بالأجر الكبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢].

وقال النبي ﷺ: «مَن تَوَضَّأَ نَحوَ وُضُوئِي هذا ثُمَّ قامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِما نَفْسَهُ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه» متفق عليه (١).

الخامسة: قبول الصلاة:

قال النبي ﷺ: «ما مِنَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاةٌ مَكْتُوبَةٌ فيُحْسِنُ وُضُوءَها وخُشُوعَها ورُكُوعَها، إلَّا كانَتْ كَفَّارَةً لما قَبْلَها مِنَ الذُّنُوبِ، وذلكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» أخرجه مسلم (٢).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٩٣٤)، ومسلم برقم (٢٢٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٨).

السادسة: أن من عرف ربه خشعَ قلبه له، فسارع إلى الخيرات، وفاز بأعظم الدرجات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

السابعة: الحصول على عظيم الأجر والثواب كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٤ - أنواع الخشوع

الخشوع نوعان :

الأول: خشوع القلب، وهو خشوع المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾ [المؤمنون:١-٣].

الثاني: خشوع البدن من دون خشوع القلب؛ وهذا خشوع المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)﴾ [النساء:١٤٢].

فالأصل خشوع القلب لعظمة الرب عز وجل، وخشوع الجوارح تبع له، وثمرة له.

وعكس الخشوع الغفلة، فمن غفل في صلاته لم يكن ذاكراً لله فيها: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾ [الأعراف:٢٠٥].

ومن غفل عن صلاته، فلم يؤدّها بأركانها وشروطها، أو تركها حتى خرج وقتها حلّ به عقاب الله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون:٤-٧].

وسبب الغفلة في الصلاة أمران :

الأول: سبب خارجي، وهو ما يراه المصلي من الأشياء التي يراها أمامه، أو ما يسمعه من الأصوات وهو في الصلاة، وعلاج ذلك أن يغضّ المصلي بصره، وينظر إلى موضع سجوده، ويقرب من السترة، ويبتعد عن المواضع المنقوشة التي تشغل قلبه وبصره عن الخشوع لربه.

الثاني: سبب باطني في القلب، وهو كثرة الهموم والأفكار التي تطير بقلب المصلي من واد إلى واد، ومن شهوة إلى شهوة، ومن صورة إلى صورة .

وعلاج ذلك أن يتذكر العبد عظمة ربه الذي ينظر إليه، ويسمع كلامه، ويعلم بأسراره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

والغفلة عن الله، وعن أوامر الله، وعن اليوم الآخر، سببها النفس والشيطان.

فالنفس تريد تكميل محبوباتها من الشهوات العاجلة في الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران:١٤].

وعلاجها بتزكيتها بالإيمان والتقوى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس:٧-١٠].

وقال ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

والشيطان يوسوس للإنسان حتى ينقله من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر:٦].

وعلاج وسوسة الشيطان تكون بالاستعاذة بالله منه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت:٣٦].

وتقوية الإيمان في القلب بالنظر في الآيات الكونية، وتدبر الآيات القرآنية: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [النحل:٩٨-٩٩].

وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ [ق:٦-٨].

٥- علامات صدق الخشوع لله ﷻ

الأولى: البكاء من خشية الله، وفهم آيات القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال الله ﷻ عن أهل الإيمان والتقوى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩].

الثانية: القيام بالأعمال الصالحة، وعدم انشغال الفكر بشهوات الدنيا وزينتها، ومتاعها وزخارفها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

الثالثة: عدم الشعور بما يحيط بالمصلي من أحداث في المسجد وما حوله، لأنه مستغرق بمناجاة ربه، فلم يدرِ ما حوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١-٣].

الرابعة: طول السكوت، والتدبر في آيات الله الكونية والشرعية، والذكر والدعاء الخفي: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

الخامسة: السكون وقلة الحركة أثناء تلاوة القرآن وأثناء الذكر والدعاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٦- أركان الخشوع في الصلاة

خشوع العبد بين يدي ربه في الصلاة له سبعة أركان:

الأول: حضور القلب، وحضور القلب يكون باقتران الفعل بالفكر، فلا يفكر المصلي في غير أفعال الصلاة، ولا يصل إلى ذلك إلا إذا كانت الصلاة عظيمة عنده، فإن كان عنده أهم منها انصرف فكره إليه .

ولا تكون الصلاة عظيمة عند العبد إلا إذا كان عظيم الإيمان؛ يرى أن صلاته صلة بينه وبين ربه، يُكبر فيها ربه، ويحمده على نعمه، ويسأله من فضله، ويستغفره من ذنبه، ويقدم التحية له، ويتيقن أنها وسيلة لحب ربه له، وأنها سبب لنيل درجات الجنة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

الثاني: الفهم والتدبر، وهو معرفة القلب لمعاني ما ينطق به اللسان؛ فمن أشغل ذهنه بتدبر القرآن فتح الله عليه كل مرة بفتحٍ وفهمٍ جديدٍ للآيات، تقربه من ربه، وتمنعه من الفحشاء والمنكر: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الثالث: تعظيم الله جل جلاله، ومن عرف ربه حقًا كبّره وعظمه، وأحبه وحمده،

وخافه ورجاه، وذل لعزته، وتصاغر لكبريائه .

والتعظيم ناشئٌ عن معرفة جلال من تقف بين يديه، ومعرفة نفسك، وفقرها إلى الله في كل حال، فينتج من ذلك الانكسار للعظيم سبحانه والخشوع له: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩].

الرابع: الهيبة لله جل جلاله، وهو خوف ناتج عن معرفة الله جل جلاله ومعرفة عظمة قدرته، ونفوذ مشيئته: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء: ٩٠].

الخامس: الخوف من الله ﷻ، فمن عرف ربه بصفات الجلال،والعظمة،والجبروت،والكبرياء، خاف منه، وخاف من عذابه، ونال أعظم ثوابه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن: ٤٦].

السادس: الرجاء، وهو الطمع في ثواب الله عز وجل .

فمن عرف ربه بصفات الجمال من الرحمة والمغفرة، واللطف البر، والعفو والحلم، والإكرام والإحسان؛ رجا ثوابه، وطمع بإكرامه، وسارع إلى فعل كل ما يرضيه، ثم فاز بأعظم ثوابه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥-١٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

السابع: الحياء من الله، وهو إحساس العبد بالتقصير في امتثال أوامر الله، وأداء حقوق الله عز وجل.

وإذا علم العبد بعظمة نِعم الله عليه، فهو يسكن في ملكه، ويأكل من رزقه، ويتقلب في نعمه، وإذا علم بعيوب نفسه، وقلة الإخلاص في عمله، وكثرة معاصيه، وعلم باطلاع الله على خطرات نفسه، وأعمال جوارحه؛ نشأ من ذلك كله الحياء من ربه، فخشع قلبه لربه، وتاب إلى مولاه، وسارع إلى طاعته، واجتناب معصيته: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦١].

وقال الله عز وجل عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٧- درجات الخشوع لله ﷻ

خشوع العبد لله جل جلاله على ثلاث درجات:

الأولى: التذلل لأمر الله، والاستسلام لحكمه، والتواضع لعز كبريائه:

فالتذلل لأمر الله أن ينقاد لأمر الله، ويقبل جميع أوامر الله الشرعية من غير استنكاف ولا استكبار.

والاستسلام لحكم الله ظاهرًا وباطنًاأن يُسلّم قلبه لأحكام الله الشرعية، وأحكام الله القدرية، ويصبر، ويرضى، ولا يتَسخَّط ولا يعترض على أحكام الله القدرية والشرعية، ويتواضع ويستحي من نظر ربه الملك العزيز الجبار إليه.

الثانية: النظر إلى النفس البشرية، واستشعار ذلّها ونقصها، وضعفها وعجزها، وتقصيرها وجهلها؛ وذلك يثمر كمال التواضع لربه، وكمالالخشية له، والتذلل بين يديه، والخشوع له كالأنبياء والرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فينظر العبد إلى نفسه بعين النقص والتقصير، وينظر إلى ربه بصفات الجلال والجمال والكمال، وينظر إلى محاسن الناس وفضائلهم وإحسانهم، ولا يتكبر عليهم.

الثالثة: أن يُصغيَ المسلم قلبه لربه، فيعبد الله وحده كأنه يراه، ولا يلتفت إلى الخلق، ولا ينظر إليهم عند أداء أي عمل صالح؛ لأنه يرجو الله، ولا يرجو سواه، ويخفي أحواله مع الله عن الخلق، فلا يعرفون شيئاً عن عبادته وخشوعه وإخلاصه لربه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

٨- تفاوت الناس في الخشوع لله عز وجل

الناس متفاوتون في الخشوع لله عز وجل بحسب العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وبحسب قوة إيمانهم، وصدق إخلاصهم، وكذلك هم متفاوتون بحسب ما يكون في قلوبهم من معرفة النفس ونقائصها وعيوبها .

وكذلك يتفاوتون بحسب فهمهم لآيات القرآن، وتدبرهم لمعانيه : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

فيتفاوت الناس في الخشوع في الصلاة تفاوتًا عظيمًا، ويكون بين الواحد منهم ومن بجانبه في الصلاة كما بين المشرق والمغرب :﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

فالناس في الخشوع في الصلاة على مراتب:

فمنهم من يحصل له الخشوع لقوة مطالعته لقرب الله جل جلاله منه، واطلاعه على سره، وعلى ظاهره وباطنه؛ فيستحي هذا العبد من ربه، ويراقبه في حركاته وسكناته، ويخشع قلبه لربه :﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون:١-٣].

ومنهم من يحصل له الخشوع لله، لعلمه بكمال جمال الله وإحسانه وإنعامه؛ المقتضي للاستغراق في محبته وشوقه إلى لقائه :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

ومنهم من يخشع قلبه لربه، لأنه يستشعر عظمة قوة الله وجبروته، وشدة أخذه ونكاله وبطشه بالظالمين والمجرمين والمعتدين :﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾[غافر: ٦٥].

فهؤلاء جميعًا يحصل لهم الخشوع، وهم متفاوتون في هذا الخشوع:

فمنهم بين ظالمٌ لنفسه.. ومقتصدٌ.. وسابقٌ بالخيرات بإذن الله

وقد ذكر الله هؤلاء في كتابه بقوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾[فاطر: ٣٢-٣٤].

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل العبودية لله عز وجل، وجميعهم في الجنة.

فالظالم لنفسه هو المقصّر في الواجبات، المرتكب للمحرمات.

والمقتصد هو الذي اقتصر على الأمر الواجب، دون زيادة أو نقص، وتركَ المحرم.

والسابق بالخيرات من جاء بالواجب والمستحب، وفارق المحرم والمكروه.

فالسابقون هم أعلى مراتب المؤمنين، ثم يليهم المقتصدون، ثم يليهم الظالمون لأنفسهم، فكن رحمك الله أول السابقين، وأقوى الخاشعين لله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾[الزمر: ١١-١٢].

٩ - الأسباب المعينة على الخشوع في الصلاة

أحدها:إسباغ الوضوء، ونظافة البدن والملبس ومكان الصلاة، حتى لا ينشغل العبد بالفكر بإزالة النجاسة أثناء الصلاة.

الثاني: أداء الصلوات الخمس جماعة في المسجد، لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا:﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١ -٢].

الثالث:عدم الإسراع في المشي إلى الصلاة، حتى لايقف في الصف مضطرب الفؤاد من سرعة المشي، فذلك يذهب الخشوع.

الرابع:الحرص على إدراك تكبيرة الإحرام، حتى لا يكون مشغولًا بالتفكير في إتمام ما فاته من الصلاة.

الخامس: رفع اليدين عند التكبير، فكأنه أخذ الدنيا على ظهر كفيه فألقاها خلف ظهره عند الإحرام بالصلاة.

السادس: تذكر الموت، فمن ذكر الموت أدى صلاته صلاة مودع.

السابع: تدبر القرآن،وفهم معاني الآيات والأذكار والأدعية،فذلك يثمر الخشوع.

الثامن:استحضار عظمة الرب الملك العزيز الجبار، وأنه يراك ويسمعك، ويعلم بما في سرك:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[الملك:١٢].

التاسع:ألا ينظر إلى السماء في صلاته، ولا يُخرج بصره عن موضع سجوده، فذلك أخشع لبصره، وأجمع لقلبه.

العاشر:أن يقترب من السُترة، حتى لا يمر بين يديه ما يُشغله، ويشتت قلبه وفكره.

الحادي عشر:ألا يكون أثناء الصلاة حاقنًا أو حاقبًا أو حازقًا، لئلا يشغله ذلك عن تفهّم الآيات والأذكار والأدعية .

والحاقن محتبس البول، والحاقب محتبس الغائط، والحازق محتبس الريح.

الثاني عشر: ألا يكون جائعًا والطعام قد حضر، فليأكل قبل الصلاة، حتى يخشع قلبه، ولا يفكر بما سوى ذلك.

الثالث عشر: ألّا يوجد ما يشغل فكره من طعام على نار، أو طفلٍ بجوار حفرة، حتى يخشع قلبه في صلاته.

الرابع عشر: عدم الصلاة في الأماكن التي تكثر فيها الأصوات التي تُشغل العبد عن الخشوع في صلاته كالأسواق، ومجامع الناس.

الخامس عشر: العلم أن أجر الصلاة على قدر الخشوع فيها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١-٢].

السادس عشر: ألا يوجد في القبلة ما يشغل فكر المصلي من الزخارف والنقوش والصور، ونحو ذلك، مما يشغل القلب عن الخشوع في الصلاة.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الرابعة والعشرون

عبادة التواضع لله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : فقه التواضع لله ﷻ

الثاني : فضائل التواضع لله ﷻ

الثالث : درجات التواضع

الرابع : علامات أهل التواضع

الخامس : الأسباب المعينة على التواضع لله ﷻ

السادس : جزاء أهل التواضع لله ﷻ

السابع : عقوبات أهل الكبر والاستكبار.

العبادة الرابعة والعشرون

عبادة التواضع لله ﷻ

١- فقه التواضع لله عز وجل

التواضع لله جل جلاله من العبادات القلبية العظيمة.

والتواضع هو الخضوع لله عز وجل، مع كمال الحب، والتعظيم، والذل له، والانقياد لشرعه، وقبول أمره بلا إباء ولا استكبار، واعتقاد أن الله هو العلي الكبير الذي له الكبرياء كله، وأنه ليس للعبد نصيب منه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

فالله وحده هو الكبير المتكبر الذي له الكبرياء، وكل ما سواه يجب أن يخضع لعزته، ويتواضع لعظمته، ويتصاغر لكبريائه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

وكل من تكبر على الله، أو على خلقه أذله الله وعذبه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

وقال النبي ﷺ عن ربه عز وجل: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني

عذبته» أخرجه مسلم [1].

وقال النبي ﷺ: **« قَالَ اللهَّ عزَّ وجلَّ : الكِبْرياءُ رِدَائِي، والعظمة إِزاري، فَمَنْ نَازعني واحدًا منهُما أدخلته النار»** أخرجه مسلم[2].

والتواضع من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن موجبات الإيمان باسم الله المتكبر، لأن هذه الصفة لا تنبغي إلا لله وحده لا شريك له،فالله له الكبرياء وحده، لكمال ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله :﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:١-٤].

وهو الكبير الذي تكبر عن صفات النقص، والعجز، والعيب، وعن صفات البشر، وعن صفات الخلق كلهم :﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

ومن تكبر على الخلق فقد أشرك نفسه مع ربه الذي انفرد وحده بصفة الكبرياء، فاستحق هذا المتكبر عذاب النار:﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[الزمر:٦٠].

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠) .

(٢)أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠) .

ومن تكبر على الخالق برد أمره، واستكبر عن عبادته، فقد كفر به، واستحق عقابه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

والتواضع عبادة من عبادات القلوب،وهو من أعظم النعم التي ينعم بها الله على عباده،والتواضع لله عز وجل خُلق عظيم يتولد من العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ونعوت جلاله، وعظمته، ومحبة الله، وإجلاله، ومن معرفة النفس البشرية، وضعفها، وفقرها، وعجزها، وآفاتها، وعيوب أعمالها.

فيتولد من معرفة هذا وهذا خلق عظيم،وهو التواضع للملك العزيز، الجبار، المتكبر، والتصاغر لكبريائه، وقبول أوامره، وحبه، وحمده، وشكره: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣٧﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

والتواضع لله عز وجل يكون في أمور:

الأول: التواضع لعظمة الرب، وجلاله، والخضوع لعزته وكبريائه، والاطمئنان بذكره، والإخبات والتسليم لعظمته، وسلطانه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

الثاني: تواضع العبد لأمر الله امتثالا، ولنهيه اجتنابًا،ومن تواضع لأمر الله ونهيه، فقد تواضع لعبودية من خَلَقَه، ورزقه، وهداه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠١-١٠٣].

ومن تواضع لجلال الله، وعظمته، وكبريائه، وتواضع لأمره ونهيه، فقد بلغ غاية التواضع كالأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال الله عز وجل للنبي ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عز وجل: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨].

وقد مدح الله المؤمنين بكمال التواضع له بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٤].

٢- فضائل التواضع لله ﷻ

التواضع لله جل جلاله، والتواضع للناس، من أعظم العبادات القلبية. وهو ثمرة العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، والعلم بضعف العبد، وعيوبه، وآفاته:
﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

ومما ورد في القرآن في فضل التواضع قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٧-٨].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٥-١٧].

وقال عز وجل: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء:٢١٥].
وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة:٥٤].

وقال ﷻ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾
[الإسراء:٢٣-٢٤].

وقال الله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤].

ومما ورد في السنة في فضل التواضع، قول النبي ﷺ: «إنَّ الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ» أخرجه مسلم (١).

وقال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» أخرجه مسلم (٢).

فمن أراد الرفعة والعزة فليتواضع لربه الملك العزيز الجبار،فإن العزة لا تحصل إلا بقدر النزول،ألا ترى أن الماء ينزل إلى عروق الشجرة ثم يصعد لأعلاها، ويخرج أوراقًا وأزهارًا وثمارًا :﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[فصلت:٣٩].

وقال الله ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾[الحج:٥].

والتواضع سبب من أسباب دخول الجنة.

قال النبي ﷺ: «أَلا أنبكم بأَهْلِ الجنَّةِ ؟ قالوا: بلَى، قالَ ﷺ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لو أَقْسَمَ علَى اللهِ لأَبَرَّهُ» أخرجه مسلم (٣).

---

(١)أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٨) .

(٢)أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٨) ..

(٣)أخرجه مسلم برقم (٢٨٥٣) ..

٣- درجات التواضع

التواضع درجات :

الأولى: أن يتواضع العبد لربه العظيم، ولا يستكبر عن عبادة الله، ولا يستكبر على خلق الله. فيعظم ربه، ويعظم شعائر ربه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

وقال الله ﷻ عن الأنبياء والرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهذه أعلى درجات التواضع، وأوسعها، وأكملها، وأعظمها أجراً.

ومن رد شيئاً من شرع الله كان فيه شبه بإبليس في تكبره عن طاعة أمر الله، ومن استكبر عن طاعة ربه فقد كفر به: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

الثانية: أن يتواضع العبد للمؤمنين، ويخفض جناحه لهم، ويذل لهم، كما قال سبحانه عن أوليائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

وقال النبي ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر:٨٨].

الثالثة: التواضع يكون بنسبة الفضل كله إلى الله، وعدم المن على الناس.

فالمتواضع لا يمن على الخلق بعلمه، أو عمله، أو ماله، أو إحسانه، أو صدقته، ولا يرى لنفسه منزلة فوقهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾[الحجرات:١٧].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾[النحل:٥٣].

ومن أكرمه الله بهذه الدرجات الثلاث، فقد وصل إلى أعلى درجات التواضع: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾[الجمعة:٤].

٤ – علامات أهل التواضع

لأهل التواضع لله عَزَّوَجَلَّ علامات:

الأولى: المتواضع لله عَزَّوَجَلَّ ينظر إلى عزة ربه، ويتصاغر لكبريائه، ويسجد لعظمته: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾[السجدة:١٥].

الثانية: المتواضع ذليل على المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[المائدة:٥٤].

الثالثة: المتواضع يقبل الحق، ولا يرده ولو سمعه من صبي أو من أجهل الناس: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[البقرة:٢٨٥].

الرابعة: المتواضع يأكل على الأرض تواضعاً لربه، ويجلس على الأرض، ويجالس الفقراء، ويعود المساكين كما كان ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[آل عمران:١٥٩].

وكان ﷺ من شدة تواضعه يركب الحمار أحيانًا، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبيد، ويجلس بين أصحابه كواحد منهم، ويجلس حيث ينتهي به المجلس: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف:٢٨].

الخامسة: المتواضع لله عز وجل لا يُسبل إزاره.

قال النبي ﷺ: «ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار» أخرجه البخاري (١).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٨٧).

السادسة: المتواضع يُسيء الظن بنفسه، ويظن أن أكثر المسلمين خير منه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

السابعة: المتواضع يرى نفسه مقصرًا في حق الله، وفي حقوق الخلق، ويلوم نفسه على تقصيرها في امتثال أوامر ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

الثامنة: المتواضع كثير التوبة والاستغفار في كل أحيانه، لشعوره بعظيم حقوق الله، وحقوق عباده، وتقصيره في أداء ذلك: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

وقال الله ﷻ في صفات من اشتراهم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

التاسعة: المتواضع لا يستكبر بقوله ولا فعله، ولا لباسه ولا مشيته: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

العاشرة: المتواضع يستقل عمله، ويطلب من ربه الزيادة منه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

٥- الأسباب المعينة على التواضع لله عز وجل

الأول: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله

فمن عرف ربه بالعزة والكبرياء، وصفات الجلال، والجمال، والكمال، كبره ومجده وتواضع له، وأخلص العبادة له: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ [الحشر:٢٣].

ومن عرف الله حقاً أحبه حقاً، وعبده حقاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق:١٢].

الثاني: العلم بعظمة الله، وعظمة ملكه وسلطانه، وعظمة نِعَمه وإحسانه، وعظمة دينه وشرعه، وعظمة وعده ووعيده: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

ومن عرف ربه بأسمائه، وصفاته، وأفعاله آمن به، وتواضع لكبريائه، وأخلص العبادة له وحده لا شريك له: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٣].

الثالث: التفكر في عظمة مخلوقات الله، والاستدلال بعظمة مخلوقاته على عظمة ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

الرابع: العلم بضعف الإنسان وعجزه فمن عرف ربه بالقوة والقدرة والكبرياء والعظمة، عرف نفسه بالضعف والعجز والذلة والفقر والجهل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وقال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦-٨].

الخامس: العلم بصفات الأنبياء والمرسلين، وما هم عليه من التعظيم لربهم، ومن التواضع لعزته وجلاله، وكبريائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عز وجل عن الأنبياء والرسل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١].

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

٦- جزاء أهل التواضع لله عز وجل

الأول: الرفعة في الدنيا والآخرة.

قال النبي ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه» أخرجه مسلم [(١)].

الثاني: العزة في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨].

الثالث: رضوان الرب عليهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

الرابع: دخول الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥].

الخامس: الوصول إلى أعلى درجات الجنة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

السادس: رؤية الرب جل جلاله، كما قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

السابع: القرب من الرب جل جلاله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

الثامن: الفوز بالجنة، والنجاة من النار، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٧١-٧٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٨).

٧- عقوبات أهل الكبر والاستكبار

يعاقب الله المتكبرين والمستكبرين يوم القيامة بأنواع العقوبات.

فمن كان في قلبه كبر عن قبول الحق لن يدخل الجنة إذا مات، وسيخلد في النار يوم القيامة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» أخرجه مسلم (١).

وقال النبي ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ. أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» متفق عليه (٢).

ومن كان في قلبه تكبر على الخلق، فهذا تزكية للنفس، واحتقار للخلق، وتشبه بإبليس في استكباره عن السجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

والكبر والاستكبار من أكبر الكبائر، ولهذا يحتاج إلى التوبة.

فمن مات ولم يتب منه فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

ومن أعظم الذنوب تزكية النفس، والعُجب بالنفس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤٩].

والكبر عكس التواضع، والكبر هو التشبه باسم الله المتكبر الذي لا يوصف به إلا الله وحده لا شريك له، وهو من الإلحاد في أسماء الله وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٤٩١٨) ومسلم برقم (٢٨٥٣).

والكبر والاستكبار عن الحق من أعظم أسباب دخول النار، والخلود فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

وقال الله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

ويُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس.

فتواضع يا عبد العزيز لربك العظيم، الذي له جميع صفات الجلال والجمال والكمال، وَقِفْ بين يديه مكبرًا له، حامدًا له، ممجدًا له، مثنيًا عليه، خائفًا منه، متواضعًا لعظمته، راغبًا في فضله، راهبًا من عقوبته: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

اللهم يا حي يا قيوم، ارحم فقرنا وذلنا وانكسارنا بين يديك، يا أرحم الراحمين، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الخامسة والعشرون

عبادة مراقبة الله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه مراقبة الله ﷻ.
الثاني: منزلة مراقبة الله ﷻ.
الثالث: فضائل مراقبة الله ﷻ.
الرابع: درجات المراقبة.
الخامس: تفاوت الناس في المراقبة.
السادس: علامات صدق المراقبة
السابع: الأسباب المعينة على صدق المراقبة.

العبادة الخامسة والعشرون

عبادة مراقبة الله عز وجل

١ - فقه مراقبة الله عز وجل

مراقبة العبد ربه من أعظم العبادات القلبية، بل هي أعظمها، لأن من راقب ربه بقلبه زاد إيمانه، وأحسن عبادته لربه، وأدى أعماله لربه كأنه يراه، فإن لم يبلغ ذلك فليعلم أن الله يراه، والمراقبة أعلى درجات العبودية.

قال النبي ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّه يَرَاكَ» متفق عليه [١].

ومراقبة الله عز وجل من مقتضى الإيمان بأسماء اللهالعليم الخبير، القريب الشهيد، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله السميع،البصير،المحيط،فالله سبحانه قريب من العبد، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد، والله شهيد على كل أحد، يعلم أحوال العبد، ويعلم حركاته وسكناته، ويعلم سره وجهره: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك:١٣-١٤].

وهو سبحانه السميع الذي يسمع جميع الأصوات، على اختلاف اللغات، وتباين الحاجات، وكثرة السؤالات :﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾[الأنعام:٣].

وقال الله تعالى:﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب:٥٤].

وهو سبحانه البصير الذي يبصر كل شيء في ملكه من الذرات والمجرات، ويرى ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء،

---

(١)**متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٥٠) ومسلم برقم (٩).

الغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، والمستور عنده مكشوف: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

ومتى علم العبد ذلك آمن بالله العظيم، وراقبه في سره وجهره، وأخلص له العبادة في ظاهره وباطنه، وعظم ربه وكبّره، لما يراه من عظمته وجبروته، وعظمة ملكه وسلطانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس:٣].

وأحب ربه وحمده، لما يراه من عظيم نعمه وإحسانه وإكرامه، فقنت بين يدي ربه ساجدًا وقائمًا، يكبره ويمجده، ويحمده ويشكره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

ومن راقب الله تعالى اتقاه، وفاز بمغفرته وثوابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

وحقيقة المراقبة: دوام علم العبد ويقينه باطلاع ربه على ظاهره وباطنه، وأن الله ينظر إليه في كل حال، ولا يخفى عليه شيء من أحواله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران:٥-٦].

المراقبة أن يكون المؤمن على علم ويقين أن الله ﷻ ناظر إليه، سامع لأقواله، بصير بأفعاله، مطلع على ظاهره وباطنه، عليم بسره وعلانيته، محيط بحركاته وسكناته، عليم خبير لا يخفى عليه شيء من أقوال العبد وأفعاله، ولا يغيب عنه شيء من نياته وخواطره وأسراره: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

والذي يستحضر حقيقة المراقبة لله ﷻ لا يحتاج إلى مراقبة أحد من الناس، لأن ربه أعظم في قلبه من كل أحد، وأكبر من كل أحد.

فيحسن عمله ويتقنه، ويجتنب الكذب والغش، تقربًا إلى الله الذي يراه ويسمعه، والذي أمره ونهاه، والذي يثيبه ويعاقبه، ومحبةً لله الذي أنعم عليه وهداه، وتعظيمًا لله الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وحياءً من الله أن يعصيه بنعمه، وهو يسكن في ملكه، ويأكل من رزقه، وطلبًا لمرضات الله، وخوفًا من عقابه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

ومن راقب الله أحبه وعظمه، وأطاعه ولم يعصه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

ومن راقب الله زاد إيمانه، وحسنت عبادته: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

فيا عبد الرقيب راقبِ الله في كل حال، وأخلص العبادة لمن خلقك وهداك، وأطعمك، وسقاك، واختارك واصطفاك، وهداك، تفز برضاه وجنته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

٢ – منزلة مراقبةِ الله ﷻ

مراقبة الله ﷻ أساس الأعمال القلبية وعمودها، ومن تيقن أن الله يراه ويسمعه، ويعلم بسره وعلانيته، خافه ورجاه، وأطاعه ولم يعصه، وأخلص العبادة له وحده لا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣].

والمراقبة تُثّمِرُ تحقيق مراتب الدين كلها، الإسلام، والإيمان، والإحسان، وهي من أعظم منازل العبودية لله ربِ العالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك:١٢].

وقال النبي ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّه يَرَاكَ» متفق عليه (١).

فمراقبة الله عز وجل تثمر إقبال العبيد على فعل الطاعات والقربات، وتقيهم من الوقوع في الفواحش والمنكرات، وبذلك يعيش الناس في الدنيا في سعادة وأمن، ويتبوؤون في الآخرة أعلى درجات الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

ومراقبة الله ﷻ في السر والعلن أعظم دليل على قوة إيمان العبد بربه العظيم، ودليل على يقينه على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

فهو سبحانه الشهيد الرقيب الذي لا يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه شيء، الحفيظ الذي لا يغفل، العليم الذي لا يخفى عليه مثقالُ ذرة من أحوال

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٠) ومسلم برقم (٩) .

خلقه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾[الطلاق:١٢].

ومن علم ذلك راقب ربه في جميع أحواله، فأطاع أمره، واجتنب نهيه، وأخلص له العبادة وحده لا شريك له، وعبد ربه بكمال الحب والتعظيم والذل له: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾[البينة:٥].

ومقامُ المراقبة من أعظم منازل العُبودية لله جل جلاله، فالله هو الرقيب الشهيد، السميع البصير، العليم الخبير بكلِ شيء، لا فرق عنده بين السر والعلانية ولا بين الظاهر والباطن، لا إله إلا هو، لا يخفى على سمعه شيء ولا يغيب عن بصره شيء: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾[يونس:٦١].

ومَن علم بذلك يقينا آمن بالله وحده، وكبره ومجده، وأحبه وحمده وشكره، وأخلص العبادة له، وراقبه في كل حال، وأقبل على طاعته بكمال الحب والتعظيم والذل له، وابتعد عن كل ما نهى الله عنه: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾[السجدة:١٥-١٧].

مراقبة الله عز وجل هي حقيقة العبودية وروحُها، وأصلها ولبها .

وهي أن تراقب الله لتعبده كأنك تراه بصفات جماله وإحسانه، راغبًا فيما عنده، طامعًا في ثوابه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك بصفات جلاله، فخف منه، وابتعد عن كل ما يبغضه ويسخطه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء:٩٠].

وأحسن الناس مراقبة لله ﷻ، وامتثالًا لأوامره، واجتنابًا لنواهيه، هو من عرف ربه

بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الكبرى، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

هو سبحانه الرقيب الشهيد لكل شيء.

من تكلم من خلقه علم نطقه، ومن سكت علم سره، ومن أسر علم بكل ما يجول في خاطره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

ومن علم ذلك عبد الله بمقام المراقبة والمشاهدة، يرى ربه بكمال القوة والقدرة والعزة، ويراه بكمال الرحمة واللطف، والإكرام والإحسان، فيقف بين يديه بكمال الحب والتعظيم والذل له، ناظرًا إلى عز ربوبيته، متصاغرًا لكبريائه، ذليلًا لعزته.

فأي عبد هذا المؤمن الذي أكرمه الله بالوصول إلى أعلى درجات العبودية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

ومراقبة الله في السر والعلن أعظم طريق لإتقان العمل وإحسانه، وكثرته ودوامه، وتصحيحه وإخلاصه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكم عملًا أنْ يُتقِنَه» أخرجه الطبراني وأبو يعلى(١).

---

(١) حسن: أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (٨٩١) وأبو يعلى برقم (٤٣٨٦).

٣- فضائل مراقبة الله عز وجل

الأولى: إحسان العبادة لله عز وجل، فإحسان العبادة بالإخلاص وحسن المتابعة من أرجى أسباب قبولها: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

الثانية: صيانة العبد للسانه وسمعه وبصره وفرجه عن كل ما لا يحل، وصيانة بطنه ومطعمه ومشربه عن الحرام: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

الثالثة: شغل الأوقات بالطاعات، وعدم الالتفات إلى المعاصي والمحرمات: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

الرابعة: مراقبة الله جل جلاله سبب لتحسين أعمال العبد، وإخلاصها لله، فمن عرف الله، وعبده كأنه يراه، وراقبه في كل حال؛ أحسن عمله له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

والذي يراقب ربه في كل حال يتقن عمله، ويجعل عبادته خالصة لله عز وجل، ولا يقصر في عمله، ولا يغش في تجارته، ولا يكذب على غيره، بل يصدق في كل أموره، ويجتهد في إتقان وإحسان عمله تعبدًا لله، وخوفًا منه، وطمعًا في ثوابه، وحياءً من ربه الذي لا يخفى عليه ظاهر أو باطن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢-٤].

الخامسة: مراقبة الله في السر والعلن من أعظم السبل للجد والاجتهاد في أنواع الطاعات والقربات والعبادات، وهجر الفواحش والآثام والمنكرات.

فالذي يستحضر مراقبة الله عز وجل لا يقصر في أداء الحقوق، ولا يضيع الفرائض، ولا يترك الواجبات، ولا يفعل المحرمات، بل يجد ويجتهد في فعل كل ما يحبه الله ويرضاه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

السادسة: الذي يراقب الله عز وجل في كل أحواله، لا يتجرأ على محارمه، ولا يسرف في معصيته، لأنه على يقين أن الله السميع البصير يراه ويسمعه، فيخاف من الله ويستحي من معصيته، وهو يسكن في ملكه، ويأكل من رزقه، ويبتعد عن معصيته في سره وعلانيته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[الملك:١٢].

وقال النبي ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها وخالِقِ النَّاسَ بخلقٍ حسنٍ» أخرجه أحمد(١).

فمن راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه، فلم يستعملها إلا فيما يرضي مولاه من الطاعات، فيستحي من الله أن يقترف بها سوءا، أو يجره إلى مسلم:

(١)حسن: أخرجه احمد برقم (٢١٤٠٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[النساء: ١].

السابعة: مراقبة الله عز وجل في السر والعلن تقي المسلم من الكذب والمكر، ومن الغش والخديعة، ومن الظلم والعدوان،وغيرها من الصفات السيئة،فمن علم أن الله ﷻ مطلع عليه، ناظر إليه، مراقب له، يحصي عليه أقواله وأعماله وخواطره؛ لا يكذب ولا يغش، ولا يمكر ولا يخون، ولا يظلم ولا يخدع أحدا، بل يستحي من الله الذي يراه، ويخاف من الله الذي يسمعه، أن يراه وهو يغش في معاملاته، أو يكذب في كلامه، فأهل الصفات الطيبة هم أهل الجنات، وأهل المغفرة، وأهل الدرجات العالية:﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾[الأحزاب:٣٥].

الثامنة: مراقبة الله جل جلاله في السر والعلن ضمان لنزاهة العبد في خلوته، ووقاية له من الوقوع في معصية الله، فأغلب الذنوب والمنكرات، والمعاصي والفواحش، إنما تكون في الخلوات، حين يكون الإنسان وحده بعيدًا عن أنظار الناس، لا يستحضر مراقبة رب الأرض والسماوات .

ففي الخلوات يسرق السارق، ويزني الزاني، ويشرب الخمر، ويخون الخائن، وفيها تنتهك الحرمات، وتؤكل الرشوة، ويقع التزوير .

ومن استحضر مراقبة الله له في كل أحواله لم يعصه أبدا، ولم يخن أحدا، فاتق الله أيها المؤمن في خلوتك وجلوتك، وراقب الله في سرك وعلانيتك، فإن الله مطلع عليك، وناظر إليك، واستحي من الذي يراك ويسمعك أن تعصيه بنعمه: ﴿إِنَّ

ﭐلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

واعلم أيها المسلم أن الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة في تقوى العبد لربه، وخشية الله في السر والعلن، ومراقبة الله عند كل أمر ونهي، في كل وقت وحين: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣١-٣٥].

٤ - درجات المراقبة

مراقبة الله ﷻ على أربع درجات:

الأولى: استدامة السير إلى الله ﷻ، وتعظيمه، وتعظيم أمره، وحضور القلب مع الرب، والقرب منه، والأنس والسرور به، والذهول عن غيره: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

وكلما ازداد العبد قربًا من ربه ازداد له تعظيمًا وحبًا، وحمدًا وشكرًا، وخوفًا ورجاءً، وأغناه ذلك عن الالتفات إلى غيره من العبيد، وأشغله سروره بمولاه عن كل ما سواه، ودخل جنة المعرفة الموصلة إلى جنة الآخرة كما هي حال الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال النبي ﷺ: «ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا» أخرجه مسلم (١).

وهذه أعظم جنة في الدنيا يكرم الله بها من عرفه، وعمل بشرعه، وأطاع أمره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٤).

الثانية: مراقبة الله بصيانة الظاهر والباطن، وذلك يوجب صيانة الباطن والظاهر في كل حال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

وصيانة الباطنتكون بحفظ الخواطر والإرادات، وصيانة الظاهرتكون بحفظ الحركات الظاهرة، فيجرد العبد قلبه وبدنه من كل شهوةٍ وإرادةٍ تعارض أمر ربه، ومن كل إرادةٍ تعارض إرادة ربه، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل محبة تزاحم محبة ربه، ومن كل خوفٍ يزاحم خوف ربه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾[النساء:٦٥].

وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به يوم القيامة، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾[الشعراء:٨٧-٨٩].

الثالثة: مراقبة الله بشهود انفراده وحده بالربوبية والألوهية، وأنه لم يكن شيء قبله ولا معه، ثم خلق الخلق إظهارًا لقدرته، وكمال حكمته، وسعة علمه ورحمته، وبيانًا لعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق:١٢].

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣].

وهذا الشهود يقوي إيمان العبد بربه، ويحمله على مراقبة الله في كل حال، وبذلك يفنى العبد عن نفسه، ويتعلق قلبه بالحي القيوم الذي بيده مقاليد الأمور: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ [غافر:٦٥].

الرابعة: مراقبة مواقع رضا الرب سبحانه ليفعلها، ومراقبة كل ما يسخط الله ليحذرها، والفناء عن مرادهِ من ربه مهما كان إلى مراد ربه منه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

ومن أكرمه الله، وأوصله إلى هذه الدرجات العظيمة، راقب الله في كل حال، وسعد بالقرب من ربه، وحسن مناجاته، وسعد في الدنيا والآخرة، وفاز برضوان الله وجنته: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

٥ - تفاوت الناس في المراقبة

الناس متفاوتون في المراقبة بحسب العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأعظم الناس مراقبة لربه أشدهم له خشية وتقوى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر:٢٨].

ومقام المراقبة هو مقام الإحسان، وهو أعلى درجات الدين .

والإحسان على درجتين:

الأولى: أن تراقب الله في كل أقوالك، وأعمالك، وأحوالك، فتعمل كل عمل صالح كأنك ترى ربك بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢-٤].

وهذه أعلى الدرجتين .

الثانية: إذا لم تستطع ذلك، فاعلم أن الله القادر على كل شيء القاهر لكل شيء العليم بكل شيء، يراك، فخف من ربك، وخف من عقوبته وعذابه :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣].

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾[الحجر:٤٩-٥٠].

وقال النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه ، فإنْ لم تكنْ تَراه فإنَّه يرَاك» متفق عليه (١).

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٥٠) ومسلم برقم (٩).

٦ - علامات صدق المراقبة

الأولى: إخلاص الأعمال لله عز وجل، فمتى استحضر العبد رؤية الله له زال عنه الشعور برؤية الناس له، فلم يطلب مدحهم، أو يهرب من ذمهم: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢)﴾[الزمر:١١-١٢].

وقال الله ﷻ عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾[الأنبياء:٩٠].

الثانية: عدم المن بالعمل على الخالق، وعلى المخلوق، فالذي يراقب ربه لا يمن بالعمل على الخالق، لأن الله هو الذي خلقه، وخلق فيه القدرة على العمل، وأعانه على أداء العمل، وقبل منه العمل، وأثابه على العمل الصالح: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾[الحجرات:١٧].

والذي يراقب ربه لا يمن بالعمل على المخلوق، لأنه لا يدري من المقبول، و لا يعلم من سيختم له بالشر والرد، ومن سيختم له بالسرور والقبول.

الثالثة: الخوف من عدم القبول، لقلة الإخلاص، وضعف المتابعة، ورؤية النقص والتقصير في العمل، كما قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾[المؤمنون:٦٠-٦١].

الرابعة: عدم الأمن من مكر الله تعالى، فالله هو مقلب القلوب، وهو الذي قلَّب قلب عبده إلى طاعته، وهو قادر أن يحوّل قلب عبده إلى معصيته، فليداوم على الخوف من ربه، ويسأله الثبات على دينه ،والرضا بمراقبته وقدره: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾[الأعراف:٩٩].

وقال النبي ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» أخرجه مسلم [(١)].

الخامسة: كثرة البكاء من خشية الله عز وجل: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾[الإسراء:١٠٩].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤).

٧- الأسباب المعينة على صدق المراقبة:

الأول: استحضار عظمة الله،وعظمة أسماء الله وصفاته وأفعاله، وعظمة قدرته، وإحاطة سمعه وبصره بكل ذرة :﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[الزمر:٦٧].

الثاني: استحضار علم الله بكل شيء، وأنه محيط بكل شيء، عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، ولا يقف له شيء، ولا يمتنع عليه شيء :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢].

وقال لقمان لابنه :﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾[لقمان:١٦].

الثالث: استحضار قرب الرب من خلقه ومعيته لهم في كل شأن: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[ق:١٦].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[المجادلة:٧].

الرابع: استحضار موقف العبد بين يدي ربه للحسابِ والجزاء يوم القيامة، كما قال سبحانه :﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾[الغاشية:٢٥-٢٦].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الأنبياء:٤٧].

الخامس: استحضار شدة عذاب الله للكفار والعصاة: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾[النساء:١١٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾[النساء:١٤].

السادس: استحضار الخلود في نار جهنم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾[البينة:٦].

وقال الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾[التوبة:٦٨].

فمن عرف هذه الحقائق العظيمة آمن بربه، وخاف منه، وأقبل على طاعته، وامتثل أمره، واجتنب نهيه، وأخلص له العبادة وحده لا شريك له، وفاز برضاه وجنته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾[البينة:٧-٨].

اللّهم يا حي يا قيوم ارزقنا كمال المراقبة لك، وحسن التوكل عليك، ولذة القرب منك، يا ذا الجلال والإكرام.

اللّهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

اللّهم ارزقنا اليقين حتى نعبدك كأنا نراك، وارزقنا كمال الإخلاص حتى لا نرى أحدا سواك.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة:٢٠١].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة السادسة والعشرون

عبادة خشية الله جل جلاله

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه خشية الله عز وجل.

الثاني: منزلة خشية الله عز وجل.

الثالث: فضائل خشية الله عز وجل.

الرابع: الأسباب المعينة على خشية الله عز وجل.

الخامس: ثمرات خشية الله عز وجل.

لعبادة السادسة والعشرون

عبادة خشية الله جل جلاله

١ - فقه خشية الله عز وجل

خشية الله ﷻ هي خوفٌ يشوبه تعظيمٌ لله ﷻ، وفرارٌ من معصيته إلى طاعته.

وخشية الله ﷻ من أعظم أعمال القلوب التي تقوم عليها كل عبادة، والتي تكفّ العبد عن ركوب المعاصي والفواحش، واستباحة المحرّمات، والاستهانة بشرع الله وشعائره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

وخشية الله عز وجل هي انزجار القلب عن كل ما يسخط الله، ووجله وخوفه من ربه، وهربه من سخط الله وغضبه، وعذابه وعقوبته، واليقين على وعده ووعيده في الدنيا والآخرة، طلباً لثوابه، وخوفاً من عقابه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢].

خشية الله عز وجل هي خوفٌ يكون في القلب، تظهر آثاره على الجوارح بالانخفاض والسكون والتسليم، وتدفع العبد إلى العمل الصالح، والبُعد عن المعاصي والمحرمات: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى:٩-١٠].

وخشية الله عز وجل هي التي تحولُ بين العبد وبين معصية الله عز وجل

والعبد إذا خاف مخلوقًا هرب منه، وإذا خاف ربه لجأ إليه، وهرب إليه، وفرّ إليه، وعمل بطاعته، وأقلع عن معصيته: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١].

وخشية الله ﷻ من لوازم الإيمان بالله، بل هي شرطٌ من شروط الإيمان بالله ﷻ، فمن لم يخش الله لم يكن مؤمنًا بالله: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: ١٣].

وخشية الله ﷻ من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء اللهالملك، العزيز، الجبّار، القويّ، القادر، القهّار: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر: ٦٥].

فمن عرفَ المَلك أذعنَ لأمره، وخشيهُ واتقاه، ومن عرف العزيز ذلَّ لعزته، وأخلص العبادة له، ومن عرف الجبّار خضع لجبروته، ومن عرف ربه القويّ امتلأ قلبه بخشيته والخوف منه، ففرّ إليه، ومن عرف القادر استعان به، ولم يلتفت إلى غيره، ومن عرف القهار ذلّ لقهره، وامتلأ قلبه بخشيته وتقواه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وخشية الله عز وجلتنشأ من معرفة جلال الله وجبروته، وكمال قوته وقدرته، ومعرفة شدة انتقامه ممن عصاه، وعظمة عقوبته لمن كفر به وعصاه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد: ١٩].

وخشية الله ﷻ، والخوف منه، هي عبادة جميع المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٤٩-٥٠].

والإنسان مخلوقٌ ضعيف مكرم، يجب عليه أن يشارك جميع المخلوقات في تسبيح ربه، والسجود له، والتصاغر لكبريائه، والخشية له، والخوف منه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

والخوف من الله ﷻ مستقرٌّ في قلب كل مؤمن، فإن من عرف الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الكبرى، كبّره ومجّده، وأحبه وخافه ورجاه، وامتلأ قلبه بخشيته وتقواه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

وأهل الإيمان مختلفون في درجات الخوف من الله، والخشية لله، بحسب علمهم وإيمانهم بربهم، وهم على ثلاثة أقسام:

الأول: كامل الخوف والخشية لله، وهو من حمله الخوف من الله، والخشيةِ له، على فعل الواجبات والمستحبّات، وترك المحرّمات والمكروهات، واجتناب الشُبهات، وترك الإسراف في الشهوات.

وهؤلاء خير الناس، وأفضل الناس، وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل وصالح المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

الثاني: مُقتصِدُ الخوف، وهو من حمله الخوف على المحافظة على فعل الفرائض، واجتناب المحرمات، ولم يجتنب الشُبهات والمكروهات؛ وهؤلاء دون الأول.

الثالث: ناقصُ الخوف والخشية لله، وهو الظالم لنفسه، وهو من قصّر في فعل الواجبات، وارتكب المحرّمات، وأسرف في الموبقات والشهوات .

ومن رحمة الله ﷻ أن هؤلاء الأصناف الثلاثة كلهم في الجنّة، وهم الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات،وهم فيها على درجات بحسب إيمانهم وتقواهم، وأعمالهم، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر:٣٢-٣٥].

وأهل الخشية لله عز وجلهم من عرف ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله، فخاف الله واتقاه، وسارع إلى كل ما يحبه ويرضاه، واجتنب كل ما يكرهه ويسخطه، وعمر أوقاته بطاعة الله، واجتناب كل معصية، وبالغ في اجتناب المحرمات، وخشي من الوقوع في الآثام، فبالغ في ترك الشبهات، وفضول المباحات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

والخشية المحمودة شرعًا هي الخوف من الجبّار، والخوف من عقوبة الملك العزيز القويّ القادر القهّار، مع المسارعة إلى الخيرات، مع الشعور بالتقصير، والاعتراف بالذنب، والندم الموجب للكفّ عن ركوب المحرّمات، وتغيير الحال إلى الأحسن، والمبادرة بالتوبة، والمسارعة إلى عمل الصالحات، لتكفير السيئات، ونيل الدرجات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ

﴿وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

ومن مقتضيات الخشية لله ﷻ أن تُبلِّغ شرعه كالأنبياء والرسل، ولا تخاف أحدًا في دين الله، وتقولُ بالحق لا تخاف لومة لائم كالأنبياء: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب:٣٩].

ومقتضى خشية الله عز وجلأن تخشاه وحده، وتخافه وحده، ولا تخاف أحدًا من شياطين الإنس والجن : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

والفرق بين الخشية والخوف:

أن الخشية تكون من معرفة عظمة المخشيّ، وهو الله عز وجل .

والخوف يكون من ضعف العبد الخاشي، وإن لم يكن المخوفُ عظيمًا .

فالخشية أعظم من الخوف، لأنها خوفٌ مقرونٌ بفزعٍ ومهابةٍ، وإجلالٍ للرب العزيز الجبار.

والخشية انفعالٌ ممزوجٌ بالخوف من الله؛ تكون تارةً بمعرفة جلال الله وعظمته وهيبته، وتارةً باستحضار جناية العبد، وكثرة معاصيه :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

٢ - منزلة خشية الله عز وجل

خشية الله ﷻ ثمرة معرفة الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الكبرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

وإذا عرفتم ذلك آمنتم بالله وحده، وامتلأت قلوبكم بمحبته، والخوف منه، والخشية له: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

وخشية الله ﷻ من أعظم عبادات القلوب التي تُثمر تعظيم الله ومحبته، وحُسنِ عبادته، وخوفه ورجائه، وعظيم ثوابه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢].

وخشية الله عز وجلتحفظ المؤمن من الوقوع في الغفلة والمعاصي والزلات، والوقوع في الشبهات، وتحمله على شّدة محاسبة النفس، والإقبال على الطاعات، والبعد عن المعاصي والمحرمات: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

ومن امتلأ قلبه بخشية الله، والخوف منه،اتقاه، ونال رضاه، وفاز بثوابه العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

وخشية الله ﷻ من أجلّ أعمال القلوب التي تقوم عليها أنواع الطاعات والعبادات والقُربات، وتُعين المؤمن على مراقبة الله في الخلوة والجلوة، وفي السر والعلن، وكلما كان العبد أكثر علمًا بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله اشتدّ خوفه من ربه، وامتلأ قلبه بخشية الله وتقواه .

وأعظم الناس خشية لله هم الأنبياء والرسل الذين هم أعرف الخلق بالله، وأكملهم عبودية لله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩ ﴾[الأحزاب:٣٩].

وقال النبي ﷺ: «أما والله إنّي لأَخْشاكُم لله وأتقاكُم له» متفق عليه (١).

ثم يليهم العلماء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ودينه وشرعه ووعده ووعيده،كما قال سبحانه :﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨ ﴾[فاطر:٢٨].

ثم يليهم عامة المؤمنين، وهم على درجاتٍ متفاوتة بحسب علمهم وإيمانهم وتقواهم :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١ ﴾[المؤمنون:٥٧-٦١].

والخشية درجة من درجات الخوف، لكنها أعلى من الخوف .

فكل مسلمٍ يخاف الله ﷻ، وكل قلبٍ ليس فيه خوف الله ﷻ فهو قلبٌ خَرِبْ، والخوف والخشية من علامات الإيمان في القلب، كما قال سبحانه :﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ ﴾[آل عمران:١٧٥].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٠٦٣) ومسلم برقم (١٤٠١) .

وقال الله ﷻ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[التوبة:١٣].

والخشية لله ثمرة العلم بالله، فلا تكون قويةٌ، وذات أثرٍ كبير، إلّا من العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر:٢٨].

وخشية الله عز وجلمقامٌ من أعلى مقامات العبودية، وصفةٌ من أعلى الصفات، ودرجةٌ من أعلى الدرجات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢-٤].

وخشية الله ﷻ عبادةٌ قلبيةٌ عظيمةٌ، تثمر للعبد النجاة من النّار ودخول الجنّة.

قال النبي ﷺ: «لا يلِجُ النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله، ودخان جهنم» أخرجه الترمذي(١).

والعالمُ حقًا كل عبدٍ عرف الله فأطاعه، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾[الزمر:٩].

والعلم بالله ﷻ، وخشية الله عز وجل متلازمان، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا فُقدت الخشية دلت على انتفاء العلم: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

وكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر:٢٨].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي.

وخشية الله من صفات عُمارِ مساجد الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

ومن عرف الله حقًا أحبه حقًا، وعظّمه حقًا، وعبده حقًا، بكمال الحب والتعظيم والذل لله ﷻ، فهو يخاف عقاب الله، ويرجو رحمة الله، ويخاف من غضبه، ويطمع في رضاه، ويخاف من خذلانه، ويطمع في توفيقه، ويخاف من ناره، ويرجو جنته.

فليُبشر هذا العبد الذي يخشى الله ويخافه، ويعبد ربه كما أمره، بالإكرام الإلهي، والعطاء الرباني الذي لا يخطر على باله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

٣- فضائل خشية الله عز وجل

الأولى: خشية الله ﷻ خلقٌ عظيم لا يتّصف به إلا الأنبياء والمرسلين والمؤمنين المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾[الأحزاب:٣٩].

الثانية: خشية الله سبب لإخلاص العمل لله ﷻ،فمن عرف الله حقًا أخلص له العبادة حقًا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾[البينة:٥].

الثالثة: خشية العبدِ لربه تجمعه بالصالحين، وتبعده عن الطالحين، وعن الوقوع في المعاصي والسيئات: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾[الكهف:٢٨].

الرابعة:خشية الله ﷻ وتقواه وطاعته من أعظم أسباب الفلاح، والفوز في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [النور:٥٢].

الخامسة: خشية الله ﷻ من مكارم الأخلاق، ومن صفات أولياء الله المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾[الأنبياء:٤٩].

السادسة: خشية الله ﷻ سببٌ لمغفرة الذنوب، وتحصيل أعظم الأجور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك:١٢].

السابعة: خشية الله عز وجلمن علامات الإيمان بالله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾[التوبة:١٣].

الثامنة: خشية الله عز وجلتجعل المؤمن يتأثر بكلام ربه، ويخشع قلبه عند سماع آياته: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ

﴿رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

التاسعة: خشية الله وطاعته أعظم عبوديات الخلق، فالله هو الواحد الأحد الذي يخشاه كل أحد، ويخشاه ويخافه كل من عَلِمَ قدْره، وعرف جلاله وجبروته وكبرياءه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُۤ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٤٩-٥٠].

العاشرة: أن من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ وعرف عظمة كلامه، خشع قلبه لربه، وزادت خشيته له: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

الحادية عشرة: أن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يُبشّر الذين يخشون ربهم بالمغفرة والأجر الكريم: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس:١١].

الثانية عشرة: أن الله ﷻ يكرم أهل خشيته برضوانه عليهم، ورضاهم عنه، ودخولهم أعلى الجنات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

٤ - الأسباب المعينة على خشية الله عز وجل

الأول: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالمؤمن إذا عرف ربه آمن به واتقاه، وامتلأ قلبه بخوفه وخشيته ومحبته: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩﴾ [محمد:١٩].

الثاني: الإكثار من ذكر الله عز وجل، فمن ذكر الله اتقاه، وأطاعه ولم يعصه، واستحى أن يعصيه بنعمه في ملكه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢﴾ [الملك:١٢].

وقال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

الثالث: التفكر في شدة غضب الجبار، وقوة انتقامه ممن كفر به، وأشرك به، وصد عن سبيله وعصاه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود:١٠٢].

الرابع: التفكر في شدة سكرات الموت، وما بعد الموت: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ٢١﴾ [ق:١٩-٢١].

الخامس: التفكّر في شدة أهوال يوم القيامة، وما فيه من الفزع والخوف، والحساب والجزاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ [الحج:١-٢].

السادس: التفكر في خطر سوء الخاتمة.

قال النبيﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حتَّى ما يَكونُ بيْنَهُ وبيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا» متفق عليه [(١)].

السابع: التفكر في شهادة جوارح الإنسان عليه بما عمل من خيرٍ أو شرّ، حيث تشهد الجوارح على صاحبها بما ارتكبه من المعاصي والفواحش، وتفضحه على رؤوس الأشهاد: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور:٢٤].

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٦-٨].

الثامن: التفكر في الخلود في النار يوم القيامة: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

التاسع: التفكر في غضب الجبار، ولعنته لكل من كفر به، وأعرض عن دينه، وصد عن سبيله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٨].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢].

العاشر: التفكر في عظمة مخلوقات الله في العالم العلوي، والعالم السفلي.

فمن تفكر في ذلك رأى عظمة الخالق، وكمال قدرته، وخشي الله واتقاه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٨) ومسلم برقم (٢٦٤٣).

٥- ثمرات خشية الله عز وجل

كلما زادت معرفة العبد بربه، وبدينه، وبوعده ووعيده، ازداد خوفه من ربه، وخشيته إياه، ومن خاف الله خافه كل شيء، وذهب عنه الخوف من كل مخلوق، وأَنِس بالله، واستوحش من غيره، وأورثته تلك المعرفة بالله الحياء من الله، والتعظيم والإجلال لله، والرضا به، والتسليم لأمره، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والمحبة له، والفوز بمغفرته وثوابه، ودوام مراقبته، وخشيته في السر والعلن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

وخشية الله ﷻ من أعظم أسباب انتفاع العبد بالمواعظ، والتأثر بذكر الله، لأن قلبه مليء بحب الله، والطمع في ثوابه، والخوف من عقابه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقال الله ﷻ عن أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾ [المائدة:٨٣-٨٤].

ومن عرف الله حقًا، خافه واتقاه حين يقف بين يديه مصليًّا وداعيًا وذاكرًا، وحين يخلو بنفسه، وحين يتعامل مع الناس في بيعه وشرائه، وحين يؤدي عمله، وحين يربي أولاده، وحين يتعامل مع الخدم والأُجراء: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

إن خشية الله ﷻ، والخوف منه، هو الذي يحمل العبد على حُسن العمل، ويدفع بصاحبه إلى طاعة الله ورسوله، والبعد عن معصية الله ورسوله، كما هي حال

الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وخشية الله ﷻ هي التي تربي قلب المؤمن، فلا ينظر إلى صغر المعصية، ولكن ينظر إلى عظمة من يعصيه جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

وقال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

وقال عز وجل: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٣-٢٠].

اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضى والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى؛ وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك بردَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضرة، ولا فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣]..

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة السابعة والعشرون

عبادة الزهـــد

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه الزهد.

الثاني: أقسام الزهد.

الثالث: فضائل الزهد.

الرابع: الأسباب المعينة على الزهد.

الخامس: علامات أهل الزهد.

السادس: مداخل الشيطان على أهل الزهد.

العبادة السابعة والعشرون

عبادة الزهد

١ - فقه الزهد

الزُهدُ هو نفض اليدين من الدنيا، وعدم تعلّق القلب بها، والسلامة من الانشغال بها، وإسكات اللسان عن ذكرها، وعدم المنافسة في عِزّها، أو الجزع من ذُلِّها.

والزهد في الدنيا عبادة من عبادات القلوب التي تُثمر الانصراف عن الدنيا، والانشغال بما هو أعظم منها؛ وهو الدار الآخرة.

الزهد أن يرى العبد الدنيا على حقيقتها، ويعلم أنها لا تَزِنُ عند الله جناح بعوضة، وأنها فانية، والآخرة باقية: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾[النساء:٧٧].

وقال النبي ﷺ: «لو كانَت الدُّنيا تَعدِلُ عندَ الله جناحَ بعُوضة، ما سقى منها كافرًا شربةَ ماء» أخرجه الترمذي(١).

ومن رأى الدنيا كذلك زَهِدَ فيها، ولم ينافس فيها، ولم يتطلّعْ إليها، ولم يحرصْ عليها، ولم يحزنْ لزوالها إذا فقدها، ولم يبخلْ بها إذا وجدها: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت:٦٤].

فاحرص يا عبد الله إذا ملكْتَ الدنيا ألا تملِكُك، واحذر أن تتخذها ربًا فتتّخذُك عبدًا، ولا تلهث لتحصيل المزيد من جناح بعوضها، واقنع بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، واعمل للدار الآخرة الباقية: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٠).

وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠-٢١].

والزهد المشروع ترك كلّ ما لا ينفع في الآخرة، وأما ما يستعين به العبد على طاعة الله، ويغنيه عن سؤال الناس، فليس تركه من الزهد المشروع، وإنما ترك الفضول التي تُشغِل العبد عن طاعة الله ورسوله هو الزهد المشروع: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢].

وإذا كان الزهدُ في حلال الدنيا مُستحَب، لئلّا يشغل العبد عن طاعة مولاه، فإن الزهد في حرامها واجب.

والزهد من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن آثار الإيمان بأسماء الله الملَك، الكريم، المُحسن، الوهّاب، الرزّاق، الغنيّ، المُعطي: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فمن آمن بأن الله ﷻ هو الملك الرزاق أَمِن في الدنيا ألّا يفُوته رزق الملك الغني الرزاق، الكريم الوهاب المعطي الذي لا ينسى أحدًا، ولا تنفذُ خزائنه أبداً: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

والزاهد هو من ابتغى النعيم المقيم عند ربه الملك الكريم في جنات النعيم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

ورغب عن الحقير الفاني الذي لا ينفك عن الكدر إلى النعيم العظيم الباقي: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾[آل عمران:١٤-١٥].

وقد أمر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا، والتفرغ للأعمال الصالحة، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف:٢٨].

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾[طه:١٣١-١٣٣].

فيا عبد الله لا تعجبك أحوال أهل الدنيا، ولا يغرّنك كلامهم، وما هم فيه من لُعاعة الدنيا، فإنما هي فتنةٌ وعذاب، ومتاعٌ زائل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥].

فالرزق الحقيقي هو الباقيات الصالحات، وهو ذكر الله وطاعته وعبادته، فهو بركةٌ في الدنيا، وثوابٌ لا ينفُذ في الآخرة: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[الكهف:٤٦].

وقال النبي ﷺ: «أخوفُ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ اللهُ لكم من زهرة الدنيا، قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال ﷺ: بركات الأرض» متفق عليه (١).

وقال النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل» أخرجه البخاري (٢).

وأفضلُ الزهدِ إخفاءُ الزهدِ، وأصعبُ الزهد الزهد في الحظوظ والشهوات والملذات؛ فإن النفوس تحب الشهوات العاجلة، وتزهد في الملذات الآجلة.

والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أزهد الناس، وهم قدوة البشر في الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ [الأنعام:٩٠].

وقال النبي ﷺ: «مالي وللدنيا! إنما مثَلي ومثلُ الدّنيا كمثلِ رجلٍ سارَ في يوم شديدِ الحرّ، فاستظلّ تحت شجرةٍ ساعة، ثم راح وتركها» أخرجه أحمد والترمذي(٣).

ونهى الله سبحانه نبيه ﷺ عن النظر إلى ما في أيدي الناس من الدنيا، لأن ذلك مَدْعاةٌ إلى الركون إلى الدنيا الفانية، والانشغال بها عن الدار الباقية، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: ١٣١ – ١٣٢].

وحقيقة الزهد ألا ترفض الدنيا، ولكن تملِكها وتُوظِفها للآخرة، الزهدُ ألّا تكون أُميًّا؛ ولكن أن تكون عالماً بالله وبدينه، وتعلّم الناس ما علّمك الله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء:١١٣].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٤٢٧) ومسلم برقم (١٠٥٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦)

(٣) صحيح: أخرجه أحمد برقم (٣٧٠٩) والترمذي برقم (٢٣٧٧).

الزهد الحقيقي ألّا تكون جاهلًا، ولكن تكون عالماً بالله وبدينه، وتوظِّف ذلك في الدعوة إلى الله، وتعليم شرع الله :﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾[آل عمران:٧٩].

الزهد المشروع ألّا تكون عالةً على الآخرين، بل تكون خادمًا لهم، نافعًا لهم، محُسنًا إليهم :﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

فقوة المؤمن قوةٌ للمؤمنين، وغنى المؤمن غنىً للمؤمنين، وتجارة المؤمن تجارةٌ للمؤمنين، لكن وُفْقَ منهج الله عز وجل، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى .

قال النبيﷺ: " المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير ".أخرجه مسلم (١).

فالمؤمن القويُّ الغني خياراته في العمل الصالح أنواعٌ كثيرة جدًا :﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[البقرة: ٢٦١].

ومن أراد أن يزهد في الدنيا، وينصرف قلبه إلى الدار الآخرة، فعليه أن ينظر في ثلاثة أمور :

الأول: النظر في الدنيا، وسرعة زوالها، وأن لذّاتها غيرُ دائمة، بل يشُوبها كثيرٌ من الكَدَرِ والمنغِّصات، والآفات والعوارض، حتى لو توفرت للعبد أسباب الراحة : ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾[العنكبوت: ٦٤].

---

(١)أخرجه مسلم برقم (١٣٦٩) .

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۝٤﴾ [الضحى: ٤].

الثاني: أن يذكر العبد أن ما قسمه الله له من الرزق آتٍ لا محالة، وأن زيادة الحرص على الدنيا لا تأتي بشيء لم يكتبه الله عز وجل للعبد: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: ٣٢].

فرزق الله معلوم مُقدّر لكل مخلوق كميةً ونوعيةً، ومكانًا وزمانًا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦].

ورزق الله عز وجل لا يجرّه حِرصُ حريص، ولا يمنعه كراهيةُ كاره، ومن علم ذلك اطمأنّت نفسه إلى ما قدّره الله له، وترك الحرص الزائد، وزال عنه الخوف والوجل، واشتغل بما يحبه الله ويرضاه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

الثالث: النظر إلى الآخرة ودوامها، وما في الجنّة من النّعيم المقيم لمن آمن بالله وأخلص العبادةَ لله وحده، واشتغل بما يحبه الله ويرضاه، وقدّم ما يحبه ربه على ما تحبه نفسه من أنواع الطاعات والعبادات والقُربات، ففاز برضوان الله والجنة:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة: ٧١-٧٢].

الزهد في الدنيا عبادةٌ قلبيةٌ عظيمة، وهو سفرُ القلب من وطن الدنيا إلى الآخرة؛ الزهد عدم الفرح بإقبال الدنيا، وعدم الحزن على إدبارها .

ومن أعظم علامات الزهد أن يغتنم العبد جميع أوقاته فيما يُقرّبه إلى ربه ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦٢ -١٦٣].

وأفضل الزهد أن تزهد فيما سوى الله :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[المؤمنون:٥٧-٦١].

الزهد انصراف القلب عن الشيء إلى ما هو خيرٌ منه، وترك راحة الدنيا لراحة الآخرة .

وقد رغّب النبي ﷺ في الزهد في الدنيا، بقوله: «كنت نهيْتُكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تُزَهِّد في الدنيا وتُذكّر الآخرة» أخرجه مسلم (١).

(١)أخرجه مسلم برقم (٩٣٨) .

٢ - أقسام الزهد

الزهد على أربعة أقسام :

الأول: زهد فرضُ عين على كل مسلم ومسلمة، وهو الزهد في كل ما حرّمه الله ورسوله :﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[الحشر:٧].

وهذا متى أخلّ به العبد انعقد سبب العقوبة عليه :﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾[النساء:١٢٣].

الثاني:الزهد في المشتبهات، لئلا يقع في الحرام:

قال النبي ﷺ : «إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَّا وَإِنَّ حِمَى اللهَّ مَحَارِمُهُ» متفق عليه (١).

الثالث: زهدٌ مستحب، وهو الزهد في المكروه، وفُضول المباحات، والتفنُّن في الشهوات المباحة التي تُشغل العبد عن الأعمال الصالحة :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[فاطر:٥-٦].

الرابع: زهد المشمِّرين في السير إلى الله والدار الآخرة، وهو زهدٌ في الدنيا جملة، ولو كان غنيًا فيُخرجها من قلبه بالكلية، ولا يدعها تُساكنُ قلبه، وإن كانت الدنيا في يده:﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

وهذا كحال سيدِ ولدِ آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح من الغنائم

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٥٩٩).

العظيمة، فلم يزدْهُ ذلك إلا زهدًا فيها، كما قال الله له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

وقال الله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وكذا هو حال الخلفاء الراشدين، وكبار أغنياء الصحابة، وعامة الصحابة، وكل من سار على هديهم؛ الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وزُهدُ النفوس في الدنيا على ثلاث درجات:

الأولى: أن يزهد العبد في الدنيا وهو مُشْتَهٍ لها، وقلبه مائلٌ إليها، ونفسه راغبةٌ فيها، ولكنه يجُاهدُها، ويكفّها عن الدنيا، وهذه أدنى درجات الزهد.

الثانية: أن يترك العبد الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها بالنسبة إلى الآخرة، فهو يترك ما يحب لما هو أحب، ويترك ما له قدر إلى ما هو أعظم قدرًا منه.

الثالثة: أن يزهد العبد في الدنيا طوعًا، فلا يرى أنه ترك شيئًا له قيمة، فيكون كمن ترك نواة وأخذ جوهرةً عظيمة، وهذه هي أعلى درجات الزهد.

وينقسم الزهد بالنسبة إلى المرغوب فيه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون المرغوب فيه النجاةُ من النار، وسائر آلام عذاب القبر، ومناقشة الحساب، فهو يزهد في الدنيا، ويستكثر من الأعمال الصالحة، لينجو من تلك الأهوال والآلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

وهذا زهد الخائفين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

الثاني: أن يزهد العبد في الدنيا رغبةً في ثواب الله العظيم، والنعيم الموعود في الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

وهذا زهد الراجين من المؤمنين: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

الثالث: أن لا يكون للعبد رغبة إلا في الله ولقائه، فهو لا يطلب إلا الله وحده، لأن من طلب غير الله فقد عبده: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

وهذا زهد المحبين والعارفين: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

فالأول أدنى الدرجات، والثاني أوسط الدرجات، والثالث أعلى الدرجات.

٣- فضائل الزهد

أنواع الزهد كثيرة فمنه:

الزهد في المال؛ والزهد في الجاه والمنصب، والزهد في الناس، والزهد في النفس.

وفضائل الزهد في النفس هي أعلى درجات الزهد.

فمن هانت عليه نفسه في الله لم يقم لها وزنًا، فبلال رضي الله عنه هانت عليه نفسه في الله فلم يشعر بعذاب الكفار، ولم تؤثّر سياطهم على صلابة إيمانه، ولم يُظهِر لهم من الجزع أدنى شيء، فثبّته الله على الإيمان، وخلّصه من عذاب الكفار، وصار مؤذّن النبي ﷺ في مسجده، وأمره النبي ﷺ يوم الفتح أن يؤذّن على ظهر الكعبة.

فهذه أولى فضائل الزهد في النفس.

الثانية: الزهد في النفس هو أقرب شيء لقبول العمل، فالزاهد في نفسه أبعد شيء عن الرياء والمنّ والعُجب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك: ١٢].

الثالثة: الزاهد في نفسه هو أكثر الناس تواضعًا لله ولغيره: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

الرابعة: الزاهد في نفسه أبعد الناس عن المعاصي، لمعرفته بعقوبة الله لمن عصاه، وإجلال الله أن يعصيه في ملكه، وهو يدر عليه نعمه كل آن.

الخامسة: الزاهد في نفسه لا يُنافس على الدنيا، ولا يحَرص عليها، ولا يبخل بها، ولا يُشغِل لسانه بذكرها، لأنه مشغول بغيرها؛ وهو عمارة الدار الآخرة.

السادسة: الزاهد في نفسه كثير التوبة، دائم الاستغفار، لا تبدو منه هفوة إلا بادر بالتوبة، ولا تحصل منه غفلة إلا سارع بالإنابة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

السابعة: الزاهد في نفسه أقوى الناس على نفسه، فلا يحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ في سبيل ترويضها ورجوعها إلى ربها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

فكلما قلّ شأن النفس عند صاحبها، سَهُلَ عليه إلجامها بلجام الطاعة، وكلما هانت عليه سهُل قيادها إلى ربها، وما فيه صلاحها وسعادتها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

الثامنة: الزاهد في نفسه هو أسرع الناس إلى التضحية بنفسه، وماله، ووقته، في سبيل إعلاء كلمة الله، ولو رأى نفسه لصرف أمواله وأوقاته في سبيل شهواته ورغباته: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

التاسعة: الزاهد في نفسه أسرع الناس إلى القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ونصرة دين الله، والدفاع عن أولياء الله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾[المائدة:٥٤].

العاشرة: الزهد في النفس أعوَن شيء على الصبر والتّحمّل، فالزاهد لا يرى البلاء يُنقِص منه شيئاً، فاجتماع الدنيا عنده مثل فقدها، فإن نقصَ منها شيء فبقدر الله، وإن زاد شيء فابتلاء من الله، فهو راضٍ بما اختاره له مولاه.

فإن كان البلاء عقوبة فهو يستحقها، ويحمد الله أن عجّل له العقوبة في الدنيا، فهي أخفّ من العقوبة في الآخرة، لِيَقدُمَ على ربه قدوم الأبرار الأطهار :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة:٥١].

وإن كان البلاء امتحانًا فهذا وقتُ إظهار صدق الإيمان، والرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار، والمسارعة إلى الأعمال الصالحة :﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[البقرة:١٥٦-١٥٧].

وإن كان البلاء تكفيرًا للسيئات، ورِفعةً للدرجات، فليحمد ربه على ما خصه به من هذا التكريم :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾[التوبة:٥١].

وقال النبي ﷺ: «ما يُصيبُ المسلمُ من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حزنٍ، ولا أذىً ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكَها إلّا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه» متفق عليه (١).

الحادية عشرة: الزاهد في نفسه لا يخاف إلا الله وحده، فالزاهد في نفسه ينظر إلى عزّة الربوبية، ويتصاغر لكبرياء ربه، فيخافُ من الله، ويهون في عينه كلّ أحدٍ سواه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الثانية عشرة: الزاهد في نفسه صريحٌ لا يحتاج إلى التُّقْيةِ؛ لأن نفسه أهوَن عليه من أن يكْذُبَ ليحميها، والطاغية أهون عنده من أن يَتملّقهُ أو يُداهنهُ، وربُّه أعظم عنده من أن يُهان اسمه حتى وإن كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، ودينه أغلى عنده من نفسه من أن يُعطي فيه الدَّنيّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٢) ومسلم برقم (٢٥٧٣).

٤ - الأسباب المعينة على الزهد

الأسباب المعينة على الزهد في الدنيا:

أحدها: تعلُّق القلب بالرب العظيم الغني الذي كل رزق منه، الذي قسم الأرزاق على العباد، ولم ينسَ أحدًا :﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾[هود:٦].

الثاني: تعلُّق القلب بنعيم الجنة الذي يُنسي كل ما سواه، فالزاهد في الدنيا يرى أن كل ما على الأرض من النِّعم إما معينٌ على طاعة الله؛ فينوي إن حصَّله أن ينفقه في سبيل الله، وإما معينٌ على معصيةِ الله، فلا حاجةَ له به :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨].

الثالث: معرفة حقارة الدنيا، وأنها دار ممرّ لا دار مقرّ ، وأن العبد سيخرج من الدنيا ولا شيء معه من متاعها، فيخرج منها كما ولِدَ عُريانًا لا شيء معه إلّا عمله الذي سوف يحُاسَب عليه : ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾[طه:٧٤-٧٥].

الرابع: الإكثار من ذكر الموت، ومفارقة الملذات والشهوات، وزيارة القبور، وتذكُّر أحوال الأموات:

قال النبي ﷺ : «أكثروا ذِكرِ هادمِ اللذات» أخرجه الترمذي وابن ماجة[1].

فاعلم يا عبد الله أن الزهد المشروع هو فراغ القلب من حبّ الدنيا، لا فراغ اليد منها، فكم من غني زاهد أنفق أمواله في سبيل الله، فتنال أعظم الثواب:

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي برقم (٢٣٠٧) وابن ماجة برقم (٤٢٥٨) .

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾[البقرة: ٢٧٤].

ومن علم أن الله الذي خلق الدنيا قد ذمَّها؛ زهِدَ فيها قلبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾[فاطر: ٥].

ومن عرف الآخرة وما فيها من أنواع الملذات؛ لم يلتفت إلى شيء من متاع الدنيا الزائل: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾[الرعد: ٢٦].

وقال الله ﷻ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾[غافر: ٣٩].

الخامس: العلم بأنّ متاع الدنيا قليل زائل، وأنّ نعيم الجنة كثير لا حدَّ له، ولا نفاد له: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾[النساء: ٧٧].

السادس: العلم بأن الحياة الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينة وتكاثر، وأن الآخرة دار النعيم العظيم للمؤمنين والعذاب الشديد للكفار والعصاة: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾[الحديد: ٢٠].

السابع: العلم بأن الله عز وجل زيّن الدنيا ابتلاءً واختبارًا لعباده، وحذّرهم من الركون إليها، والانشغال بها عن الآخرة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾[الكهف: ٧].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾[فاطر: ٥].

الثامن: العلم بأن ذكر الله والأعمال الصالحة خيرٌ من زهرة الدنيا ومتاعها: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

التاسع: عدم الانشغال بذمّ الدنيا؛ وإنما المذموم تعلّق القلب بها، لأن من أكثرَ من ذم الدنيا فهذا دليل على أنها تشغل حيزًا من قلبه، وهو لا يدافعها بلسانه إلا لِتمكُّنها من قلبه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٦-٣٨].

فالزاهد حقًا من غَفلَ قلبه عن الدنيا، وصمتَ عنها لسانه، واستعمل أوقاته بالطاعات التي يحبها الله عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

العاشر: العلم بأن الدنيا المذمومة هي كل ما أشْغلَ عن ذكر الله وعبادته وطاعته، وكل ما أعانَ على معصية الله ورسوله.

فالزهد لا يعني الفقر، فقد يكون الزاهد من أكثر الناس غِنىً كسليمان وداود عليهم الصلاة والسلام، وكعبد الرحمن بن عوف، و الزبير، وغيرهم من أغنياء الصحابة، فأغنياء الصحابة رضي الله عنهم كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم كانوا من أزهد الناس في الدنيا مع كثرة أموالهم، زهدوا في المال فأنفقوه في سبيل الله،

ولو أحبوه لأمسكوه؛ وهان عليهم المال فجادت أنفسهم بإنفاقه في سبيل الله، وفيما يُرضي الله، ولو غلا عندهم لضنّوا به رضي الله عنهم؛ وإن الواحد منهم لم يسعَ لكسب المال لِيستكثر به على الناس، أو لِيطغى به عليهم، ولكن اكتسبه لِيُعْلي به كلمة الله، ويَنصُر به دين الله، ويُعلي به درجته في جنة الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

٥- علامات أهل الزهد

للزاهد علامات بين الناس:

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، وهذه علامة الزهد في المال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

الثانية: أن يستوي عنده مادحه وذامّه من الناس، وهذه علامة الزهد في الجاه.

الثالثة: أن يغلِب على قلب العبد الأُنس بالله، وحلاوة مناجاته، وحلاوة الطاعات، ومرارة المعاصي، والزهد في كل ما سوى ذلك، وتعلّق القلب بالله وحده: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

الرابعة: أن ينشغل قلب العبد بكثرة ذكر الله، وصدق التوكل عليه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل: ٨-٩].

الخامسة: قِصرُ الأمل، والسخاء بالمال، وإيثار غيره على نفسه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩].

السادسة: لزوم بيئة الإيمان، والأعمال الصالحة، وهجر بيئة الغفلة والشهوات: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ

عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

فحبُّ الدنيا مِفتاح كلّ شرّ، والزهد في الدنيا مِفتاح كلّ خير: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

والزهد عبادةٌ قلبيةٌ عظيمة، لكنه لا يتمّ إلّا بصِدق التّوكل على الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التغابن: ١٣].

وأعقل الناس من عمل للدار الباقية، وزهد في الدار الفانية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣١-١٣٢].

فالدنيا دارُ من لا دار له، ومالُ من لا مال له، وبها يتعلّق قلبُ من لا عقل له.

وأسعد الناس في الدنيا أرغبُهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبُهم فيها: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

٦ - مداخل الشيطان على أهل الزهد

يدخل الشيطان على أهل الزهد من أبواب كثيرة:

الأول: أن يستكثر العبد عمله، ويمنّ به على الله، وعلى خَلْقِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر:١-٦].

الثاني: أن يوجب على الله حقًا بعمله الصالح، فيوجب على الله أن لا يبتليه، وأن يرزقه من الدنيا ما يحب، ويعتقد أنه أولى بذلك من العصاة، لعمله الصالح: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ [النحل:٥٣].

الثالث: أن يحب أن يطاع مطلقًا، وأن يخضع الناس له لزهده، وهذه منازعة لله في ربوبيته و ألوهيته: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ [غافر:٦٥].

الرابع: أن يستشعر الاستغناء عن عفو الله ورحمته، لأنه ليست له ذنوب، ومَنْ يَسلمْ من الذنوب؟! فكلّ بني آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التّوابون، ومتى رضيَ العبد عن عمله، فاعلم أن الله غيرُ راضٍ عنه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر:١٥].

والله يريد من عباده الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والشيطان يريد من الناس الزهد في الآخرة، والرغبة في الدنيا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر:٥-٦].

اللهم فقهنا في الدين، واجعلنا هداة مهتدين .

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١] .

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثامنة والعشرون

عبادة الورع

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه الورع.

الثاني: منزلة الورع.

الثالث: درجات الورع.

الرابع: أقسام الورع.

الخامس: مراتب الورع.

السادس: اختلاف الناس في الورع.

السابع: علامات صدق الورع.

الثامن: الأسباب المعينة على الورع.

التاسع: ثمرات الورع.

العبادة الثامنة والعشرون

عبادة الورع

١ - فقه الورع

الورع من أعظم العبادات القلبية، وهو ترك ما ليس به بأس، خوفاً مما به بأس، ابتغاء مرضات الله، وخوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر/ ١٧-١٨].

وقال النبي ﷺ: «إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحرامَ بَيِّنٌ، وبينَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى الله محَارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ» متفق عليه [1].

والورع من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان باسم الله الهادي، ومن أثر الإيمان بأسماء الله القويّ، القادر، القاهر، القهّار، الملك، العزيز، الجبّار، المتكبّر: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٥٩٩).

﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[الحشر/ ٢٢-٢٤].

فالله ﷻ هو الملك الذي له مُلكُ كل شيء، وهو الجبّار القاهر لكل ما سواه، وهو الهادي الذي هدى عبده لورعه وتقواه، وهو الحفيظ الذي من المعاصي حمَاه، ومن الفجور نجّاه، ولو شاء لتركه فسقط في بحر هواه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف/ ٤٣].

وهو سبحانه الملك القوي القادر، القاهر الجبّار، الذي يجب على العبد أن يخافَه بالغيب لعظمة قوته، وعظيم قدرته، وعلّو شأنه، وعظمة مُلكه، وقوة قهره وعظمة كبريائه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر/ ٦٥].

فلا مَهْربَ للعبد من الله إلّا إليه، ولا ملجأ منه إلّا إليه، لكمال قوته وعلمه،وكمال إحاطته وقدرته: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[الطلاق/ ١٢].

وإذا علمتم ذلك آمنتم بالله وحده، وأطعتموه، وعبدتموه وحده لا شريك له.

الورع هو اجتناب الشّبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات.

الورع ترك ما يرى العبد أنه حلال، خشية أن يكون حرامًا.

الورع ترك ما يُريبك إلى ما لا يَريبك، وترك ما يَشينك إلى ما يَزينك.

الورع تجنّب الشبهات، ومراقبة الخطرات عن الزلات.

الورع ترك الحرام والمشتبِه، وكلّ ما يخاف أن يضرّه في الدنيا والآخرة.

والمُتورِّع يحتاج إلى علم كبير بالكتاب والسنة، ليعرف ما يجوز وما لا يجوز، وما يَحَلّ وما يحرُم، ويعرف الواجب من المستحب، والمحرّم من المكروه،

حتى لا يحلّ حرامًا، ولا يحرّم حلالًا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر/ ٢٨].

وتمام الورع أن يعرف العبد خير الخيرين فيفعله، ويعرف شرّ الشرّين فيتركه، ويعرف الحسن من الأحسن ليفعل الأحسن والأكمل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس/ ٢٦].

والورع المشروع هو فعل الواجبات حسب الاستطاعة، وترك المحرمات مطلقًا، والبعد عن المشتبهات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون/ ٥٧-٦١].

فما أحوجَنا اليوم إلى الورع؛ فنحن في زمان قلّ فيه الورع، أو غاب فيه الورع.

فما أعظم التعبّد لله بصفة الورع في زمنٍ أصبح فيه كثيرٌ من الناس في غاية الطمعِ والجشع كحاطبِ ليل؛ يجمع كل شيء لا يميز بين حلالٍ وحرامٍ، وبين ما ينفعه ومايضرّه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك/ ١٢].

والورع عبادةٌ قلبيةٌ عظيمة تمنع العبد من الوقوع في المحرّمات والمنهيّات، وتحرسه من الوقوع في الشّبهات، وتمنعه من التقصير والتفريط في أداء الواجبات والمستحبات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر/ ١٧-١٨].

وقال النبي ﷺ: «إِنِّي لأَنْقَلِبُ إلى أَهْلِي فأجِدُ التَّمْرَةَ ساقِطَةً على فِراشِي، فأرْفَعُها لِآكُلَها، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً، فَأُلْقِيها» متفق عليه (١).

والزهدُ والورعُ من أعظم العبادات القلبية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف/ ٢٨].

والفرق بين الزهدِ والورعِ أن الزهدَ ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة، والزهدُ أبلغ من الورع، وأشرف منه، والورع داخل في الزهد، فكلّ زاهدٍ ورعٍ، وليس كلّ ورعٍ زاهدٍ.

والزهد والورع يشتركان في ترك المحرمات والمكروهات والمشتبهات، وفعل الطاعات من الواجبات والمستحبات، وقد جمع النبي ﷺ الورع كله بكلمة واحدة في قوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» أخرجه الترمذي (٢).

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٢٤١٢) ومسلم برقم (١٠٧١).

(٢) **حسن/ أخرجه** الترمذي برقم (١٤٨٩).

٢ - منزلة الورع

الورع من عبادات القلوب، والورع من أعظم أخلاق المُرسَلين، ومن أحسن صفات المتَّقين: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨﴾ [الشورى/ ٣٦-٣٨].

الورع هو أعلى منازل الدِّين، وهو طوق النجاة في الدنيا والآخرة.

فبالورع تُنال أعظم الدرجات في الجنّة، وبالورع تُحفظ الدماء والأعراض، والأموال والحقوق، وبالورع يختفي الجشع والطمع، والظلم والحسد، والاحتكار والغشّ بين الناس، وبالورع يحَفظ العبد لسانه عن القيل والقال، والغيبة والنميمة، وإثارة الفتن، والورع سببٌ لبذل المعروف والإحسان بين الناس: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران/ ١٣٣-١٣٤].

فالدّين هو الورع؛ فلا تغترّ بصلاة أحد ولا صيامه ولا صدقته، ولكن انظر إلى ورعه في فعل الواجبات، واجتناب المحرمات، وترك الشبهات، فإن كان ورعاً مع ما رزقه الله من العبادة فهو عبد الله حقًا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال/ ٢-٤].

٣- درجات الورع

الورع درجتان:

إحداهما: الورع الواجب، وهو كفّ النفس عن كل ما حرّم الله من الاعتقادات، والأقوالِ، والأعمالِ، والمعاملاتِ، والأخلاقِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام/ ١٥١-١٥٣].

الثانية: الورع المستحب، وهو كفّ النفس عن المكروهات، والمشتبهات، حتى لا يقع العبد في المحرمات.

قال النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» أخرجه الترمذي والنسائي(١)

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٢٥٨١) والنسائي برقم (٥٧١١).

٤ - أقسام الورع

ينقسم الورع إلى أربعة أقسام :

الأول: الورع الصحيح المشروع الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، وهو اتّقاء العبد ما يخاف أن يكون سببًا للذمّ والعذاب، ويدخل في ذلك أداء الواجبات، والمشْتبهات التي تشبه الواجب، وترك المحرمات، والمشتبهات التي تشبه الحرام :﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب/ ٢١].

وقال النبي ﷺ : «إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألَا وإنَّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ» متفق عليه (١).

وقال النبي ﷺ: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإِثْمُ ماحاكَ في نَفْسِكْ، وكَرِهْتَ أَنْ يطّلِعَ عَليهِ النَّاسُ» أخرجه مسلم (٢).

الثاني: الورعُ الفاسد، وهو الورع المبنيّ على أوهامٍ وظنونٍ كاذبة، كحال أهل الوسوسة في النجاسات، وورع أُناسٍ يعدّون غالبَ أموال الناس محرّمة أو مشتبهة، وورع أهل البِدع، وورع الكفّار والمشركين الذين حرّموا الوصيلة والبحيرة والسائبة والحام، وورع أهل الكتاب الذين حرموا ما أحلّ الله .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٥٩٩).

(٢)أخرجه مسلم برقم (٢٥٥٣) .

فهؤلاء كلّهم ورعهم ورعٌ فاسد، مبنيّ على هوى، وجهلٍ، وعادة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم/ ٢٣].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء/ ١١٥].

وقال النبي ﷺ: «هَلَكَالمُتَنَطِّعُونَ، قالها ثلاثًا» أخرجه مسلم (١).

وقال سبحانه عن الكفار: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة/ ١٠٣].

وقد ذمّ رسول الله ﷺ هذا الورع الفاسد، وحذّر منه، فقال: «ما بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً» متفق عليه (٢).

الثالث: الورع المندوب، وهو الوقوف والبعد عن الشبهات.

الرابع: الورع الذي هو فضيلة، وهو الكفّ عن كثير من المباحات، والاقتصار على أقل الضرورات: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف/ ٢٨].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإِنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى الله مَحارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ» متفق عليه (٣).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٠) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦١٠١) ومسلم برقم (٢٣٥٦).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٥٩٩).

٥ - مراتب الورع

الورع على أربع مراتب :

الأول: ورع العُدول،والمسلمون كلهم عُدول إلى أن يثبت العكس؛ وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر من قول أو فعل أو خُلُق، وهذه أدنى مراتب الورع.

الثاني: ورع الصالحين،وهوالتوقّي عن الشبهات التي تتقابل فيها الاحتمالات بين الحلال والحرام

قال النبي ﷺ: «دعْ ما يَريبُكَ إلى مَا لا يَرِيبُكَ» أخرجه الترمذي والنسائي(١).

الثالثة: ورع المتقين،وهو ترك الحلال المَحْض الذي قد يكون سبباً للوقوع في الحرام : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[الطلاق/ ٢-٣].

الرابعة: ورع الصدّيقين،وهو الإعراض عن كل ما سوى الله عز وجل خوفاً من صرف ساعة أو لحظة من العمر فيما لا يُقرّب إلى الله عز وجل .

وهذه أعلى مراتب الورع، وهو ورع الأنبياء والمرسَلين، والصدّيقين والشهداء والصالحين :﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾[النساء/ ٦٩-٧٠].

والورع أنواع :

ورعٌ في السمع، ورعٌ في البصر، ورع في اللسان، ورعٌ في الفِكر؛ ورعٌ في الأكل والشرب، ورعٌ في البيع والشراء، ورعٌ في الأموال، ورعٌ في الأقوال، ورعٌ في الأعمال، و ورعٌ في التُروك : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾[المؤمنون/ ٥٧-٦١].

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٨) والنسائي برقم (٥٧١١).

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل/ ١١٦-١١٧].

والورع على ثلاث مراتب:

الأول: ورعٌ واجب، وهو الكفّ عن جميع المحرمات وهذا للناس كافة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر/ ٧].

الثاني: ورعٌ مستحب، وهو الوقوف والبعدُ عن الشبهات، وهذا يفعله قليل من الناس.

الثالث: الكفّ عن الكثير من المباحات، والاقتصار على أقل الضرورات؛ وذلك للنبيين، ومن سار على هديهم من الصدّيقين والشهداء والصالحين، وهو الورع عن كل ما يُشغِل عن الله عز وجل، والأعمال الصالحة، والدار الآخرة: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف/ ٢٨].

٦ - اختلاف الناس في الورع

يختلف الناس في الورع بحسب علمهم، وقوة إيمانهم، وكمال يقينهم، وصدق تقواهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر/ ٢٨].

مراتب لناس في الورع:

الأول: من الناس من يكون الحائل بينه وبين المعاصي كالجبل، فلا يشمُّ لها رائحة، ولا يسمع لها صوتًا، ولا يرى لها صورة.

وهذا النوع من الورع يدخل في عصمة الأنبياء، وحفظ الأولياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة/ ٥].

الثاني: من الناس من يكون الحائل بينه وبين المعاصي كالزجاج، لا يستطيع له اختراقًا، ولا يسمع له صوتاً، ولا يجد له رائحة؛ لكنه يرى الألوان والحركات والمغريات.

الثالث: من يكون الحاجز بينه وبين المعاصي كالماء، يمكن أن يخترقه، وتَنفُذ منه الروائح، وتُسمع منه الأصوات غالبًا، ويرى من خلاله الألوان والحركات.

الرابع: من الناس من يكون الحائل بينه وبين المعاصي كالهواء، يسهل عليه اختراقه، وهو والمعصية في لحافٍ واحد.

فالناس مختلفون في الورع بحسب ذلك؛ فمنهم من يحول ورعه بينه وبين الكبائر فقط، ومنهم من يحول ورعه بينه وبين الكبائر والصغائر، ومنهم من يحول ورعه بينه وبين الكبائر والصغائر، والمكروهات والمشتبهات: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٞ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة/ ١٧].

والورع المشروع المطلوب،هو فعل الواجبات حسب الاستطاعة، والكفّ عن المحرمات مطلقًا، وترك المشتبهات والمكروهات: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١٢﴾ [هود/ ١١٢].

٧- علامات صدق الورع

علامات صدق الورع أن يحرصَ العبد ألّا يفوتَه شيءٌ من المستحبّات، ويحزن حزنًا شديدًا إذا فاته إحداها، كأن تفوته إحدى السُنن الراتبة، أو صلاة الضحى، ونحو ذلك تعظيماً لله، ولأمره؛ فصادق الورع يتورّع عن المشتبهات، ويتجنّب المحرمات من أكل الحرام، والخوض في أعراض الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات/ ١١-١٢].

وعامّةُ الورع يكون في التروك أكثر منه في الأفعال، فعلى المسلم أن يتورَّع عن كل ما يضرّه في دينه ودنياه وآخرته من قولٍ قبيح، أو فعلٍ خبيث، أو خلقٍ ذميم، أو سلوكٍ منحرف، وعليه أن يحفظ جوارحه من كل سوء، ويوظّفها في كل ما ينفعه في دينه ودنياه وأخراه، ويعوّدها على فعل الخير، لتشهد له بين يدي خالقه بما فعلته يوم القيامة من الخير والحسنات: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس/ ٦٥].

وعلى العبد أن يحفظ لسانه من كلّ كلامٍ سيء، فلا يسبُّ ولا يشتُم، ولا يكذب ولا يستهزئ؛ بل يقول القول الحسن، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل/ ١١٦-١١٧].

وقال النبي ﷺ : «مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، فليَقُلْ خيرًا، أو لِيَصْمُتْ» متفق عليه(١).

ومن علامات صدق الورع التورّع عن كل خُلقٍ ذميم، والتحلّي بكلّ خُلقٍ كريم، كما أثنى الله عز وجل على نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم/ ٤].

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «لمْ يَكُنْ رَسولُ اللهِّ ﷺ فَاحِشًا ولَا مُتَفَحِّشًا، وإنَّه كانَ يقولُ: إنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا» أخرجه البخاري (٢).

ومن علامات صدق الورع عدم دخول العبد فيما لا يعنيه، وأن لا يتدّخل فيما يخصّ الآخرين إلّا بالخير والإصلاح: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[النساء/ ١١٤].

وقال النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» أخرجه الترمذي وابن ماجة(٣).

ومن الورع التورّع عن الخوض في أعراض الناس .

ومن علامات الورع التورّع عن المحرّمات والمكروهات والمشتبهات: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[المائدة/ ١٠٠].

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[النساء/ ١].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٥) ومسلم برقم (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٣٥).

(٣) حسن/ أخرجه الترمذي برقم(٢٣١٨)، وابن ماجة برقم (٣٩٧٦) .

٨- الأسباب المعينة على الورع

الأول: معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف الله حقاً اتقاه وتورع عن معصيته: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد/ ١٩].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر/ ٢٨].

الثاني: معرفة سيرة الرسول ﷺ وطريقة حياته، ليقتدي به في حسن خلقه، وزهده وورعه وتقواه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف/ ٢٨].

وقال الله عز وجل: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب/ ٢١].

الثالث: تعظيم حُرمات الله حتى لا يقع فيها العبد: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج/ ٣٠-٣١].

الرابع: تعظيم أمر الله واجبًا أو مستحبًا، فنسارع إليه حتى يعْظُم علينا فعلُ خلافه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك/ ١٢].

الخامس: تعظيم أمر الرسول ﷺ، فنتّبعه فيما أمر به واجبًا أو مستحبًا، ونَحذَر مما حذّر منه محرمًا أو مكروهًا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر/ ٧].

السادس: الحذر من محُقِّرات الذنوب، فإن الصغيرة تكون بالإصرار عليها كبيرة، والمؤمن يرى ذنبه كالجبل يوشك أن يقع عليه، فيتوب إلى الله، ويستغفر من ذنبه، ويُكثر من التوبة و الاستغفار، خوفًا من الله وعذابه، والمنافق يرى ذنبه كالذُّباب وقع على أنفه فأطاره، ويرى أنه يكفيه أن يستغفر الله بعد أن يفعل الكبيرة، يظنّ أن ذلك يمحوها من غير أن يتوب إلى الله، ويندم على الذنب، ويقلع عنه، ويعزم على عدم العودة إليه :﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾[المائدة/ ٣٩].

والفرق بيننا وبين الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يفعلون السُنّة، لأنها سُنّة، جاء بها النبي ﷺ،ونحن نترك السنّة، لأنها سنّة غير واجبة : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ ﴾[الحج/ ٣٢].

السابع: الإكثار من ذكر الموت، وأحوال وأهوال اليوم الآخر، فمن ذكر ذلك سارع إلى طاعة الله، واتقى المعاصي، وزهد في كل ما حرم الله: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾[السجدة/ ١٥-١٧].

وقال عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾[البقرة/ ٢٨١].

٩ - ثمرات الورع

الأولى: الورع هو الدّين كلّه، فالدّين كلّه تصديق الأخبار، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والورع من العبادات القلبية التي تجلِب محبة الله للعبد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة/ ٢٢٢].

الثانية: الورع فيه الاقتداء بهدْي النبي ﷺ، وفيه ترك الشبهات، والبعد عنها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب/ ٢١].

الثالثة: بالورع يطيب المطعم والمشرب، والورع سببٌ لإجابة الدعاء، والورع من أعظم أسباب التقوى، وحصول الرزق ميسراً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق/ ٢-٣].

الرابعة: الورع خيرُ خصال الدّين، فكنْ ورعاً تكنْ أعبدَ الناس .

الخامسة: الورع من أعظم أسباب المغفرة، ودخول الجنّة، وحصول الأجر العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك/ ١٢].

السادسة: الورع من أعظم أسباب استقامة القلب والجوارح، ونيل الدرجات العلا في الجنّة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال/ ٢-٤].

السابعة: الورع من أعظم أسباب الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

ﭐلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾[فصلت/ ٣٠-٣٢].

الثامنة: الورع الذي أمر الله ورسوله به هو فعل الواجبات والمستحبات، واجتناب المحرمات والمكروهات والمشتبهات، ابتغاء مرضات الله، وهو من أعظم أسباب رضوان الله على العبد، ودخول الجنة، ومغفرة الذنوب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة/ ٧-٨].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[الأنفال/ ٢٩].

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها.

﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف/ ٢٣].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة التاسعة والعشرون

عبادة اليقين

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأوَّل: فقه اليقين

الثَّاني: فضائل اليقين

الثَّالث: أنواع اليقين

الرَّابع: مراتب اليقين

الخامس: تفاوت النَّاس في اليقين

السَّادس: علامات أهل اليقين

السَّابع: علامات صدق اليقين

الثَّامن: ثمرات اليقين.

التاسع: الأسباب المُعِينة على تحصيل اليقين

العبادة التاسعة والعشرون

عبادة اليقين

١ - فقه اليقين

اليقينهو الاعتقاد الجازم بوجود الله ﷻ،وأنَّه واحدٌ لا شريك له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأنَّه الخالق الرَّازق المالك لهذا الكون وحده لا شريك له، وأنَّ الله وحده هو الرَّبُّ الَّذي يستحقُّ العبادة وحده لا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

اليقينهو الاعتقاد الجازم بحكمة الله تعالى في أقداره، وأنَّ كلَّ ما يجري في الكون قدَّره الله بعلمه ومشيئته وإرادته، وأنَّ كلَّ ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وأنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون أبداً، فيدفعك ذلك إلى الإيمان والرِّضا بقضاء الله وقدره، والتَّسليم لأمره: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥].

واليقينهو الاعتقاد الجازم بأنَّ الله وحده بيده مقاليد الأمور كلِّها، فيفوِّض العبدُ جميعَ الأمور إليه، فلا يختار لنفسه إلَّا ما اختاره الله له، واليقين بأنَّ الأمر كلَّه لله وحده، فالله وحده بيده الغنى والفقر، وبيده الصِّحَّة والمرض، وبيده الأمن والخوف، وبيده الحياة والموت، وبيده التَّصريف والتَّدبير، وبيده الخلق والتَّصوير: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

واليقينهو الاعتقاد الجازم بالجزاء يوم القيامة، وأنَّ الله سوف يجُازي أهل الطَّاعات بالجنَّة، وسيُجازي مَن كفر به وعصاه بالنَّار، فيدفعه ذلك للاستعداد لذلك اليوم العظيم بامتثال أوامر الله، والحذر من ارتكاب معاصيه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾[الحج:٥٧].

فمَن أيقن بذلك كلِّه فقد وصل إلى ذروة اليقين، وعبَدَ الله بالحبِّ والتَّعظيم والذُّلِّ له، وعبَدَ الله كأنَّهُ يراه، فإن لم يكن يراه فإنَّ الله يراه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر:٢٨].

وقال النبي ﷺ لجبريل حين سأله عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» متفق عليه (١).

واليقين يَكمُل بالنَّظر والتَّدبُّر والتَّفكُّر في ملكوت ربِّ العالمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[الأنعام:٧٥].

فاليقين روح التَّوحيد، ونور الإيمان، وهُو مِن مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحُسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الكبرى، وهو مِن موجبات الإيمان بأسماء الله الملك العزيز الجبَّار، والحكيم والحكم، والقدير والقادر، والنَّصير والنَّاصر، والخالق والبارئ والمصوِّر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩)

الله سبحانه هو الخالق الَّذي خلق كلَّ شيءٍ، البارئ الَّذي برأ كلَّ شيءٍ، المصوِّر الَّذي صوَّر كلَّ مخلوقٍ، وهو الملك الَّذي له الملك كلُّه، وبيده الخير كلُّه، وإليه يرجع الأمر كلُّه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر:١٣].

وهو الإله الحق الَّذي خلق جميع المخلوقات، لتدلَّ على كمال قدرته، وتخضع لإرادته، وتسبِّح بحمده، وتذلَّ لكبريائه، وتسجد لعظمته: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء:٤٣-٤٤].

وهو سُبحانه العزيز الَّذي لا يُغلَبُ، القويُّ الَّذي قهر كلَّ قويٍّ، القادر الَّذي لا يعجزه شيءٌ، ولا يقف له شيءٌ، ولا يمتنع عليه شيءٌ ولا يغيب عنه شيءٌ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود:٦٦].

وهو سبحانه النَّاصر النَّصير الَّذي ينصُر أولياءه، ويخذل أعداءه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد:٧].

وقال الله ﷻ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: ١٦٠].

هو سبحانه الحكيم الحكم الَّذي له الحكم كلُّه في الدُّنيا والآخرة، الحكيم الَّذي يضع الشَّيء في موضعه، وهو أحكم الحاكمين: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام:١٨].

وهو سبحانه الإله العظيم الَّذي خلق الجنَّ والإنس لعبادته وحده لا شريك له، وتكفَّل بأرزاقهم جميعاً، مَن آمن به ومَن كفر به: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وهو سبحانه الأوَّل فليس قبله شيءٌ، والآخِر فليس بعده شيءٌ، والظَّاهر فليس فوقه شيءٌ، والباطن فليس دونه شيءٌ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

وهو سبحانه السَّميع البصير، العليم الخبير الَّذي يعلم بكلِّ شيءٍ، ويرى كلَّ شيءٍ، ويسمع كلَّ شيءٍ، ولا يخفى عليه شيءٌ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

وهو سُبحانه الصَّادق الَّذي وعد مَن أطاعه بالجنَّة، وتوعَّد مَن عصاه بالنَّارِ، ومَن أصدق مِن الله قيلاً، ومَن أصدق مِن الله حديثاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

وهو سُبحانه الحيُّ الَّذي لا يموت، القيُّوم الَّذي لا ينام، الحيُّ بجميع صفات الكمال والجلال والجمال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

ومَن علم بذلك كلِّه زاد إيمانه، وقوِي يقينُه، وعبَد اللهَ وحدَه، وتوكَّل عليه وحدَه، واستعان به وحدَه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

ومنزلة اليقين أنَّه أعظم مراتب الدِّين، وبالصَّبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

ومَن فقدَ اليقينَ فقدَ الإيمانَ؛ لأنَّ مِن شروط «لا إله إلَّا الله» اليقين المنافي للشَّكِّ، والشَّكُّ في الله كفرٌ، فمَن شكَّ في الله فقد كفر به: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٠].

٢ - فضائل اليقين

لليقين فضائل:

الأولى: اليقين هو أعلى مراتب الدِّين، فمَن أيقن على ربِّه عبدَه كأنَّه يراه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال ﷺ لجبريل حين سأله عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» متفق عليه (١).

الثَّانية: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ [السجدة:٢٤].

الثَّالثة: اليقين على الله، وعلى وعده ووعيده، هُو الَّذي يدفع العبد للتَّضحية في سبيل الله بالمال والنَّفس والوقت، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله في كلِّ حالٍ، لينال أعلى الدَّرجات في الجنَّة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)﴾ [الملك:١٢].

الرَّابعة: اليقين هو الذي يُعِين العبدَ على تحمُّل مشاقِّ الدَّعوة والعبادة، كما وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣)﴾ [النمل:٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات:١٥].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩)

الخامسة: أنَّ اليقين أعلى درجات الإيمان، فأفضل الإيمان هو الإيمان بالغيب كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾[البقرة: ١-٣].

السَّادسة: أنَّ اليقين يُثمِر أعظم العبادات القلبيَّة والبدنيَّة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾[الأنفال: ٢-٤].

السابعة: أن اليقين يثمر عبودية الصبر التي هي من أعظم عبوديات القلب: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾[الروم: ٦٠].

٣- أنواع اليقين

اليقين نوعان:

الأوَّل: يقينٌ على أخبار الله الَّتي جاءت في كتابه العظيم، وهو الإيمان بيقين بكلِّ ما جاء به الشَّرع مِن أمور الغيب كأركان الإيمان السِّتَّة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدَر خيره وشرِّه: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: ١-٥].

الثَّاني: يقينٌ على أوامر الله الشَّرعيَّة والكونيَّة، وأنَّها كلَّها حقٌّ وعدلٌ، ورحمةٌ وإحسانٌ، والتَّسليم الكامل لكلِّ ما أمر الله ورسوله به، والطُّمأنينة بكلِّ ما قضاه الله وقدَّره: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

وقال الله عز وجل: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبة: ٧١].

واليقين الصَّحيح هو المقرون بعمل الجوارح فِعلاً أو تركاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وقال ﷻ: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر: ٩].

٤ - مراتب اليقين

لليقين ثلاث مراتب:

الأولى: علم اليقين، وهو انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ويعلمه ولا يشكُّ فيه، كانكشاف المحسوس للبصر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

الثَّانية: عين اليقين، وهو أن نشاهد المعلوم بالقلب كما يشاهد المحسوس بالبصر.

الثَّالثة: حقُّ اليقين، وهو مباشرة المعلوم ورؤيته وإدراكه الإدراك التَّامَّ.

فالأولى كعلم الإنسان بأنَّ في هذا الوادي ماءً حلواً، والثَّانية كرؤية هذا الماء ببصره، والثَّالثة كرؤيته، والشُّرب منه وذوق طعمه .

وعلى هذا فإيماننا الجازم بالجنَّة والنَّار هذا علم اليقين، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ [التكاثر:٥].

فإذا أزلفت الجنَّة للمتَّقين في يوم القيامة، وشاهدها الخلائق، وبُرِّزت الجحيم للغاوين، ورآها الخلائق، فذلك عين اليقين كما قال سبحانه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر:٧-٨].

فإذا أُدخِل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ، وأُدخِل أهلُ النَّار النَّارَ، فذلك حينئذٍ حقُّ اليقين كما قال سبحانه عن الإنسان يوم القيامة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٩٦].

فأعلى درجات اليقين هي مرتبة حقِّ اليقين، وهي أعلى مراتب الدِّين، فمَن وصل إلى ذلك عبَد الله بصفة الإحسان، والإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن

تراه فإنَّه يراك، ونال يوم القيامة أعظم الدَّرجات في الجنَّة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

واليقين هو أعلى مراتب الدِّين، بأن ترى بقلبك ما غاب عنك كأنَّه حاضرٌ بين يديك، وتعبد الله بموجب ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥-١٧].

واليقين أعلى درجات الإيمان، وهو يقوى ويضعُف، ويزيد وينقص، بحسب العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بدينه وشرعه، والعلم بوعده ووعيده، والعلم بآياته ومخلوقاته، والعلم بنعمه وإحسانه: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية:٣-٦].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

٥- تفاوت النَّاس في اليقين

النَّاس متفاوتون في اليقين بحسب العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بدِينه وشرعه، والعلم بوعده ووعيده .

فمِن النَّاس مَن يكون يقينه علم يقينٍ كمَن سمع عن العسل مِن ثقةٍ أنَّه حلوٌ وأسودُ فأيقن بذلك

ومِن النَّاس مَن يكون يقينه عينَ اليقين، كمَن رأى العسلَ بعينه،فرأى أنَّه أسود فأيقن بذلك، وهذا أعلى ممَّا قبله.

ومِن النَّاس مَن يكون يقينه حقَّ اليقين، كمَن سمع عن العسل أنَّه حلوٌ، أسود، ثمَّ رآهُ، وذاق طعمه،وأحسن بحلاوته فهذا قد وصل إلى حقِّ اليقين .

وحقُّ اليقين: أن تعبد الله كأنَّك تراه بصفات جلاله وجماله وكماله، وهذه أعلى درجات اليقين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجرات:١٥].

وكلَّما زاد علم العبد بربِّه زاد يقينه، وحسُنت عبادته، وأدام ذِكرَ ربِّه، ومَن صحَّ يقينه بلغ درجة الإحسان فعبد الله كأنَّه يراه بصفات جلاله وجماله وكماله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

ومِن النَّاس مَن يضعُف يقينه على ربِّه حتى يقع في المعاصي، وسبب المعاصي هو ضعْفُ يقين العبد بالوعد والوعيد، والجنَّة والنَّار؛ لأنَّ ذلك مِن الغيب الَّذي سمع به، ولم يشاهده، ولو كان الجزاء بالجنَّة والنَّار حاضراً لأطاع الله كلُّ أحدٍ، ولم يعصِ الله أحدٌ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ بحكمته غيَّبه ابتلاءً لعباده، ليعلمَ مَن يُطيعه بالغيب فيُعطيه أعظم الأجر والثَّواب كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[الملك:١٢].

فالله غيبٌ لا يُرى، والجنَّة غيبٌ، والنَّار غيبٌ، والملائكة غيبٌ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾[البقرة:١-٥].

ومَن قوي يقينه رأى الله عزَّ وجلَّ يخلق ويرزق، ويحكم ويدبِّرُ، ويُعطي ويمنع، ويحيي ويميت، فعبد الله كأنَّه يراه، ورأى الجنَّة كأنَّه يراها رأي العين، ورأى النَّار وسعيرها، فامتلأ قلبُه باليقين،فدعا إلى الله، وقاتل في سبيل الله حتى يُقتل، لأنَّه يرى الجنَّة والنَّار ولا يرى النَّاس: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر:٢٨].

وبعد تحريم الصَّيد على المُحرِم بالحجِّ أو العُمرة ابتلى الله الصَّحابة بوجود الصَّيدِ مُيسَّر بينهم، ليمتحن إيمانهم بما أمرهم به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾[المائدة:٩٤].

فاليقين هو التَّصديق بالغيب، فإذا صار الغيب عند العبد شهادةً فهذا هو حقُّ اليقين الَّذي يريده الله من كلِّ عبدٍ،حتى يعبد الله كأنَّه يراه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢-٤].

٦ - علامات أهل اليقين

لأهل اليقين علاماتٌ:

الأولى: تعلُّق قلب العبد بالله ﷻ، والإكثار مِن ذِكره، وشكره، ودوام حُسن عبادته، وكثرة التَّوبة، والاستغفار، والبكاء، والخشوع، والانكسار بين يديه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥ -١٧].

الثَّانية: تعلُّق القلب ببيوت الله ﷻ، والحرص على إقامة الصَّلوات فيها والإحساس بالرَّاحة والطُّمأنينة عند المكث فيها: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٦ -٣٨].

الثَّالثة: ميل القلب إلى الإكثار مِن تلاوة كتاب الله، والحرص على حِفظه وفهمه وتدبُّره، والعمل بما فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف:١٧٠].

الرَّابعة: حبُّ الرَّسول ﷺ، والحرص على امتثال أوامره، واجتناب نواهيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

وقال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

الخامسة: الخوف من الله جل جلاله، والخشية من عذاب الله، والمسارعة

إليالطَّاعات، والحذر من الوقوع في المعاصي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

السَّادسة: رجاء الله ﷻ،والطَّمع في رحمته وعفوه، وإحسان الظَّنِّ به، والثِّقة بوعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

السَّابعة: دعاء الله ﷻ،والفزع إليه في كلِّ حالٍ، والإلحاح بالدُّعاء ولو تأخَّرتِ الإجابة: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر:٦٥].

الثَّامنة: خوف العبد على دِينه وإيمانه مِن الضَّعف والنَّقص، والحرص على إتباع الفرائض بالنَّوافل، وإتمام النَّقص بالنَّوافل مِن الصَّلوات والصَّدقات والصِّيام والحجِّ والعمرة وغيرها من أنواع العبادات: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

التَّاسعة: تمعُّرُ وجه المؤمن غضباً لله ﷻإذا انتُهكت محارم الله، أو إذا سمع أو علم مَن يلمز شيئاً ممَّا جاء به الرَّسول ﷺ، أو ينتقص أحداً من أهل العلم والخير والتَّقوى.

العاشرة: الإكثار مِن ذِكرِ الموت وما بعده من الأهوال في القبر، ويوم القيامة، والاستعداد لذلك بالعمل الصَّالح: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة:٢٨١].

الحادية عشرة: القناعة بما رزقك الله، والرِّضا بما قسمه الله لك، والاشتغال بحمد الله وشكره علينعمائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة:١٧٢].

الثَّانية عشرة: حبُّ الدَّعوة إلى الله، والقيام بها في جميع الأماكن والأوقات والأحوال حسب القدرة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

الثَّالثة عشرة: الفرح بظهور دِين الله، وانتصار دِين الله عزَّ وجلَّ، وظهور المسلمين على أعدائهم، وخذلان أهل الباطل: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم:٤-٥].

الرَّابعة عشرة: حبُّ المؤمن لدعوة النَّاس إلى الخير، وتعليمهم شرْعَ الله، والإحسان إليهم، ليحبُّوا ربَّهم ويعبدوه ويشكروه، والقيام بذلك، وإقامة النَّاس على ذلك: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

الخامسة عشرة: التَّسليم الكامل لأمر الله الكونيِّ والشَّرعيِّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

السَّادسة عشرة: رحمة الخلق، والرِّفق بهم، والعطف عليهم، والإحسان إليهم، ليؤمنوا بالله وحده، ويعبدوه وحده لا شريك له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

٧- علامات صِدق اليقين

لصدق اليقين علاماتٌ:

الأولى: الثَّبات على الدِّين، وصِدْقُ التَّوكُّل على الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

الثَّانية: المسارعة إلى الخيرات، وعدم الكسل عن الطَّاعات، والخوف من عدم قبول العمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

الثَّالثة: الثَّبات عند المِحن والفتن والشَّدائد، فمَن أيقن على ربِّه ثبت على دِينه، ولم يتجاوز حدودَه، ولم يخالِف أمره: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود:١١٢-١١٣].

الرَّابعة: عدمُ الميل إلى المعاصي أو الإصرار عليها: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى:٣٦-٣٨].

الخامسة: التَّضحية بكلِّ شيءٍ مِن أجل إقامة الدِّين، ونُصرة الدِّين، وإعلاء كلمة الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال:٧٤].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

السَّادسة: البكاء عند ذِكرِ الله، فمَن عرف الله حقًّا بأسمائه وصفاته وأفعاله بكى عند ذِكرِه، ورجا رحمته، وخاف مِن عقوبته، وسجد لعظمته، وذلَّ لعزَّته، وأطاع أمره، واجتنب نهيه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥-١٧].

٨- ثمرات اليقين

اليقين مِن أعظم العبادات القلبيَّة، بل هو أعظمها، وأصلها وروحها، وذروة سنامها .

واليقين ثمرة العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

واليقين يُثمِر كمالَ الحُبِّ والتَّعظيم والذُّلِّ لله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

ويُثمِر للعبد كلَّ عبادةٍ وطاعةٍ وقُربةٍ، ويُثمِر دوامَ الذِّكر والشُّكر، ودوامَ التَّوبة والاستغفار ومراقبة النَّفس، وتزكيتها بالأعمال الصَّالحة: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٥-١٧].

ويُثمِر اليقينُ كمالَ التَّسليم لله عزَّ وجلَّ، والقيام بأنواع العبادات والطاعات بكمال الحب والتعظيم والذل لله عز وجل: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

ويُثمِرُ اليقينُ رضوانَ الله ﷻ على العبد، ودخول الجنَّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٧-٨].

ويثمر اليقين كمال الرضا بقضاء الله وقدره في كل محبوب أو مكروه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التغابن:١١].

ويثمر اليقين كمال الصبر ابتغاء مرضاة الله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

٩ - الأسباب المُعِينة على تحصيل اليقين

الأوَّل: العِلم بالله، وأسمائه الحُسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة.

فمَن عرف الله رآه بصفات جلاله وجماله وكماله، وعبده كأنَّه يراه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد:١٩].

الثَّاني: الاطِّلاع على سِير الأنبياء والمرسلين لمعرفة كمال يقينهم وتقواهم: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

الثَّالث: التَّفكُّر والتَّدبُّر لما في الكون من المخلوقات العظيمة، والتَّدبيرات الحكيمة، مِن خلْقِ السَّماء والأرض، والجماد والنَّبات، والإنسان والحيوان، وتقليب اللَّيل والنَّهار، وحصول الحرِّ والبرد، وحدوث الحياة والموت: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ ﴾ [الجاثية:٣-٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾ [يونس:١٠١].

الرَّابع: تدبُّر الآيات القرآنيَّة الَّتي تُبيِّن عظمة الله ووحدانيَّته، وكمال قوَّته وقُدرته، وسعة رحمته ومغفرته، وعظمة دينه وشرعه، ووعده ووعيده: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ [محمد:٢٤].

فمَن تدبَّر وتفكَّر في الآيات الكونية في السَّماوات والأرض، وتدبَّر الآيات القرآنيَّة الَّتي بينت أسماء الله وصفاته وأفعاله أيقن أنَّ الله هو الرَّبُّ الواحد الأحد، الإله الَّذي يجب أن يعبده كلُّ أحدٍ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ

تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾[الأنعام:١٠١-١٠٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾[البقرة:١٦٤].

الخامس: التفكر في حال الإنسان، وشدة حاجته وفقره إلى ربه: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر:١٥].

ومن عرف ذلك أيقن أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل:٥٣].

اللَّهمَّ آتِ نفُوسَنا تقوها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللَّهمَّ ارزقْنا حقيقة الإيمان، وحلاوة اليقين، ودوام الذِّكرِ والشُّكرِ وحُسن العبادة، والدَّرجات العُلا في الجنَّة.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران:٨].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثلاثون

عبادة الإنابة إلى الله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : فقه الإنابة إلى الله ﷻ.

الثاني : منزلة الإنابة .

الثالث : أنواع الإنابة .

الرابع : درجات الإنابة .

الخامس : علامات الإنابة .

السادس : الأسباب المعينة على الإنابة .

السابع : ثمرات الإنابة.

العبادة الثلاثون

عبادة الإنابة إلى الله ﷯

١ - فقه الإنابة إلى الله ﷯

الإنابة هي الرجوع عن كل شيء يشغل العبد عن الله إلى الله عز وجل، رغبةً وحبًا لما عنده، استحياءً من مقام جلاله، وخوفًا من عقابه، وطمعاً في ثوابه.

الإنابة هي الرجوع إلى الله في كل شيء، فتشكر الله عند النعمة، وتسأله عند الحاجة، وتستعين به عند العجز، وتطلب منه العفو عند الزلة، وتلجأ إليه عند الخوف، وتتوب إليه حين تذنب: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥].

والإنابة من أعظم صفات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال الله ﷯ عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود:٧٥].

والمؤمن يفزع إلى ربه في كل أمر، لأنه يعلم أن ربه بيده مقاليد الأمور كلها، فينيب إلى ربه، ويرجع إلى مولاه في كل شأن، لأنه وحده قاضي الحاجات، ومجيب الدعوات، ولا منجا ولا ملجأ منه إلا إليه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة:٤].

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وشكى حاله لربه، لأنه يعلم أنه لا يقضي الحاجات إلا هو، ولا يكشف الكرباتإلا هو، ولا يرفع البلاء إلا هو: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى:١٠].

والإنابة من أعظم العبادات القلبية، وهي ثمرة العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهي مقرونة بكمال الطاعة لله ﷯: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

والإنابة من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله الملك، العزيز، الجبار، القوي، القادر، القهار، الرحمن، الرحيم، الغني، الكريم، العفو، الغفور، الغفار: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾[الأعراف:١٨٠].

فالله مؤمن يحب الإيمان، وأهل الإيمان، والله محسن يحب الإحسان، وأهل الإحسان، والله تواب يحب التوبة، و أهل التوبة، والله شكور يحب الشكر، وأهل الشكر، وهكذا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾[طه:٨].

فمن عرف أن الله هو الملك الحق آمن به، وأناب إليه، ومن عرف العزيز ذُل له، ورجع إليه، ومن عرف الجبار خضع له، ومن عرف القوي لاذ بحماه، وأناب إليه، ومن عرف القادر استعان به، وفوض أموره إليه، ومن عرف القهار أذعن لطاعته، وأناب إليه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾[الأنعام:١٠٢].

وإذا علم العبد أن ربه هو الرحمن الرحيم أقبل عليه، وأناب إليه، وإذا عرف أنه الغني وقف ببابه، وسأله حوائجه، ومن عرف الكريم أحبه، وأناب إليه، ومن عرف العفو أحبه، وسأله إقالة عثرته، ومن عرف الغفور أناب إليه، واستغفره من ذنبه، ومن عرف التواب تاب إليه، ورجع إليه: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾[غافر:٦٥].

ومن رزقه الله حسن الإنابة إلى ربه أكرمه الله بثلاث كرامات:

الأولى: الفرار إلى الله في كل حال، وتفويض الأمور إليه في كل حال كالأنبياء: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء:٩٠].

الثانية: من أناب إلى الله عز وجل فَهَّمه الله حكمته من أقداره وأحكامه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[غافر:١٣].

ومن أناب إلى ربه ملأ الله قلبه إيمانا، وأطلعه على أسراره في آياته ومخلوقاته: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾[ق:٦-٨].

الثالثة: الفوز بالجنة في الآخرة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[ق:٣١-٣٥].

والإنابة عبادة لله عز وجل، وصرفها لغير الله شرك، والخشية عبادة لله عز وجل، ومن صرفها لغير الله فهو مشرك، والخوف عبادة الله عز وجل، ومن صرفه لغير الله فقد أشرك، وهكذا سائر العبادات القلبية والبدنية، لا تصرف إلا لله وحده، ومن صرفها لغيره فقد أشرك: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[المؤمنون:١١٧].

والإنابة إلى الله عز وجل عبادة قلبية تجمع أربعة أمور هي:

محبة الله عز وجل.. والخضوع له.. والإقبال على الله.. والإعراض عما سواه.

فمن اجتمعت فيه هذه الأمور الأربعة فهو منيب إلى الله عز وجل، ففاز بثوابه، وسلم من عقابه: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الزمر:٥٤].

والإنابة من أجلِّ أنواع العبادات القلبية، وهي أعلى منزلة من التوبة، لأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات من الذنب، والعزم على أن لا يعود إليه أبدا: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[المائدة:٣٩].

والإنابة تدل على كل ذلك، وتدل على الإقبال على الله بأنواع العبادات والطاعات والقربات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾[الزمر:١٧-١٨].

الإنابة هي الرجوع إلى الله بالتوبة، والاستقامة على طاعته.

وحقيقة الإنابة هي الرجوع إلى الله، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

الإنابة هي الإسراع إلى مرضاة الله، والرجوع إليه في كل وقت، وإخلاص العمل له في كل حال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾[البينة:٥].

والإنابة تملأ القلب بحب الله، وخوفه، ورجائه، وتعظيمه، وإجلاله، وحمده، والثناء عليه، والحياء منه، وحب عبادته: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾[السجدة:١٥-١٧].

والإنابة إلى الله هي عبادة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لأنهم أعرف الخلق بالله، وأصدقهم إيمانا بالله، وأشدهم حبا لله، وخوفا منه، ورجاءً له، وخشية له، وتوكلًا عليه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء:٩٠].

فقد أثنى الله عز وجل على خليله إبراهيم ﷺ بالإنابة إليه بقوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾[هود:٧٥].

ومن دعاء الخليل ﷺ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤﴾[الممتحنة:٤].

وقال عز وجل عن نبيه داوود ﷺ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾[ص:٢٤].

وقال عز وجل عن نبيه سليمان ﷺ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾[ص:٣٤].

وقال عز وجل عن شعيب ﷺ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[هود:٨٨].

وقال عز وجل عن رسوله محمد ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾[الشورى:١٠].

وقد أمره الله باقتفاء طريق المنيبين إليه بقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ﴾ [لقمان:١٥].

وإذا كانت عبودية الإنابة هي أعظم عبوديات الأنبياء والمرسلين، وهم أفضل الخلق، وأقربهم إلى الله منزلة وطاعة وعبادة، فحري بنا ونحن أهل التقصير والتفريط والغفلة أن ننيب إلى ربنا إنابةً نرجو بها القربة من الله، ونيل رضاه، والفوز بالجنة، والنجاة من النار وغفران الذنوب: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر:٥٤-٥٥].

وقال الله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٦].

٢ - منزلة الإنابة

الإنابة إلى الله ﷻ من أعظم منازل العبودية لله جل جلاله، فمن وفقه الله للتوبة النصوح، نزل في جميع منازل الإسلام، فإذا استقرت قدمه في منزلة التوبة، نزل بعدها في منزلة الإنابة، وهي الرجوع إلى الله في كل شيء.

والإنابة عبادة قلبية عظيمة، مدح الله أهلها، وبشرهم بالهداية والسعادة: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر:١٧-١٨].

والإنابة إلى الله ﷻ من أعظم أسباب دخول الجنة، والنجاة من النار، كما قال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾ [ق:٣١-٣٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤)﴾ [الزمر:٥٤].

ولا يعتبر بالآيات، ولا يتعظ بالعبر، إلا من أناب إلى الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)﴾ [ق:٦-٧].

والإنابة إلى الله ﷻ هي مفتاح الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾ [الرعد:٢٧].

ولأهمية الإنابة أمر الله بها جميع الخلق بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾[الروم: ٣٠-٣٢].

وكانالنبي ﷺ أكثر الناس إنابة إلى ربه، وأحسنهم عبادة له، وكان من دعائه إذا قام من الليل يتهجد: «اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَن فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، ووَعْدُكَ الحَقُّ، وقَوْلُكَ الحَقُّ، ولِقَاؤُكَ الحَقُّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لكَ أَسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» متفق عليه (١).

والإنابة إلى الله ﷻ أعلى منزلة من التوبة، فالتوبة هي الرجوع عن المخالفات، والإنابة هي الرجوع إلى الله ﷻ في كل حال، الرجوع في التوبة رجوع اعتذار، والرجوع في الإنابة رجوع إقبال على الله، بامتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

والتائب قد يعود إلى الذنب، لكن المنيب إلى الله دأبه الإكثار من الطاعات والعبادات، وإن وقع في معصية تاب وأناب إلى ربه فورًا.

والتوكل على الله نصف الدين، والإنابة إلى الله النصف الثاني، ومن حقق التوكل والإنابة فقد حقق كمال العبودية لله، فالدين كله استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة: ٢-٥].

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٧٤٩٩) ومسلم برقم (٧٦٩).

٣- أنواع الإنابة

الإنابة إلى الله ﷻ نوعان:

الأول: إنابة لربوبيته جل جلاله، وهي إنابة جميع المخلوقات لربها، إنابة خضوع واستسلام لله جل جلاله.

ويشترك في هذه الإنابة المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وهي لا تستلزم الإسلام، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الروم:٣٣-٣٤].

الثانية: إنابة لألوهيته سبحانه، إنابة عبودية ومحبة وتعظيم وذل لله ﷻ، وهي إنابة المؤمنين من الأنس والجن: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧-١٨].

وهذه الإنابة تتضمن أربعة أمور:

محبة الله ﷻ، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر:٥٤].

والمنيب هو المسرع إلى مرضات الله، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

وقد وعد الله هؤلاء بالجنة والرضوان كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

٤ - درجات الإنابة

الإنابة إلى الله على ثلاث درجات :

الأولى :الإنابة إلى الله من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن أناب هذه الإنابة فهو من أهل الإنابة والهداية الذين قال الله فيهم :﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)﴾[الزمر:١٧-١٨].

الثانية: إنابة المتقين، وهي الإنابة إلى الله من المعصية إلى الطاعة، ومن لم يأت بهذه الإنابة فهو من الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي من عصاة المسلمين، كما قال سبحانه:﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)﴾[الزمر:٥٣-٥٤].

الثالثة: إنابة المحسنين، وهي الإنابة التي تحمل المنيب على كثرة ذكر الله، وحمده وشكره، وحسن عبادته، والتوبة إليه، والإقبال على الله بأنواع الطاعات، والتذكر النافع، والتفكر في آيات الله ومخلوقاته، والاتعاظ بمواعظ القرآن، ونحو ذلك مما يثمر للعبد حب الله ﷻ،وخشيته، وتعظيمه، والخضوع له، والذل له، فيعبد الله بصفة الإحسان كأنه يراه بصفات جلاله وجماله وكماله، وينال أعظم أجره وثوابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾[الأنفال:٢-٤].

ومن وصل إلى هذه الدرجة سلَّم قلبه وبدنه لمولاه، واشتغل بما يحبه ويرضاه، وأعرض عن كل ما سواه: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾ [الحج:٣٤].

وهذه الإنابة أحسن الإنابات، وأعظمها، وأكملها، وأحبها إلى الله عز وجل، لما تثمره من كثرة التوبة والاستغفار، والرجوع إلى الله، وحسن الإقبال عليه، والمسارعة إلى أنواع عبادته، ولذلك كانت من أخص صفات أصفيائه من خلقه، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ،كما قال الله عز وجل عن إبراهيم ﷺ :﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[هود:٧٥].

وقال عن شعيب ﷺ :﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[هود:٨٨].

وقال عن محمد ﷺ :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى:١٠].

ومن دعاء النبي ﷺ في تهجده :«اللَّهُمَّ لكَ أَسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» متفق عليه (١).

---

(١)**متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٧٤٩٩) ومسلم برقم (٧٦٩) .

٥ - علامات الإنابة

للإنابة إلى الله ﷻ علامات تدل على صاحبها :

الأولى: المسارعة إلى أنواع الطاعات والعبادات، وتوجع قلب العبد وتألمه عند وقوع الذنوب منه، والتوبة السريعة منها، وعدم الإصرار عليها: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران:١٣ -١٣٦].

الثانية: شدة التحسر على فوات أو تأخير الفرائض والواجبات والنوافل، والحرص على أدائها فوراً، لما في قلوبالمؤنين من محبة الله، وتعظيمه، وتعظيم أمره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وهذا سيد المنيبين ﷺ يقول عن المشركين يوم الخندق لما شغلوه عن الصلاة: «مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وبُيُوتَهُمْ نارًا، كما شَغَلُونَا عن صَلَاةِ الوُسْطَى حتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ» متفق عليه (١) .

الثالثة: كثرة التوبة والاستغفار، والتطهر من الذنوب التي بين العبد وربه، والذنوب التي بين العبد وخلقه، وأداء الحقوق قبل فوات الأوان: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣٩٦) ومسلم برقم (٦٢٧) .

﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد:١٦-١٧].

الرابعة: عدم احتقار أهل الغفلة والمعاصي، والاهتمام بالنفس وتزكيتها، فيخاف على نفسه وهو في الطاعة، ويرجو للعصاة التوبة والإنابة وهم في المعصية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

وقال عز وجل: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس:٧-١٠].

الخامسة: القيام بالأعمال الصالحة مع شدة الخوف من عدم قبولها، لما قد يكون فيها من الرياء أو السمعة أو العجب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

السادسة: وجل القلب عند ذكر الله، وصدق التوكل عليه، والمبادرة إلى الأعمال الصالحة، بأنواعها في أوقاتها: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

السابعة: لزوم بيوت الله ﷻ، والإكثار من ذكر الله، والحرص على مجالس الذكر والوعظ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

الثامنة: الحرص على الاقتداء الكامل بالرسول ﷺ في توحيده وإيمانه، وأقواله وأعماله، وأخلاقه وسائر ما جاء به: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب:٢١].

٦ - الأسباب المعينة على الإنابة

الإنابة إلى الله ﷻ هي أعظم عبوديات القلب بعد الإيمان .

ومن الأسباب المعينة على تحصيل الإنابة ما يلي :

الأول: العلم بالله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة .

فمن عرف الله آمن به ووحده، وكبره وعظمه، وأحبه ومجده، وحمده وشكره، وتاب إليه، وأناب إليه :﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩].

الثاني: النظر في آيات الله في الكون، وما فيها من الإبداع والإتقان والإحكام : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾[ق:٦-٨].

وقال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[غافر:١٣].

الثالث: التدبر لآيات الله في كتابه العظيم، وما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة، ومن عرف ذلك علم أنها تنزيل من حكيم خبير بمصالح عباده، فآمن به، وأناب إليه، ولزم تقواه، وخافه ورجاه :﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧].

الرابع: العلم بسيرة الأنبياء والمرسلين، وما هم عليه من كمال الإيمان والتقوى، والتوبة والإنابة، للاقتداء بهم في إيمانهم وتقواهم وصفاتهم :﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنعام:٩٠].

الخامس: لزوم بيئة الإيمان والأعمال الصالحة، والانقطاع عن بيئة الغفلة والشهوات: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

السادس: الإكثار من ذكر الله في كل حال، فمن ذكر الله أطاعه ولم يعصه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٨-٩].

السابع: الإكثار من ذكر الموت وأهوال يوم القيامة.

فمن ذكر ذلك أناب إلى ربه، وعمل لآخرته، واتقى ربه الذي سيرجع إليه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال النبي ﷺ «أكثروا ذكر هادم اللذات» أخرجه الترمذي وابن ماجة[١].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم (٢٣٠٧) وابن ماجة برقم (٤٢٥٨).

٧- ثمرات الإنابة

للإنابةإلى الله عز وجل فوائد عظيمة، وثمرات جليلة .

فالإنابة إلى الله عز وجل هي سبيل الهداية، وهي سبب للتذكر والتبصر، والبعد عن الغفلة والمعاصي، وبالإنابة تتحقق سعادة المرء في الدنيا والآخرة :﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[الشورى:١٣].

والإنابة تملأ القلب بحب الله، وخوفه، ورجائه، والإكثار من ذكر الله، وشكره وحسن عبادته، والإقبال على الطاعات، والبعد عن المعاصي والمنكرات، كما قال الله عن الأنبياء:﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء:٩٠].

والإنابة تثمر حب الرب للعبد، وحب العبد للرب، ورضا الله عن المؤمنين، ورضاهم عن الله :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[البينة:٧-٨].

وتثمر الإنابة خشية الله وتقواه، والفوز بالجنة، والنجاة من النار :﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣١-٣٥].

والإنابة سبب لصلاح القلب، وطمأنينة النفس، وتطهير العبد من كثير من الأدواء والعلل :﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾[الرعد:٢٨-٢٩].

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾[الممتحنة:٤].

اللهم لك أسلمنا، وبك آمنا، وعليك توكلنا، وإليك أنبنا، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا .

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الحادية والثلاثون

عبادة الاستغناء بالله عز وجل

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول : غنى الله عز وجل.

الثاني : فقه الاستغناء بالله عز وجل.

الثالث : حقيقة الاستغناء بالله عز وجل.

الرابع : علامات الاستغناء بالله عز وجل.

الخامس : الأسباب المعينة على تعلق القلب بالله وحده.

العبادة الحادية والثلاثون

عبادة الاستغناء بالله عز وجل

١ - غنى الله عز وجل

الله عز وجلهو الملك الحق الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الحميدة وله الملك كله، وله الخلق كله، وبيده الأمر كله :﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾[الملك:١].

هو سبحانه الغني عن كل أحد، الذي يحتاج إليه كل أحد في خلقه ورزقه، وبقائه وفنائه، وحياته وموته :﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان:٢٦].

وغنى الله عَجَلَّ غنى ذاتي لازم لا ينفك عنه، وغناه سبحانه لا أول له ولا آخر، ولا بداية له ولا نهاية، وخزائن الغني سبحانه لاتنفذ أبدًا، ولا تنقص أبدًا، مع كثرة الإنفاق والعطاء في كل وقت:﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[يونس:٦٨].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍ رضي الله عنه عَنِ النبيِّ ﷺ ، فِيما رَوَى عَنِ الله تَبارَكَ وَتَعالَى أَنَّهُ قالَ: «يا عِبادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ محُرَّمًا، فلا تَظالمُوا، يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَن هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جائِعٌ، إلَّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ عارٍ، إلَّا مَن كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يا عِبادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ

وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ ممَّا عِنْدِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبَادِي إِنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَن وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ» أخرجه مسلم (١).

فالله ﷻ هو الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إلى الله بالذات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر:١٥].

والله ﷻ غني عن الخلق وعباداتهم، طاعاتهم لا تنفعه، ومعاصيهم لاتضره: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [العنكبوت:٦].

فاستصحب يا عبد الله في جميع أحوالك أن الله غني عنك، وعن عبادتك، وعن الخلق أجمعين، وأنك أنت الفقير إليه في جميع أحوالك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر:١٥].

فالخلائق كلهم بلا استثناء فقراء إلى الله عز وجل وحده: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾ [غافر:٦٥].

هو الملك الغني عن كل ما سواه، العرش ومن يطوف به ويحمله من الملائكة فقراء إلى الله،والسموات السبع وما فيها من الملائكة فقراء إلى الله، والأرضون السبع ومافيها من الجمادات، والنباتات، والحيوانات، والجِّن، والإنس، والذرات، والمجرات وغيرهم مما خلق الله كلهم فقراء إلى الله في خلقهم،وإيجادهم،وأرزاقهم،وبقائهم،وفنائهم: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)﴾ [لقمان:٢٦].

فكل ما سوى الله ﷻ فقير إلى الله عز وجل بالذات: الملوك في ملكهم، والأغنياء في أموالهم،والأقوياء في أبدانهم،كلهم فقراء إلى رب الأرض والسماء:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر:١٥].

فالله عز وجل هو الغني عن كل ما سواه، وأنت الفقير إليه، المحتاج إليه، فالصلاة من أجل أن تتصل به، لتستفيد من خزائنه، وتستنير بنوره، وعبادتك من أجل مصلحتك أنت، طاعاتك لا تنفعه، ومعاصيك لا تضره، ولكن إن أطعته فعلت الخير لنفسك، وإن عصيته مازدت على أن سببت الشر والتعاسة لنفسك، لن تفيده بطاعتك، ولن تضره بمعصيتك، طاعتك لك، ومعصيتك عليك: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾[العنكبوت:٦].

وقال ﷻ: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ** ١٦٠﴾[الأنعام:١٦٠].

فأيها العبد الفقير أنت محتاج إلى ربك الغني، وأيها العبد الضعيف أنت محتاج إلى ربك القوي، وأيها العبد العاجز أنت محتاج إلى ربك القادر،وأيها العبد المريض أنت محتاج إلى ربك الشافي،وأيها العبد المذنب أنت محتاج إلى ربك الغفور الرحيم ليغفر لك ذنوبك :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر:١٥].

فاستغن بالله يحقق لك ما تريد، واستغن بالله يغنيك عن كل ما سواه، ولا يكونن أحد أغنى بالله منك، ولا يكونن أحد أفقر إلى الله منك.

ولا يكونن أحد أقرب إلى الله منك، وسل الله ما تحتاج، فإنه قاض الحاجات، ومجيب الدعوات، وكاشف الكربات:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾[البقرة:١٨٦].

٢ - فقه الاستغناء بالله جل جلاله

الاستغناء بالله عز وجل هو التعلق بالله وحده، والتوكل عليه وحده، وعدم الالتفات إلى ما سواه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾[الذاريات:٥٠-٥١].

والقلب إذا عرف ربه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة، آمن به، وأحبه، وعظمه، وكبره، وحمده، وشكره، وخضع لعظمته، وذل لعزته، وتصاغر لكبريائه، وتوكل عليه وحده، واغتنى به عن كل ما سواه، وسارع إلى كل ما يحبه ويرضاه، وأخلص له في عبادته: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[محمد:١٩].

وعلى قدر تعلق القلب بالمخلوقين، وانجذابه إليهم، واحتياجه إليهم، يكون نقص تعلقه بربه الغني الكريم، ويحصل له العذاب والألم، والشقاء والنكد، والهموالتعب: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾ [الشعراء:٢١٣].

وقال الله ﷻ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾[الإسراء:٢٢].

مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك.

والاستغناء بالله وحده، والتعلق بالله وحده، وعدم الالتفات إلى غيره، هو ثمرة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق:١٢].

وإذا علمتم ذلك آمنتم بالله وحده، وتوكلتم عليه وحده، وأخلصتم له العبادة وحده.

والاستغناء بالله من لوازم الإيمان بأسماء الله الملك العزيز الجبار، الغني الكريم الوهاب، القوي القادر القهار، فمن عرف ربه الملك استغنى به عن كل العبيد،

ومن عرف ربه العزيز ذل له وحده، ومن عرف ربه الجبار خضع له، ومن عرفربهالغني استغنى به عما سواه، ومن عرف الكريم وقف ببابه، ومن عرف الوهاب سأله من فضله،واستوهبه من خزائنه، ومن عرف القوي استغنى به، ولاذ بحماه، ومن عرف القادر استعان به في جميع أموره، ومن عرف الرحمن استرحمه، ومن عرف الغفور استغفره، ومن عرف التواب تاب إليه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر: ٦٥].

وإذا علم العبد أن ربه له الملك كله، وإليه يرجع الأمر كله، وبيده الخير كله، وهو وحده القادر على دفع الشر كله، آمن بالله، وتوكل عليه، واستغنى بالله وحده، ولم يلتفت قلبه إلى أحد سواه، وتعلق قلبه بالله وحده، لأنه يعلم أن الله كافيه من كل ما سواه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

ومن عرف الله حقًا، تعلق بالله وحده، وكثرت طاعاته له، وقلت معاصيه، وأحسن الظن بربه، ورضي بشرعه وقدره، وزادت ضراعته لربه، والتسليم لأمره، وعظمت رغبته فيما عنده، فسارع إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، بكمال الحب والتعظيم والذل له، ففاز بأعلى الدرجات عنده: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢-٤].

وأكرمه الله بأن رضي الله عنه، وأرضاه عنه، وأسكنه جنته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[البينة: ٧-٨].

وإذا علم الله من عبده الاستغناء به، والافتقار إليه، والتعلق به وحده، تحمل حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وصرف عنه كل ما يشغله عن ربه، وفرغ قلبه لمحبته، وفرغ لسانه لذكره، وفرغ جوارحه لطاعته وعبادته، وأوصله إلى أعلى الدرجات في دار كرامته: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

ومن أمن بالله العظيم، وانقاد لشرعه العظيم، نال ثوابه العظيم، وفاز برضوانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

٣- حقيقة الاستغناء بالله جل جلاله

من استغنى بالله أغناه، ومن لجأ إلى الله حماه، ومن توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

وحقيقة الاستغناء بالله تظهر على المؤمن إذا توالت عليه المصائب، وحلت به النكبات، وأحاطت به الهموم والغموم، فلا يشكو حاله إلا لله، كما قال يعقوب ﷺ لأبنائه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف:٨٦].

والله عليم حكيم، يبتلي عباده بالمصائب، ليذكرهم به، ويرد قلوبهم إلى التعلق به وحده: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وتظهر حقيقة التعلق بالله وحده، والاستغناء به عما سواه، إذا كاد للمؤمن الكائدون، وحسده الحاسدون، أو ضيق عليه الظالمون، أو اعتدى عليه المعتدون، أو تسلطت عليه الهموم، أو ركبته الديون، أو نزلت به المصائب، أو سكن المرض في جسده، أو تعب من تربية ولده، أو عضه الجوع بأنيابه، فهنا ينطلق هذا المؤمن الصادق الذي تعلق قلبه بربه إلى مصلاه، ويبث شكواه إلى من يعلم سره ونجواه، بقلب خلا من كل شيء إلا من الله، وخاب ظنه في كل شيء إلا في الله، وأيس من كل فرج إلا فرجاً يأتي به الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

فإذا بالفرج يطرق بابه، وإذا بالخير ينزل داره، وإذا بالطمأنينة تسكن قلبه، وإذا بالهموم والمصائب ترحل عنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾[الرعد:٢٨-٢٩].

ومن أراد أن يعرف أن قلبه متعلقٌ بالله وحده لا شريك له، فلينظر إلى حاله إذا نزلت به المصائب هل يفزع إلى الله، أم إلى خلق الله؟: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

هل يشكو حاله إلى الخالق، أم إلى المخلوق؟ :﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾[الأنفال:٢-٤].

التعلق بالله وحده، والاستغناء بالله وحده، والتوكل على الله وحده، من أعظم عبادات القلوب.

ذلك هو العزة التي لا ذلة معها، هو الأمن الذي لا يصحبه خوف، هو الطمأنينة التي لا يشوبها قلق، هو السكينة التي لا فزع معها، هو الراحة التي لا شقاء بعدها: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾[الذاريات:٥٠-٥١].

ما تعلق عبد بربه العظيم، ثم شكى حاله إلى ربه الكريم، إلا أجابه وأعطاه فوق ما تمناه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[الطلاق:٣].

وقال النبي ﷺ: «وَمَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ

اللهِ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» متفق عليه [1].

وأكمل الناس عبودية لله من استغنى بالله وحده، واستغنى عن جميع الناس برب الناس: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥].

ومن عرف الله حقا استغنى به عما سواه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[الزمر:٣٦].

ومن عرف الله عز وجل استسلم له ولأمره، ففاز برضوانه وجنته: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج:٣٤-٣٥].

ومن استغنى بالله أسعده الله في دنياه وأخراه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (١٤٦٩) ومسلم برقم (١٠٥٣).

٤ – علامات الاستغناء بالله عز وجل

الاستغناء بالله عز وجللهعلامات :

الأولى: الإكثار من ذكر الله في كل حال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

الثانية: صدق التوكل على الله وحده، ووجل القلب عند ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال: ٢].

الثالثة: الخضوع لجميع أوامر الله، فمن تعلق قلبه بربه استغنى به، وذل لأمره، وسارع إلى طاعته، بكمال الحب والتعظيم والذل له كالأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الرابعة: الاستعداد للموت قبل نزوله، وذلك بالمسارعة إلى فعل كل ما يحبه الله ويرضاه، واجتناب كل ما نهى الله عنه، والتوبة من جميع الذنوب والمعاصي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ [البقرة: ٢٨١].

الخامسة: إحسان العبادة بين يدي الله، فيقف المؤمن بين يدي ربه العظيم ناظرًا إلى عزة الربوبية، وذلة العبودية، فيعبد الله دائمًا بصفة الإحسان، والإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فإِنَّكَ إِنْ لا تَراهُ فإِنَّه يَراكَ» متفق عليه [1].

السادسة: تجديد التوبة النصوح في كل وقت، والإكثار من الاستغفار في كل وقت، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطاءينالتوابون: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠].

وقال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٨].

السابعة: إحسان الظن بالله عز وجل، فمن تعلق قلبه بربه الكريم طمع في رحمته وفضله وكرمه، ورجا حلمه وعفوه وإحسانه، فسارع إلى الإكثار من ذكره، وشكره، وحسن عبادته: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

الثامنة: الفرح بالله، والأنس به، والفرح بدينه، وحسن العاقبة عنده: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٠) ومسلم برقم (٩).

التاسعة:الحرص التام على اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وعدم مخالفة أمره: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[الحشر:٧].

العاشرة: حفظ الأوقات بالأعمال الصالحة، وعدم إضاعتها فيما لاينفع، لعلمه بأن عمره قصير، والدنيا فانية، فهو يستعمل أوقاته في عمارة آخرته، ويفرح بكل ساعة يذكر فيها ربه، ويحزن ويندم على كل ساعة يغفل فيها عن ربه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧-١٨].

الحادية عشرة :توحيد التعلق بالله عز وجل، والاستغناء به في كل حال، وعدم التعلق بسواه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الحج:٣٤-٣٥].

الثانية عشرة : شدة المحافظة على حياة قلبه، ودفع أسباب ضعفه، والحرص على رعاية أحواله، خشية سقوطه من عين ربه لأدنى زلة أو تقصير أو غفلة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[المؤمنون:٦٠-٦١].

الثالثة عشرة : تعلق القلب ببيوت الله، فلما تعلق قلبه بربه، حنت نفسه للزوم بيته، والاشتغال بما يحبه ويرضاه من صلاة وذكر، وتلاوة قرآن، وتفكر وتدبر: ﴿فِى

بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾[النور:٣٦-٣٨].

الرابعة عشرة: لزوم البيئة الإيمانية التي تذكر بالله واليوم الآخر، والانقطاع عن أهل الغفلة: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف:٢٨].

الخامسة عشرة: كمال التوكل على الله، وتفويض الأمور كلها إليه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[هود:١٢٣].

٥ - الأسباب المعينة على تعلق القلب بالله وحده

الأول : العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف ربه حقًا، أحبه وتعلق قلبه به وحده، واستغنى بالله وحده، ولم يلتفت لأحد سواه : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد:١٩].

الثاني: الإكثار من ذكر الله، وتلاوة كتابه، والخوف من عقابه، والطمع في ثوابه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ ﴾[فاطر:٢٩-٣٠].

الثالث: كثرة النظر في آيات الله ومخلوقاته، والتفكر في عجائب مخلوقاته العلوية والسفلية: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ ﴾[البقرة:١٦٤].

الرابع: التدبر لآيات الله القرآنية، وما فيها من بيان عظمة أسماء الله وصفاته وأفعاله، وما جاءت به من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والشرائع الحسنة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾[النساء:٨٢].

وقال الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص:٢٩].

الخامس: العلم بعظمة ملك الله وسلطانه، وعظمة نعمه وإحسانه، وعظمة دينه وشرعه، وعظمة وعده ووعيده: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق:٦-٨].

السادس: العلم بأن الله وحده بيده مقاليد الأمور كلها، وأنه لا يعطي ولا يمنع إلا الله وحده، وأن ما شاء الله كان، ومالم يشأ لا يكون أبدًا، وأن النفع والضر بيد الله وحده لا شريك له: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

وقال ﷻ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٧-١٨].

السابع: دعاء الله عز وجل ليعلق قلبه به، ومن سأل ربه أعطاه ما يسعده في الدنيا والآخرة: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥].

الثامن: حفظ الأوقات بذكر الله، والأعمال الصالحة، من أنواع العبادات والطاعات والقربات، والدعوة إلى الله، وتعليم شرع الله، والإحسان إلى خلق الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

وقال الله ﷻ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

التاسع: امتثال أوامر الله في كل حال، فمن أحب الله تعلق قلبه به، وسارع إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ففاز برضوانه وجنته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

العاشر : كمال العلم بصفات جلال الله وجماله، فمن عرف الله حقًا، إن خاف توجه إلى ربه فأمّن خوفه، وإن ضل سأل الله أن يهديه إلى الصراط المستقيم فهداه، وإن تألم اشتكى إلى ربه فرفع بلواه، وإن افتقر سأل ربه فأغناه بفضله عما سواه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

فهذه القلوب المؤمنة التي استغنت بالله، لا تعرف إلا الله، ولا تستعين إلا بالله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧].

وقال النبي ﷺ لابنعباس: «يا غلامُ ، إني أعلِّمُك كلماتٍ : احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تجِدْه تجُاهَك ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتَبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفَ» أخرجه الترمذي وأحمد(١).

إن التعلق بالله وحده، والاستغناء به عما سواه، من أعظم عبادات القلوب التي يسعد بها العبد في دنياه وأخراه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦) وأحمد برقم (٢٦٦٩).

فيا عبد الله استغن بالله وحده لاشريكله،فمن توكل على الله كفاه، ومن سأل الله أعطاه، ومن استغنى بالله أغناه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٩].

وقال الله ﷻ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

وكان ﷺيقول في دبر كل صلاة : (اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لمِاَ أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لمِاَ مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ)أخرجه البخاري (١).

هذه القلوب التي تعلقت بالله وحده، واستغنت به عما سواه، لا تحمل هم الرزق، لأنها تعلم بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين :﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾[هود:٦].

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، لا إله إلا أنت.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨].

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٧٢٩٢).

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثانية والثلاثون

عبادة التبتل إلى الله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه التبتل إلى الله ﷻ

الثاني: منزلة التبتل.

الثالث: أنواع التبتل.

الرابع: خطوات التبتل المشروع.

الخامس: درجات التبتل.

السادس: الأسباب المعينة على تحصيل التبتل.

السابع: ثمرات التبتل.

العبادة الثانية والثلاثون

عبادة التبتل إلى الله ﷻ

١ – فقه التبتل إلى الله ﷻ

التبتل هو الانقطاع، يقال تَبَتّل إلى الله تفرّغ لعبادته، وتنفيذ أوامره .

والتبتل في العبادة هو الانقطاع إلى الله وحده، فالمؤمن المُتبتّل إلى ربه هو الذي انقطع عن هوى نفسه وشهواته، وانفصل عن متاع الدنيا كله، فلم يعد يَمَسّ قلبه أبدًا حتى لو ملكته يده، فهو لا يشعر به، ولا يجد له لذة ولا حلاوة، لأنه منقطع عنه إلى ربه العظيم :﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[الزمر:١٧-١٨].

التبتلهو العزوف عن شهوات الدنيا، والانقطاع عن كل ما يشغل العبد عن ربه، ولزوم محراب العبودية لله في كل حال:﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾[المزمل:٨-٩].

التبتلهو خلوصُ القلب لله ﷻ،والانقطاع إليه، فلا مكان للدنيا في قلبه، ولا لشهوات الدنيا فيه مكان، ولا لزخرفها قيمةٌ فيه، ولا لهموم الدنيا نصيبٌ فيه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة:٥].

التبتل هو انقطاع المؤمن إلى الله، والإنابة إليه، والاستغناء به، والتوكل عليه، وعدم الالتفات إلى غيره:﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٥-٦٦].

التبتل هو انفصال القلب عن الخلائق، وعن حظوظ النفس وشهواتها، والأنس بالله وحده، والتبتل إليه، والاتصاف بمحبة الله، والاشتغال بما يقرّب إليه من أنواع العبادات والقُربات، وغيرها مما يحبه الله ويرضاه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح:٧-٨].

التبتل هو الانقطاع عما سوى الله إلى الله؛ الانقطاع عن الكفر إلى الإيمان، والانقطاع عن الشرك إلى التوحيد، والانقطاع عن البدعة إلى السنّة: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان:٢٢].

المؤمن المتبتل يقود نفسه إلى ربه بالأعمال الصالحة التي شرعها الله، ولا تقوده نفسه إلى ما تحبه و تشتهيه، والمتبتل يسخّر طاقته كلها لله عز وجل، عبادةً ودعوة، وتعليمًا لشرعه، وإحسانًا إلى خلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج:٧٧-٧٨].

المؤمن المتبتل هو الذي انقطع إلى الله عز وجل انقطاعًا تامًا بحيث لا يشغله غير الله عنه، فينقطع إلى ربه، ويتفرغ لعبادته، وتنفيذ أوامره على نفسه وعلى غيره،

ومن أكثر من ذكر ربه أحبّه، وأطاعه ولم يعصه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٨-٩].

المؤمن المتبتل هو الذي انقطع عن الناس، وما يُشغِله عن ربه، وتفرّغ لفعل كل ما يحبه الله ويرضاه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وسُميت مريم البتول لانقطاعها إلى الله، وانقطاعها عن الناس، وتفرّغها لعبادة الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

وقيل لفاطمة بنت محمدٍ رسول الله ﷺ البتول لانقطاعها عن الدنيا لله ﷻ.

والتبتل المأمور به شرعًا هو الانقطاع عن الأعمال التي تمنع العبد أو تعوقه عن قيام الليل بين يدي ربه، وعن القيام بين يدي الخلق بالنهار بالدعوة إلى الله وتعليم شرع الله، والإحسان إلى خلق الله، والتفرّغ لأداء كل ما يحبه الله ويرضاه، مستعينًا بالله، ومتوكلًا عليه: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل: ٨-٩].

والتبتل الحقيقي يجمع أمرين عظيمين هما:

الاتصال والانفصال، ولا يصحّ التبتل إلى الله إلّا بهمامعاً .

فالانفصالانقطاع قلب المؤمن عن حظوظ النفس وشهواتها التي تزاحم مرادَ الرب منه، ومن التفاتِ قلبه إلى ما سوى الله خوفًا منه، أو رغبةً فيه، أو فكرًا فيه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

والاتصال لا يصحّ إلا بعد هذا الانفصال عما سوى الله، ثم يأتي الاتصال بالله والإقبال عليه، والانقطاع إليه، وإقامة وجهه لله ﷻ حبًا له، وخوفًا منه، ورجاءً له، وتسليمًا له، وإنابةً إليه، وتوكلًا عليه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم: ٣٠-٣١].

والتبتّل إلى الله ﷻ من أعظم عبادات القلوب، وهو ثمرة العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف الله حقًا أحبه، وانقطع إليه، وتبتّل إليه، ولم يلتفت لأحدٍ سواه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

التبتل هو الانقطاع إلى الله، وهو من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم وآثار الإيمان بأسماء اللهالملك، العزيز، الجبّار، الواحد الأحد، القهّار، القويّ، القادر، الغنيّ، الكريم، الرءوف، الرحيم، العفوّ، الغفور: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

فالمؤمن إذا عرف ربه الملك توجّه إليه وحده، وانقطع إليه، وإذا عرف ربه العزيز أقبل عليه، ولم يَذلّ لأحدٍ سواه، وإذا عرف ربه الجبّار خضع له، واستسلم لأمره، وإذا عرف ربه الواحد الأحد استغنى به عن كل أحد، وإذا عرف ربه القهّار خضع له، وانقاد لأمره .

وإذا عرف ربه القويّ لاذَ بحِماه، ولم يلتفت لأحدٍ سواه، وإذا عرف ربه القادر استعان به وحده، وتوكل عليه وحده، وإذا عرف ربه الغنيّ وقف ببابه، وسأله حوائجه، وإذا عرف ربه الرءوف بخلقه أحبه، وتبتّل إليه .

وإذا عرف ربه الرّحمن الرّحيم أقبل عليه، وأناب إليه، وإذا عرف ربه العفو سأله إقالة عثرته، وإذا عرف ربه الغفور أحبه واستغفره: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد:١٩].

٢ - منزلة التبتل

التبتلعبادة من أعظم عبادات القلوب، فمن عرف الله تبتَّل إليه، وانقطع إليه .

وعبادة التبتّل والانقطاع إلى الله بالكلّية أعظم عبادات القلوب، وهذه العبادة العظيمة تلازم المؤمن المُتبتّل في كل زمان ومكان وحال، ولا تنفكّ عنه أبدًا، فهو بين الناس بجسمه، ولكن قلبه بين يدي ربه؛ يكبّره ويحمده، ويسأله ويستغفره، يكلّم الناس بلسانه، وقلبه يسبّح ربه ويمجّده، لما يراه من صفات جلاله وصفات جماله التي لا تغيب عنه، يفرح مع الناس عند فرحهم، لكن قلبه مملوء وجلًا وخوفًا وخشيةً من ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك:١٢].

ويحزن المتبتل مع الناس عند حزنهم، لكن قلبه وفؤاده قد مُلىء أُنسًا ورضيً بما قدره الله وقضاه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾[التغابن:١١].

فهذا المتبتل حاضرٌ غائب، وموجودٌ ومفقود :﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾[فاطر:٢٨].

ولتحقيق عبودية التبتل لله عز وجل لابد من العلم بأمور :

الأول: العلم بأن التبتّل إلى الله واجبٌ قلبيٌ، فمن عرف الله حقًا، تبتّل إليه، وانقطع إليه، وتوكل عليه، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾[المزمل:٨-٩].

الثاني:التبتّل لله يكون بالتدرّج والاستكثار من العبادات، فيروّض العبد نفسه بالعبادات تدريجيًا، لئلا تعجز نفسه، فتقعد عن العمل.

قال النبي ﷺ: «قاربوا وسدّدوا واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله، قالوا يارسول الله: ولا أنت؟ قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ» متفق عليه(١).

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٣) ومسلم برقم (٢٨١٦).

الثالث: أن التبتل لا يحصل للعبد إلا بعد معرفة عِزّة الربوبية، وذِلّة العبودية.
فمن عرف نفسه علم أنه لا يصلُح له إلّا أن يكون عبدًا، ومن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله علم أنه هو الإله الحقّ الذي لا يجوز أن يُعبَد إلا هو، ولا يُخاف إلّا هو، ولا يُرجى إلّا هو، فانقطع إليه، وأنزل حاجته به: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].
الرابع: العلم بأن التبتل لله يقوم على ركنين: انفصال واتصال.
فينقطع العبد عن كل ما سوى الله، ثم يُقبل على الله، ويتبتل إليه، وينقطع إليه حبًا له، وخوفًا منه، ورجاءً له، ورغبةً إليه، وشوقًا إليه، وتوكلًا عليه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٨-٩].
الخامس: العلم بأن الذي يقطع التبتل أمران:
الأول: رجاء المخلوق، فمن رجى المخلوق تعلّق قلبه به، فانقطع تبتله لربه.
وعلاج ذلك قطع الطمع فيما عند الناس، والرضا بما قسم الله لك.
الثاني: الخوف من المخلوقين، فمن خاف غير الله انقطع عن الله، وتعلّق قلبه بغير الله.
وعلاج ذلك يكون بالتسليم لله، والخوف من الله وحده، وعدم الخوف من غيره، لأن الله وحده بيده مقاليد الأمور كلها: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].
السادس: مخالفة هوى النفس فيما تريد مما يُخالف أمر الله ورسوله، ويقطع على العبد تبتله لربه: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣].
وقال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

٣- أنواع التبتل

التبتل نوعان:

الأول: تبتلٌ محمودٌ مشروعٌ:

وهو الانقطاع إلى الله، مع إخلاص العبادة له، والأخذ من الدنيا بقدر الحاجة، والانقطاع إلى الله بقدر الطاقة؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وإخلاص العبادة له: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر:٧].

وهذا التبتل الذي أمر الله به، وسار عليه رسله، وأنبياؤه، وأولوا العلم، والصالحون من المؤمنين، امتثالا لأمر الله ﷻ بقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٨-٩].

وهؤلاء هم الذين استجابوا لله ورسوله، وحققوا مُراد الله من خلقه؛ بعبادة الله وحده، والدعوة إليه، وتعليم شرعه، والإحسان إلى خلقه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

وقد وعد الله هؤلاء بالجنة والرضوان كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

فهؤلاء المتبتلون الذين انقطعوا عن الشرك والمعاصي، وأنابوا إلى الله بالإيمان والطاعات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ

﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[الزمر:١٧-١٨].

الثاني: تبتلٌ مذمومٌ مُبْتَدَعٌ:

وهو سلوك مسلك النصارى في الترهّب في الصوامع، وترك النكاح، وترك أكل ما لذّ من اللحم، والتشديد على النفس في العبادة على خلاف هدي النبي ﷺ، كصوم الدهر، وقيام الليلكله،ونحو ذلك من البدع التي تتعب الأبدان، وتحَرُم النفس من حظوظها، وتُقعدها عن العبادة لله ﷻ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور:٦٣].

وقال الله سبحانه :﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[النساء:١١٥].

وقد نهى الله ورسوله عن هذا التبتل والرهبانية، وفي القرآن:﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةً وَرَحۡمَةً وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد:٢٧].

وعن أنس رضي الله عنه أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السرفقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: «مابال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»متفق عليه (١).

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٠٦٣) ومسلم برقم (١٤٠١).

فالتبتل المأمور به شرعًا هو الانقطاع إلى الله ﷻ بإخلاص العبادة له، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والأخذ من الدنيا بقدر الحاجة، وذكر الله وعبادته والدعوة إليه بقدر الطاقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[الحج:٧٨].

والتبتل المنهي عنههو سلوك مسلك النصارى، في ترك الحلال، والنكاح، والترهّب في الصوامع،وعبادة الله بغير ما شرع وهو مردود غير مقبول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾[النساء: ١١٥].

وقال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه (١).

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٢٦٩٧) ومسلم برقم (١٧١٨).

٤ - خطوات التبتل

التبتل إلى الله له خمس خطوات :

الأولى: قطع رغبة النفس في المدح،فلا يحب المدح، أو يستوي عنده المدح وعدمه، لأن قلبه معلقٌ بالله وحده : ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر:٦٥].

الثانية: قطع رغبة النفس في الشُّهرة، ورؤية الناس له، فلا يجد الرياء لقلبه سبيلًا : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة:٥].

الثالثة: قطع رغبة النفس في الإمارة والرئاسة، سواء في الدين أو الدنيا، لكنه يدعو ربه دائمًا أن يكون للمتقين إمامًا في كل ما يحبه الله ويرضاه، كما قال سبحانه في صفات المؤمنين:﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[الفرقان:٧٤].

الرابعة: قطع رغبة النفس في العلو في الأرض، وتبوّء أعلى المراكز والمناصب للعلو في الأرض، وقهر الناس، والسيطرة عليهم:﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾[القصص:٨٨].

وقال الله تعالي: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[القصص: ٨٣] .

الخامسة: الانقطاع إلى الله من كل ما سوى الله وإخلاص العبادة له:﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

[الزمر:١٧ -١٨].

ومن تبتل إلى الله صادقًا، وانقطع إليه راغبًا، فشغل أوقاته بما يحبه ربه ويرضاه، أسعده الله في الدنيا والآخرة، وأكرمه بأنواع الكرامات:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أعظم من تقرّب الى الله بعبادة التبتل: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ثم يليهم من آمن بهم من الناس: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

ومريم البتول انقطعت إلى الله، فآثرها الله على نساء العالمين، فولدت ابنًا بلا ذكر، ورزقها الله طعامًا بلا شجر، وأجرى لها من الكرامات ما أجراه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

وآسية امرأة فرعون انقطعت إلى الله، وآثرت رضاه على المُلك والجاه، فآثرها الله بالقرب منه في جنته: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١١-١٢].

٥ - درجات التبتل إلى الله

التبتل إلى الله درجات :

الأولى: الانقطاع عن الخلق إلى الله،فلا يخاف العبد أحدًا إلا الله، ولا يرجو أحدًا إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾[الذاريات:٥٠-٥١].

الثانية: الانقطاع عن النفس إلى الله، فتعطيها حظّها مما أحل الله لها، وتصرف جميع أوقاتك فيما يحبه الله ويرضاه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾[الشمس:٧-١٠].

وهذه درجة أعلى من الأولى، لأنه استبدل حلاوة الشهوات بحلاوة الطاعات، واستبدل ما تحبه النفس بما يحبه الرب: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾[الأعلى:١٤-١٥].

الثالثة:أن تنقطع عن مرادك من الله، إلى مُراد الله منك، لكمال معرفتك بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فتعبده لأنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأنه وحده أهلٌ أن يُعبد، ويُكبَّر، ويُمجَّد، ويُشكر، لكمال جلاله وجماله، فتُخلِص له العبادة وحده وتنقطع إليه بالكلية: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾[غافر:٦٥].

وهذه أكمل منهما؛ فالأولى انقطاع عن الخلق إلى الله، والثانية انقطاع عن النفس إلى الله، والثالثة انقطاعك عن مرادك من الله إلى مراد الله منك: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة:٥].

الرابعة: أن تنقطع عن مرادك من الله،إلى مراد الله منك، مستعيناً به وحده، حتى لا ترى انقطاعك إلا من الله وحده لا منك، وهذه أعلى الدرجات: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل:٥٣].

٦- الأسباب المعينة على تحصيل التبتل إلى الله ﷻ

الأول: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن عرف ربه حقًا آمن به وأحبه، وانقطع إليه، ولم يلتفت لأحدٍ سواه؛ لأنه استغنى بالله فلم يشغله عنه سواه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

الثاني: مجاهدة النفس على امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، ابتغاء مرضات الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

الثالث: مراقبة الله في كل حال، وإخلاص العمل له، فمن علم أن الله يراه في كل حال، ويسمعه إن تكلم، ويعلم بما في قلبه إن أضمر، توجه إليه وحده، وانقطع إليه، ولم يشغله سواه عنه، وأخلص العبادة له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢].

الرابع: النظر والتفكر في مخلوقات الله في الكون،فمن نظر وتفكّر في تلك المخلوقات العظيمة،والتدبيرات الحكيمة، عَلِم أن خالقها ربٌ عظيم، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الحميدة، فآمن به وأحبه، وانقطع إليه، وتبتل إليه في ليله ونهاره: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق:٦-٨].

الخامس: التدبر لآيات الله التي أنزلها في كتابه، وما فيها من بيان أسماء الله وصفاته وأفعاله، وما اشتملت عليه من صدق الأخبار، وحسن الأحكام، وأحسن القَصَص، ومن علم بذلك أيقن أنها تنزيل رب العالمين، فآمن به وحده، وانقطع إليه، وسلّم لأمره: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص:٢٩].

السادس: العلم بأحوال الأنبياء والمرسلين، وما هم عليه من صِدق الإيمان وحسن العبادة، والتبتل إلى الله، والانقطاع إليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام:٩٠].

والأنبياء أحسن الناس لمن أراد الاقتداء والاهتداء، والفوز والفلاح: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب:٢١].

السابع: صُحبة الأخيار والصالحين الذين يذكرون الله، ويذكّرون به، والانقطاع عما سواهم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

الثامن: الحرص على أداء العبادات الجماعية كالجمعة والجماعة، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنُصح للمسلمين، والعناية بالعبادات، الانفرادية؛ كقيام الليل، والاعتكاف، وتلاوة القرآن، وذكر الله في

الخلوة والجلوة: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

التاسع: دعاء الله ﷻ أن يرزقه عبادة التبتل إليه، والانقطاع إليه، وحسن القيام بين يديه؛ فالله كريم يجيب من دعاه، ويفرح بمن سأله، ويعطيه فوق ما يتمناه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

العاشر: الحذر من آفتين تقطعان على العبد تبتله لربه العظيم:

الأولى: تحميل النفس من العبادات مالا تطيق، فإن النفس تسأم وتمَل ثم تنقطع: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن:١٦].

وقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا، وإنّ أحب الأعمال إلى الله مادام وإنقلّ» متفق عليه [(١)].

الثانية: الاجتهاد في العبادة، مع الإخلال في الحقوق والواجبات الأخرى من الدعوة إلى الله، وتعليم شرع الله، والإحسان إلى خلق الله، وبرّ الوالدين، وكسب المعيشة، وأداء حقوق الزوج والأولاد والضيوف: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦].

وكان لعثمان بن مظعون رضي الله عنه زوجة، وكان يقوم الليل، ويصوم النهار، فبعث إليه رسول الله ﷺ فجاءه، فقال: «ياعثمان أرغبت عن سنتي؟! فقال: لا

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٨٦١) ومسلم برقم (٧٦١) .

والله يا رسول الله، ولكن سنّتك أطلب، فقال له: فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله ياعثمان، فإن لأهلك عليك حقًا، وإن لضيفك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، فصم وأفطر، وصلّ ونم» أخرجه أحمد وأبو داود [1].

فالتبتل إلى الله، والانقطاع إلى الله، هو التعلّق بالله وحده، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والأكل من الطيبات بما يُعين العبد على عبادة الله عز وجل، وأداء حقوق عباده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢].

فتحريم الحلال من الطعام والنكاح ليس من التبتل! بل هو من الاعتداء، وظلم النفس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[المائدة:٨٧-٨٨].

---

(١) صحيح: أخرجه احمد برقم (٢٦٣٠٨) وأبو داود برقم (١٣٦٩).

٧- ثمرات التبتل

ثمرات التبتل إلى الله ﷻ كثيرة ومنها :

الأولى : الطمأنينة بذكر الله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨].

الثانية: غفران الذنوب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢].

الثالثة: قبول الأعمال الصالحة،فمن انقطع إلى الله، وعمل بما يُرضيه، قبِل الله عمله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧].

الرابعة: دخول الجنة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق:٣١-٣٥].

الخامسة: رضوان الرب على العبد، ورضى العبد عن الرب، والخلود الأبدي في الجنة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة:٧-٨].

السادس: بلوغ العبد درجة الولاية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

السابعة: بلوغ العبد أعلى درجات الجنة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وقنا برحمتك شر ما قضيت.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الثالثة والثلاثون

عبادة التفويض إلى الله ﷻ

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه التفويض إلى الله ﷻ

الثاني: منزلة التفويض.

الثالث: درجات التفويض.

الرابع: الأسباب المعينة على التفويض.

العبادة الثالثة والثلاثون

عبادة التفويض إلى الله ﷻ

١ - فقه التفويض إلى الله ﷻ

تفويض الأمور إلى الله جل جلاله عبادةٌ قلبية؛ والتسليم لله في كل حال عبادةٌ قلبية، وهما ركنا العبادة، ولن تكون عبدًا لله حقًا إلا بهما: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[هود:١٢٣].

التفويضهو محضُ التسليم والطاعة لله ﷻفي كل شيء.

التفويضهو الخروج من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته، والتسليم لأمره، والرضا بقضائه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر:٦٥].

وقال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التغابن:١٣].

التفويضهو ركون القلب إلى الله في كل حال: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٠ - ٥١].

والفرق بين التوكل والتفويض،أن التوكل مبدأ، والتفويض منتهى، فهو أعلى من التوكل، لأن التوكل هو الاعتماد على الله بقلوبنا، مع فعل الأسباب بجوارحنا: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[المائدة:٢٣].

أما التفويضفهو التسليم التام لله ﷻفي كل شيء عند انقطاع الأسباب كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾[غافر:٤٤].

فلما فوّض أمره إلى الله، وقاهُ الله سيئات ما مكروا: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥﴾[غافر:٤٥].

والمؤمن يفوض أمره إلى الله ﷻ إذا انقطع عن الأسباب، كما قال النبي ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ وَجّهتُ وجْهِي إلَيْكَ، وأَسْلَمتُ نفسي إلِيْكَ، وفَوَّضْتُ أمْرِي إليْكَ، وأَلجْأْتُ ظَهْرِي إليْكَ، رَغْبَةً ورَهْبَةً إلَيْكَ» متفق عليه (١).

فالتوكل على الله هو الاعتماد على الله، مع فعل الأسباب بالجوارح، وهو الحالة الدائمة معنا في كل حال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾[البقرة:٢٥٥].

أما التفويض فيكون في حالات خاصة، وهي حالات الشدة والمكر والكيد الخفي، وعند انقطاع الأسباب عنك؛ فهنا يَحسن التفويض إلى الله في كشف الكربة، ودفع البلية.

والأنبياء والرسل هم أعظم الخلق معرفةً بالله، يفزعون إلى ربهم في تحصيل المنافع، ودفع المضارّ، وكشف الكربات، وتحصيل الخير، ودفع الشر، فمن استغاث بالله أغاثه، ومن دعا الله أجابه: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾[الأنبياء:٨٣-٨٤].

وقال الله ﷻ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣١١) ومسلم برقم (٢٧١٠).

وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال الله ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال الله ﷻ عن خليله إبراهيم ﷺ حينما أعد له قومه النار وأوقدوها لإحراقه: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

وأنت أيها المؤمن إذا خِفت من عدوٍ أو غيره فافزع إلى ربك القوي العزيز وقل: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فإن الله قال بعدها: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وإذا مكرَ بك أحدٌ، ولا تستطيعُ دفعَ مكرِه، ففوض أمرك إلى ربك الذي بيده كشف الكُرب، وعنده مفاتيح الفرج، فقل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

فإن الله قال بعدها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

وإذا أردت شيئاً من الدنيا فسلْ من يملكها وقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩].

فإن الله قال بعدها: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٣٩-٤٢].

وإذا أصابك غمٌ أو همٌ أو ضيقٌ؛ فقل كما قال يونس ﷺ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧].

فإن الله قال بعدها: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء:٨٨].

التفويض هو روح التوكل ولبّه وحقيقته: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود:٥٦].

التفويض اعتقاد أن كل أمور العبد آتيةٌ من الله، وراجعةٌ إليه، فمن فوّض أموره إلى ربه، فقد خرج من حوله وقوته، إلى حول الله وقوته: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر:٦٥].

والمؤمن الذي عرف ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله يتوكل عليه وحده، ويفوض أموره إليه، لأنه يعلم أن الله بيده وحده مقاليد الأمور كلها: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾ [الزمر:٦٢-٦٣].

ويصبر ويسترجع ويفوض أمره إلى مولاه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

فاستسلم يا عبد الله لمولاك وخالقك، وفوض أمورك إليه، وتوكل عليه وحده في تدبير أمورك كلها، وقفْ بين يدي ربك الملك العزيز الجبار وقفة العبد الضعيف العاجز الفقير المحتاج، راضياً بقضائه، ومستسلماً لحكمه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

هو سبحانه الواحد الأحد الذي بيده ناصية كل أحد: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

تفويض الأمر إلى الله عز وجلعبادة عظيمة من عبادات القلوب؛ وهي ثمرة قوة اليقين، وحسن الظن بالله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد:١٩].

والمؤمن إذا فوض أموره إلى ربه، ودعا ربه بقوله : وأفوض أمري إلى اللهفقد خرج من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، فكفاه ربه شرّ من ظلمه، وأخذ حقه ممن اغتصبه، ورده إليه، وجعل له من أمره فرجًا ومخرجًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾[الطلاق:٢-٣].

وإبراهيمﷺحين ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل في مكة بوادٍ غير ذي زرع، وقفل راجعًا إلى الشام «قالَتْ له هاجر: يا إبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وتَتْرُكُنَا في هَذا المكان؟ فلمْ يجُبِها! ثم قالَتْ له: آللَّهُ الذي أَمَرَكَ بهذا؟ قالَ نَعَمْ، فقالَتْ له: اذهبْ فلَنْ يُضَيِّعُنَا»أخرجهالبخاري [1].

فلما فوّضت أمرها إلى الله ﷻ،جعل لها ولابنها من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، وكان ما كان في مكة.

وكان النبيﷺ أعرف الخلق بربه، وأعظمهم عبادةً لله، وتوكلاً عليه، وتسليماً لأمره، وأصدقهم في تفويض أمره إلى الله، وكان من دعائه لربه عند النوم: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفسي إلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أمْرِي إلَيْكَ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إلَيْكَ، رَهْبَةً ورَغْبَةً إلَيْكَ، لا مَلْجَأَ ولَا مَنْجا مِنْكَ إلَّا إلَيْكَ»متفق عليه [2].

والتفويض من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء اللهالملك العزيز الجبّار، القويّ القادر القهّار، الغنيّ الكريم الوهّاب، العفو الغفور الرحيم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٣٣٦٥).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٤٧)، ومسلم برقم (٢٧١٠).

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

فالمؤمن إذا عرف ربه الملكاعتمد عليه، وفوّض أموره إليه، لأنه العليم بما يصلح عباده في الدنيا والآخرة، وإذا عرف ربه العزيز ذلَّ له، وإذا عرف ربه الجبّار خضع له، وسلم لأمره، وإذا عرف ربه القويّ لاذ بحِماه، وإذا عرف ربه القادر استعان به، وإذا عرف ربه القهّار سلَّم لأمره، وأذعن لقهره، وإذا عرف ربه الغنيّ سأله، ولم يلتفت لأحد سواه.

وإذا عرف ربه الكريم وقف ببابه، وسأله من فضله، وإذا عرف ربه الوهّاب طمعَ في ثوابه، وإذا عرف ربه العفو سأله أن يقيل عثرته، وإذا عرف ربه الغفور استغفره من ذنوبه، وإذا عرف ربه الرحمن استرحمه، وفوض أموره إليه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

والله عز وجل كما أمر بالتوكل عليه، والتسليم لأمره، والتفويض إليه؛ أمر العباد بفعل الأسباب بالجوارح، مع اعتماد القلب على الله، وتفويض الأمر إليه وحده: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

٢ -منزلة التفويض

التفويض من أعظم صفات الأنبياء والرسل، وأهل الإيمان والتوحيد، وتفويض الأمر إلى الله عبادة من أعظم العبادات؛ فالله وحده بيده مقاليد الأمور كلها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ [الملك: ١].

فالتوكل علىَ الله، والتسليم لأمره، وتفويض الأمور إليه، من أعظم أسباب الحفظ للعبد، و الوقاية له من كل سوء؛ كما قال مؤمن آل فرعون بعد أن نصح لقومه فلم يقبلوا منه: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٤٤﴾ [غافر: ٤٤].

ثم أخبر الله عنه بقوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٤٥﴾ [غافر: ٤٥].

ومن توكل على الله كفاه، وحفظه مِن كل مَن عاداه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ٣﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وتفويض الأمر إلى الله، والتوكل عليه وحده، عبادةٌ قلبيةٌ مطلوبةٌ من كل مؤمن، سواء كان ذلك في أمور الدين أو أمور الدنيا، وقد أمر الله المؤمنين بذلك فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن: ١٣].

وقال الله ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [النساء: ٨١].

وقال الله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود: ١٢٣].

والتفويض أعلى من التوكل

فالتوكل على الله هو الاعتماد على الله في كل شيء، لكمال الثقة به .

والتفويض هو جوهر التوكل وروحه وثمرته .

ومن وهبه الله حسن التوكل على ربه، وتفويض الأمور إليه، والتسليم لأمره اطمئن قلبه بذكر ربه، وزالت عنه هموم الدنيا، وزال عنه الخوف من الناس، وزال عنه الطمع فيما عندهم، وأعرض عن التوسع في محبوبات النفس، واشتغل بما يحبه الله من أنواع الطاعات والعبادات والقُربات، وفي التفويض راحة القلب والبدن: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[الرعد:٢٨-٢٩].

وبالتفويض يكون صلاح القلب والبدن، والتسليم لله ظاهراً وباطناً، وحسن عبادة الرب، والإحسان إلى الخلق: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢-٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

٣- درجات التفويض

درجات التفويض إلى الله ثلاث:

الأولى: أن يعلم العبد أنه لا يملك قبل عمله استطاعة؛ فلا يأمن مكر الله، ولا ييأس من معونة، ولا يعول على نية أو عمل، فإن استطاعته بيد الله وحده، فإذا لم يعطه ربه الاستطاعة فهو عاجز: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ [النحل:٥٣].

الثانية: معاينة الاضطرار، فيرى العبد فقره وفاقته وضرورته وحاجته إلى الله، فيرى في كل ذرة من ذراته ضرورةً وفاقةً تامة إلى الله، فنجاته إنما هي بالله الذي بيده مقاليد الأمور، لا بعمله، ولا بقوته، وأن سعة رحمة الله ومغفرته هي التي أوجبت له التبتّل إلى الله، والتفويض إليه، والتسليم لأمره، والعمل بشرعه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر:١٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١﴾ [النور:٢١].

وقال النبي ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَلا أَنْتَ؟ قَالَ: وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» متفق عليه (١).

الثالثة: شهود تفرد الحق جل جلاله بملك التدبير والتصريف، وملك الحركة والسكون، وملك البسط والقبض، وملك العطاء والمنع، وملك الحياة والموت: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ [آل عمران: ٢٦ – ٢٧].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٣) ومسلم برقم (٢٨١٦).

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال الله ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

فهذه الدرجة تتعلق بشهود أسماء الله وصفاته وأفعاله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

وما قبلها يتعلق بشهود حال العبد وفقره وضعفه وعجزه، وحاجته إلى ربه في كل حال، ومن عرف ربه بالغنى التام، عرف نفسه بالفقر التام: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

وإذا عرفت ربك بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وأفعاله الحميدة، وعرفت نفسك بالضعف والفقر، والعجز والذلة، ففوض أمورك إلى من بيده مقاليد الأمور، وأخلص العبادة له وحده لا شريك له، تسعد في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

٤ - الأسباب المعينة على تحصيل التفويض إلى الله

الأسباب المعينة على عبادة التفويض إلى الله ﷻ:

الأول: العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بكمال قدرته وكفايته وقيوميته، والعلم بانتهاء الأمور كلها إليه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، ومن عرف ذلك آمن بالله وحده، وتوكل عليه، وفوض أموره إليه وحده:

الثاني: حسن الظن بالله ﷻ،فمن عرف ربه بصفات الجلال والجمال والكمال أحسن الظن به، ووثق به، وفوض أموره إليه؛ لأنه أعلم بمصلحة العبد من نفسه:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾[الأحزاب:٤١-٤٤].

ومن هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله هو الذي يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له، وأن تُفوّض الأمور إليه، وأن يُعبد وحده لا شريك له :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣].

الثالث: العلم بعظمة ملك الله وسلطانه، والعلم بعظمة نِعم الله وإحسانه،فمن عرف ذلك فوض أموره إلى ربه، وانقاد لأمره، وسارع إلى ما يحبه ويرضاه، ابتغاء مرضاته، وخوفًا من عقابه:﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

وإذا عرفتم ذلك آمنتم بالله وحده، وسلمتم لأمره، وفوضتم أموركم إليه، وأخلصتم له العبادة وحده لا شريك له: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر:٦٥].

الرابع:العلم بسيرة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وما هم عليه من كمال التوحيد، وصدق الإيمان، والتعلق بالله وحده، والتسليم لأمره في حال الشدة والرخاء، للاقتداء بهم في توحيدهم وإيمانهم، وأقوالهم وأفعالهم، وأخلاقهم وآدابهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾[الأنعام:٩٠].

الخامس:النظر والتفكر في مخلوقات الله العظيمة من السماء والأرض، وما فيهما من المخلوقات، واختلاف الليل والنهار، والتدبير والتصريف من ليل ونهار، وحياة وموت، وأمن وخوف، وغنى وفقر، وصحة ومرض.

ومن عرف ذلك توكل على ربه في تدبير أموره، وفوض جميع أموره إليه لأنه الرب القادر على كل شيء: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾[البقرة:٢٥٥].

وقال الله ﷻ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس:٣١-٣٢].

السادس: دعاء الله ﷻ أن يرزقه من العلم والعبادة مايقربه إليه، حتى يتعلق قلبه بالله وحده، ولا يلتفت لأحد سواه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة:١٨٦].

السابع: العلم بفضيلة عبادة التفويض إلى الله، والتسليم لأمره، وعَظمة الثواب على ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ

رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ
خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ [البينة: ٧-٨].
وقال الله ﷻ: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ
ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ [لقمان: ٢٢].
وقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: ١٧].

اللهم وجهت وجهي إليك، وأسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، رغبةً ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك .

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾
[آل عمران: ٨].

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الرابعة والثلاثون

عبادة السكينة

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه السكينة

الثاني: فضائل السكينة

الثالث: أقسام السكينة

الرابع: درجات السكينة

الخامس: ثمرات السكينة.

العبادة الرابعة والثلاثون

عبادة السكينة

١ - فقه السكينة

السكينة هي الطمأنينة، والهدوء، والاستقرار، وراحة البال، والرضى، والوقار، والمهابة، والرحمة، والثبات، والرزانة.

السكينة هي الطمأنينة والسكون والوقار الذي ينزله الله عز وجل في قلب العبد عند اضطرابه من شدة المخاوف وغيرها مما يوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح:٤].

والسكينة والوقار كلمتان مترادفتان في المعنى، لكن تتميز السكينة بأنها مفارقة اضطراب القلب عند الغضب والخوف، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح:٢٦].

والسكينة منحة ربانية لا تسكن إلا في قلب نبي أو ولي، ليطمئن قلبه، ويسكن روعه، ويزيد إيمانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح:٤-٥].

وكل عبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان، ليثبت قلب المؤمن ولا يزيغ، وعند الشدائد والمخاوف، ليثبت قلبه، ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح، لئلا يطمح به مركبه فيجاوز الحد المشروع، فينقلب فرحه

ترحاً وحزنًا، وعند هجوم الأسباب المؤلمة على اختلافها،ليثبت قلب المؤمن،وتسكن نفسه إلى ما قدره الله وقضاه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

والسكينة في هذه المواطن علامة على قوة الإيمان، وكمال اليقين، وحسن الظن بالله، وذلك يثمر للعبد حصول المحبوب، ودفع المكروه، وحصول الخير، واندفاع الشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

السكينة هي الطمأنينة والوقار، فيكون المؤمن ساكناً في قلبه، وجوارحه، وحاله، وأقواله، وأفعاله، لحسن ظنه بربه، ورضاه عنه، وكمال ثقته به: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

والسكينة من أعظم العبادات القلبية التي يُكرم الله بها من يشاء من عباده فيطمئن قلبه، وتسكن روحه لكل ما أمر الله به فيفعله، ولكل ما نهى الله عنه فيحذره، ويسلم لكل ما قضاه الله وقدره: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

والسكينة دواء ورداء ينزل من الرب على قلب المؤمن الصادق، فيثبت القلوب الطائرة، ويهدئ الانفعالات الثائرة، ويطمئن القلوب الطائشة، ويجعلها قادرة على تحمل المصائب إذا نزلت به: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

ومن تحلى بالسكينة خشع قلبه لربه في صلاته، وسكنت جوارحه بين يديه: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك:١٢].
والسكينة إذا نزلت في القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح، وأنطقت اللسان بالحكمة والصواب، وحالت بينه وبين قول الفحش،والخنا،واللغو،والباطل،والكذب: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾[المؤمنون:١-١١].
والسكينة هبة من الله عز وجل يلقيها الله في قلوب بعض عباده فتبعث على السكون والطمأنينة والوقار، والانقياد لأوامر الله، والتسليم لأحكامه، وتثبت القلب عند المخاوف فلا تزلزله الفتن، ولا تؤثر فيه المحن، بل يزداد بها إيماناً ويقيناً وثباتاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤﴾[الفتح:٤].
السكينة عبادة قلبية، وهبة ربانية، يُكرم الله بها من آمن به واتقاه عند المخاوف، واضطراب الأحوال، وتفاقم الأمور، وتكالب الأعداء .
السكينة من أعظم ما يطمئن النفوس، ويزيل الغموم، ويطرد الهموم، وأمراض النفوس، والسكينة ملجأ الخائفين، وأنيس المؤمنين، ونجاة المضطرين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾[يونس:٦٢-٦٤].
ولما علم الله ﷻ صدق أصحاب النبي ﷺ، وما هم عليه من الإيمان والصدق، والسمع والطاعة لله ورسوله، وبايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة، أنزل الله على

قلوبهم السكينة، ورضي عنهم، وفتح لهم مايريدون: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح:١٨-١٩].

السكينة هي الثبات على دين الله الحق، والتسليم لأوامر الله الكونية والشرعية، وراحة القلب، وطمأنينة النفس، وقوة الثقة بالله، والتوكل عليه، والرضا بقضائه وقدره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

وفي هذا الزمان الذي نعيش فيه تشتد الحاجة إلى السكينة، لتطمئن النفوس الحائرة، والقلوب المضطربة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:٢-٣].

فما أحوجنا إلى السكينة في زمن الفتن والاضطرابات والإشاعات، وتتابع الأكاذيب والافتراءات.

وما أحوجنا إلى السكينة عند تبلبل الأفكار، وغلاء الأسعار، وخيانة الصديق، وجفاء القريب، وغلبة الهوى، وحصول الفتن، وتوالي المحن، وفتور الهمم، وتبدل الأحوال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

وكان من وصيته ﷺ لأصحابه حينما يوصيهم إذا خرجوا للدعوة إلى الله أن يقول لهم: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وسَكِّنُوا ولا تُنَفِّرُوا» متفق عليه (١).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٩)، ومسلم برقم (١٧٣٤).

٢- فضائل السكينة

السكينة عبادة قلبية تثبت المؤمنين، وتقوي الصالحين، وتسلي الخائف، وتسر الخاطر، وتقوي الإيمان: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح:٤].

السكينة علامة اليقين، والثقة برب العالمين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

السكينة ثمرة حسن الظن بالله عز وجل، فمن عرف الله حقًا أكرمه الله ﷻ، وملأ قلبه بالسكينة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

صاحب السكينةً ذاق طعم الإيمان، ووجد حلاوته في قلبه، لأنه رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً.

قال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا» أخرجه مسلم [1].

صاحب السكينة واثق بربه، ثابت الجأش، مطمئن القلب، لاتزعزع إيمانه الفتن والحوادث، ولا تقلقه المصائب والكوارث.

صاحب السكينة يرضى بالمحبوب والمكروه على حد سواء، ولا تزيده محن الدنيا وفتنتها وشهواتها إلا صبراً وإيماناً، وثباتاً ورسوخاً، وعملاً ونشاطاً: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة:٥١].

السكينة إذا حلّت في البيوت أثمرت الذرية الصالحة، والأسرة العابدة، والقدوة الحسنة، والأعمال المستمرة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٤).

فالسكينة إذا حلّت في القلوب اطمأن بها القلب، وسكنت إليها الجوارح، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة والسداد، وحالت بينه وبين الكذب، وقول الزور، وقول الخنا والفحش واللغو: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

والسكينة متى نزلت في القلوب استقامت الأمور، وصلحت الأحوال، وطردت الهموم، ومتى ترحلت من القلوب حلّت فيها المخاوف والوحشة، والاضطراب والضنك: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

والسكينة من أعظم علامات رضا الرب عز وجل عن العبد، فمن رضي الله عنه أنزل السكينة في قلبه، فانقاد لأمره، ورضي بقضائه، وصبر على بلائه: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

ومن رضي الله عنه أرضاه بكل ما يحبهاللهويرضاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

٣- أقسام السكينة

تنقسم السكينة إلى قسمين:

الأول السكينة العامة :

وهي التي يجدها المؤمن عند القيام بأداء ما أمر الله به من أنواع العبادات والقربات من الفرائض والنوافل .

وهذه السكينة تثمر الخشوع والخشية والخضوع التام لله، وجمعية القلب على الله عز وجل :﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾[الملك:١٢].

الثاني :السكينة الخاصة :

وهي التي تخص الأنبياء والرسل، وتخص أتباعهم من المؤمنين، بحسب علمهم وإيمانهم وتقواهم، وهي سكينة الإيمان التي تسكّن القلوب عند الريب والشك، والاضطراب والخوف، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أشد الأحوال، وأصعب المواطن، حينما يكونون أشد حاجة إليها، كما قال سبحانه :﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾﴾[الفتح:٤].

وأعلى مراتب السكينة، وأخص أقسامها، هي سكينة الأنبياء والرسل التي لاتفارقهم، لكمال علمهم بالله، وصدق توكلهم عليه :﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

ومن هذه السكينة ما حصل لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حينما وضعه أعداؤه في المنجنيق الذي سيلقيه في النار، فتوجه إلى ربه، فأنجاه الله من

النار كما قال سبحانه :﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾[الأنبياء:٦٨-٧١].

ومن تلك السكينة ما حصل لموسى ﷺ حين خرج مع بني إسرائيل، فلحقهم فرعون وجنوده، فكان البحر أمامهم، وفرعون وجنوده خلفهم :﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾[الشعراء:٦٠-٦٨].

وكذلك السكينة التي حصلت لموسى ﷺ وقت تكليم الله له :﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[الأعراف:١٤٣].

وكذلك السكينة التي نزلت عليه حين رأى العصا ثعباناً مبيناً كما قال سبحانه :﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾[طه:١٧-٢٣].

وكذلك السكينة التي نزلت عليه حين أمره الله بالذهاب إلى فرعون كما قال سبحانه :﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤١-٤٦].

وكذلك السكينة التي نزلت على قلب موسى ﷺ يوم الزينة، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٦٥-٧٠].

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا محمد ﷺ حينما وصل إليه الكفار وهو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه في الغار، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وكذلك السكينة التي نزلت عليه ﷺ في مواقفه العظيمة في غزواته، وأعداء الله قد أحاطوا به، كيوم بدر، ويوم حنين، ويوم الخندق وغيرها.. كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وقد جعل الله عز وجل هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ودار هموم وغموم، ودار تقلبات وتحولات.. وغيرها مما يشغل فكر العبد، ويشتت ذهنه، ويكدر صفوه، وهذا من رحمة أرحم الراحمين، حتى لا يركن الناس إليها، ويشتغلوا بعمارة الدار الآخرة الباقية، وعند تلك الابتلاءات والامتحانات يحتاج العبد من ربه إلى ما يطمئن قلبه، ويشرح صدره، ويربط جأشه، ويزيل ضيقه، ويريح قلبه، ويزيد إيمانه، ويقوي حسن ظنه بربه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا

مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٤-٦].

والفرق بين الطمأنينة والسكينة :

أن الطمأنينة هي سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه .

قال النبي ﷺ: «الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك » أخرجه أحمد (1).

أما السكينة فهي ثبات القلب عند هجوم المنغصات والمخاوف على العبد، وسكونه، وعدم اضطرابه.

فالطمأنينة أعم وأشمل، وتكون في العلم واليقين، ولهذا اطمأنت القلوب بذكر الله والقرآن، وامتازت بالسكينة والتواضع، وحسن الظن بالله، وصدق التوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، وسارت بمقتضى ذلك الإيمان إلى الإحسان والبر، والتقوى والصبر، والتوبة والإقبال على الله، حتى وصلت إلى رضوان الله والجنة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩].

وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

---

(١) حسن/ أخرجه احمد برقم (١٧٩٩٩) .

٤ - درجات السكينة

السكينة على ثلاث درجات:

الأولى: سكينة الخشوع عند القيام بين يدي الله بالعبادة، رعاية لمقام الرب، وتعظيماً له، وتصاغراً لكبريائه، وانكساراً بين يديه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

الثانية: السكينة عند المعاملة، بمحاسبة النفس، وملاطفة الخلق، ومراقبة الحق جل جلاله: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٥].

الثالثة: السكينة التي تثمر الرضا بالقدر، وتمنع الشطح، وتوقف صاحبها عند الحد الشرعي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

وأسعد الناس بهذه الدرجات الثلاث هم الأنبياء والرسل، وأتباعهم من المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة:٥].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥-١٧].

٥ - ثمرات السكينة

من أعظم ثمرات السكينة محبة الله لعبده، حيث أنزل على قلبه السكينة، ثم محبة الملائكة له، ثم محبة الناس له: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

والسكينة منحة ربانية تجعل العبد المؤمن قادراً على تحمل المصائب والشدائد إذا نزلت به: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

والسكينة تثمر للعبد أداء العبادات بكمال الحب والتعظيم والذل لله عز وجل، وبكل طمأنينة، وخشوع، وسكينة، وحضور قلب، فيؤدي العبد المؤمن كل عبادة على ما يحبه الله ويرضاه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١-١١].

وقال النبي ﷺ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ» متفق عليه (١)

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٣٥) ومسلم برقم (٦٠٣).

وقال النبي ﷺ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ ، فَلاَ تَقُومُوا حَتَّى تَرَوْنِي وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ» متفق عليه (١)

وفي الحج لما دفع النبي ﷺ من عرفة فَسَمِعَ وَرَاءَهُ زَجْرًا شَدِيدًا ، وَضَرْبًا وَصَوْتًا لِلْإِبِلِ ، فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ : «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ» أخرجه البخاري (٢).

والسكينة علامة من علامات رضا الله ﷻ عن العبد، والسكينة تجعل المؤمن قادرًا على امتصاص غضبه عندما تحل به مصيبة أو كارثة، فيصبر ويرضى ويسلم، لكمال ثقته بربه، وحسن ظنه به :﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الحج:٣٤-٣٥].

وقال الله عز وجل :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

اللهم إنا نسألك إيماناً كاملاً، ويقيناً صادقاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وتوبةً نصوحاً.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

---

(١)متفق عليه،أخرجه البخاري برقم (٦٣٨) ومسلم برقم (٦٠٤).

(٢)أخرجه البخاري برقم (١٦٧١).

عبادات القلوب

في ضوء القرآن والسنة

العبادة الخامسة والثلاثون

عبادة الرحمة

وتشتمل هذه العبادة العظيمة على المباحث الآتية :

الأول: فقه رحمة الرب ﷻ.

الثاني: فقه رحمة الخلق.

الثالث: أقسام الرحمة.

الرابع: أنواع الرحمة.

الخامس: الأسباب المعينة على رحمة الخلق.

السادس: ثمرات الرحمة.

العبادة الخامسة والثلاثون

عبادة الرحمة

١ - فقه رحمة الرب ﷻ

الرحمة من أعظم صفات الرب ﷻ؛ والرحمة صفةٌ ذاتية لله ﷻ،مشتقة من اسم اللهالرحمن الرحيم؛ وكذلك الرحمة صفةٌ فعلية للرب ﷻ، فالله يرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، متى شاء:﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣].

ورحمة الله ﷻوسعت كل شيء؛ فوسعت في الدنيا المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمطيع والعاصي، وهي يوم القيامة للمؤمنين خاصة:﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[الأعراف:١٥٦].

وقال النبي ﷺ:«إِنَّ اللهَّ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»متفق عليه [١].

وقال النبي ﷺ: «جَعَلَ اللهَّ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فأمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وتِسْعِينَ جُزْءًا، وأَنْزَلَ في الأرْضِ جُزْءًا واحِدًا، فَمِنْ ذلكَ الجُزْءِ يَتَراحَمُ الخَلْقُ، حتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حافِرَها عن ولَدِها، خَشْيَةَ أنْ تُصِيبَهُ»متفق عليه [٢].

ومن رحمة الله سبحانه بعباده أنه خلق الجنّ والإنس لعبادته، وتكفّل بجميع أرزاقهم، وأرزاق غيرهم:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن

(١)**متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٧٥٥٤) ومسلم برقم (٢٧٥١).

(٢)**متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٦٠٠٠) ومسلم برقم (٢٧٥٢).

رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وقال جل جلاله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

ومن رحمة الله سبحانه أنه ابتلى عباده بالأوامر والنواهي رحمةً بهم، وحميةً لهم مما يضرهم، لا حاجةً منه إليهم، لأنه وحده الغني عن كل ما سواه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت:٦].

ومن رحمة أرحم الرحمين سبحانه أنه نغّص الدنيا وكدّرها على الناس، لئلّا يتعلقوا بها، ويسكنوا إليها، كي يرغبوا في النعيم في الجنّة، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥].

ومن رحمة الله الواسعة بخلقة أن سخّر لهم ما في السموات وما في الأرض، ليشكروا ربهم ويحبوه، ويستعينوا به على عبادته وطاعته: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠].

ومن رحمة الله ﷻ بالناس أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وشرع لهم الدين الحق، وزودهم بالسمع والأبصار والعقول، ليعرفوا ربهم، ويعبدوا من يستحق أن يُعبد، ومن يستحق أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد:٩].

وقال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨].

ومن رحمة الله بعباده أن عرّفهم بنفسه، ليؤمنوا به، وحذرهم نفسه، لئلا يعاملوه بما لا يليق بجلاله وعظمته: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال ﷻ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ومن رحمة أرحم الراحمين بعباده قبول توبة التائبين، والعفو عن العاصين، والمغفرة للمستغفرين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال ﷻ: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن رحمة الله بعباده أن شرع لهم من الأحكام والأخلاق ماينفعهم في دينهم ودنياهم وأُخراهم، فامتثال أوامره سبيلٌ إلى رحمته، واجتناب نواهيه سبيلٌ إلى رحمته، والوقوف عند حدوده سبيلٌ إلى رحمته: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النور: ٥٦].

ومن رحمة أرحم الراحمين بعباده أنه يثيب المؤمنين بأعظم الثواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة: ٧-٨].

ومن رحمة أرحم الراحمين أنه يجزي الصابرين من المؤمنين بأحسن الجزاء: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقال عَجَلّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾[الزمر:١٠].

ورحمة الله واسعة لا أول لها ولا آخر، ولا بداية لها ولا نهاية، فهو أرحم الراحمين قبل أن يرحم أحدًا، وهو الرزاق قبل أن يرزق أحدًا، وهو العفو قبل أن يعفو عن أحد، وهو الخالق قبل أن يخلق أحداً: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

وكل رحمة في المخلوقات فمن آثار رحمة الله بعباده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل:٥٣].

ورحمة الله قريبةٌ من أهل الخير والبر والإحسان: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾[الأعراف:٥٦].

وكل رحمة في الخلق فمن آثار رحمة الخالق: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[آل عمران:١٥٩].

٢- فقه رحمة الخلق

أحب شيءٍ إلى الله ﷻ هو تحصيل صفاته، والتعبّد لله بها على شاكلة العبودية .

فالله مؤمنٌ يحب الإيمان، وأهل الإيمان، والله محسنٌ يحب الإحسان، وأهل الإحسان، والله توابٌ يحب التوبة، وأهل التوبة، والله رحمنٌ يحب الرحمة، وأهل الرحمة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف:١٨٠].

والرحمة عبادةٌ قلبية، وخلقٌ عظيم أودَعه الله قلوب جميع المخلوقات؛ فالرحمة تدفع الكبير ليحنو على الصغير، وتدعو القادر لإعانة العاجز، وتدفع الغني للإحسان إلى الفقير، وتدفع العالم لتعليم الجاهل، وتدفع الوالد للإنفاق على الولد، وتدفع الولد للإحسان إلى الوالد، وتدفع الصحيح لإسعاف المريض: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح:٢٩].

والرحمة تدفع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لرحمة الخلق، والعطف عليهم، واللين لهم، والإحسان إليهم، ليعرفوا ربهم، ويؤمنوا به، ويعبدوه وحده لا شريك له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقد أرسل الله الرحمن الرحيم جميع الرسل لرحمة الخلق، وتعريفهم بربهم الرحمن الرحيم؛ حتى يحبوه، ويسألوه، ويعبدوه وحده لا شريك له ، لينالوا ثوابه، وينجوا من عقابه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

الرحمة خلقٌ عظيم من أخلاق الإسلام، وأجمل أخلاق الأنبياء والمرسلين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾[التوبة:١٢٨].

الرحمة خلقٌ عظيم من سمة عباد الله الصالحين، وأولياء الله المتقين، تنبعث من شعور العبد بما يعانيه غيره من هموم وأحزان، وما يقاسيه من آلام وأوجاع، فتحمل العبد على رحمة غيره، والوقوف إلى جانبه، وإسداء المعروف إليه، والأخذ بيده، والإحسان إليه بالقول والفعل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)﴾[النور:٢١].

وقال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾[الفتح:٢٩].

وقال النبي ﷺ: "مَثَلُ المؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى". متفق عليه [١].

والرحمة هي إرادة إيصال الخير إلى الغير من إنسان أو حيوان؛ الرحمة رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم بالقول والفعل

الرحمة إحسان وإنعام وإكرام من الراحم للمرحوم: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى

---

(١) **متفق عليه**. أخرجه البخاري برقم (٦٠١١) ومسلم برقم (٢٥٨٦).

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[النساء:٣٦].

والرحمة والتراحم بين الخلق هو نشر الرحمة بينهم، والتآزر والتعاطف والتعاون بينهم، وبذل الخير والإحسان والمعروف لمن هو في حاجة إليه، تعبدا لله، ورحمة بالناس:﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

والرحمة صفة من صفات الله عز وجل، وهي من مقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومن لوازم الإيمان بأسماء الله الرحمن الرحيم، المحسن الكريم، العفو الغفور، الرءوف اللطيف؛ فمن عرف ربه الرحمن الرحيم أحبه ومجّده، وسأله من واسع فضله ورحمته، ورحم غيره من الخلق:﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾[غافر:٧].

ومن عرف ربه بصفة الإحسان أحسن إلى غيره بالقول والفعل:﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة:٨٣].

وقال الله عز وجل:﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[البقرة:١٩٥].

ومن عرف ربه باسمه الكريم شكر ربه على إحسانه وإنعامه، وأكرم غيره من الخلق بما يدخل السرور عليه :﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[البقرة:٢٦١].

ومن عرف ربه العفو شكره، وعفا عن غيره. ومن عرف ربه الغفور شكره على عظيم مغفرته، وغفر زلات من أساء إليه، ومن عرف ربه الرءوف رأف بخلقه،

ومن عرف ربه اللطيف رحِم عباده، ولطَفَ بهم،وأحسن إليهم : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

والرحمة من أعظم صفات الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةٗ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء: ١٠٧].

الرحمة عبادة قلبية تقتضي رقة القلب، والرغبة في الإحسان إلى المرحوم واللطف به، وإدخال السرور عليه، والرأفة به،والإشفاق عليه.

والفرق بين الرحمة والرأفة:

أن الرأفة مبالغةً في رحمةٍ خاصة، وهي دفع المكروه، وإزالة الضرر عن المرحوم. وأما الرحمة فهي اسم جامع تقتضي الإحسان إلى المرحوم، ودفع المكروه عنه، فهي أعمّ من الرأفة والرأفة والرحمة من أعظم صفات نبينا ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٞ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[التوبة:١٢٨].

٣-أقسام الرحمة

تنقسم الرحمة من حيث المدح والذم إلى قسمين :

الأولى: الرحمة المحمودة:

وهي رحمة جميع البشرية بدعوتهم إلى الله ﷻ،ليؤمنوا به، ويعبدوه وحده لا شريك له، ليفوزوا بثوابه، وينجوا من عقابه:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء:١٠٧].

ورحمة الضعفاء من الصغار والكبار، والأرامل والأيتام، والفقراء والمساكين، والمرضى والمحتاجين، بالإحسان إليهم، والشفقة عليهم، ودفع المكروه عنهم، وهذه الرحمة هي الأصل؛ وهي التي فطر الله الناس عليها:﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

الثانية: الرحمة المذمومة:

وهي كل ما يحصل بسبب تعطيل شرع الله، أو التهاون في تطبيق حدوده وأوامره؛ كمن يشفق على من ارتكب جرمًا يستحق به إقامة الحد عليه، فيحاول إقالته، والعفو عنه، وإسقاط الحد عنه، يظن أن ذلك من رحمة الخلق، وليس ذلك من الرحمة في شيء؛ بل الرحمة هي إقامة الحد على المذنب، و تنفيذ حكم الله فيه، قطعًا لدابر الشر والفساد والظلم والعدوان في الأرض:﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾[البقرة:١٧٩].

ولهذا نهى الله ﷻ المؤمنين أن تأخذهم رأفةً أو رحمةً في تنفيذ حدود الله على الجناة، وإقامة شرعه على المجرمين بقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢].

فدين الله الذي تُنال به رحمته هو طاعته وطاعة رسوله، المبني على محبته ومحبة رسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

والرأفة والرحمة يحبهما الله ورسوله ما لم تكن مضيعةً لدين الله، وتعطيل حدوده، وقد أرسل الله رسوله محمداً ﷺ رحمةً للعالمين كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض الذي يتألم ويتعذب، فلم يُعنه ويسعفه رأفةً به، فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه بجهله وحمقه، لأن الله الرحمن الرحيم هو الذي أمر بالرحمة والتراحم، والتعاون على البر والتقوى، وخير الناس أنفعهم للناس: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

وقال النبي ﷺ: «أحبُّ الناسِ إلى الله تعالى أنفعُهم للناسِ وأحبُّ الأعمالِ إلى الله عزَّ وجلَّ سرورٌ يُدخلُه على مسلمٍ أو يكشفُ عنه كُربةً أو يقضي عنه دَينًا أو يطرَدُ عنه جوعًا» أخرجه الطبراني(١).

ومن الرحمة المذمومة شرعًا ما يكون سببًا في ضياع وفساد وهلاك المرحوم؛ كما يفعله بعض الآباء من ترك تربية الأولاد، وعدم تأديبهم وعقوبتهم عند

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٠٢٦).

الخطأ، رحمةً بهم، وشفقةً عليهم، وعطفًا عليهم، فيكونون سببًا في فسادهم وانحرافهم،وفشلهم وهلاكهم، وهم لا يشعرون، فهذه رحمة مذمومة مقرونة بجهل! فإن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه؛ فليقم بما أوجب الله عليه .

قال النبيﷺ :«أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسئول عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مسئول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مسئول عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مسئولة عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مسئول عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسئول عَنْ رَعِيَّتِهِ» متفق عليه (١).

ومن الرحمة المذمومةترك نصح الوالدين عن فعل المعاصي والكبائر، ظنًّا من الولد أن هذا ينافي الإحسان إليهما، وإدخال السرور عليهما والقول الحسن معهما، والبر بهما .

وهذه رحمة مقرونة بجهل؛ لأن الله أمرنا بالإحسان إلى الخلق عمومًا، والإحسان إلى الوالدين خصوصًا، ومن الإحسان إليهما الرفق بهما،وإحسان القول لهما، والتواضع لهما، والدعاء لهما، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر:﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

ومن الرحمة المذمومة ترك الإنكار على أهل المعاصي من الأقارب، وترك إيقاظ الأولاد للصلاة خاصةً صلاة الفجر رحمةً بهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٢٥٥٤)، ومسلم برقم (١٨٢٩) .

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[التحريم:٦].

وتنقسم الرحمة من حيث الاتصاف بها إليقسمين :

الأول: رحمة فطرية، قد جبلَ الله عليها بعض عباده، فجعل في قلوبهم الرحمة والرأفة، والحنان والإشفاق على الخلق، ففعلوا بموجب هذه الرحمة كل ما يقدرون عليه من نفع الخلق بحسب استطاعتهم، وهم محمودون مثابونعلى ما قاموا به من رحمة الخلق، معذورون فيما عجزوا عنه، ويكتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢-٤].

وقال الله ﷻ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠].

وقال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات.... نوى»متفق عليه [(١)].

الثاني: رحمة مكتسبة، يكتسبها العبد بسلوكه ومجاهدته، لعلمه بأن الرحمة من أجلّ مكارم الأخلاق وأكملها؛ فيجاهد نفسه عليا لاتصاف بها، ولعلمه بما رتّب الله عليها من الثواب العظيم، ولعلمه أن الجزاء من جنس العمل ، فمن رحم الخلق رحمه الله، ومن أحسن إليهم أحسن الله إليه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١) ومسلم برقم (١٩٠٧).

﴿وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾
[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحمَاءَ» متفق عليه (١).

وتنقسم الرحمة من حيث القوة والضعف إلى قسمين:

الأول: أهل الرحمة القوية الواسعة العامة:

وتحصل هذه الرحمة لهؤلاء بحسب معرفتهم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة صفات جلاله وجماله، وسعة رحمته لجميع الخلق، وعلمهم بأن الرحمة من أحسن مكارم الأخلاق، وأن الرحمة من أعظم صفات الأنبياء والمرسلين، وعلمهم بعظيم ثواب الله لأهل الرحمة والإحسان، ومحبته لهم، وعلمهم بأن الجزاء من جنس العمل، فمن رحم العبيد رحمه رب العبيد، ومن أحسن إلى الخلق أحسن إليه رب الخلق.

فهؤلاء لكثرة مخالطتهم للضعفاء من الفقراء والمساكين، والمرضى والمصابين، والمحتاجين والمعوزين، هم أنفع الناس للناس بعد الأنبياء.

فهؤلاء بين الخلق كالشمس والقمر، وكالأرض تنبت من كل زوج بهيج، وكالماء النازل من السماء تحيا به الأرض بعد موتها، ويسقي الزروع والبهائم وبني آدم.

فما أعظم فضل الله على هؤلاء، وما أعظم فضلهم على الخلق، وما أعظم ثوابهم عند ربهم: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٢٨٤) ومسلم برقم (٩٢٣).

وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء والرسل، ومن سار على هديهم من المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقال الله ﷻ عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فوظائف هؤلاء بين الخلق الدعوة إلى الله، وتعليم شرع الله ، والإحسان إلى خلق الله بأنواع الإحسان، والبذل والعطاء، والرحمة واللطف، والعفو والصفح: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١٤].

الثاني: أهل الرحمة الضعيفة:

فرحمتهم ناقصة محدودة، لجهلهم بصفات أرحم الراحمين، وجهلهم بصفات سيد المرسلين، وجهلهم بثواب أهل الرحمة، وعدم مخالطتهم للفقراء والمساكين والمحتاجين: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

وقال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤ - أنواع الرحمة

الرحمة خمسة أنواع:

الأول: رحمة النفس

وذلك بحملها على طاعة الله ورسوله، وتزكيتها بالإيمان والأعمال الصالحة، وإعطائها حظوظها، وعدم الاعتداء عليها، أو حرمانها مما أحلّ الله لها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٧-١٠].

وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

الثاني: رحمة الأسرة المسلمة التي يعيش فيها الإنسان:

فيجب إشاعة الرحمة والمحبة والمودة داخل هذه الأسرة، وذلك بنشر العلم الإلهي بينهم؛ ليعرفوا أوامر الله وحدوده، ويعملوا بموجب ذلك، ليفوزوا برضوان الله، وينجوا من عقابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

وقال النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهلِهِ وأنا خَيْرُكُمْ لأهلِي» أخرجه الترمذي وابن ماجة(١).

الثالث: رحمة الأمة المسلمة:

وذلك بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والوعظ والتذكير، والنصح لكل مسلم، والاستقامة على الدين من الجميع: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم (٣٨٩٥) وابن ماجة برقم (١٩٧٧).

وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[التوبة: ٧١].

الرابع: رحمة البشرية كافة:

وذلك بدعوتهم إلى الله عز وجل، وتعريفهم بربهمالذي خلقهم ورزقهم، ليؤمنوا به، ويعبدوه وحده لا شريك له؛ لأنه وحده الرب الذي له الأسماء الحسنى،والصفات العلا، والأفعال الحميدة: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[إبراهيم: ٥٢].

فالواجب على المسلمين رجالًا ونساءً دعوة الكفار إلى الإسلام في كل زمانٍ ومكان، حتى يكون الدين كله لله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف: ١٠٨].

الخامس: رحمة كل من على ظهر الأرض:

من العرب والعجم، والرجال والنساء، والضعفاء والمساكين، والطير والحيوان، والإحسان إلى الخلق، والرفق بهم، وقضاء حوائجهم حسب الاستطاعة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ: «الرَّاحمونَ يرحمُهُمُ الرَّحمنُ، ارحَموا من في الأرضِ يرحَمْكم من في السَّماءِ» أخرجه الترمذي(١).

وقال النبي ﷺ: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجرٌ» متفق عليه (٢).

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم (١٩٢٤) وأبو داود برقم (٤٩٤١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٢٣٦٣) ومسلم برقم (٢٢٤٤).

٥ - الأسباب المعينة على رحمة الخلق

الأول: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بأنه أرحم الراحمين، الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٩].

والله يحب من عباده أن يتّصفوا بصفاته على شاكلة العبودية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

الثاني: معرفة سيرة الرسول ﷺ، وما أكرمه الله به من عظيم الأخلاق؛ من الرحمة واللطف والإحسان، والاقتداء به فيما جاء به، وما تخلّق به: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

الثالث: معرفة جزاء أهل الرحمة وثوابهم، وأنهم جديرون برحمة الله أكثر من غيرهم، ومعرفة عقوبة أهل القَسوة والشِّدة: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

وقال النبي ﷺ: «إنما يَرحمُ الله مِنْ عباده الرُّحماء» متفق عليه (١).

الرابع: معرفة الآثار المترتبة على التعبد لله بخُلُق الرحمة، والثمار التي يجنيها الرحماء في الدنيا والآخرة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٢٨٤)، ومسلم برقم (٩٢٣).

الخامس: مخالطة الضعفاء، والمساكين، والفقراء، وذوي الحاجات، فإن ذلك مما يرقّق القلب، و يملؤه بالرحمة والشفقة على هؤلاء وغيرهم .

قال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم .... إلى الحمى» متفق عليه [1].

السادس: تربية الأولاد على مكارم الأخلاق، وغَرس الرحمة والرفق في قلوبهم؛ حتى تصبح الرحمة سجيّة لهم، ومنارًا لأهل البيت :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾[التغابن: ١٤].

السابع: مجالسة الرحماء ومخالطتهم، والبُعد عن ذوي القسوة والغِلظة، فالمرء على دين خليله، فلينظر من يخالل: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾[الكهف:٢٨].

الثامن: دعاء الله عز وجل أن يرزقه خلق الرحمة لجميع الخلق، فالله كريم لا يرد سائلاً، ولا يخيب مؤملاً :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ ﴾[البقرة:١٨٦].

وقال النبي ﷺ :«يَنْزِلُ رَبُّنَا تبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يقولُ: مَن يَدْعُوني، فأسْتَجِيبَ له مَن يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَن يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له» متفق عليه [2]

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٦١١) ومسلم برقم (٢٥٨١).

(٢) متفق عليه،أخرجه البخاري برقم (١١٤٥) ومسلم برقم (٧٥٨).

٦ - ثمرات الرحمة

من أعظم ثمرات الرحمة:

الأولى: محبة الله لصاحب الرحمة، ومحبة الملائكة له، ثم محبة الناس له، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

الثانية: أن الرحمة بالخلق من أعظم أسباب تحصيل رحمة الله، فقد خصّ الله أهلها برحمته جزاءً رحمتهم لخلقه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

الثالثة: أن المُتحلّي بخلق الرحمة مُقتدٍ بأرحم الناس بالناس، وهو النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

الرابعة: أن الرحمة والتراحم من أعظم أسباب الأمن والمحبة، والتآلف والمودة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

وقال النبي ﷺ: «مثلُ المؤمنينَ في توَّادهم وتَراحمهم وتعاطُفِهم مثلُ الجسَدِ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرَ الجَسدِ بالسَهَرِ والحُمَّى» متفق عليه [(١)].

الخامسة: أن الرحمة أعظم رباطٍ يربط المؤمنين ببعضهم حتى يكونوا كالجسد الواحد، فالرحمة من علامات الإيمان والأمن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٦١١) ومسلم برقم (٢٥٨٦).

وقال النبي ﷺ: «ليس منّا مَنْ لم يرحم صغيرنا ويعرف حقَّ كبيرنا» أخرجه أحمد والترمذي[1].

السادسة: أنه على قدر حظ المؤمن من الرحمة تكون درجته عند الله عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

وقال النبي ﷺ: «إنما يَرحمُ الله من عباده الرُّحماء» متفق عليه[2].

السابعة: أن الرحمة والمغفرة سبب لمغفرة الله تعالى، وكريم عفوه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن:١٤].

الثامنة: أن الرحمة أعظم مفتاحٍ لأبواب الأجر والثواب؛ لأنها تتعلق بِضَعَفَةِ المجتمع من الفقراء والمساكين، والأرامل والأيتام، والكبار والعجزة، والمرضى والضعفاء والمحتاجين، فخير الناس أنفعهم للناس: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

التاسعة: أن الرحمة خلقٌ عظيم متعدّ النفع لجميع الخلق من بني آدم وغيرهم من البهائم والحيوان والطير.

---

(١) صحيح: أخرجه احمد برقم (٦٧٣٣) والترمذي برقم (١٩٢٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٢٨٤) ومسلم برقم (٩٢٣).

قال ﷺ: «في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ» متفق عليه [(١)]

العاشرة: أن من رحمه الله رضي الله عنه، وأدخله جنته: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران: ٨].

اللهم يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، ارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، يا أرحم الراحمين .

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها .

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (٢٣٦٣) ومسلم برقم (٢٢٤٤).

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

المقدمة... ٥

القسم الأول

عبادات الأفعال

١ - عبادة توحيد الله عزَّ وجل: وتشتمل على ما يلي: ٢٨

الأوَّل: تعريف التَّوحيد. ٢٨

الثَّاني: منزلة التَّوحيد. ٢٩

الثَّالث: فضائل التَّوحيد. ٣٢

الرَّابع: أقسام التَّوحيد... ٣٤

الخامس: أركان التَّوحيد... ٣٧

السَّادس: ثمرات التَّوحيد... ٣٩

السَّابع: الأسباب المعِينة على تحقيق التَّوحيد................................. ٤١

الثَّامن: جزاء أهلِ التَّوحيد... ٤٣

٢ - عبادة الإيمان بالله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:.............................. ٤٦

الأول : تعريف الإيمان ٤٦

الموضوع	الصفحة
الثاني : ما يتضمنه الإيمان بالله عز وجل	٤٨
الثالث : الأسباب المعينة على الإيمان بالله عز وجل	٥١
الرابع : درجات الإيمان	٥٣
الخامس : فضائل الإيمان بالله عز وجل	٥٧
السادس : ثمرات الإيمان بالله عز وجل	٥٧
السابع : جزاء أهل الإيمان	٥٨
٣- عبادة تعظيم الله جل جلاله: وتشتمل على ما يلي:	**٦٢**
الأول : منزلة تعظيم الرب جل جلاله	٦٢
الثاني : فضائل تعظيم الله جل جلاله	٦٨
الثالث : مظاهر عظمة الله جل جلاله	٦٩
الرابع : الأسباب المعينة على تعظيم الرب جل جلاله	٨٠
الخامس: جزاء تعظيم الرب جل جلاله	٨٢
٤ - عبادة حب الله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:	**٨٤**
الأول : منزلة حب الله عز وجل	٨٤
الثاني : أنواع المحبة	٨٧
الثالث : الأسباب الجالبة لحب الله عز وجل	٩٠

الموضوع	الصفحة

الرابع : علامات حب العبد لربه.. ٩١

الخامس : علامات حب الله للعبد.. ٩٥

السادس : الذين يحبهم الله عز وجل.................................... ١٠٠

السابع : ثمرات حب العبد لربه.. ١٠٣

٥ - عبادة الخوف من الله جل جلاله: وتشتمل على ما يلي:.............١٠٦

الأول: منزلة الخوف من الله عز وجل.................................... ١٠٦

الثاني: أقسام الخوف ١١١

الثالث: الأسباب الجالبة لخوف الله عز وجل............................ ١١٣

الرابع: أنواع الخوف من الله عز وجل.................................. ١١٥

الخامس: ثمرات الخوف من الله عز وجل................................ ١٢٠

السادس: جزاء الخوف من الله عز وجل................................. ١٢٣

٦ - عبادة الرجاء: وتشتمل على ما يلي:..............................١٢٦

الأول: منزلة الرجاء.. ١٢٦

الثاني: شروط الرجاء... ١٢٩

الثالث: أنواع الرجاء... ١٣١

الرابع: وقت الرجاء.. ١٣٣

الموضوع	الصفحة
الخامس: أقسام الناس في الرجاء................................	١٣٤
السادس: الأسباب المعينة على قوة الرجاء.........................	١٣٧
السابع: علامات صدق الرجاء...................................	١٤٣
الثامن: جزاء أهل الرجاء......................................	١٤٤
٧ - عبادة الصدق: وتشتمل على ما يلي:........................	١٤٦
الاول: منزلة الصدق...	١٤٦
الثاني: فضائل الصدق..	١٤٩
الثالث: صفات الصادقين..	١٥١
الرابع: أنواع الصدق...	١٥٢
الخامس: مراتب الصدق..	١٥٩
السادس: ثمرات الصدق..	١٦٠
٨ - عبادة الإخلاص: وتشتمل على ما يلي:......................	١٦٤
الأول : منزلة الإخلاص لله عز وجل	١٦٤
الثاني : تفاوت الناس في الإخلاص	١٦٧
الثالث : مفسدات الإخلاص	١٦٩
الرابع : الأسباب المعينة على تحقيق الإخلاص.........................	١٧٣

الموضوع	الصفحة

الخامس : علامات المخلصين ١٧٤

السادس : ثمرات الإخلاص ١٧٦

السابع : جزاء أهل الإخلاص.................................... ١٧٨

٩ - عبادة الرضا: وتشتمل على ما يلي:.................................... ١٨٠

الأول: منزلة الرضا.................................... ١٨٠

الثاني: بم يكون الرضا عن الله عز وجل.................................... ١٨٢

الثالث: أركان الرضا.................................... ١٨٥

الرابع: أقسام الرضا.................................... ١٨٨

الخامس: الأسباب التي تعين على الرضا.................................... ١٩١

السادس: ثمرات الرضا.................................... ١٩٢

السابع: جزاء أهل الرضا.................................... ١٩٦

١٠ - عبادة التوكل على الله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:.................................... ١٩٨

الأول : فقه التوكل على الله عز وجل.................................... ١٩٨

الثاني :منزلة عبادة التوكل.................................... ٢٠١

الثالث :أنواع التوكل.................................... ٢٠٣

الرابع : كيف تنشأ عبادة التوكل في القلب ؟.................................... ٢٠٤

الموضوع الصفحة

الخامس : تفاوت الناس في التوكل ٢١٥
السادس : التوكل سلاح الأنبياء والمؤمنين ٢١٨
السابع : الأسباب المعينة على التوكل ٢٢٢
الثامن : جزاء أهل التوكل... ٢٢٦
١١ - عبادة التوبة إلى الله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:............٢٢٨
الأول: منزلة التوبة إلى الله عز وجل ٢٢٨
الثاني: حكم التوبة.. ٢٣١
الثالث: فضائل التوبة إلى الله عز وجل.................................... ٢٣٩
الرابع: الأسباب المعينة على التوبة... ٢٤١
الخامس: أنواع التوبة.. ٢٤٢
السادس: أقسام التائبين إلى الله عز وجل.................................. ٢٤٤
السابع: خطر المعاصي على العبد... ٢٤٦
الثامن: خطر التسويف بالتوبة.. ٢٤٩
التاسع: علاج الإصرار على المعاصي.. ٢٥٢
العاشر: أسباب سوء الخاتمة.. ٢٥٣
الحادي عشر: جزاء التائبين.. ٢٥٦

الموضوع	**الصفحة**

١٢ - **عبادة تقوى الله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:**........................ ٢٥٨
الأول : فقه التَّقوى.. ٢٥٨
الثَّاني : منزلة التَّقوى.. ٢٦١
الثَّالث : ما الَّذي يتَّقيه المسلم في حياته........................ ٢٦٤
الرَّابع : فضائل التَّقوى.. ٢٦٥
الخامس : الأسباب المُعِينة على تحقيق التَّقوى.................. ٢٦٧
السَّادس : تفاوت النَّاس في التَّقوى............................ ٢٧٠
السَّابع : صفات المتَّقين.. ٢٧٣
الثَّامن : جزاء المتَّقين.. ٢٧٤
١٣ - **عبادة الصبر: وتشتمل على ما يلي:**........................ ٢٧٨
الأول : منزلة الصبر.. ٢٧٨
الثاني : شروط الصبر.. ٢٨٠
الثالث : أنواع الصبر.. ٢٨٢
الرابع : الأسباب المعينة على الصبر............................ ٢٨٧
الخامس : أنواع الابتلاء.. ٢٩٣
السادس : فوائد المصائب.. ٣٩٤

الموضوع	الصفحة

السابع : تفاوت الناس في الصبر.. ٢٩٩

الثامن : ثمرات الصبر.. ٣٠٣

١٤ - عبادة الحمد والشكر: وتشتمل على ما يلي:.. ٣٠٦

الأول :فقه الحمد والشكر.. ٣٠٦

الثاني: منزلة الحمد والشكر.. ٣١٠

الثالث: فضائل الحمد والشكر.. ٣١٤

الرابع: أركان الحمد والشكر.. ٣١٨

الخامس: الأسباب المعينة عليالحمدوالشكر.. ٣٢٠

السادس: تفاوت الناس في الحمد والشكر.. ٣٢٥

السابع :جزاء أهل الحمد والشكر.. ٣٢٧

١٥ - عبادة حسن الظن بالله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:.. ٣٣٢

الأول: منزلة حسن الظن بالله ﷻ.. ٣٣٢

الثاني: أنواع الظن بالله ﷻ.. ٣٣٤

الثالث: الأسباب المعينة على حسن الظن بالله ﷻ.. ٣٣٧

الرابع: علامات حسن الظن بالله ﷻ.. ٣٣٨

الخامس: مقامات حسن الظن بالله ﷻ.. ٣٤١

الموضوع	الصفحة

السادس: جزاء حسن الظن بالله ﷻ................................ ٣٤٣

١٦ - عباد الإخبات إلى الله : وتشتمل على ما يلي:.............................. ٣٥٠

الأول: فقه الإخبات إلى الله عز وجل.................................. ٣٥٠

الثاني: منزلة الإخبات إلى الله عز وجل ٣٥٤

الثالث: فضائل الإخبات إلى الله عز وجل.................................. ٣٥٦

الرابع: علامات المخبتين.................................. ٣٥٨

الخامس: درجات الإخبات.................................. ٣٦٠

السادس: الأسباب المعينة على الإخبات لله عز وجل.................................. ٣٦٢

السابع: جزاء المخبتين.................................. ٣٦٤

١٧ - عبادة الذل لله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:.............................. ٣٦٦

الأول : فقه الذل لله عز وجل.................................. ٣٦٦

الثاني : منزلة الذل لله عز وجل.................................. ٣٧١

الثالث : أنواع الذل لله عز وجل.................................. ٣٧٤

الرابع : الوسائل المعينة على الذل لله عز وجل.................................. ٣٧٥

الخامس : علامات الذل لله عز وجل.................................. ٣٧٧

السادس :ثمرات الذل لله عز وجل.................................. ٣٨٠

الموضوع	الصفحة

١٨ - عبادة الاستعانة بالله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:........................ ٣٨٢

الأول: فقه الاستعانة بالله جل جلاله........................ ٣٨٢

الثاني: منزلة الاستعانة بالله جل جلاله........................ ٣٨٨

الثالث: أنواع الاستعانة........................ ٣٩٠

الرابع: الأسباب المعينة على الاستعانة بالله عز وجل........................ ٣٩٢

الخامس: أقسام الناس في الاستعانة........................ ٣٩٤

السادس: جزاء أهل العبادة والاستعانة بالله جل........................ ٣٩٧

١٩ - عبادة الاستغاثة بالله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:........................ ٤٠٠

الأول: فقه الاستغاثة بالله عز وجل........................ ٤٠٠

الثاني: منزلة الاستغاثة بالله عز وجل........................ ٤٠٤

الثالث: أنواع الاستغاثة........................ ٤٠٧

الرابع: الفرق بين الاستغاثة والاستعانة........................ ٤٠٨

الخامس: فضائل الاستغاثة بالله عز وجل........................ ٤١١

السادس: الأسباب المعينة على الاستغاثة بالله عز وجل........................ ٤١٣

٢٠ - عبادة الافتقار إلى الله ﷻ: وتشتمل على ما يلي:........................ ٤١٦

الأول: فقه الافتقار إلى الله ﷻ........................ ٤١٦

الموضوع	الصفحة

الثاني: منزلة الافتقار إلى الله ﷻ.. ٤٢١

الثالث: أنواع الافتقار.. ٤٢٣

الرابع:درجات الافتقار إلى الله ﷻ.. ٤٢٧

الخامس: علامات الافتقار إلى الله ﷻ.. ٤٢٩

السادس: ثمرات الافتقار إلى الله ﷻ.. ٤٣٢

٢١ - عبادة التسليم إلى الله ﷻ: وتشتمل على ما يلي:.. ٤٣٦

الأول: فقه التسليم لله ﷻ.. ٤٣٦

الثاني: منزلة التسليم لله ﷻ.. ٤٤٢

الثالث: فضائل التسليم لله ﷻ.. ٤٤٩

الرابع: علامات التسليم لله ﷻ.. ٤٥٠

الخامس: تفاوت الناس في التسليم لله ﷻ.. ٤٥١

السادس: الأسباب المعينة على التسليم لله ﷻ.. ٤٥٣

٢٢ - عبادة القنوت لله ﷻ: وتشتمل على ما يلي:.. ٤٥٦

الأول :فقه القنوت لله ﷻ.. ٤٥٦

الثاني : منزلة القنوت لله ﷻ.. ٤٦٠

الثالث : أنواع القنوت.. ٤٦٢

الموضوع	الصفحة
الرابع : أعظم الخلق قنوتا لله ﷻ	٤٦٤
الخامس : الأسباب المعينة على القنوت لله ﷻ	٤٦٥
السادس : ثمرات القنوت لله ﷻ	٤٦٧
٢٣ - عبادة الخشوع لله ﷻ: وتشتمل على ما يلي:	٤٧٠
الأول: فقه الخشوع لله	٤٧٠
الثاني: منزلة الخشوع لله ﷻ	٤٧٤
الثالث: فضائل الخشوع لله ﷻ	٤٧٦
الرابع: أنواع الخشوع لله ﷻ	٤٧٨
الخامس: علامات صدق الخشوع لله ﷻ	٤٨٠
السادس: أركان الخشوع لله في الصلاة	٤٨١
السابع: درجات الخشوع لله ﷻ	٤٨٤
الثامن:تفاوت الناس في الخشوع لله ﷻ	٤٨٥
التاسع: الأسباب المعينة على الخشوع لله في الصلاة	٤٨٧
٢٤ - عبادة التواضع لله ﷻ : وتشتمل على ما يلي:	٤٩٠
الأول : فقه التواضع لله ﷻ	٤٩٠
الثاني : فضائل التواضع لله ﷻ	٤٩٤

الموضوع	الصفحة

الثالث : درجات التواضع ٤٩٦

الرابع : علامات أهل التواضع ٤٩٨

الخامس : الأسباب المعينة على التواضع لله ﷻ ٥٠٠

السادس : جزاء أهل التواضع لله ﷻ ٥٠٢

السابع : عقوبات أهل الكبر والاستكبار ٥٠٣

٢٥ - عبادة مراقبة الله ﷻ: وتشتمل على ما يلي: ٥٠٦

الأول: فقه مراقبة الله ﷻ ٥٠٦

الثاني: منزلة مراقبة الله ﷻ ٥٠٩

الثالث: فضائل مراقبة الله ﷻ ٥١٢

الرابع: درجات المراقبة. ٥١٦

الخامس: تفاوت الناس في المراقبة. ٥١٩

السادس: علامات صدق المراقبة ٥٢٠

السابع: الأسباب المعينة على صدق المراقبة ٥٢١

٢٦ - عبادة خشية الله جل جلاله: وتشتمل على ما يلي: ٥٢٤

الأول: فقه خشية الله عز وجل. ٥٢٤

الثاني: منزلة خشية الله عز وجل. ٥٢٩

الموضوع	الصفحة

الثالث: فضائل خشية الله عز وجل. ٥٣٣

الرابع: الأسباب المعينة على خشية الله عز وجل. ٥٣٥

الخامس: ثمرات خشية الله عز وجل.. ٥٣٧

٢٧ - عبادة الزهد: وتشتمل على ما يلي:.. ٥٤٠

الأول: فقه الزهد. ٥٤٠

الثاني: أقسام الزهد. ٥٤٧

الثالث: فضائل الزهد. ٥٥٠

الرابع: الأسباب المعينة على الزهد. ٥٥٤

الخامس: علامات أهل الزهد. ٥٥٨

السادس: مداخل الشيطان على أهل الزهد.. ٥٦٠

٢٨ - عبادة الورع: وتشتمل على ما يلي:.. ٥٦٢

الأول: فقه الورع.. ٥٦٢

الثاني: منزلة الورع.. ٥٦٦

الثالث: درجات الورع.. ٥٦٧

الرابع: أقسام الورع.. ٥٦٨

الخامس: مراتب الورع. ٥٧٠

الموضوع	الصفحة
السادس: اختلاف الناس في الورع	٥٧٢
السابع: علامات صدق الورع.	٥٧٣
الثامن: الأسباب المعينة على الورع.	٥٧٥
التاسع: ثمرات الورع	٥٧٧
٢٩ - عبادة اليقين: وتشتمل على ما يلي:	٥٨٠
الأوَّل: فقه اليقين	٥٨٠
الثَّاني: فضائل اليقين	٥٨٤
الثَّالث: أنواع اليقين	٥٨٦
الرَّابع: مراتب اليقين	٥٨٧
الخامس: تفاوت النَّاس في اليقين	٥٨٩
السَّادس: علامات أهل اليقين	٥٩١
السَّابع: علامات صدق اليقين	٥٩٤
الثَّامن: ثمرات اليقين	٥٩٦
التاسع: الأسباب المُعِينة على تحصيل اليقين	٥٩٧
٣٠ - عبادة الإنابة إلى الله ﷻ: وتشتمل على ما يلي:	٦٠٠
الأول: فقه الإنابة إلى الله ﷻ.	٦٠٠

الموضوع	الصفحة

الثاني : منزلة الإنابة ٦٠٥

الثالث : أنواع الإنابة ٦٠٧

الرابع : درجات الإنابة ٦٠٨

الخامس : علامات الإنابة ٦١٠

السادس : الأسباب المعينة على الإنابة ٦١٢

السابع : ثمرات الإنابة.. ٦١٤

٣١- عبادة الاستغناء بالله عز وجل: وتشتمل على ما يلي:........................ ٦١٦

الأول : غنى الله عز وجل. ٦١٦

الثاني : فقه الاستغناء بالله عز وجل. ٦١٩

الثالث : حقيقة الاستغناء بالله عز وجل. ٦٢٢

الرابع : علامات الاستغناء بالله عز وجل. ٦٢٥

الخامس : الأسباب المعينة على تعلق القلب بالله وحده.............. ٦٢٩

٣٢- عبادة التبتل إلى الله ﷻ: وتشتمل على ما يلي:............................ ٦٣٤

الأول: فقه التبتل إلى الله ﷻ.. ٦٣٤

الثاني: منزلة التبتل... ٦٣٩

الثالث: أنواع التبتل. ٦٤١

الموضوع	الصفحة

الرابع: خطوات التبتل المشروع. ٦٤٤

الخامس: درجات التبتل. ٦٤٦

السادس: الأسباب المعينة على تحصيل التبتل........................ ٦٤٧

السابع: ثمرات التبتل........................ ٦٥١

٣٣- عبادة التفويض إلى الله ﷻ: وتشتمل على ما يلي:........................ ٦٥٤

الأول: فقه التفويض إلى الله ﷻ........................ ٦٥٤

الثاني: منزلة التفويض. ٦٦٠

الثالث: درجات التفويض. ٦٦٢

الرابع: الأسباب المعينة على التفويض........................ ٦٦٤

٣٤- عبادة السكينة: وتشتمل على ما يلي:........................ ٦٦٨

الأول: فقه السكينة........................ ٦٦٨

الثاني: فضائل السكينة........................ ٦٧٢

الثالث: أقسام السكينة........................ ٦٧٤

الرابع: درجات السكينة........................ ٦٧٨

الخامس: ثمرات السكينة........................ ٦٧٩

الموضوع **الصفحة**

٣٥- عبادة الرحمة: وتشتمل على ما يلي:.. ٦٨٢
الأول: فقه رحمة الرب ﷻ.. ٦٨٢
الثاني: فقه رحمة الخلق. ٦٨٦
الثالث: أقسام الرحمة. ٦٩٠
الرابع: أنواع الرحمة. ٦٩٦
الخامس: الأسباب المعينة على رحمة الخلق... ٦٩٨
السادس: ثمرات الرحمة... ٧٠٠
فهرس الموضوعات.. ٧٠٣